

تساريج ماينر خط الاستواء المصيري

من فخرها الى ضاعها
من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٨٩ م

الجزء الأول

الأمير

عمر طوسون

سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م

تسارنج ملائن خط الاستواء المصير

من فخرها الى ضاعرها

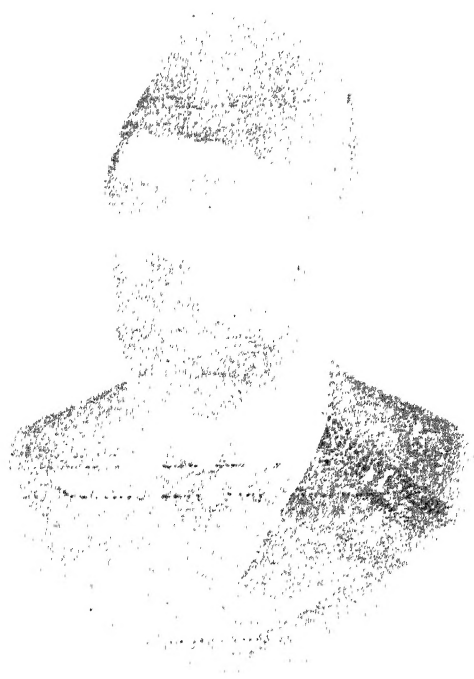
من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٨٩ م

الجزء الأول

للأمر

عمر طوسون

سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م



الحمد لله رب العالمين

كلمة شكر واجبة

لأرب أن الفكرة التي اختلجت في نفس الخديو اسماعيل والتي دفعته الى فتح مديرية خط الاستواء وضمها إلى السودان أو بالأحرى الى الأملاك المصرية ، فكرة جد صائبة إذ بها تم لمصر الاستيلاء على نهر النيل من منبعه الى مصبه ، وأصبح في قبضتها تلك البحيرات العظمى التي يخرج منها هذا النهر السعيد الذي عليه مدار حياة البلاد .

ولو أنه عهد بهذا الفتح الى قائد مصرى لكان ذلك أدعى الى مضاعفة إعجابنا وثنائنا على هذه الفكرة ولكن لعل للسياسة دخلا فيما حصل ، وعلى أى حال فإنه فكر وعمل ونجح فهو حري بالثناء العميم والتقدير العظيم ، رحمه الله وطيب في الجنة مشواه

عمر طوسون

اهداء الكتاب

هذا كتاب وضعناه عن مديرية خط الاستواء ، وقد سبق لنا ان قلنا فيما كتبناه عن هذه المديرية مرارا انها الزم لمصر من مدينة الاسكندرية . وسيوضح صدق هذا القول لمن يقرءون هذا الكتاب بل سيعرفون منه أكثر من ذلك أن هذه المديرية هي جنة افريقية ، وأنها الفردوس الارضى المفقود الذى فقدته مصر بعد أن استحوذت عليه وبذلت فى سبيله بدر الاموال ومهج الرجال .

وكما حفت جنة الآخرة بالمكاره فقد حفت هذه الجنة الارضية بها فأحيطت بالمياه الآجنة التى تكمن فى قاعها جرائم الأوبئة ، ويفرخ فى سمائها الذباب الفتاك بالناس والحيوان ، وقد أحاطها بنوها بالظي والرماح بعد أن سقوها السم الزعاف ، وجعلوا من هذه الأسنة المشرعة ومن أجسامهم المتراسة سياجا عليها . ومع كل هذا فقد شقت مصر طريقها اليها بمجنودها المصريين والسودانيين الأبطال ، ذوى القوة والبأس والصيال ، فاستهدفوا جميعا لهذه الأوبئة الوبيلة ، وتلقوا بصدورهم طعنات هذه الأسنة المسمومة المصقولة ، حتى اذا فتحها الله عليهم ورسخت أقدامهم فيها ، وعملت أيديهم فى تطهير جوها ، وتمدين أهلها ، أخرجتهم منها السياسة الماكرة وأبعدتهم عنها أبالستها .

واذا كانت العادة قد جرت باهداء المؤلفين كتبهم وكان لا بد لنا من اهداء هذا الكتاب ، فاتنا نهديه الى من يكون لنا فى اهدائه اليهم الامل الوطيد فى استرجاع هذا الفردوس الارضى المفقود ، ألا وهم أبناء وادى النيل عامة وشباب مصر والسودان خاصة . فهؤلاء الشبان الأبرار الأطهار هم معقد الأمل ومناطق الرجاء ، وهم هم الجديرون منا حقاً بهذا الهداء ، وفى همهم وحرارة دمائهم وغيرتهم الوطنية الحلقة ما يكفل لمصر تحقيق كل آمالها إن شاء الله ، وإن طاول الزمان وماطلت الأيام ، وما ذلك على الله بعزيز والسلام

عمر طوسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ألقى حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا في ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٨ م أثناء زيارة قام بها لمدينة المنصورة عاصمة مديرية الدقهلية ، وكان في هذا الحين رئيس مجلس الوزراء ، خطبة سياسية استعرض فيها حالة البلاد وشؤونها المختلفة . فقال في الفقرة الخاصة بمشاريع الري الكبرى ان جانباً من منطقة السدود والمنطقة التي سيقام فيها خزان بحيرة البرت نيازنا واقعان في أرض بريطانية . ولما كان هذا القول غير مطابق للواقع أرسلنا اليه بتاريخ ١٤ نوفمبر من تلك السنة الخطاب الآتي الذي نشرته جريدتا الاهرام والسياسة في ١٦ من هذا الشهر ونشره المقطم وكوكب الشرق في ١٧ و ١٨ من الشهر المذكور :-

حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء .

اطلعنا على خطبة دولتكم بالمنصورة ولقت نظرنا منها قولكم عند ذكر خزان جبل الأولياء : (ولقد درست وزارة الاشغال هذا الموضوع من مدة بعيدة واسترشدت في درسها بكبار الفنيين حتى انتهت الى وضع برنامج شامل لتحقيق مطالب الري تضمن اقامة خزان بمنطقة جبل الأولياء في السودان وشق قناة لتحويل مجرى النيل من منطقة السدود التي يضيع فيها كثير من المياه

في غير جدوى . وهذه المنطقة يقع بعضها في السودان وبعضها في الأملاك البريطانية ثم إقامة خزان بحيرة البرت الواقعة في الأملاك البريطانية) — الى أن قلم :

(ولو سألنا بنظرية القائمين بوجوب وقف أعمالنا على النيل الخارج عن الحدود المصرية لتمشى حكم هذا التعطيل ليس على جبل الأولياء فقط لوقوعه في السودان الذي لا نكر سيادتنا عليه بل تتناول بالأولى مشروعات أعالي النيل بما فيها منطقة السدود التي تقدمت وزارة الاشغال للقيام بالأعمال فيها بطلب مبلغ مليون ومائة الف جنيه في سنة ١٩٢٥ وأقرها مجلس الوزراء على هذا الاعتماد كما أقره البرلمان في سنة ١٩٢٦ في حين يعلم الجميع أن من هذه المنطقة ما يقع في السودان المصري ومنها ما يقع في الأملاك البريطانية) .

هاتان هما النقطتان اللتان لفتتا نظرنا بنوع خاص في خطبة دولتكم . ذلك أن منطقة السدود المذكورة جميعها داخل ضمن حدود السودان المصري القديم حسب ما كان عليه قبل الثورة المصرية . وكذلك مخرج النيل من بحيرة البرت نيازرا المراد عمل السد فيه لجعل تلك البحيرة خزاناً هو أيضاً جزء من مديرية خط الاستواء المصرية ظل محكوماً بمصر حتى آخر عهد أمين باشا وهو آخر مدير لتلك المديرية السودانية المصرية الى نهاية الحكم المصري التعلل للسودان .

وقد شمل الحكم المصري جزءاً من شواطئ هذه البحيرة وأقام فيه المعقل العسكرية التي بقيت حتى شاهدها استألى في سياحته المشهورة عندما توجه الى هذه الجهة لتخليص أمين باشا ظاهراً ولحقو الآثار الباقية لمصر بتلك المنطقة في الحقيقة . ثم توجه الكابتن لوجارد الى هناك واستخدم الجنود المصرية

المتروكة فيها باسم الشركة البريطانية الشرقية الافريقية واستولى على أوغندة والقسم الجنوبي من مديرية خط الاستواء . وبسطت الحكومة البريطانية حمايتها على هذه البلاد ثم عقدت بعد ذلك مع مصر معاهدة سنة ١٨٩٩ م .

ولو احترمت هذه المعاهدة كما تدعى لكان أول واجب عليها ارجاع هذه البلاد وجعلها تحت ادارة حكومة السودان حيث ان هذه المعاهدة تشمل عموم الأراضى التى تكون منها السودان المصرى القديم كما كان عليه قبل الثورة المهدية ولكنها لم تفعل هذا الواجب ولم ترعه فى تطبيق هذه المعاهدة . وهذا لا يجعلنا نعتبر عمالها الذى استندت فيه الى القوة وحدها عملاً شرعياً فان إنجلترا التى أخرجت مارشان من فاشودة بحجة أنها جزء من السودان المصرى ما كان ينبغى لها بعد ذلك أن تسلم جزءاً منه لنفسها . وهذه الحجة لا تترال الى الآن باقية . واننا كتبنا الى دولتكم هذا محافظة على حقوق مصر وبياناً للحقيقة .

وتفضلوا دولتكم بقبول مزيد سلامنا

عمر طوسون

١٩٢٨ / ١١ / ١٤

* * *

واننا لعلى يقين بأن حضرة صاحب الدولة محمد باشا محمود خدع فى حسن نية فى أثناء المحادثات التى دارت بينه وبين الحكومة البريطانية عن المسائل الخاصة بمياه النيل لأنه لما كانت انكلترا تعتبر هذه الأراضى أرضاً بريطانية وتنعتها بهذا النعت دائماً كان من الجلى أن هذا هو الذى لابد أن يسكون قد حدث مع دولته وأنه لم يفه بكلماته هذه إلا تحت سيطرة تأثره بأن ماسمعه يوافق الحقيقة .

فهو من هذه الوجهة معذور إلا أنه فى رأينا ليس معذوراً كل العذر . ذلك

لأنه كان عليه قبل أن يرسل هذا القول وهو رئيس الحكومة أن يتحرنى
إذ أنه من الواضح الجلى أن صدوره منه يترتب عليه ما لا يترتب على صدوره
من شخص آخر .

وبما أنه لا بد أن يكون كثير من المصريين غيره واقعين أيضاً في هذا
الامر فقد رأينا من المفيد عمل تاريخ لهذه المديرية التى هى أهم مديريات
السودان القديم لمصر والتي تولى فتحها وحكمها حكمداون من قبل الحكومة
المصرية وذلك لكي يعرف أهل وطننا الى أى حد وصل امتداد ملكهم
في السودان وأى الأراضي سلخت منه .

وقد كانت هذه المديرية المصرية آخر المديريات التي ظلت تحت الحكم
المصرى اثناء الثورة المهدية وكانت إنجلترا تعلم أهميتها وتعلم أن الذى يحكمها
يتحكم في حياة مصر كلها فسعت في أثناء الثورة المذكورة لابعاد الهيئة المصرية
الحاكمة عنها وابقاء الجنود المصريين النظاميين مع ذخائرهم وأسلحتهم فيها ربما
ترسل اليها رسولا من قبلها يتحد مع هؤلاء الجنود ويضمهم اليه فتوطد قدميها
في تلك الجهات بواسطة الجنود المصرية المتروكة هناك وعلى حساب مصر .

وهذا هو ما حصل فعلا . فقد تكونت شركة انكليزية أوعزت بها
الحكومة البريطانية سراً وهذه الشركة ألقت حملة تحت قيادة السائح استازلى
وتوجهت الى الجهة المذكورة وأحضرت منها الهيئة المصرية الحاكمة وتركت فيها
الجنود المصرية النظامية . ومن غفلة الحكومة المصرية في ذلك الوقت أنها دفعت
مبلغ عشرة آلاف جنيه مصرى على سبيل الاشتراك في نفقات
تلك الحملة وأمدتها بسبعين جندياً سودانياً بذخائرهم وأسلحتهم أخذوا من
الأورط السودانية بالجيش المصرى . وهؤلاء الجنود لم يعد منهم إلا عشرة فقط

أما الباقون فقد أيّدوا في هذه الحملة المشؤمة التي كانت لغیر مصلحة البلاد .

وبعد عودة استانلى ألفت شركة أخرى بإيعاز الحكومة الانكليزية أيضاً تدعى الشركة البريطانية الشرقية الافريقية British East African Co., Ltd., وأرسلت هذه الشركة كابتن لوجارد Captain Lugard مع بعض الضباط السودانيين الذين أحضرهم استانلى Stanley مع أمين باشا من تلك المديرية ، ومن المحزن أن ذلك كان بعلم نظارة الجهادية (وزارة الحرية) المصرية في ذلك الوقت ومساعدتها .

وتوجه الكابتن لوجارد مع هؤلاء الضباط الى مديرية خط الاستواء فوجدوا الجنود المصرية المتروكة هناك ورئيسهم أمير الألاى سليم بك مطر عند شاطئ بحيرة البرت نيازرا . فاتفق معهم على أن يدخلوا في خدمة الشركة السالفة ويحتلوا أوغندة ومديرية خط الاستواء . وقد حصل ذلك فعلا .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر منقبة حسنة لهؤلاء الجنود تقابل منا ومن المصريين جميعاً بشكرهم وعاطر الثناء عليهم . ذلك أنهم - عليهم رحمة الله الواسعة - اشترطوا قبل دخولهم في هذه الشركة أن تعرض شروط خدمتهم فيها على الحكومة المصرية لتوافق عليها كما أنهم كانوا يجعلون العلم المصرى يخفق دائماً فوق معسكرهم . فاعتبار أنفسهم جنودها الى هذا الحين وعدم قبولهم العمل في هذه الشركة بدون أمر حكومتهم وموافقتها مما يدل دلالة واضحة على عظيم أمانتهم على الشرف العسكرى .

ولكن ألا يدل عمل هؤلاء الجنود البررة على أنهم كانوا ينتظرون من

حكومتهم ألا توافق على خدمتهم فى تلك الشركة . غير أن الذى كان مع الاسف والحسرة غير ما كانوا ينتظرون .

وهكذا استولت بريطانيا على مديرية خط الاستواء وضمتها الى أوغنده التى كانت تابعة لمصر أيضاً وجعلت منها وحدة وضعت عليها حمايتها . وهذه المديرية هى أهم المديريات التى لاغنى لمصر عنها لكونها حاكمية على البحيرات الاستوائية الكبيرة التى يخرج منها النيل والتى ستبنى عندها خزانات المياه التى عليها مدار حياة مصر .

واليك تاريخ فتح مصر لهذه المديرية وتاريخ حكمادريها من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٨٩ م ، أى من فتحها الى اغتصاب الانكليز لها .



السير صموئيل بيكر باشا

حكمدارية صمويل بيكر باشا

من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٧٣ م

تمهيد

في سنة ١٨٦٨ م كان اقصى نقطة وصل اليها الحكم المصرى فى جنوب السودان هى « فاشودة » . أما الاقاليم الواقعة جنوب هذه الناحية فكانت الى بحيرات خط الاستواء العظمى التى يخرج منها نهر النيل ، خارجة عن هذا الحكم ويتردد عليها الرواد والنحاسون . وكان من بين هؤلاء الرواد الذين ترددوا على هذه النواحي الرحاله الانكليزى المسمى سير صمويل بيكر كما كان يتردد عليها فى كثير من الاوقات بعض عصابات مسلحة يستخدمها النحاسون وتجار العاج الذين كانوا يجوبون ارجاءها ويبشون القزع والجزع أينما ساروا أو حلوا ابتغاء الحصول على متاجرهم البشرية وغيرها .

ومن السهولة بمكان عظيم ان يتصور الانسان كيف يكون حال البلاد الحالية من أى نوع من أنواع الحكومات المتمدنية وما ينشأ عن خلوها من هذه الحكومات من اقفار القرى وانقراض السكان بسبب سفك كثير من الدماء وانتشار القوضى وحدوث الخراب الى غير ذلك مما كان حاصله بالفعل فى هذه البقاع .

وكانت هذه المنطقة الشاسعة المترامية الاطراف عامرة بمدد وافر من

السكان وكان يحتاج هذا العدد الى حكومة منظمة لتحميه شر النخاسة والطوارئ
الاخري فيستطيع أن يأخذ حظه في الزيادة والنماء ويستغل الثروة العظيمة
التي في أرضه وينمها .

وكان المغفور له الخديو اسماعيل يريد أن يضمن لمصر امتلاك منابع النيل
فأمر مراعاة للانسانية والسياسة واقتداء بجده العظيم محمد على باشا بتجهيز حملة
لضم الاراضى الواقعة في جنوب فاشودة لغاية البحيرات الكبرى الى أملاك
الحكومة المصرية لكي يقضى على الحالة الهمجية التي في تلك الجهات وليكفل
لمصر امتياز مراقبة منابع النيل الذي تستمد منه ثروتها وعليه مدار حياتها .

وفعلا تقرر اعداد الحملة وكان اذن لابد من إيجاد رئيس لها . واتفق
في أوائل سنة ١٨٦٩ م أن سير صمويل بيكر الآف الذكر كان في مصر
بمعية البرنس دوغال Prince de Galles ولى عهد الملكة فيكتوريا ونجلها الذي
كان يريد القيام برحلة الى الوجه القبلى . وكان سير صمويل هذا قد قام
حديثاً بزيارة في تلك النواحي النائية واستكشف بحيرة البيرت نيازرا فوق اختيار
الخديو عليه وقد دارت محادثات في هذا الشأن بينه وبين نوبار باشا أولاً
ثم مع الخديو اشترك فيها ولى عهد انجلترا المذكور الذي كان يؤيد تأليف
هذه الحملة ويشجع على ارسالها أثناء تلك المحادثات .

وقد تم الاتفاق بين الحكومة وسير صمويل بيكر وحرر عقد بخدمته
مدة أربع سنوات براتب سنوى قدره عشرة آلاف جنيه انكليزى ومنح سلطة
مطلقة تحول له حتى الأمر بالاعدام . واليك ترجمة الأمر العالى الذى صدر
بتعيينه رئيساً للحملة المصرية :

نحن اسماعيل خديو مصر قد أمرنا بما هو آت :

نظراً للحالة الممجية السائدة بين القبائل القاطنة في حوض نهر النيل ،
ونظراً لأن النواحي المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا أمن ،
ولأن شرائع الانسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القامنين بها
المنشرين بكثرة في تلك النواحي ،
ولأن تأسيس تجارة شرعية في النواحي المشار اليها يعتبر خطوة واسعة في
سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة في خط
الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على إقامة حكومة ثابتة ،

أمرنا بما هو آت :

تؤلف حملة لاختضاع النواحي الواقعة في جنوب غوندوكورو لسلطتنا ،
ولأبطال النخاسة وإيجاد تجارة منظمة ؟
ولفتح طرق الملاحة مع البحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء ،
ولإقامة خط من النقاط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن
بعض مسافة ثلاثة أيام للماشي في أنحاء أفريقية الوسطى ابتداء من غوندوكورو .
وقد فوضنا رئاسة هذه الحملة إلى سير صمويل بيكر لمدة أربع سنوات
ابتداء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ وقلدناه حقوق السلطة التامة المطلقة حتى
السلطة المتعلقة بحياة وإعدام كل من له علاقة بالحملة .
وقلدناه كذلك نفس هذه السلطة على كل النواحي التابعة لحوض النيل
جنوب غوندوكورو .

وقد سميت هذه الاراضى التى فتحتها مصر وضممتها إلى أملاكها « مديرية
خط الاستواء » وكانت حدودها كما يأتى :

فى الشمال	مصب نهر السوبات .
وفى الجنوب	أوغنده التى بسطت مصر نفوذها عليها .
وفى الشرق	الجيشة .
وفى الغرب	مديرية بحر الغزال .

والحد الجنوبي هو أهم هذه الحدود وهو الذى ينبغى أن تعيره مصر
اهتمامها عند البحث فى حقوقها بهذه المديرية .

وقد بسطت مصر نفوذها أيضاً على بعض البلاد المجاورة لهذه المديرية
مثل أوغنده السالفة الذكر والأوونىورو ثم جاءت انجلترا واستولت كذلك
على هاتين المملكتين وضمت إلى الأولى مديرية خط الاستواء بعد اقتطاعها
من الاملاك المصرية .

وكل هذه البلاد لم تفتحها مصر دفعة واحدة بل بالتدريج وفى عهود
حكمدارين متعددين كما سنين ذلك فيما بعد :

سنة ١٨٦٩ م

اعداد الحملة على هذه المديرية

بعد أن تم تعيين سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker حكاماً لمديرية
سخط الاستواء أخذ يعمل بجد ونشاط في ترتيب الحملة على هذه المديرية واختيار
المساعدين له من ذوى الكفايات إذ كان يعلم حق العلم أن نجاح مثل هذا العمل
يتوقف على هذين الأمرين .

وكان الوقت لديه قصيراً بحيث لا ينبغي التفريط في ذرة منه لأن السنوات
الأربع المحددة لخدمته كما سىرى فيما بعد ربما لا تنقضى بالقيام بعمل كهذا متشعب
الأطراف لا سيما اذا راعينا ما تستلزمه مثل هذه الحملة من الرحلات الطويلة
وما تحتاج اليه من الزمن فى قطع المسافات الشاسعة عدا ما يطرأ فى أثناء ذلك
من العقبات .

ولما كان مفوضاً تفويضاً تاماً من الجنب الخديو فقد أمر بإنشاء باخرة
بدولابن قوتها ٣٢ حصاناً بخاريًا وحمولتها ٢٥١ طنًا ، وأخرى برفاسين ذوى ضغط
شديد وقوتها ٢٠ حصاناً بخاريًا وحمولتها ١٠٨ أطنان ، وثالثة أيضاً برفاسين ذوى
ضغط شديد وقوتها ١٠ أحصنة وحمولتها ٣٨ طنًا ، كما أمر بإنشاء مركبين من
الحديد طول الواحد ٣٠ قدمًا وعرضه ٩ أقدام وحمولته ١٠ أطنان . وأوصى
بعمل آلات بخارية لقطع الأخشاب ونشرها مع مرجل (قزان) وزن ٨٠٠ رطل
وكل ما ذكر كان يتحتم نقله من الاسكندرية الى غندوكورو أى

مسافة ٤٨٠٠ كيلو متر على ظهور الجمال وعلى متون السفن ومن بين ذلك مسافة بضع مئات من الأميال في فيافي بلاد النوبة .

وعندما تم تجهيز هذه البواخر سميت الأولى « الاسماعيليه » والثانية « الخديو » ، والثالثة « نياز » . أما الباخرة « الاسماعيليه » فجهزت بعد سنة سير صمويل بيكر أعني في غضون حكمدارية غوردون باشا Gordon Pasha وقد استعملت للقيام بالخدمة ما بين « غندوكورو » والخرطوم فكانت تقطع هذه المسافة في ظرف عشرة أيام . واشتركت فيما بعد مع أسطول الحكومة في الدفاع عن الخرطوم حينما حاصرها جيش الدراويش في سنة ١٨٨٤ م وأسره هؤلاء عندما استولوا على تلك المدينة . وعلى ظهر هذه الباخرة اجتاز المهدي النيل من أم درمان الى الخرطوم عند أول زيارة له لهذه المدينة بعد سقوطه في يده .

وتم تركيب الباخرة « الخديو » في عهد حكم سير صمويل بيكر عند كان يقوم برحلة في جهة الجنوب في اقليم الاونيورو Ounyoro وهي التي نقل في عودته من هذه الجهة الى الخرطوم وكان ذلك عند انتهاء مأموريته .

وبعد سير صمويل بيكر عاد غوردون باشا الى غندوكورو Gondokoro على ظهر الباخرة المذكورة ثم أمر بفكها وحملها الى « دوفيليه » Doufilé فو شلالات « فولا » Fola حيث أعيد تركيبها وخصصت للقيام بالخدمة في الز بين هذه النقطة وبحيرة البرت نياز وبداخل البحيرة نفسها لأن هذه الشلالات تعوق الملاحة مباشرة بين « غندوكورو » والبحيرة . وظلت هكذا تعمل هذه المنطقة حتى بعد سفر أمين باشا ثم خربها الدراويش عند استيلائهم على « دوفيليه » .

أما الباخرة « نيانزا » فأمر غوردون باشا بنقلها فوق شلالات فولو المذكورة وتركيبها هناك لتأدية نفس العمل الذى كانت تقوم به الباخرة « الخديو » فكان حظها فى النهاية كحظ هذه .

ولقد طاف جيسى باشا Gessi Pasha الطليانى أولا فى سنة ١٨٧٦ م بمركبى الحديد وميسون بك Mason Bey الامريكى ثانياً فى سنة ١٨٧٧ م بالباخرة « نيانزا » حول شواطئ بحيرة نيانزا باسم الحكومة المصرية فكانا هما السابقين لكل انسان فى التطواف حول تلك الشواطئ .

وكانت جماعة الانكليز الذين صحبوا سير صمويل بيكر تتألف من الليدى بيكر وزوجه ومن الملازم جوليان ألين بيكر Julien Alleyne Baker ابن أخيه من رجال البحرية الملكية ومستر ادوين هجنبوثنام Edwin Higginbotham المهندس الملكى ومستر وود Wood السكرتير والطبيب جوزيف جيدج Joseph Gedge ومستر ماركوپولو Marcopolo رئيس مخازن الحملة ومترجمها ومستر ماك وليام Macwilliam رئيس مهندسى البواخر ومستر جارفيس Jarvis رئيس بنائى البواخر ومستر هوايتفيلد Whitfield ومستر سامسون Samson وهيتشمان Hitchman ومستر رمسول Ramsall من بنائى السفن والمراجل (القزانات) وغيرهم . وكان مع هذا الجمع اثنتان من الخدم .

وكان من المقرر أن تتألف القوة العسكرية التى سترافق هذه الحملة من ١٤٠٠ جندي من البيادة و ٢٥٠ من السوارى الباشبوزق وبطارتين من المدافع وأن تتجزأ البيادة الى أورطتين احدهما مصرية والأخرى سودانية وأن يكون رجالهما من خيرة الرجال . وكان فى الأورطة السودانية ضباط وجنود خدموا

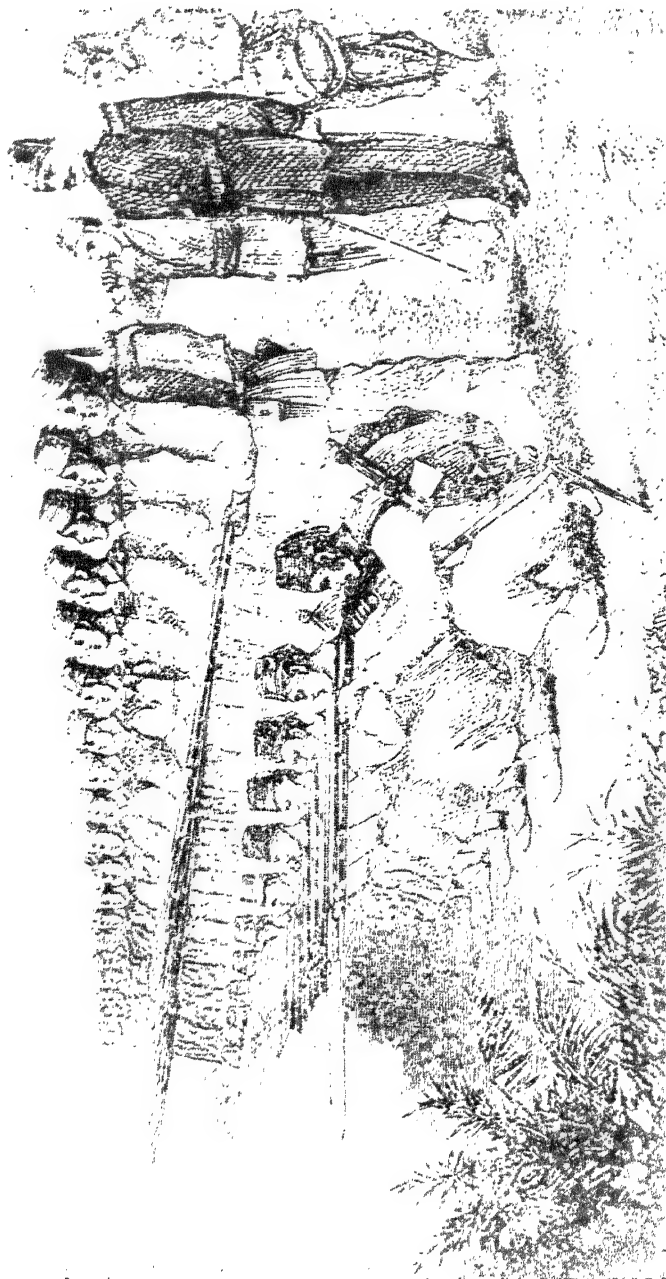
بعض سنوات في بلاد المكسيك في الجيش الفرنسى تحت قيادة المارشال بازين Bazaine - راجع كتابنا « بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك » .

ولما كانت الحالة تستدعى القيام بأعمال في مناطق لا تصلح إلا قليلا للسوارى رُئى أخيراً ترك ال ٢٥٠ من السوارى في الخرطوم .

وكانت المدافع من النوع الجبلى ذى الماسورة الحلزونية (ششخانة) وهى مصنوعة من الشبه (البرنز) ووزن ماسورة المدفع ٢٣٠ رطلا ووزن القذيفة ٨١/٤ من الارطال . وكانت دار صناعة وولويتش L'arsenal de Woolwich تبرعت لهذه الحملة بمائتى صاروخ من هال Hale وزن الواحد رطلان ، وبخمسین بندقية من طراز سنيدر مع خمسين ألف ظرف للبنادق المذكورة .

وكان يجب أن يتجمع الجنود ومعهم الذخيرة في الخرطوم وينتظرون فيها مقدم سير صمويل بيكر . وكانت جنود هذه الحملة تحت إمرة أمير الألاى رءوف بك الذى ترقى فيما بعد الى رتبة باشا وتعين حكاماً عاماً للسودان ومعه فيها البكباشية احمد رفيق افندى وعبد القادر افندى والطيب عبد الله افندى . والأول من عنصر تركى حضر حرب القرم مع النجدة المصرية - راجع كتابنا « الجيش المصرى في حرب القرم » . وكان في هذه الحملة يقود الأورطة المصرية وقتل في أثناءها . والثانى مصرى الجنس وألقيت اليه مقاليد قيادة حرس سير صمويل بيكر الخصوصى وقد فاض روحه في غضون حرب الانكايز مع العراقيين في سنة ١٨٨٢ م . أما الثالث فكان سودانياً وألقى على عاتقه قيادة الأورطة السودانية .

معرض صور وصول بيكر باشا ورفيقه خانم قاندهم الكباشي عبد القادر افندي



قيام الحملة

قرر سير صمويل بيكر أن تسافر الحملة منقسمة ثلاثة أقسام . وكان قد تقرر فيما سلف أن تبارح ست بواخر من القاهرة في شهر يونيه . وقوات هذه البواخر تتراوح بين ٤٠ و ٨٠ حصانا بخاريا . كما كان مقرراً أن يسافر أيضاً في الوقت نفسه خمس عشرة سفينة شراعية وخمس عشرة زهنية . فتكون جملة ذلك ٣٦ مركباً تصعد النيل الى الخرطوم أعني تجتاز مسيرة ٢٨٣٠ كيلو متراً مقالة المهات والذخائر .

وكانت الأوامر قد أعطيت الى جعفر مظهر باشا حاكم السودان العام بأن يعد في الخرطوم في ميعاد معين ٢٥ مركباً شراعياً و ٣ بواخر وأن يهيئ في الوقت نفسه الجمال والخيول اللازمة للنقل براً بحيث يكون ذلك مجهزة عند قيام الحملة للسفر . وبهذه الكيفية عندما يصل الأسطول الذي سافر من مصر الى الخرطوم تكون قوة الحملة البحرية مؤلفة من ٩ بواخر و ٥٥ مركباً شراعياً متوسط حمولة كل منها ٥٠ طنناً .

وتولى مستر هجنوثام أمر تسيير النقلات في صحراء النوبة من كروسكو الى الخرطوم وفعلاً سلم سير صمويل بيكر لهذا الضابط البارع قطع البواخر وآلاتها مفكوكة ووضع تحت تصرفه المهندسين والسواقين الانكليز .

وكان يجب أن تبارح البواخر الست والأسطول الصغير مياه القاهرة في ١٠ يونيه حتى يتيسر لها أن تصعد شلالات وادى حلفا وقت ارتفاع مياه النيل عند الفيضان ، لكن نظراً لغياب الحديد في أوربا لم تقلع المراكب من مراسيها إلا في ٢٩ أغسطس . ولما وصلت الى الشلال الثاني كانت المياه قد

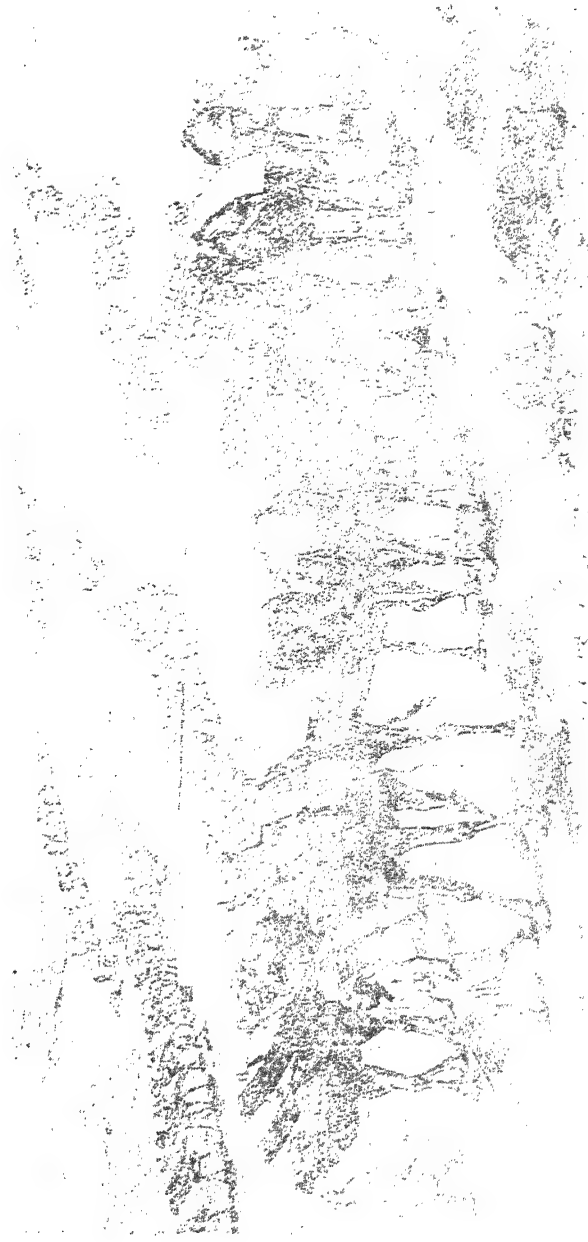
انخفضت فلم تتمكن من اجتياز المر وأمسى مرورها غير متيسر إلا في الفيضان القادم . وهكذا ذهب اثنا عشر شهراً هباء منثوراً ووجد سير صمويل نفسه وهو لم يزل في بادئ الأمر محروماً من هذه المعونة التي لا يمكن تقدير فائدتها .

ثم نشأ عن احتفالات فتح قناة السويس صعوبة أخرى جرت أيضاً الى تأخير لا مفر منه . ذلك أن الحديد بما هو معهود فيه من السخاء وكرم الضيافة قام باستعدادات هائلة من أجل هذه الاحتفالات وأمر بحجز كل مركب صالح للملاحة .

ووصل الى القاهرة قطار يجر ٤١ عربة بها أجزاء بواخر ومراجل وآلات وغير ذلك وأُنزل مشحونه في ١١ سفينة كبيرة بالأجرة فكان ذلك سبباً في أن سير صمويل يسكر لم يجد بعد مشقة عظيمة إلا باخرة قوتها ١٤٠ حصاناً بخارياً لتجر هذا الأسطول الصغير الى « كروسكو » حيث يجب أن يشرع في اختراق الصحراء . ولم يظفر سير صمويل بيبكر بهذه الباخرة إلا بعد مخاضة الحديد نفسه .

وقد أتيح له في نهاية الأمر أن يرى كلا من مستر هجنبوتم والطبيب جيدج مسافرين ومعهما المهندسون والسواقون الانكليز . وقطرت الباخرة « المنيا » سلسلة المراكب الطويلة هذه المكونة من ١١ سفينة وقاومت بقوتها عزم تيار النيل الشديد .

وكان لابد من حمل مجموعة الآلات الثقيلة هذه بما فيها باخرتان ومركبان من الحديد حمولة كل منهما ١٠ أطنان مسافة ٤٨٠٠ كيلو متر تقريباً منها نحو ٦٥٠ كيلو متراً في صحراء النوبة المحرقة .



قطار من الابل ينقل أجزاء السفن البخارية وغيرها في صحراء العظمور بين فرسكو واني حد
نقلا عن كتاب الاسماعيلية لسيير صمويل بيكر

وقد سافر القسم الأول بأحماله الثقيلة في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٦٩ م مع المراكب الشراعية ليصل مباشرة الى الخرطوم بعد صعود الشلالات . ولم يتجاسر سير صمويل أن يرسل في هذه الطريق المحفوفة بالخطار أية قطعة من قطع البواخر إذ أن ضياع أى مركب يكون محملاً بقطع من أجزاء البواخر كان ممكناً أن تكون عاقبته فقد كل أمل في نجاح الحملة .

وصول سير صمويل بيكر الى سواكن

واستقباله فيها

وتجمع ساق الجيش في ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ في السويس . ومن هذه المدينة أبحر سير صمويل بيكر مع ذلك الساق على ظهر المركب الحربى المصرى « سنار » وفي ظرف أربعة أيام ونصف يوم وصل الجميع إلى سواكن حيث ألقت المراكب مراسيها في أمان وسلام وأثرت بدون حدوث أى عارض محمولها من الخيول البالغ عددها ٢١ رأساً .

وكان في استقبال سير صمويل بيكر ممتاز بك محافظ سواكن وهو ضابط جركسى الأصل ذو ذكاء شديد انعقدت بينهما أواصر الصداقة بما أظهره له من العطف أثناء رحلته الأولى .

والتزم ساق الجيش أن يلبث في سواكن أسبوعاً تحت انتظار الجمال وبعد مبسرة ١٤ يوماً اجتاز الـ ٤٥٠ كيلو متراً في أرض صحراوية ووصل إلى بربر التي على النيل حيث وجد باخرة وزهية نقلته إلى الخرطوم في بحر ٣ أيام ومقدار هذه المسافة ٣٢٠ كيلو متراً . ولم تستغرق هذه الرحلة ابتداء من السويس سوى ٣٢ يوماً بما في ذلك مدة الوقوف عن السفر .

سنة ١٨٧٠ م

وصول الحملة إلى الخرطوم

وكان قد مضى ستة أشهر مذ أعطى سير صمويل بيكر الأوامر الخاصة بسفر السفن والمؤونة . ولشد ما كانت دهشته عندما علم أن تعليماته تركت نسياً منسياً وأنه وإن كانت عساكره قد صارت على قدم الاستعداد للسفر غير أنه لا توجد سفينة واحدة مجهزة لنقلها . وقال له جعفر مظهر باشا الحَكمدار العام أنه استحال عليه جمع السفن المطلوبة ولذلك اشترى له بيتاً لاعتقاده أنه سيظل في الخرطوم هذا العام فلا يسافر إلا في الفصل الثاني .

ولم يجتز أى مركب بخارى من تلك المراكب التى أبحرت من مصر ، الشلالات . وعدلت الخمسة عشر مركباً الكبيرة التى كان قد عول على أن يشحن فيها الجمل عن محاولة صعود الشلالات ورجعت إلى القاهرة . أما المراكب الصغيرة فهى التى اجتازتها ولا ينتظر أن تصل إلى الخرطوم قبل عدة شهور .

ووصل إلى الخرطوم القسم الأول الذى كان معه كل المهمات التى سبق أن أرسلها من القاهرة والذى كان سير صمويل فوض قيادته إلى شخص سورى .

وعلم سير صمويل بيكر أن مستر هجنبوثام وبصحبه الطبيب جيدج وجماعة الانجليز وكل العمال المصريين سلكوا طريق الصحراء ومعهم البواخر والآلات محملة على ظهور نحو ألف جمل ، وأن القسم الثالث بقيادة مستر

ماركوبولو وصل إلى سواكن بعد قيام ساق الجيش ببضعة أيام ، أى ان كافة الأوامر التي اصدرها سير صمويل ييكر إلى ضباطه تم تنفيذها في الوقت المناسب .

وأخيراً بعد إلحاح كثير وضياع زمن طويل شرع الحكمدار جعفر مظهر باشا في العمل غير أنه اشترى سفناً عتيقة ودفعت فيها ثمن مراكب جديدة ولم يفحصها مندوب الحكومة إلا فحصاً سطحياً عند التسليم .

تأهبها للسفر

وتم تجهيز الحملة بعد صعوبات كبرى لأن قلع المراكب نادرة الوجود وجبالها المصنوعة من الكتان تكاد تكون معدومة في الخرطوم إذ جرت العادة ألا يصنع في هذه المدينة إلا جبال رديئة يفتلونها من ألياف النخل وكان يطلب في كل شيء ثمن فادح .

وكان سير صمويل ييكر يخوض ويحضر العمال من مطاع الشمس إلى غروبها على العمل . وقد عاونه في ذلك معاونة جديّة الملائم ج . ا . ييكر J. A. Baker من البحرية الملكية بفضل خبرته التي كان قد اكتسبها من ممارسة مهنته . ودب روح جديد من النشاط في الخرطوم وأخذت مئات من العمال تشتغل واصطف أمام دار الحكومة عدة صفوف من الصواري والأشعة .

وفي بضعة أسابيع أعدت ٣٣ سفينة حمولة كل منها تتراوح بين ٥٠ و ٦٠ طناً وتم جلفطها وترميمها واستعدت لقطع المسافة التي بين الخرطوم وغندوكورو البالغة ٢٣٠٠ كيلو متر .

وتأهبت هذه العمارة للسفر بعد بذل مشاق هائلة في سبيل استئجار النواتية إذ أن جميع الملاحين تقريباً كانوا قد هاجروا من الخرطوم حتى لا يشتركوا في الحملة وكان ذلك بايعـاز من النخاسين الذين عملوا على أن يضعوا العقبات في سبيل الحملة فدفَعوا الأهالي لأن يقطعوا كل صلة معها إذ قام في رؤوسهم أنها لا تستطيع السفر بدون الملاحين . وتم الحصول على النواتية اللازمة بواسطة القوة وباستعمال طرق عنيفة غير أن هؤلاء كانوا من أردأ العناصر .

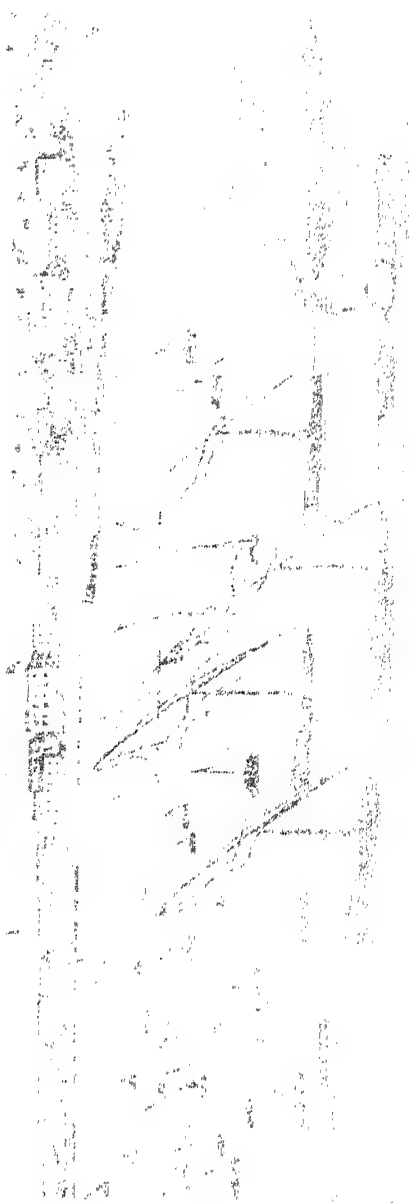
قيامها من الخرطوم

وتفخ في البوق في ٨ فبراير من سنة ١٨٧٠ م إندانا بالرحيل . واصطف على ضفة النهر أورطتان من الجنود ودوت أصوات المدافع في الفضاء كالمعتاد تحية للمسافرين .

واتخذ الأسطول المؤلف من باخرتين إحداهما قوة ٣٤ حصانا بخاريا والأخرى قوة ٣٢ حصانا بخاريا سبيله في اليم ومعه ٣١ مركبا شرايعا تحمل نحو ٨٠٠ جندي . وسار الجميع بنظام لا بأس به وما لبث تيار النيل الأزرق الشديد أن دفع بذلك الأسطول بعيداً عن الخرطوم وبعد أن دار حول ملتقى النيلين الأزرق والأبيض سار في هذا الأخير صعوداً .

وصولها إلى فاشوده

وبعد مسيرة ١٠٣ ساعات وصل الأسطول إلى فاشوده وهي محطة الحكومة في بلاد « الشلك » Shillouks وتقع على بعد ألف كيلو متر تقريباً من الخرطوم في الدرجة ٩ والدقيقة ٥٢ من العرض الشمالى .



نقشه نقشه قمار الخوصم ۸ فرار سنه ۱۸۷۰

وكان سير صمويل بيكر قد أخذ مؤونة شهر على متن الفلك وأتت الرياح حسبما تشتهي السفن فوصل الأسطول إلى ملتقى النيل بنهر سوبات في ١٦ فبراير في منتصف الساعة الواحدة ليلاً . وبعد أن بارح هذا الملتقى وصل إلى ملتقاها ببحر الزراف بعد أن قطع مسافة ١٤٢ كيلو متراً في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٧ فبراير المذكور وظل هناك في انتظار وصول باقي المراكب .

سفرها إلى الدببة

وما لاقتنه في ذلك من الصعاب

وفي ١٨ منه انضم مؤخر الأسطول إليه في الساعة العاشرة صباحاً وأقفلت البواخر في الساعة ١١ والدقيقة ٤٠ وأخذت تقاوم التيار بشدة وكان سحب المراكب متعسراً في النهر لظهور المنحنيات فيه فجأة أمام عين المسافر .

وكان بحر الزراف يسير بعرض من ٦٠ إلى ٧٠ متراً بين ضفاف عالية يابسة يبلغ متوسط عمق الماء عندها من ٣ إلى ٤ أمتار مجتازاً أرضاً تامة الاستواء ينتشر في أنحاءها مجموعة من الغابات الجافة في تلك الآونة يدل منظرها على أن مياه النيل كانت تغمرها في فصل الأمطار . وينساب تيار هذا البحر بين أعشاب هذه الغابات المشبكة الملتفة فيتفرع إلى عدة ترع تكون الملاحة فيها غاية في الصعوبة .

وفي هذا الوقت من السنة (٢٣ فبراير) تفيض المياه على حافتي النهر فكانت القرى المبعثرة في النواحي القصية مغمورة بالمياه وتكدت الحملة

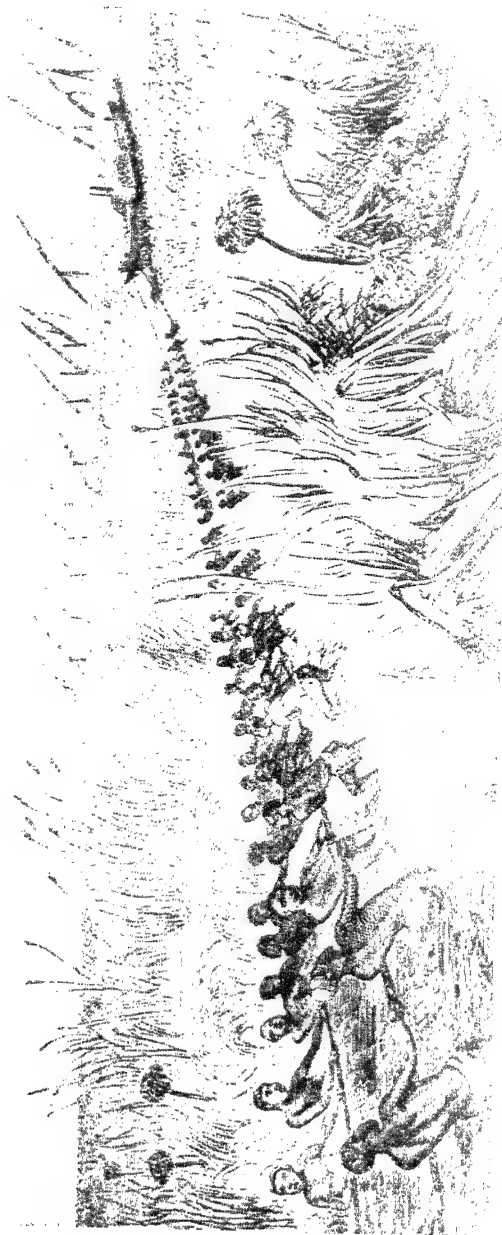
العناء الجم في سيرها إذ كان عليها أن تشق لها طريقا في وسط الأعشاب السابحة التي هي أشبه شيء بقصب السكر والتي يبلغ ارتفاعها من ٦ الى ١٠ أمتار وتمتد منها فروع يشتبك بعضها ببعض اشتباكا لا انفكاك له .

وهذه السدود كانت تعترض الأسطول تقريبا في كل خطوة وإذا سكنت الرياح وحرمته قوة الاندفاع التي كانت تهبها له عند هبوبها لا يستطيع أن يخترق له طريقا إلا بمجهود تكاد تفوق قدرة البشر .

وأخيرا هبت من الشمال في ٥ مارس ريح طيبة نفخت أوداج الأشرعة فأخذت السفن تسير سيرا حسنا ثم بعد أن سكنت هذه الريح برهة قصيرة عادت فنشطت وجعلت مواصلة السير ممكنة وصعدت الحملة النهر بعد أن قلست صعوبات هائلة . وعندما وصلت الى الارض الجافة التي يقال لها « الدبة » وجدت هناك الباخرة رقم ٨ وجميع الأسطول وبذا صار لدى سير صمويل ٣٤ سفينة بما في ذلك الباخرتان .

وهنا قامت الصعوبات الحقة لأن هذه المنطقة هي منطقة السدود وسائر نواحيها عبارة عن مستنقعات تغطيها نباتات مائية مرتفعة جدا والماء تحتها بعيد العمق . وبعد أن حاول سير صمويل ييكر على غير جدوى أن يفتح له طريقا ، وبعد جهود شتى بذلت للوصول الى هذه الغاية انقضى فيها شهر ، اقتنع أن دون مروره خراط القتاد ، فقرر العودة حالا الى بلاد الشلوك ، وأن يقيم بها محطة مع أن ذلك سيرغمه على ضياع عدة شهور في انتظار الفيضان القادم . وكان يعطل نفسه بأن يشغل رجاله في مدة فصل الأمطار بزراعة الغلال بينما يقوم هو بعمل استكشافات على ظهر باخرة في النيل الأبيض لعله يهتدى الى ترعة صالحة للملاحة .

سحب وإبورات الجملة في منطقة السدود



وخنع على كره منه وفى قلبه حسرة ورضى أن يعمل على تنفيذ هذه الفكرة . وفى الساعة الثالثة مساء وصل مع رفاقه الى الأسطول واستدعى جميع الضباط وبحضـور رؤوف بك بين لهم الموقف وفى الحال غيرت السفن اتجاهها . وفرح الكل من ضباط وجنود وابتهجوا لهذا الرجوع الذى كان حسبا قام بأفكارهم لا بد أن يكون مآله الرجوع الى الخرطوم وانفضاض الحملة .

وانسحبت مراكب الأسطول جميعها فى ٣ أبريل وساعدتها الرياح والتيار معاً فى ذلك الانسحاب ووصلت الحملة الى بحر الزراف فى ٩ أبريل حيث حصل الشروع فى حفر الخنادق وهو عمل شاق استغرق يوما كاملا .

وفى ١٠ أبريل نزلت النهر الذى سارت فيه أولا الى ان وصلت إلى « الدبة » أو الأرض الجافة حيث كشفت عن آثار النخاسين وأخيراً وصلت فى ١٣ أبريل الى محطة « كجك على » .

وفى ١٦ من الشهر المذكور وصل من الخرطوم اربعة مراكب وانضمت الى الحملة وكان على ظهرها بلوك امداد وجوابات من جعفر مظهر باشا ومن مستر هجنوثام . وفى ١٩ منه وصلت الحملة الى النيل الأبيض .

وفى ٢٠ منه سافرت فى الساعة الخامسة صباحاً وكانت الذهية حسب العادة يجرها مركب بخارى . وفى الساعة ٦ والدقيقة ٣٥ ألقت مراسيها على طول الضفة المقابلة للضفة المقام عليها مضرب محافظ فاشوده .

وفى ٢١ منه فى الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ صباحاً شوهد ١٢ مركباً آتية من الخرطوم منشورة الأشرعة تدفعها رياح شديدة تهب من الشمال الشرقى

وشمل سير صمويل الفرع عندما رأى أن هذه المراكب تحمل مستر هجنبوثام والطبيب جيمدج والمهندسين الستة الانكليز وغيرهم وجميعهم في غاية من الصحة .

انشاء محطة التوفيقية

وفي ٢٣ أبريل سار سير صمويل ييكر ومعه باخرتان وذهبتان بقصد البحث عن موضع صالح لاقامة مستديمة فوصل الى ملتقى نهر سوبات بعد مسيرة ٤٠ كيلومتراً قطعها في ظرف ٣ ساعات وربع . ثم استمر في طريقه مسافة ٤٥ دقيقة أيضاً فانتهى هو ومن معه الى غابة واقعة في الشرق على مرتفع من الشاطئ . وفي هذا المكان صمم على أن يقيم تلك المحطة اذ أن أرضه ثابتة ومرتفعة فلا تعلوها مياه الفيضان فضلاً عن أن هذه الغابة ستكون ينبوعاً لا ينضب يستورد منه ما يلزم من الأخشاب للبناء وللوقود .

وفي ٢٦ من الشهر المذكور دخل الأسطول برمته تجره سفينة بخارية وألقى مراسيه تجاه المحطة المزمع بناؤها . ومن أول مايو تكون المعسكر وذلك بعد أن نرعت الشجيرات النابتة في أسفل جذوع الأشجار أما الأشجار الممتدة على حافة النهر فكان لكل منها مالك ولذا لم يشأ سير صمويل نزعها .

وسمى سير صمويل ييكر المحطة الجديدة « التوفيقية » وهو اسم مأخوذ من اسم ولي العهد توفيق باشا . وفي زمن يسير نالت هذه المحطة أهمية كبرى وتم تجفيفها بحفر عدة مصارف عميقة في اتجاهات شتى . وأنجز تشييد المحطة في زمن قصير جداً . وأقيمت ثلاثة مخازن من الصاج الأبيض بسرعة مذهشة حتى كأنها بنيت بقوة السحر . وكان طول كل منها ٢٥ متراً . ونقل

اليها ميسو ماركوبولو في برهة وجيزة المقادير الهائلة من المؤن والذخيرة التي كانت في السفن .

وقد أضحت بذلك محطة « التوفيقية » بهجة للناظرين غير أن الجرائم المستنقعة من جو المستنقعات الفاسد ما لبثت أن نشرت بين ربوعها مرض الدوسنطاريا وسرعان ما أنشأت مقبرة للتوفيقية .

وكان سير صمويل يكرر قد نوى من مدة مديدة أن يقوم باستكشافات ابتغاء الحصول على ممر بين الأعشاب النابتة في النيل فاختار رجلا اسمه عبد الله من قبيلة الشك ليرافقه في هذه الرحلة ويستحضر له ما يلزمه من الأدلاء .

وسافر لهذه الغاية في ١١ أغسطس سنة ١٨٧٠ م وكانت مياه النهر تفيض على جوانبه ثم عاد مع رفاقه الى التوفيقية في ٢١ أغسطس بعد أن غاب ١٠ أيام قضاها في كد وعناء في استكشاف غدران بحر الغزال الوخمة المؤذية للصحة بدون جدوى .

عودة سير صمويل الى الخرطوم

وعاد سير صمويل في هذه الأثناء الى الخرطوم ليتأكد بنفسه مما اذا كانت أوامره تنفذ في أوقاتها أو يعثرها التسويف وكان قد قرر سفر الحملة من التوفيقية الى الجنوب في أول ديسمبر لأن هذا الوقت يكون النيل فيه في أعلى الفيضان وفيه تهب ريح الشمال فتساعد سير المراكب .

ولما كانت التوفيقية واقعة في منتصف الطريق بين الخرطوم وغندوكورو طمح أن يجد الوقت الكافي لاجتياز المستنقعات والمنخفضات قبل انخفاض مياه

النهر . وكان قد أرسل مستر هجنبوثام الى الخرطوم ليكتري سفناً .
ثم سافر عقبه في ١٥ سبتمبر وكان معه باخرة تقطر ذهبية وعشرة مراكب
فارغة أعدت لجلب مؤونة من الغلال فوصل الى الخرطوم في ٢١ سبتمبر ولشد
ما كانت دهشة الحكمدار والأهالى معاً عند رؤيته فأخذ الجميع يترشقون
بالظنون بشأن أوبة الحملة .

وقوبل سير صمويل بيمكر احسن مقابلة من صديقه القديم
جعفر مظهر باشا غير انه وجد ان جميع الأعمال متأخرة حسب
العادة فلم يستعد من الثلاثين سفينة التي كان موعوداً بها للحملة
سوى سبعة مراكب . ولم تصل حتى ذلك الوقت البواخر من مصر
وكذلك الخمسة عشر مركباً الكبيرة ظلت عند الشلالات ولم تستطع
اجتيازها . فوجد نفسه مضطراً أن يقنع بمراكب الخرطوم التي ليس لها
سطح وهي من أردأ أنواع المراكب فضلاً عن أنه لا يوجد منها
العدد الكافي . إلا أنه لحسن الحظ كان لديه السفن العشر التي استحضرها
معه من التوفيقية فارغة فبدونها كان يستحيل عليه أن يشحن أى
شئ حتى ولا مؤونة الغلال . ومع كل فان حضوره الى الخرطوم نتج عنه
بعض السرعة في تجهيز المعدات .

عودته الى التوفيقية

وبعد أن أخذ سير صمويل أهبطه ورتب أعماله على احسن الاحوال
التي تقتضيها مصلحته ابخر من الخرطوم في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٧٠ الى التوفيقية
وحضر جعفر مظهر باشا وكبار موظفيه الى المرفأ لتوديعه وعزفت الموسيقى

واطلقت المدافع ثم تحرك الأسطول للرحيل . وفي ٢٢ أكتوبر وصل الى التوفيقية والفيضان بالغ اقصاه فكان يزيد ارتفاع النهر على زمن التحريق ٤ امتار .

وكان الوقت لا يسمح له بضياح لحظة منه اذ انه قرر ان يسافر في اول قسم من الأسطول في اول ديسمبر الى غندوكورو .

وفي ٢٣ نوفمبر دارت الرياح وعصفت من الشمال بشدة وكانت الاستعدادات اوشكت ان تتم وكانت كل سفينة قد رمت من اساسها الى رأسها إلا ان الكثير منها كان قد اصابها العطب ووجدت اخشابها متعفنة حتى انه ليلوح انها لا تقدر على الأسفار الطويلة رغمًا عن جلفطها . والذهبية الحديدية استبدلت ألواحها التي اكلها الصدأ بألواح اخرى جديدة بعد أن سحبت الى البر .

سفر الأسطول من التوفيقية

وسافر القسم الاول من الأسطول وكان مؤلفاً من ثمانى سفن في اول ديسمبر وكل ثلاثة أو اربعة ايام كان يقوم على الأثر قسم آخر منه وذلك حسب الترتيبات التي كان سير صمويل ييكر قد قررها من قبل .

واخيراً في ١١ ديسمبر سافر هو على ذهيبته مع ساق الأسطول المكونة من ٢٦ سفينة .

وبلغ الفيضان في هذا الوقت ارتفاعاً خارقاً للعادة وهذه مصادفة حسنة إذ ان نجاح الحملة يتوقف على عبور هذه المنطقة قبل انخفاض المياه . هذا اذا اريد ان تكون الحملة في هذه الآونة اسعد حظاً مما كانت في شهر ابريل من السنة الماضية .

وبعد سفر سير صمويل بيكر بزمن يسير علم بمحدث حادث مكدر ذلك أن سفينة من سفن ساق الأسطول كانت تحمل أجزاء الباخرة التي طولها ٥٠ قدماً قد غرقت قرب مصب نهر سوبات فكان لا بد من الرجوع على عقبه نحو ٢٠٠ كيلو متر .

وقد عاد فعلاً ووصل الى محل الحادثة في ١٨ ديسمبر ثم أرسل في طلب ٢٥٠ رجلاً من الشلك وبمجهودات هؤلاء ومجهودات الجند أمكن تعويم السفينة فالتحذت طريقها ثانية في البحر في ٣١ ديسمبر .

سنة ١٨٧١ م
وصول الأسطول الى غوندوكورو

وبعد سفر دام ٢٦ يوماً وصل الأسطول في ٧ يناير سنة ١٨٧١ م الى الغابة الواقعة جنوب محطة « كجك على ». وصادفت الحملة عند ملتقى بحر الزراف عقبة كأداء يكاد يكون تذليلها فوق طاقة البشر . ذلك أن الطريق الذي قطعه في السنة الماضية عاد فانسد واحتاج الأمر الى حفر خنادق وجر المراكب وتفريغها وإعادة شحنها مراراً وتكراراً .

واستمر هذا العمل من ١١ فبراير الى ٢٠ مارس وهو تاريخ دخول الأسطول الى المياه الطلقة في النيل الأبيض بعد أن مات خلق كثير . أما الأمراض فلم يسلم منها إنسان . وفي النهاية دخل الأسطول جميعه إلى المياه الطلقة في هذا التاريخ الأخير . وبعد استراحة بضعة أيام عاد الأسطول واتخذ سبيله الى غوندوكورو فوصل اليها في ١٥ ابريل .

إخضاع الحملة لقبائل هذه الجهة

وما جرى في ذلك من الحوادث

وقد أرسل سير صمويل ييكر في طلب رئيس قبيلة البارين Baris المدعو اللورون Alloron خضر في الحال ومعه بعض أهالي تلك الجهات . وقال هذا الرئيس لسير صمويل ان قبيلة لوكوياس Loquias أغارت على هذه المنطقة ونهبها وحرضها على ذلك التجار . فوعده بأن يمد له يد المعونة إذا هو تعهد بأن يرجع مع شعبه الى منطقته ويعترف بتبعية

للحكومة الخديوية ويزرع حبوبا ويشيد مساكن للجيش . ووعد اللورون
باجابة كل هذه المطالب . وبناء على اقتراح سير صمويل استدعى بعض رجال
قبيلته وكبار رؤسائها لعقد مجتمع عام بعد وقت قصير .

وفي ١٦ أبريل حضر اللورون ومعه عدد من رجاله وافتتح كلامه
بطلب عرقى وكنياك ثم صرح أنه في حالة عداء مع القبائل المجاورة له ولذلك
لم يستطع أن يجازف ويبحث عن خيزان أو غيره من الادوات اللازمة
لبناء المعسكر للآن . فأجابه سير صمويل بأنه اذا لم ينفذ أوامره فسيكون
مضطرا لأن ينزل عساكره في قراه وبذا يكون هو وقبيلته عرضة
للأمطار .

وكانت ملامح اللورون ورجاله تنم عن أخلاق غاية في الشراسة . وكان
سير صمويل يكر يعرف الباريين حق المعرفة ويعرف أنهم يفوقون من عداهم
من سكان حوض النيل توحشا وهمجية ولكنه ما كان ينتظر أن يلاق منهم
مقابلة سيئة الى هذه الدرجة .

ولم يعتقد الملك اللورون صحة التفاصيل التي أبداها سير صمويل ييكر
بشأن الغرض من الحملة وأبدى لرجاله الذين معه بعض ملاحظات وهو يتسم
ابتسامات استهتار . فمع إدراكه أن النخاسة ألغيت إلغاء تاما في نفس قبيلته
لم يسلم بتطبيق هذا المبدأ تطبيقاً عاما فسأل : وماذا يكون مصير تجار العيد ؟

أما الايضاحات الشافية التي أبداها البكباشى عبد القادر افندى رداً على
سؤاله السابق فقد قوبلت من ذلك الملك بضحكة عالية وحشية .

وكان رجال أبي السعود العقاد ابن عم السيد حسن موسى العقاد ووكيل

شركة العقاد التي كانت استأجرت المركز من الحكومة تحت ستار المتاجرة في العلاج ظاهراً والنخاسة باطناً عندما اخبروا اللورون بوصول الحملة حذروه منها وأفهموه أنها إذا لاقت صعوبات كبيرة ترتد على أعقابها الى الخرطوم . وكان مازال قائماً بفكر اللورون أن كثيراً من الاوريين زاروا غندوكورو كما يزورها الآن سير صمويل ورجع الكل ولم يبق منهم واحد . فكان إذن من الطبيعي أن رجلاً همجياً كهذا اتحدت رجاله بآخرين يشتغلون بالنخاسة لغزو البلاد البعيدة ونهبها ينفر من حكومة جديدة وطدت العزم على بث روح النظام واحترام الشرائع والقوانين . وكانت قبيلة اللورون قد اشتركت مع النخاسين من عدة سنين ، ومن وقت ما استأجر الناحية برمتها شخص واحد ، أى أبو السعود ، صار هذا الملك وكيلا له . ولم يلبث سير صمويل أن أدرك الحقيقة وعرف أن عدداً كبيراً من رعايا اللورون في داخلية البلاد وأنهم مأجورون لأبي السعود .

والباريون قوم جبلوا على الحرب والكفاح وهم من خيرة الجند وبذلك كانوا يؤدون لصيادى العبيد بمعونتهم خدمة جلى لاسيما أن غندوكورو نظراً لحسن موقعها هي النقطة الوحيدة الصالحة لاقامة محطة هامة . والتجار الذين احتكروا تجارة العاج أصبحوا بحكم الطبيعة حلفاء اللورون .

وكان المحتكرون قد سلحوا مئات من الرجال بالبنادق تسليحاً تاماً بكيفية صيرت قبيلة اللورون وشركة أبي السعود جيشاً من قطاع الطرق منتشراً بين مختلفى المحطات التي في حوزتهم في أنحاء الاقليم . وبلغ مجموع ذلك الجيش ١٨٠٠ رجل وأقامت الشركة مخزناً لها في غندوكورو .

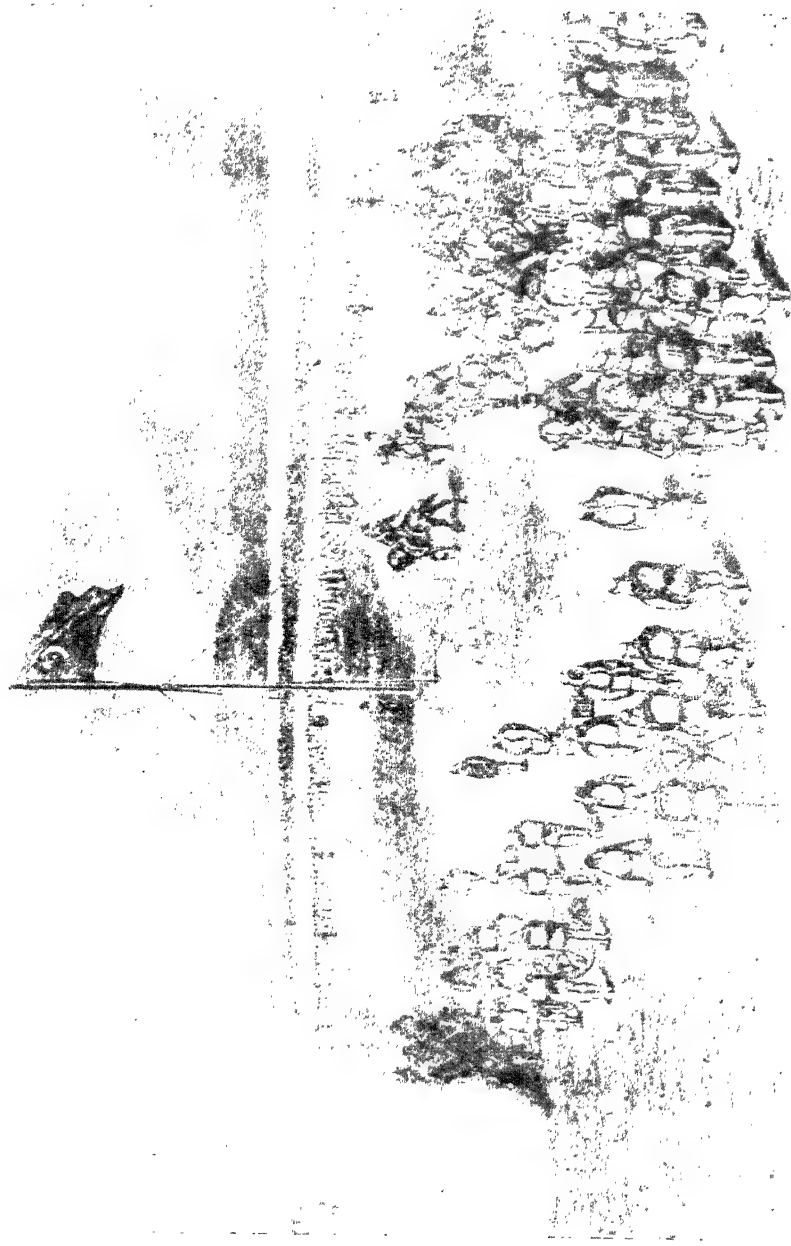
وحدثت مفاوضات جديّة بين اللورون وسير صمويل فطلب هذا

من الأول بطريقة حاسمة مواشى لجيشه ووعد به بأن يدفع له فيها ثمننا
عاليا . ورأى سير صمويل بجلاء أن السياسة السيئة التي ينحوها الوطنيون
تنحصر في تجويع الجيش حتى تضطر الحملة الى الرجوع الى الخرطوم ، وعلى
ذلك أفهم اللورون الخطر الذي ينجم عن اللعب مع أسد جائع فكشروا
للورون عن نابه بابتسامة وقال : أتريد ماشية ؟ هذا شيء حسن . سأعطيك
أدلاء وعليك أن تذهب فتغير على واحد من جيراني وتستولى على قطعانه
فتغنيك زمنا طويلا .

فأجاب سير صمويل بأنه لا يريد أن يلحق بأي انسان أذى لذا كان هذا
الانسان لم يلحق به ضررا . وبما أنه هو أى اللورون يأبى مساعدته فلا يقبل
أن تدخل قطعانه في مراعيه ، بل عليه بناء على ما تقدم أن يرعيها من الآن
فصاعداً في جزر النهر المنخفضة .

ودعا سير صمويل بعد ذلك اللورون وجميع مشايخ البلد وشيوخ قرية
بلنيان Bélénian الى وليمة كبرى كان يريد من اقامتها أن يعلن ضم هذه
الناحية رسمياً الى مصر . وفي ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ كانت قد أعدت جميع
لوازم الحفلة ونصب الملازم بيكر فوق مرتفع مشرف على النهر سارية
يبلغ ارتفاعها ٢٥ مترا . وفي الساعة السادسة صباحا سارت الجنود الى
غندوكورو وكانوا قبيل ذلك قد منحوا يومين للراحة ولينسلوا في غضونهما
ثيابهم ويصقلوا اسلحتهم .

وكان لدى سير صمويل بيكر ١٢٠٠ جندي و ١٠ مدافع جبلية
محلزنة زنة مقدوفة الواحد منها ثمانية أرتال وربع . وكانت هيئة الجنود
وهم متشحون ببذلهم البيضاء وفوق رؤوسهم كوفياتهم المنسدلة على أكتافهم



الاحتفال في عيد كادرو بالعراق في مدينته خيخ الاستواء الى أملاك الحكومة المصرية

بمصر في يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ م .

حسنة جداً . وعند ما ساروا والموسيقا تصدح أمامهم من المحطة الى أن وصلوا الى السارية المذكورة . ثم لما لاحوا من خلال الأشجار الخضراء وانتظموا على شكل بلوكات بميدان المناورات ، أخذت مشايخ القرى العديدة ترمقهم بأبصارهم دهشة منذهلة من هذا المنظر العجيب الذي لم يسبق أن تقع أعينهم على مثيله .

اصطف الجيش صفين عندما وصل أمام هذه السارية في النجد المطل على المحطة واسترعى صف الحراب اللامعة المتلاثلة وكساوى الضباط الحسنة اللطيفة نظر الاهالى ، ولبس البحارة والخدم والمنوطون بصيانة ونظافة المعسكر أنفجر ثيابهم . وبرز اللونان الأبيض والأحمر في المؤخر بين الأشجار وعلى النجد الأخضر بشكل يهر الأنظار ويأخذ بالألباب .

وكان أركان حرب سير صمويل مؤلفا من الملازم بيكر والبكباشى عبد القادر افندى وثلاثة ضباط آخرين غير مستر هجنسو ثام . وبعد أن دار سير صمويل بيكر حول الصف وقف تحت السارية وشكلت الجيوش مربعاً احتلت البيادة ثلاثة أضلاع منه وكونت الطوبجية مع مدافعها الستة الضلع الرابع وهي متجهة نحو النهر .

وتمت قراءة اعلان ضم الناحية الى مصر رسميا باسم الخديو تحت تلك السارية وعند تلاوة الكلمة الأخيرة من آخر جملة رفع العلم المصرى بسرعة وأخذ يخفق على رأس السارية تتلاعب به نسائم عالية تخفض الضباط سيوفهم ورفعت الجنود أسلحتها للسلام وأطلقت البطاريات مدافع التحية الملكية .

وبعد أن انتهت الحفلة سار الجند بنظام ثم اصطفوا متهيئين للقتال كأنهم

يبلغون قتال عدو وهمي واطلقوا ما يقرب من عشرة آلاف طلقة وهم نازلون الى السفح القليل الانحدار الموصل الى المعسكر الموقت والمضارب التي نصبت للوليمة . وعندما وصلوا اليها تفخ في البوق ففضت الجنود صفوفها وتفرقت وأخذت في الحال تهيء الطعام لأكلها . وفي الغد أعلن الأمر الآتي :

أولاً — ممنوع قطع أو إتلاف أشجار الأثل أو الاشجار التي يستخرج منها الزيوت مهما كان الداعي . وممنوع أيضاً إبادة أو إتلاف أية شجرة من أى نوع كانت وذلك في دائرة قدرها ٢٠٠٠ خطوة حول المعسكر .

ثانياً — ممنوع الابتعاد عن المعسكر أكثر من ٢٠٠٠ خطوة إلا إذا كان ذلك بأمر من الباشا أو من رءوف بك .

ثالثاً — تجارة العاج ممنوعة وممنوع أيضاً قبول هذا الصنف بصفة هدية أو مبادلة بشيء آخر . وممنوع كذلك قتل الأفيال أو السماح بقتلها إذ أن جميع العاج هو ملك للخديو وتجارته محتكرة لسموه .

رابعاً — ممنوع شراء الرقيق أو قبوله بصفة هدية .

وكل من يخالف هذا القانون يعاقب بالعقوبة التي يقررها بيكر باشا .
(س . و . بيكر)

* * *

ولولا صدور هذا القانون لكان الرجال الذين يشتغلون في المخازن وفي بناء المحطة قد قطعوا جميع الأشجار المجاورة للمعسكر .

ولما رأى سير صمويل ييكر أن الباريين لم يخضعوا ولم يوردوا الأدوات اللازمة لتشييد المحطة ولا الأنعام المطلوبة لغذاء الجيش أمر بحجز جانب من سائمهم وأودعها المعسكر . وعلى أثر ذلك حضر وفد مؤلف من مشايخهم لزيارة سير صمويل ليرجوه أن يفاك عقالها .

فأجابهم أنه يجب عليهم تقديم الطاعة للحكومة . وبما أنهم لم ينفذوا أى أمر من أوامره فسيحتفظ بماشيتهم وهي تقرب من ٢٠٠ رأس الى أن يخضعوا لسلطة الحكومة الخديوية وأنه مستعد أن يردها لهم إذا هم احضروا قشا وأمدوا الجيش بمعونتهم في بناء المحطة العمل الذى كانوا يقومون بتأديته سنويا لرجال أبى السعود .

وقامت على أثر ذلك مجادلة بين المشايخ فصرح سير صمويل ييكر بأن عدداً كبيراً من الشيوخ الباريين لا يدين بالطاعة الى اللورون فصار من اللازم انتخاب شيخ مسئول وان الشيخ الذى ينتخب فى هذا المجلس يعتمده هو نائباً عن الامة جميعها وتعطى له السيطرة . فقبل الجميع ذلك وانتخب باجماع الآراء شخص يقال له مرييه Morbé ليكون شيخا مسئولا . وقد قبلته كل المشايخ بدون استثناء وصرحت بأنها ستطيع أوامره .

ووجه بعد ذلك الشيخ الجديد الكلام الى سير صمويل ييكر فقال :
بالنيابة عن جميع المشايخ أرجوكم توطيدا لدعائم الثقة وحسن الارادة أن تطلقوا سبيل الماشية التى حجزتموها .

وكان سير صمويل ييكر منتظراً أن يباغت بهذا الطلب فأجابه أنه سيجرب لإخلاصهم برد ماشيتهم . وفعلا أمر بذلك فى الحال . وأحضر

الباريون بعض حزم من الخيزران وبعض القش ولكنهم لم يقدموا حتى ولا بقرة واحدة الى الجيش بل اكتفوا بأن حصلوا على انعامهم وصرفوا النظر عن وعودهم وصرفوا أذهانهم حسب عاداتهم فيما سلف لتجويع الحملة مؤملين زيادة استيائها ووقوعها في الفشل وذلك أمر لا يطاق الصبر عليه طويلا .

وفي ذات ليلة أحاط الجنود بقطيع بناء على أمر سير صمويل يسكر وساقوه الى مكان المعسكر بدون أن يحس بهم أحد . فتجدد الحادث الأول وذلك بأن حضر الشيخ الجديد مرييه وبمعيته اللورون وعدد كبير من المشايخ وطال الأخذ والرد في الكلام بواسطة الترجمان تومبي Tomby . وتكررت الوعود بالطاعة والخضوع فقال لهم سير صمويل : أنا لا أحجز أنعامكم إلا لأحتفظ بها ضمانا لسلوككم في المستقبل وسأختار منها لجيشي عدداً من الابقار وادفع لكم ثمنها . فاتفض الجمع وهم يؤكدون إخلاصهم ومحبتهم ومضت بضعة ايام لم يعد الباريون في خلالها .

وفي ٢٩ يونيه ليلاً قامت ضجة في المعسكر . ذلك ان الأهالي حاولوا أن يسلبوا بعض المواشي فأطلق الحارس بعض طلقات إلا انها لم تصب احداً من اللصوص . ولما كان من المنتظر حدوث مناوشات اعلن سير صمويل الأمر الآتي :

بما ان الباريين شقوا عصا الطاعة وعصوا أمر الحكومة ولم يخضعوا للقوانين المعمول بها فصار من اللازم استعمال القسوة . ففي حالة حدوث قتال احظر عليكم حظرا باتا أن تأسروا النساء والأولاد سواء كانوا ذكورا أم إناثا . وكل من يخالف ذلك من الضباط والجنود يحكم عليه بالاعدام .

س. و. بيكر

ولما كان معتقدا أن الحرب لا بد أن يشب وأنها عاجلا اتخذ عدته لذلك . ففى ليلة ٤ يونيه ألقت الحراس القبض على اثنين من الوطنيين انسلا الى حظيرة الماشية تحت جناح الظلام واعترف واحد منهما أن ثمة من الأهلئ كانت مجمعة فى الاعشاب العالية قرب مجرى النهر وقصدها مهاجمة الحظيرة فى الليل وأطلقت بعض طلقات نارية .

وعلى ذلك قرر سير صمويل نهائيا القيام بمقابلة نشر بالشـر . ففى ٥ يونيه ذهب ستون جنديا على خمس سفن ونزلوا فى طرف الجزيرة من الجهة الشرقية ونزل بلوكان على الضفة المواجهة للمحطة ويمم هو الجهة الغربية ومعه بلوكان آخـران على ظهر باخرتين .

وأعلنت هذه التعبئة فى الأوامر ودوى صوت الطبل الكبير فى كل الأنحاء ولم تقابل هذه الجيوش بادىء بدء احداً من الاعداء ، ولاحت الجزيرة أشبه شىء بالصحراء لكن لم يركن سير صمويل الى الظواهر فأمر مقدمته بأن يسيروا عدوا الى الامام . وفى هذا الحين سمعت طلقات البنادق تدوى فى طرف الجزيرة فاندفع الجيش عدوا ووصل تماما فى الوقت اللازم ، ورأى الوطنيين قد بلغوا بماشيئهم شاطئ النهر الشرقى فاجتازت الجنود النيل بسفنهم بسرعة واقتفوا أثر الهاربين .

ولم يكن الباريون ينتظرون أن تطاردهم العساكر فى منطقتهم فاستمروا يسرون الهوينا آمنين مطمئنين بعد أن دخلوا الغابة ولما كانت عساكر الحملة السود بارءـيين فى العدو خفوا خلفهم حتى لحقوا وأنخنوهم وعادوا ومعهم جانب مكبير من الماشية . وقد رجع الجيش الى معسكره فى الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر بعد أن ظل على قدمه أربع عشرة ساعة تحت وهج

الشمس المحرق .

وفي ٧ يونيو اقترب نجاة باربو « غندوكورو » المتحالفون مع أهل بلنيان Bélinian ضد الحملة زاحفين خلف الأشجار والأدغال كما هي عادتهم وانقضوا على حراس المواشي وقتلوا جنديا بسهم وجرحوا آخر بضربة حربة فأمر سير صمويل بيكر في الحال بمهاجمة قبيلة بلنيان في نفس هذا اليوم . وبارح المحطة بعد منتصف الليل بنصف ساعة ممتطيا جوادا ومعه الملازم بيكر ومستر هجنبوثم والبسكباشي عبد القادر افندي وعشرون جنديا من رجال حرسه . وكانوا يسرون في سكوت عميق حتى لا ينتبه لهم رقباء الأعداء الذين من عادتهم أن يجوسوا كل ناحية في جوف الليل . وعندما وصلوا الى المعسكر العام الواقع على بعد كيلو مترين ونصف كيلو متر وجدوا أربعة بلوكات بأسلحتها ومعها مدفع وانطلقوا في السير عند الساعة الواحدة وبمعيهم دليل من الباريين اسمه شروم Sherroum وهو الذي انضم مع صديقه مرجان Morgan في خدمة سير صمويل من وقت بداية الحرب . ويتكلم هذان الشخصان اللغة العربية وصارا من بعد هرب الترجان تومبي Tomby وانضمامه للأعداء حليفين للحملة لا تقدر لخدمتهما قيمة .

وتمتد الطريق الموصلة الى قرية بلنيان ثلاثة كيلومترات في منطقة جرداء . وبعد هذه المسافة دخل الجيش في غابة مظلمة جدا لاقى فيها مصاعب شتى في جر المدفع الذي كانت دواليبه تشتبك في كل لحظة في جرائم الشجر وجذوره . ومما زاد الطين بلة كثرة الغدران في تلك الجهة فكانت الخيول تسوخ أرجلها في الطين ، وكان الانسان لا يستطيع أن يرى المواضع الموحلة لشدة الظلام . ففى هذه الامكنة كان يلزم لجر المدفع ثلاثون

جنديا وخيف من عواقب التأخير أن تكون وخيمة . وبعد انصرام الليل أخذ المطر يهطل من فروج السماء وبعد مضي ساعة وصلت الفرقة الى أرض جافة غير مستوية ليست بها أشجار وتبددت الغيوم وانقطع المطر .

وفي الساعة الخامسة صباحا أوقف الدليل الحملة وقال ان القرية التي أتينا للاغارة عليها أضحت قريبة . وبعد استراحة نصف ساعة عاود الجند المسير وكان ذلك عند بزوغ الفجر فوصلوا بعد قليل من الزمن أمام القرية فوجدوها محاطة بحاجز مستدير كبير .

ولما رأى الأهالي الحملة أرسلوا عليها وابلا من السهام التي لم تصب لحسن الحظ إلا واحدا فصبوب الجنود عليهم في الحال طلقات عديدة دفعة واحدة جعلتهم يفرون الى الغابة مشتين تاركين القرية فدخلتها الجنود آمنين وغنموا منها ٦٠٠ رأس من البقر .

وبعد أن استراح الجنود وتناولوا فطورهم أضرموا النار في القرية وأخذت الحملة طريق العودة فوصلت الى محطة « غندوكورو » من بعد غروب الشمس بساعة تقريبا وعلى هذا يكون غيابها قد استغرق نحو ١٩ ساعة من الزمن .

وفي ٩ يونيه رأت الحملة ثمانى سفن من مراكب أبي السعود . وقد سافرت هذه السفن وصادفها ربح طيبة فوصلت وألقت مراسيها أمام الجزيرة عند منتصف الساعة الثالثة مساء ، وكان نفس أبي السعود مسافرا على ظهر إحداها . وقد ساعد تلك السفن في رحلتها هذه الخنادق التي حفرتها الحملة في قدومها .

فأمر سير صمويل بيسكر أولئك الرجال أن يخطوا رحالهم على ضفة النهر الغربية لكي يبعدهم عن جيشه إذ لا يبعد أن يؤثر أولئك على هؤلاء أو يفسدوا أخلاقهم . وأخبر أبو السعود سير صمويل بوفاة العقاد وبأنه تولى لكونه صهره إدارة شركته . وقد كان هناك شيء آخر اخفاه عنه ذلك أنه بينما كان قادما في سفره هذا سلب مواشى من منطقة احد مشايخ قبيلة الشيريين Shirs اسمه نيانبوريه Nianboré وكان هذا الشيخ قد اضحى مواليا للحكومة فترك لديه سير صمويل نائبا عنه يمثل الحكومة وهو البكباشى احمد رفيق افندى ومعه اونباشى وستة جنود .

وقد ذهب جمع غفير من الباريين الى أبى السعود وعاونوا رجاله في إقامة معسكرهم العمل الذى أبوا بتاتا ان يقدموه للحملة فدل هذا على أن أبا السعود خائن إذ أنه كان يعلم حق العلم ان هذه الحملة في حالة حرب علنية مع الباريين .

ولما ذهب سير صمويل وجمعيته بعض الحرس الى معسكر أبى السعود ووقع انظار الباريين عليه لاذوا بأذيال الفرار واختفوا بين الأعشاب . وعندما نزل من الباخرة توجه توا الى حظيرة المواشى وأقام أربعة حراس عليها واعلن مصادرتها . وكان لا بد من إبداء هذه السيطرة والقوة لوضع حد للسلب والنهب الذى كان يقع من أولئك الذين يقال لهم تجار الخرطوم .

وعندما رجع حرر المرقوم الرسمى الآتى الى أبى السعود :-

الاسماعلية « غندوكورو » في ١٨ يونيه سنة ١٨٧١

الى أبى السعود وكيل شركة العقاد .

لقد وصلت في ١٠ الجارى ومعك عدد كبير من المواشى التى سلبها

أنت ورجالك . ومع أنك كنت تعلم أن الباريين يناصبونا العداء فأننا نراك ترتبط معهم كل يوم بروابط الصداقة والمودة . فإذا كان باريو هذا البلد يناصبون كل حكومة نظامية العداوة والبغضاء فما ذلك إلا بمعونة رجالك الذين بسرقتهم العبيد والمواشي في داخلية البلاد واحضارها الى هنا أضاعوا كل أمل في تحسين حالة شعب همجي بسليته ، وصيرتموه أنتم شعب لصوص وقطاع طرق . وبما أني لا أستطيع احتل تماديكم على ذلك فعنكم كما يقتضى بذلك واجبي أن تخلوا أنتم وتباعكم عند نهاية العقد الذى بيده المنطقة النازنين بها والموجودون إلى تصرف فيها . وفي الوقت نفسه أصرح بأنى قد صدرت لمصلحة الحكومة المواشى التى سببتموها من هذه المنطقة .

صمويل . و . بيكر

* * *

وعندما وصل أبو السعود الى غندوكورو واصل دسائسه وضمق نخابر باري اللورون وباري بلنيان سراً وكانت جواسيس هؤلاء تنقل له حركات وسكنات الحملة وتذيع فى كافة انحاء البلد اشاعة ممتزاجاً أن أبا السعود سيمد يد المساعدة للأهالى فى سبيل مقاومة سلطة سير صمويل . وفى الوقت نفسه كان ذلك الشقى يذكى باستمرار نار الخلاف التى أوقدها بين ضباط الحملة وجنودها . ولما كان الباريون لا يجرءون على مهاجمة الحملة وجها لوجه كانوا كثيراً ما يأتونها ليلاً فيقلقونها ويتعبون الجند كثيراً إذ يضطرونه بصيحاتهم أن يستمر واقفا على قدميه .

ومما زاد فى تخرج الموقف ان وقع كثير من الجنود بين برائن الحمى

والدوسنطاريا وخصوصا مرض تقرح السيقان وهو على ما يلوح مرض معد وفى بعض الأحوال يقضى على الساق قضاء مبرما فيتلفها إتلافا تاما . وكان لا محيص ان يتولد من جميع ذلك حالة يأس وقنوط فكان رجال سير صمويل يشعرون بمرارة من حرج موقفهم فقد انهكهم واضناهم التعب إذ كان عليهم أن يبنوا المعسكر ويقاتلوا فى الوقت نفسه الباريين . وكان الجوع يهددهم من جهة أخرى لأن حالة النيل المخيفة ما كانت تترك مجالا للأمل فى وصول مؤونة الغلال المرسله من الخرطوم .

وكان موضع المحطة التى يبعد بعض المسافة من المعسكر العام كثير الملاءمة إذ كان يحدها شمالا بحيرة عميقة وشرقا مجرى النيل الأبيض فما كان يستطيع أحد أن يصل اليها إلا من ناحيتين .

وقد واصل أهالى قبيلة بلنيان بالاتحاد مع باربي غندوكورو محاولاتهم الليلية بقصد سرقة مواشي الحملة رغما عن الانذارات التى وجهها سير بيكر فاضطر رجاله أن يكونوا دواما واقفين على قدم الاستعداد .

وفى ٢٨ يونيه قتل رجل من الباريين بطلق نارى وألقى الحراس القبض على آخر وشنق على شجرة فى نفس الطريق الذى يسلكه رجال بلنيان أثناء قدومهم للإغارة على المعسكر . وكان الغرض من ذلك إنذارهم ولكن هذا العمل لم يأت بجدوى . واستمر شن الغارات وزاد عما كان فى المدة السابقة .

وفى ١٠ يوليه هوجمت سائمة الحملة فى وسط النهار بينما كانت ترعى فى مراعيها وكان المهاجمون مئاث من الباريين فردهم جنود الحملة الى الغابة بعيد أن قتل جندى وجرح آخر .



هجرة ليلية من البرانس على معسكر اهل الهندوكورو في ٢١ يوليو سنة ١٨٧١

وكان لابد من انتظار حدوث غارة كل ليلة . وهذا تمرين جليل للجنود يضطربهم لأن يكونوا دوما على قدم الاستعداد إلا أنه أيضاً تمرين شاق متعب لأن العساكر لا تستطيع الراحة ليلاً مع أنها تشتغل يومياً نهائياً :

وكان أبو السعود ورجاله في الوقت نفسه في اتصال مستمر مع أعداء الحكومة ويقدمون لأهالي بنيان المؤونة متبعين في ذلك خطة خيانة الحكومة التي رسموها لأنفسهم .

وفي ٢١ يولييه عند منتصف الساعة الثانية صباحاً استيقظ سير صمويل على أصوات طلق البنادق آتية من ناحية المعسكر العام . وبعد نصف ساعة أخذت أصوات الأهالي في الخفوت شيئاً فشيئاً . وفي الوقت نفسه أخذ يضعف وينخفض صوت الطبول والأبواق وسكتت طلقات جماعات العساكر وحل محلها طلقات فردية متقطعة .

وفي صباح الغد ذهب سير صمويل يبكر قبل بزوغ الشمس الى المعسكر ليستقى الأخبار فعلم أن الحراس بوغتوا وأن خسائر الحملة أسفرت عن قتل أونباشي واحد وجرح ملازم أول وجندي .

وكان الباريون واللوكياس يقصدون بهذه المباغتة احراق المعسكر . وقد حملت هذه الحادثة الأخيرة سير صمويل يبكر على أن ينفذ عاجلاً فكرة كانت قد خاضرتها منذ زمن طويل وهي حفر خندق وعمل منحدر ابتغاء وقاية المحطة وحمايتها .

ولما كانت إقامة المخازن الحديدية قد تمت ووضعت فيها جميع المؤن والذخائر وكانت العساكر قد نزلت في ثكنات لاثقة باقامتهم أخذ سير صمويل يبكر في

تخطيط حصن وفوض الى مستر هجنوثام رئيس مهندسيه أمر إنجازة . ودعت الحال لأن يشتغل فى اقامة ذلك الحصن كل الرجال حتى البحارة . وسار العمل بهمة كبيرة ونشاط عظيم إذ كان كل من الجنود والضباط قد شعر بارتياح وانسراح لأنه سينفصل عن العدو ومشاغبه بخنيرة عميقة .

وفى زمن يسير أقيم حصن قوى متين له خندق ومتاريس تصد كل مغير ومهاجم . ومن ذلك الوقت أصبحت المحطة فى طمأنينة ولم يجرؤ الباريون على مهاجمتها لعلمهم ان حراسها فى يقظة كما اعترفوا بعد ذلك بهذه الحقيقة .

وفى ٣٠ يولية سنة ١٨٧١ دهش سير صمويل بيكر كثيراً إذ رأى الشيخ نيانبوريه Nianbouré وهو احد رجال عشيرة الشيريين Shirs يأتى اليه ومعه رجال من خيرة مستشاريه وكان سير صمويل قد ترك عند هذا الرجل ضابطاً وستة من الجنود لمراقبة زراعة التمح وكان نيانبوريه هذا قد قضى ومن معه من الرجال ست ليل مسافراً لا يجرؤ على السير نهراً خوفاً من الباريين ، وقد ضل الطريق مراراً بسبب حلوكة الليل وكان يقضى النهار نالماً فى الأجمات الكثيفة التى فى طريقه وقد كابد كل هذه الأخطار ليحمل قبل اى انسان آخر الى سير صمويل بيكر خبراً مشئوماً حتى لا يتهم بارتكاب الخيانة ألا وهو قتل جميع عساكر هذا الشيخ ماعدا البكبشى احمد رفيق افندى وواحداً اونباشياً .

وقبل وقوع هذا الحادث ببضعة اسابيع كانت رجال ابى السعود قد نهبت عند مرورها من ذلك البلد متاع احد المشايخ المجاورين له وقدموا جانباً من أسلابه الى احمد رفيق افندى فقبله بعكس ما تقضى عليه واجباته . فاعتبر الاهالى بالطبع هذا القبول اشتراكاً فى الجريمة وطلبوا طرد عساكر

سير صمويل بيكر . واقتضت شهامة نيابوريه وهى صفة قلما توجد فى العيد أن يعارض فى أمر هذا الطرد فهوجم وفى أثناء الواقعة قتل العساكر .

وفى اليوم التالى رد سير صمويل بيكر الشيخ نيابوريه الى بلده ومعه حرس مؤلف من عشرين جنديا على ظهر باخرة وكتب فى الوقت نفسه الى أبى السعود يخبره بأنه يعتبره مسئولا عما حدث .

ومنذ تم تشييد الحصون فى « غندوكورو » أو « الاسماعيليه » كما سماها سير صمويل تيمنا باسم الخديو صارت هذه الناحية محمية بخندق حول نشز من الأرض مقام عليه المخازن ومنصوب فوقه ستة مدافع . فكان فى استطاعة سير صمويل أن يلتقى على الأهالى درساً أقى من الدروس السابقة .

وفى ٣٠ اغسطس سنة ١٨٧١ ذهب مع ٤٥٠ جنديا وأخذ معه مدفعين احدهما من مدافع رى الصواريخ التى يزن الواحد منها ثلاثة أرتال .

ولم يكن غرض الحملة الوحيد معاقبة الباريين بل كان عليها أيضاً ان تجدد مؤونة الذرة التى كانت على وشك الانتهاء وكان ذلك الاوان اوان الحصاد وكانت الحقول مغطاة بمزروعاتها الناضجة .

وقد وصل سير صمويل بيكر عندما بان ضوء النهار الى وادى بلنيان أمام التلال الواقعة فى سفح الجبل حيث كان يوجد مئات من القرى مبعثرة يحيط بأغلبها حواجز خشبية مدببة الأطراف .

ولما كان الاهالي على بينة من الامر ومتسلحين بالبنادق وطدوا العزم على الدفاع عن حبوبهم وماشيتهم ودافعوا فعلا دفاعاً حماسياً وعندئذ أمر سير صمويل

بيكر الجند ابتغاء حسم القتال بالقيام بحملة على المواقع بالحراب امتاز فيها
اليوزباشى مرجان شريف افندى ، وهو سودانى الأصل خدم فى الجيش
الفرنسى فى بلاد المكسيك أربع سنوات ، بوثبة جراه فيها جنود البلوك
الذى تحت امرته فكان هو أول من دخل متاريس العدو .

وكان الباريون معتادين قتال بلوكات النخاسين غير النظامية ولم يروا قط
للآن حملة شعواء كهذه بالحراب . فكان هذا عملاً من شأنه بالطبع أن يذهلهم
وينت في ساعدهم فطفقوا يتسلقون الصخور ويرتقون الجبل فكانوا فى فعلهم
هذا أشبه شىء بالقردة وكانت الجنود فى اثناء ذلك تتبعهم وتصليهم ناراً حامية
من أفواه قرايناتهم التى كانت من طراز سنيدر .

واتنجرت فى تلك اللحظة قذيفة على رؤوس ثلة من الاعداء كانت متجمعة
على بعد سبعة مائة متر تقريباً من مؤخرة الجيش فكان هذا نذيراً لهم بمبارحة
المكان ادركوا معناه حق الادراك .

وبعد أن أمر سير صمويل بىكر باحراق الحواجز المحدقة بالقرى وبعد أن
اختفى الباريون اختار موضعاً فى الخلاء لتعسكر فيه الجنود . وانقضى الليل بهدوء
وسكينة .

وفى اليوم التالى تقدم نحو الشمال فى السهل واستولى بالحراب على منطقة
هائلة مساحتها هكتار ونصف (١٥٠٠٠ متر) .

وعند ما وصل الى الوادى أمر باحتلاله وأقام فيه ثلاثة أماكن محصنة
يبعد الواحد عن الآخر كيلومترين تقريباً وبذلك أضحت تحت تصرفه مساحة
واسعة من الأرض .



مقدم جوفد الامية على قرية البيل يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٧١

وبعد ذلك أمر في الحال بالشروع في الحصاد غير أن العدو استمر يناصر الحملة العداء واشتبك معها في عدة مواقع قتل في أحدها البكباشى احمد رفيق افندى ثم بعد إقامة خمسة وثلاثين يوما عاد في النهاية الى غندوكورو ومعه زاد يكفيه ويكفى جيشه شهرين .

ولم يكن لدى ضباط وعساكر سير صمويل يكر أقل ميل للمبدأ الذى كان يسعى في سبيل تنفيذه ففى أوائل الحرب مع الباريين سلكت الجنود المصرية والسودانية مسلكا شائنا كريها . فلقد رآهم السير صمويل يكر ينقضون على قرية للعدو ويطلقون لأنفسهم الاغنة فى السلب والنهب .

وقد أكد له أمير الألاى رءوف بك أنه من المستحيل منع نهب القرى إذ يعتبر الجند ان هذا النهب هو بمثابة جائزة لنصرهم ولكن سير صمويل يكر لم يشأ أن يقر هذا المبدأ فكان عند ما يضبط العسكرى متلبسا بالجريمة يعاقب عقابا صارما .

وانتهى العمل فى المحطة انتهاء تاما وحصنت تحصينا منيعا بحفر خندق وعمل منحدر . ولكن تلفت زراعة الأهالى والجيش معا فى أرض غندوكورو الصفراء الرملية . نعم سقطت الامطار ولكن لم يكن ذلك إلا فى المناطق الجبلية حيث تتجمع السحب . أما فى الجزر فالمحصول هناك فى حرز حرير إذ أن جذور النبات تغوص فى الأرض على عمق يكفيها أن تستقى من رطوبة النهر ما يرويها . وكانت الجنود تركت العصافير تبيد نصف محصول الجزيرة وكان فى متناول أيديهم محصول جيد فأهلوا جنيته وأخذوا الآن يشكون ويقولون ان أرض غندوكورو لا تصلح لشيء .

ولم يرجع ابو السعود للآن الى الخرطوم . أما الرحلة التي قام بها الى
البلينان ليستأذن من السير صمويل بيكر في السفر فهذه لم يكن القصد منها
إلا إخفاء أغراض مجهولة .

وفي ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧١ أرسل رءوف بك (فيما بعد باشا) خطابا الى
سير صمويل بيكر ومعه خطابان آخران موقع عليهما من جميع ضباط الجيش
ما عدا ضباط حرسه الخصوصي يلتمسون فيها مبارحة الحملة لهذه النواحي
والعودة الى الخرطوم وكان الخطابان قد خطتهما يد واحدة ومما لا يحتمل الشك
أن الذي املاهما شخص على المقام وقد عزاهما سير صمويل بيكر في الحال الى
رءوف بك صديق وشريك أبي السعود في جرائمه غير أنه لم يبال بهذه المسألة .

وكان سير صمويل بيكر يرمى الى أن يشن غارة على جزر البارين في
جنوب جبل الرجاف ويرى ان كمية الجيوب التي يجدها هناك تمكنه من
اجتثاث هذه المؤامرة من أصلها .

فسافر مع تجريدته في الوقت المعين وسار صعدا مسافة اثني عشر كيلومترا
في النيل وكانت الملاحة فيه سهلة في هذا الفصل . ووصل الى الشاطئ الغربي
ولما كان الهواء معاكسا لسيرهم نزل الجند الى الارض وجروا الواپورات ضد
التيار وكان اتساع النهر يناهز ٤٥٠ مترا .

وكان البلد الذي يخترقونه بلدا جميلا فتانا به تلال صخرية عالية واقعة على
مسافة بعض كيلومترات وتنحدر تلك التلال انحدارا خفيفا فيتكون من مجموع
هذه الانحدارات سهول نضرة تنتهي عند ضفة النيل وينتشر في جنباتها باقات
من الاشجار الخضراء الزاهية غير أن عدم وجود غابات بتلك النواحي كان
يجعلها غير صالحة لاقامة محطة كبيرة عليها .

وصادفت الحملة في طريقها قرى عديدة إلا أنها لم تقابل في أى ناحية
مقابلة حسنة . فكان الوطنيون يخرجون من أوكارهم يشيرون ويومئون ويهزون
رماحهم بأيديهم ويفعلون ما شا كل ذلك من المظاهرات العدائية التي لا يمكن
أن يخفى معناها على أحد .

ومن الواضح الجلى أنهم كانوا يتحشرون للقتال غير أن السير صمويل بيكر
كان قد اعتاد ألا يهاجم الباريين ويتربص الى أن يصدر أى عداء من جانبهم .

فنزل الى البر وتقدم على الضفة عدة مئات من الخطوات وكان ينتشر في
جنبات تلك النواحي صخور غريبة جداً وقطع ضخمة من حجر الصوان
المصقول متراصة فوق بعضها حتى ليحسبها الرأى أنها نظمتها ورصفتها
يد الانسان . وكلما مشت الحملة انسحبت الاهالى وتوارت خلف تلك الاحجار
والصخور . وعند ما صارت على بعد مائة متر منهم صاح الترجمان الذى كان
مرافقا لها : ان هذه الحملة ما أتت لتقاتلكم بل لمشتى غلال فقط وان سير
صمويل بيكر سيبادل « الجوجو » من السورجو بكيزانه ببقرة والجوجو مكيال
سعته ١٤٠٠ لتر والسورجو نوع من الذرة . وكان هذا هو السعر الجارى .

فقبول هذا العرض اللطيف بافطع الاجوبة واشنع الشتائم وكان ضمن
ما قالوه ان الحملة في غير حاجة أن تعرض عليهم مواشيها التي عقدوا العزم على
أخذها منها بالقوة وانه لا شىء خير لها من أن تنكص على عقبها وترتد
الى الخرطوم .

وقد حاول سير صمويل بيكر أن يبين للاهالى ان رجاله عضهم الجوع
بنابه وانه سيضطر أن يأخذ منهم قوة واقتداراً الغلال التي أبوا ان يبيعوها له

فقوبلت مطالبه هذه السامية بوابل من اللعنات والشتم .
فلم يبق لديه بعد ذلك إلا استعمال الشدة فنشر جنوده بكيفية تمكنها من
تغطية ثمانمائة متر من الأرض ثم اتجه الى جبل الرجاف وكان محظوراً قطعياً
على المساكر أن تدخل الاكواخ وكل ما كانوا مكلفين به التحقق من امتلاء
الجوجات (١) أو فراغها وبهذه الكيفية تم اجتيازه ٢٥ أو ٣٠ قرية كل واحدة
منها بها خمسة عشر جوجو كلها طالحة بالغلل .

وعند ما وصل الى نجد الرجاف فخص بمنظاره البلد فرأى على
امتداد بصره خطاً من القرى الصغيرة ممتداً بلا انقطاع وعدداً كبيراً
من الاهراء . وذهلت الجنود لوجود هذه الخيرات الجزيلة ودهش الضباط
الذين كانوا كتبوا للسير صمويل بيكر يقولون : ان البلدة ينقصها الحبوب
ومن اللازم الرجوع الى الخرطوم .

وقد احتل جملة قرى كان قد تركها اصحابها ورحلوا عنها وأتت المراكب
فألقت مراسيها بجانب ضفة النهر واستحضر رءوف بك وزوده بالاحتياجات
اللازم اتخاذها في غضون الليل .

وما تفخ في بوق الايقاظ حتى استقدم رءوف بك وأمره أن يأخذ بلوكا
والمراكب ويحتل الجزر . أما هو أى سير صمويل بيكر فيمم جهة الجنوب وبعد
بحث دام ثلاث ساعات أقام في نقطة صالحة جداً محطتين وسامهما الى الصاغقول
اغاسى عبد الله الدنساوى افندى . والى ضابط آخر وأعطى كلا منهما عدداً من
المساكر مساويا للعدد الذى أعطاه للآخر . والأول ضابط سودانى اشترك
في حرب المكسيك وانعم عليه بنيشان الاليجيون دينور وهاتان المحطتان اللتان

(١) جمع جوجو وهو مكيال يصنع من عيدان الصفصاف أو الخيزران وقد سبق ذكره .

تبعد احدهما عن الأخرى مسافة ١٥٠٠ متر تقريباً كانتا قائمتين على نجد يشرف على مراكب رءوف بك التى كانت قد وصلت ورمت مراسيها على شواطئ الجزيرة على بعد كيلومترين ونصف فتكون من هذه المراكز الثلاثة مثلث فى جوف أرض خصبة .

وبعد أن اخذت هذه الاحتياطات رجع سير صمويل بيكر الى النهر وأمر رءوف بك أن يعجل بشحن الغلال ويرسلها بلا توان الى غندوكورو وكانت اهراء الجزيرة ملأى وموضوعة على مقربة من الشاطئ حيث كانت المراكب مربوطة فى مراسيها فكان فى الاستطاعة تعجيل الشحن .

وبعد أن فرغ من اصدار هذه الأوامر سافر الى غندوكورو ومعه اجندى منصور القائم بخدمته ومراسلاته وجنديان آخران وبخاران . ولما كان قد عقد النية على أن يراقب عملية حصد الغلال بادر حالا بالرجوع الى الجزر على ظهر ذهبيته .

وكان رءوف بك لم يحتل إلا واحدة من هذه الجزر وكان الوطنيون يسرعون فى نقل الغلال التى فى الجزر الغربية وعندئذ أعاد أميرالائى الى غندوكورو مع المرضى . وشرع الملازم بيكر فى احتلال الجزر . وفى زمن يسير جداً وضعت الحملة يدها على ثلاث جزر كبار خصبة لدرجة خارقة للعادة ولم تنقطع مراكبها من الاياب والذهاب وهى محملة احمالا ثقيلا من هذه الجزر الى غندوكورو .

وانتهت الاعمال التى أُلقيت على عاتق كل من الصاغقؤل اغاسى عبد الله الدنساوى افندى والضابط الآخر وكان هذا الأخير فى انتظار مراكب لي شحن عليها مابقى من الغلال المتجمعة . أما الأول فكان قد انجز شحن كل ما كان

عنده منها فأرسله سير صمويل بيكر الى الجنوب ومعه أمر باحتلال كل قرية تقابله .

وأما الصاغقول اغاسى عبد الله الدنساوى افندى فنظراً لقلة جنوده وهم ٩٠ جندياً قاتله الباريون فارتد وتمكن من بلوغ النهر فأقلته ومن معه المراكب التى كانت راسية فيه وعانوا جميعاً الأثرين فى هذا القتال وقتلوا خلقاً كثيراً من الباريين وقد لاحظ ذلك سير صمويل بيكر عند ما زار ميدان القتال الذى كانت تنقض عليه جموع من العقبان .

وسافر فى ٣ نوفمبر ثلاثون مركباً من غندوكورو الى الخرطوم وعلى ظهرها من المسافرين ١١٠٠ نفس من نساء واولاد وبجارة وعساكر ومرضى .

وبالرغم من الأوامر الصارمة التى أصدرها سير صمويل بيكر بعدم تسفير أحد الى الخرطوم إلا من كان مصاباً بمرض حقيقى فان رءوف بك انتهز فرصة غيابه ورد عدداً كبيراً من الرجال الذين لا يشكون من أى ألم خفض بهذه الكيفية قوة الحملة الى ٥٠٢ من الجنود بما فى ذلك الضباط والبروجية وضاربو الطبول والكتبة وغيرهم ، والى ٥٢ بحاراً . وهكذا صارت الحملة التى كان من اللازم أن يكون عدد رجالها ١٦٤٥ جندياً ليس بها غير ٥٥٤ جندياً وهو عدد ضئيل لدرجة انه يفقد كل أمل فى تقدم الحملة فى داخلية البلاد .

وكانت الظواهر جميعها تنم على أن أبا السعود بلغ مرأيه وأن حركات الحملة أصابها الشلل إذ كان من المفروض أن سير صمويل مع جيش انخط عدده لهذه الدرجة لا يتجاسر أن يتزحزح من معسكره العام . وبما أن عقد خدمته ينتهى أجله فى أول أبريل من سنة ١٨٧٣ فليس أمامه متسع من

الوقت غير ستة عشر شهراً وهو زمن قصير جداً لا يسمح له بانجاز مشروعاته .

ومن ناحية اخرى فان حالة النيل في ذلك الوقت كانت سيئة بحيث لا تترك بارقة أمل في وصول امداد للحمة من الخرطوم أما الحفائر والخليجان التي كان قد شقها في بحر الزراف فهذه ما كان يدري أردمت أم بقيت كما تركها .

وكتب سير صمويل يكر اني اخديو ملحقاً في بيان الضرورة التقصوى القاضية بشق خليج مجرى النيل الابيض بدون ابطاء وكتب ايضاً اني جعفر مظهر باشا بأن يبعث له في الحال بمدد من الخرطوم وبمئونة من الذرة وقل هذا المدد ثلاثة عشر شهراً في النهر بين غندوكورو والخرطوم ولم يصل إلا قبيل نهاية الحمة .

وبما أنه كان يخشى ألا يصله شيء من السودان فقد رأى أنه لا بد من أن يأخذ احتياطات مستقلة عن كل معونة خارجية ملافاة للطوارئ التي ربما تحدث في المستقبل وان يباشر اتمام مأموريته بواسطة ال ٥٠٢ من الجنود والضباط و ال ٥٢ بحاراً الذين بقوا معه إذا كان ذلك في حين الامكان .

وكان عدد الجنود الذين يحيطون به في ذلك الوقت ٢٥١ ضابطاً وجندياً فكان الذين تحت تصرفه نصف قواته تقريباً . ولما كانت غندوكورو محصنة تحصيناً متيناً والبلينان كسرت شوكتهم فلم يبق لديه ما يخافه من هاتين الناحيتين . وأما من ناحية المشونة فكان مخزن من مخازنه الكبرى تطفح جوانبه بالغلال فاذا أضفنا الى ذلك الذرة المشحونة في

جملة من مراقبه نجد انه كان في حيازته من المئونة ما يكفيه زيادة على العام وهذه نقطة هامة ايضا . ومن جهة أخرى كانت الجنود الباقية لديه جنوداً من خيرة الرجال الابطال البواسل الأصحاء الاجسام المتعودين النظام فكان اليأس بعيداً عن أن يتسرب الى نفسه بل بالعكس كان قد قرر أن يواصل بمعونة الله القيام باتمام المشروعين اللذين قدم من أجلهما ألا وهما منع النخاسة وضم منطقة خط الاستواء .

استكشاف سير صمويل لشلالات النيل الالبيص

وفي ١٠ نوفمبر استصبح ١٥٠ جندياً للقيام بعمل استكشاف لغاية شلالات النيل الالبيص الاخيرة الواقعة جنوباً على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من المعسكر الذي شيده فسافرت الحملة في البكور وسارت بجانب النجد المرتفع الممتد حذاء مجرى النيل مجتازة الموضع الذي كانت الاهالي هاجمت فيه الحملة من بضعة أيام مضت . وقد قال سير صمويل بيكر أن لا شيء يفوق جمال هذه المنطقة من الوجهة الزراعية .

وكان الباريون قد عدلوا عدولا تاما عن خطتهم فأتمرت الدروس التي أُلقيت عليهم ثماراً يانعة وأنقلب سخطهم وبغضهم مودة وصدقة واستقبل سير صمويل بيكر رؤساءهم واتحفهم بعدة هدايا .

أما رحلة الاستكشاف هذه من أولها الى آخرها فلم تكن إلا نزهة عسكرية .

وفي ١٩ نوفمبر آب سير صمويل بيكر الى غندوكورو قرير العين من نتائج رحلته فكانت مخازنه طالحة بغلال تيمره أكثر من عام وكان

السلم انتشر بين ربوع اقليم هام وكان قد حصل على وعود بالمعاونة واقرار بالاذعان لسيطرة الحكومة الخديوية .

اما أبو السعود الذى كان سير صمويل يسكر قد صرح له بالرجوع الى الخرطوم فاكتمنى بأن يهبط مع النيل لغاية محطة بور Bohr وهناك أخذ استعداداته لكي يعرج بالعاج الصادر عن محطة لاتوكا Latouka الواقعة على بعد مائة وستين كيلومترا شرق غندوكورو عن طريق معسكر سير صمويل يسكر العام ويصل به الى بور من سكة غير مطروقة .

وكان الغرض من هذه الخدعة أن يضيع على الحكومة الرسم المقرر لها وهو خمس كمية العاج حسب الاتفاق المعقود مع شركة العقاد .

وبما أن أبا السعود حضر بنفسه رجوع الجند الى الخرطوم فقد كان يعتبر أنه فاز وحصل على مايشتهيه إذ حسب أن الحملة أصبحت غير قادرة على التحرك من غندوكورو بعد أن لم يبق منها إلا ٥٠٢ من الضباط والجنود . وعلى ذلك سافر الى محطاته البعيدة الواقعة فى الجنوب بقصد إثارة الاهالى ضد الحكومة .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرود فيها أبو السعود الداخلية . وكانت عادته من زمن طويل أن يسافر دفعة واحدة فى السنة من الخرطوم الى غندوكورو على مراكب شركة العقاد ويحضر معه عصابة جديدة من اللصوص وكميات من الاسلحة والزاد ويظل فى غندوكورو عدة أسابيع يتسلم فى غضونهما العاج والعبيد الذين تكون قد جمعهم مختلف المحطات التى فى داخلية البلاد ثم يقفل بعد ذلك راجعا الى الخرطوم .

وأوحت إليه ضرورة الوقت أن يشمر عن ساعد الجسد ويضاعف مجهوداته .
ولما كان يعرف حق المعرفة التاريخ الذى فيه تنتهى مدة خدمة السير
صمويل بيكر فقد وضع نصب عينه هدفاً واحداً أصابه تقريباً وهو
الحيولة دون تقدمه فى المدة الباقية له .

فكان يريد بناء على ذلك زيارة محطاته والتنبيه على وكلائه أن يحتفظوا
بعاجهم وعبيدهم لغاية انتهاء مدة عقد سير صمويل بيكر فيضطر الى
مغادرة غندوكورو وبعد هذا تعود الامور الى مجراها السابق كما كان
يعتقد .

ورأى سير صمويل بيكر أنه من المفيد أن يفهم قبيلة الشير قبل أن
يسافر الى الداخلية أنه لم ينس ذبح عساكره المساكين الذين تركهم لديها
للمحافظة على المزروعات فجهاز حملة وحاربهم حرباً لن تزول ذكراها من ذاكرتهم

وعند رجوعه الى غندوكورو كانت الاهالى قد جمعت كمية من
الاحجار وأرسلوا يطلبون منه أن يعين لهم مكان العماره لينقلوا اليها تلك
الاحجار . فقدم بقرة هدية للرسل وأقام لهم حفلة رقص . والظاهر أنهم
سروا كثيراً من مقابلته لهم وعاد أولئك الرسل الى قراهم وبصحبتهم
مركب على ظهره ضابط و ٢٠ جندياً . وهكذا فاز سير صمويل بيكر
فى كل أعماله وفى جميع الامور فخضعت له الاهالى خضوعاً تاماً وذاع فى البلد
بسرعة البرق خبر عدو الخيل وفعل قرينات «سنيدر» فارتعدت من ذلك فرائص
الاهالى . وشاع أن ليس هناك مقر للمواشى من الخيول وان راكبها فى
استطاعته أن يطلق النيران وهى فى أسرع جريها وأن لا شىء يمكنه مقاومة
هذه الحيوانات الغريبة النادرة . وكانوا يعتبرون قرينات « سنيدر » كطلم

من الطلاس . وهكذا كان يعتبر الاهالى ايضاً غطاء الرأس شكل «كاسك» الذى كان يلبسه سير صمويل بيكر والملازم أول بيكر .

ولم يدهش سير صمويل بيكر إلا قليلاً عندما علم من مترجميه أن الشيخ الاورون يبتهل طالباً السلم ويرغب فى الطاعة للحكومة .

وفى ١٤ ديسمبر كان قد حل عيد الفطر . وفى ذلك اليوم كل أنسان ذكر أو أنثى يلبس حلة جديدة مهما كان فقيراً وكان قد مضى لغاية هذا التاريخ اثنا عشر شهراً والمواصلات مقطوعة مع الخرطوم .

ولم يعد لدى العساكر بعد أن قاموا بأشغال حمة وقنال كثير وعانوا كثيراً من السير فى الادغال الشائكة إلا أسمال بالية يرتدونها على أجسامهم ومع ذلك كان العيد قد اقترب .

وفى ١٣ ديسمبر أعنى يوم الوقفة استدعى سير صمويل بيكر الضباط فى الحزن وسلمهم ملابس جديدة اىوزعوها على الجنود . وأعطى الى كل من ال ٣١٢ ضابطاً وجندياً الذين كان قد تعين أن يرافقوه فى داخلية البلاد قيصاً أحمر من الفانلا وسروالا « بنطلونا » أبيض .

وفى ١٤ ديسمبر أذن دوى المدافع فى الناس بالعيد عند شروق الشمس وذهب سير صمويل بيكر الى المعسكر العام متطياً ظهر جواده وهناك استعرض الجند فى ملابسهم الجديدة فكانت كل الوجوه طافحة بالبشر ثم التى خطبة وجيزة فتولبت ثلاث مرات بالتصفيق الشديد .

وقد أدهشت كثرة الموجودات فى مخازنه المعسكر والبحارة دهشاً عظيماً

ورسخ في أذهانهم أنه حتى إذا قطعت المواصلات مع الخرطوم فلا يكون ذلك موجبا لوقوع الحملة في العوز والحاجة .

وكان النظام سائداً في غندوكورو والامن مستتباً والمؤن متوافرة والمحطة محصنة تحصينا تاما . وكان البحث يدور في صدد التقدم نحو الجنوب . فأول الخطط التي اختطها سير صمويل بيكر كانت واضحة جلية وتنحصر في إيجاد خط مراكز محصنة يبعد الواحد منها عن الآخر مسيرة ثلاثة أيام لصيانة مواصلاته مع غندوكورو .

غير أنه لسوء الحظ استصحب معه عددا من الجنود يقل عن العدد اللازم ٣٥٠ جنديا و ال ١٢٠٠ جندي الذين كان قد استعرضهم مبدئياً في غندوكورو لم يبق لديه منهم إلا ٥٠٠ فقط وذلك بسبب الوفاة والمرض ورجوع من رجع الى الخرطوم لعدم صلاحيته .

ولما كان لا يمكنه أن يترك في المعسكر العام أقل من ٣٤٠ جنديا من ضمنهم ٥٢ بحاراً لم يبق لديه إلا ٢١٢ ضابطا وجنديا للقيام بصراع طويل غير مأمون العاقبة بعيد عن قاعدته . هذا فضلا عن قطع الامل من الحصول على مدد ما إذا قامت أمامه صعوبات غير منتظرة وقد قرر السفر رغما عن كل ما ذكر .

سنة ١٨٧٢ م

وصول الحملة الى شلالات فولاً

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ في الساعة الثامنة صباحاً سافرت الحملة .
وصادفت ذهبية سير صمويل بيكر ريحا طيبة فأدركت عاجلاً السفين التي
كانت قد سبقته موسوقة بالاحمال الكاملة . غير أنه في الغد وما تلاه من
الايام عاكس الهواء والتيار جميع مراكب الحملة فلم تصل الى شلالات
فولاً إلا في ٢٧ يناير .

ووفد شيخ الناحية المسمى بيدن Bedden وزار سير صمويل بيكر
فأهدى اليه هذا كسوة أرجوانية اللون وطلب منه أن يحضر حمالين لنقل
متاعه الى « لابوريه » Laboré التي تبعد مسافة ١٠٠ كيلومترا تقريباً فوعده
الشيخ باجابة طلبه وانصرف غير أنه لم يبر قط بوعده . ولم يقتصر الحال على
ذلك بل بدت البغضاء من جانب الاهالى فاضطر سير صمويل بيكر أن يرسل
عليهم بعض صواريخ انتقاماً منهم فأحرقت بعض الاكواخ في أقرب القرى .
ولما لم يأت الحمالون وكان في غير امكانه أن ينتظر الى ما شاء الله عول على أن
يسافر مع مقدمة من الجند الى لابوريه ويترك معظم قوته ومتاعه ثم عند ما
يصل الى تلك الناحية يرسل الحمالين اللازمين ليأتوا بباقي الحملة لأن سكان هذه
الناحية كانوا قد أبدوا له شعور المودة حين سفرته الأولى .

وأودع سير صمويل بيكر عند الصاغقول اغاسى عبد الله افندى
الانساونى ١٤٥ جندياً ومدفعاً واحداً وفوض اليه حراسة السفن وقطيع الماشية .

وألقت تلك السفن مراسيها متراسة الواحدة تلو الأخرى عند ملتقى نهر قد
نضبت مياهه في ذلك الحين . وكان يرجى من ضفاته المتقاطعة تقاطعاً
عمودياً حماية مواشى الحملة ثم أمر من باب زيادة الاحتياط بسد الخور
بعوسج شائك على بعد ١٠٠ متر من النهر فيكون الخور بهذا العمل بمثابة
حظيرة في منخفض من الأرض تصان فيها الماشية . وخصص ٦٠ جندياً للقيام
بالحراسة ليلاً يوضع نصفهم على كل ضفة وأن ينصب المدفع محشواً
بالرصاص على رابية واقعة على بعد ٢٠ متراً من الضفة في مواجهة وسط
الخط الذي كوته السفن ليمنع كل اقتراب سواء كان من الوجه أم من
الجانب اليمين .

وصولها الى لابوريه

وفي ٨ فبراير الساعة ٣ مساءً ولي سير صمويل بيكر ومن معه وجوهم
شطر « لابوريه » فوصلوا إليها في ١٢ فبراير بسلام وبدون أن يطلقوا عياراً
واحداً . وقدم شيخ لابوريه وأدى الزيارة لسير صمويل بيكر فأحاطه
بمقصده من هذه الرحلة وطلب منه حمالين فأجابه الشيخ أنه يقبل بطيبة خاطر
أن تذهب رجاله الى السفن اذا كانت مخفورة بعسكر . فقبل سير صمويل
بيكر هذا الشرط . وفي ١٦ من الشهر المذكور سافرت الرجال الذين نيط
بهم جلب الآلات تحرسهم شزيمة مؤلفة من ٥٠ جندياً وكان عدد اولئك
الرجال ٤٠٠ نفس تقريباً .

وفي ٢٤ من هذا الشهر وصل الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى الى
لابوريه بالصحة والسلامة يصحبه كل ما كان قد ترك في عهده . وقدم لسير
صمويل بيكر تقريراً مطولاً عن الحوادث التي جرت في غيبته يتاخص في السطور

القليلة الآتية وهي :-

« في ليل ١٧ فبراير بينما كان الضباط والعساكر غارقين في نومهم انقض على المعسكر عدة الوف من الأهالي ولولا يقظة جندي أو جنديين وعدم استسلامهما للنوم كرفقائهما لذبح الجيش برمته . وقد أدرك الجند الذعر لأول وهلة فولوا الادبار تاركين المدفع بين أيدي الباريين غير أن عبد الله افندى الدنساوي والضباط جمعوا شتاتهم فعادوا للقتال وحاصروا العدو بين نارين واستردوا المدفع ورموا ذلك العدو ببعض مقذوفات منه فلم يسعه إلا أن يرتد على أعقابيه ».

وصولها الى فاتيكو

وقبل أن يولى سير صمويل بيكر وجهه شطر الجنوب اكترى ٧٠٠ رجل من الأهالي بصفة حمالين ورعاة للماشية حتى لا ينهك قوى جنوده في هذا العمل وهم مسافرون الى « فاتيكو » Fatiko .

وابتهج الاهالي في يوم ٢٨ فبراير باقامة حفلة راقصة وفي اليوم التالي سافرت الحملة فأوغلت في أرض كثيرة الارتفاعات والمنخفضات والغابات تسكنها قبيلة تسمى المادي Madis إلا أن قراها خربها تقريباً صيادو العيد التابعون لأبي السعود .

وفي ٢ مارس وصلت الحملة الى سهل جميل عظيم سمى سير صمويل بيكر « الابراهيمية » نسبة لاسم ابراهيم باشا والد الجناب الخديو وتسميه الأهالي « افودو » Affoudo والمسافة من « لابوريه » الى هذا السهل هي ستون كيلومترا .

وفي ٥ مارس عسكرت الحملة في سفح جبل « شوا » Choua الواقع على مسافة قريبة من « فاتيكو » . وفي ٦ مارس سنة ١٨٧٢ تركت الحملة في البكور معسكرها التي اقامته في سفح جبل شوا ولبست الجنود أحسن كساويها طبقاً لأوامر سير صمويل بيكر وبدأ عليها نشاط ربما كان السبب فيه يرجع الى الهواء الطلق المنعش الذي يسود تلك النجود التي يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ متر والتي يمكن اعتبارها بمثابة جنة افريقية . وكان لا يوجد في هذه الاصقاع عدو يجب الاحتراس منه لأن سير صمويل بيكر كان قد أقام في نواحيها مدة خمسة أشهر وارتبط بأهلها وكان واثقاً أنه سيقابل في « فاتيكو » باخلاص وترحاب .

وتقرر المسير بالنظام والترتيب الآتي وهو أن يسير سير صمويل بيكر وعقيلته والملازم بيكر ثلاثتهم في المقدمة ممتطين ظهور الجياد يتقدمهم خمسة جنود من حرس سير صمويل الخصوصي ويلهمم البكبشي عبد القادر افندي مع بقية الفئة المنتخبة ثم الجيش صفاً صفاً وبعده الأمتعة فالاربعمائة حمال التابعون للحملة وفي الآخر الماشية .

ولم يبق عليهم للوصول الى فاتيكو سوى مسيرة عشرة كيلومترات في طريق يفوق وصف كل واصف جمالا وجلالا . فتسلقت الجنود مرتفعاً الى أن وصلت الى نجد من حجر الصوان تقع عين الواقف فوقه على منظر يأخذ بالالباب لفخامته ويتراى البصر منه غرباً في النواحي البديعة التي تركها خلفه الى ما وراء النيل فيصل الى الجبال المرتفعة الى أعلى الافق .

وبعد ما بارحت الحملة النجد سلكت طريقاً زلقاً حفرتة الأمطار التي نزلت أخيراً فكانت تسير فيه محترسة الى أن وصلت الى سهل فاتيكو حيث

وقفت تحت كومة هائلة من حجر الصوان وهي بتايا جبل قد انهار فالتخذت منها ملجأ يقيها أشعة الشمس في النهار .

وكانت الحملة قد وصلت الى نجد متوج بالاعشاب بدون أن يتنبه الأهالي اليها وأمامها على بعد ١٥٠٠ متر كانت تظهر محطة أبي السعود الشاسعة الواسعة . وبينما كانت واقفة في انتظار وصول المواشي فخص سير صمويل بيكر وهو جالس على صخرة يبصره كل ما يحيط به فرأى أن ظهورها على حين فجأة أحدث هرجا ومرجا بين الأهالي .

وتحركت الحملة على أثر وصول مؤخرتها وتنفخ في الأبواق إيذانا بالسير فتقدم الجند بنظام تام وأمامه الموسيقى واقترب بعض الأهالي منها فعرفوا سير صمويل بيكر وعقيلته وقفوا راجعين الى القرية وأخبروها بحماية الأمر . وقد كان منظر العساكر بهيجا وأثار دخولهم في فاتييكو عجب الأهالي إذ لم يسبق لأواسط افريقية أن تشهد مثله .

وكان سير صمويل بيكر قد رتب الحملة ترتيبا أنيقا فكان لديه ٢١٢ جنديا منظمين أتم تنظيم وماشية منظرها يسر الناظرين وكمية كبيرة من المؤونة . ففضى وصولها بهذا التنسيق العجيب على آمال أبي السعود قضاء مبرما .

وبعد مصاعب ومشاق وصل سير صمويل بيكر في آخر الأمر الى مأوى صيادى الرقيق . فأتى أبو السعود لمقابلته وطلب منه مع التذلل الذى دأب عليه ولم يفارقه أن يدخل مع رفاقه فى بعض أكواخ كان قد أعدها لنزولهم فرفض سير صمويل بيكر هذه الدعوة إذ كان يرغب أن ينصب معسكره أبعد من ذلك بأربعمائة متر تحت أشجار ضخمة من أشجار الأثل حيث كان

قد عسكر من بضع سنوات مضت . وفي الحال يعم ذلك المكان المحفوف بقطع من حجر الصوان الضخمة والذي تظله أوراق الاشجار الكثيفة بظلال وارفة .

هناك وقفت الحملة وبعد يسير من الزمن كان المضرب قد نصب وصارت بذلك الحملة على مسافة ٧٧ كيلومترا من ملتقى نهر « اونيامه » Oun-y-Amé و ١٣٦ كيلومترا من « لابوريه » و ٢٦١ كيلومترا من غندوكورو . وقد أحضر أبو السعود من محطته كثيرا من السقوف القش لضباطها واتخذ الجنود لهم اكواخا موقفة وأدخلت الماشية بين مدرج منتظم من الصخور لتقضى فيه الليل .

وفي ٨ مارس استعرض سير صمويل بيكر الجيش وبعد أن نبه الأهالي أمر بعمل شبه قتال وهجوم على جبل « شوا » Choua . وبعد أن أطلقت بعض الصواريخ على العدو وهى انقسم الجند قسمين فتسلقا الجبل كل قسم من ناحية منه ثم انضموا الى بعضهما فى النجد الذى بقمته المكون من حجر الصوان . وهذه المناورة التى نجحت نجاحا باهرا سر لها الأهالي الذين كانوا قد أتوا فى جموع عديدة لرؤية هذه الحرب الصغيرة سرورا عظيما . وبعد اطلاق عدة طلقات نارية نزل الجند من الجبل وعادوا الى معسكرهم تتقدمهم الموسيقى وهى تصدح بألحانها .

وكان لصوص أبي السعود قد خربوا تلك النواحي . ولما كانت الأهالي لا تستطيع مقاومتهم فكثير من القرى نهبت واقتيد سكانها من نساء وأولاد فى قيود الرق والعبودية .

كان أبو السعود يعتقد أن سير صمويل بيكر لا يمكنه مبارحة

غندوكورو غير أنه لما كان كثير الحيلة نصح رجال قبائل « الشولى » Shouli على كل حال أن يهاجموه اذا قدم ديارهم . وعلى هذا اعتبر الأهالى سير صمويل بيكر الذى كانوا يجهلون قدومه انه عدوهم الى أن رأوه رأى العين وعرفوا فيه وفي اللادى قرينته صديقيهما القديمين واذا كان قد رآهم يركضون ويلوحون بالمزاريق والتروس فما ذاك إلا لأن أبا السعود كان قد أغراهم على مهاجمته من غير أن يترشوا ولا دقيقة واحدة ووعدهم بمساعدة رجاله فى هذا الامر ولكنهم عند ما شاهدوا قواته وعرفوا عدم فائدة الهجوم بادروا بإرسال البعض منهم له ليستعلموا منه عن مقاصده . ورداً على يئانه لرغبات الخديو أكد له أصدقاؤه القدماء أن البلاد كلها بقضها وقضيضها تنضم اليه وتجتمع حول حكومة سالحة وان كل ما يريدونه اقامة العدل وحمايتهم وأن رجوعه بث فى قلوبهم جميعاً الطمأنينة .

وكتب سير صمويل بيكر فى الحال الى سائر وكلاء أبى السعود فى مختلف المحطات أن الاتفاق الذى أبرم مع العقاد ينتهى أجله فى آخر شهر محرم فكل عمل يعمل باسمه بعد هذا التاريخ يعتبر غير قانونى .

وأعلن رسمياً جميع مستخدمى أبى السعود بأن يباحوا هذه البلاد أو يسلكوا مسلكاً شريفاً ووعدهم بأن يأويهم فى غندوكورو ويزرعوا جزر النيل الخصبية بدون أن يدفعوا ضريبة ما . واذا ارادوا الدخول فى خدمة الحكومة بصفة جنود غير نظامية يقدم لهم راتباً مساوياً لراتب الجنود النظامية ويكون لديهم امتياز خدمة سنة فقط .

ووطد سير صمويل بيكر العزم على اقامة محطة فى فاتيكو لتمثل فيها الحكومة فى غضون رحلته الى الجنوب .

وقد أقسم له أبو السعود يمين الاخلاص واتفق معه على أنه عند ما تنتهى مدة عقده تبطل كل الاعمال المسماة تجارية وانه يبقى فى البلد من باب التساهل فقط وذلك لغاية ما يجد وسيلة لنقل العاج الذى جمعه الى غندوكورو ويتعهد أن يجرد السبعين رجلا الذين فى خدمته من الباريين من الاسلحة حتى لا يوجد بعد ذلك سلاح نارى بين أيدي اهالى معادين للحكومة . ولكنه كمادته غش سير صمويل بيكر فجرد الباريين من الأسلحة النارية ثم عاد فردها اليهم بعد سفر سير صمويل .

ولم تكن فاتيكو إلا قرية بسيطة من قرى بلاد « شولى » الواسعة التى كان يحكمها الشيخ « روت جرما » Rot-Djarma وهذا كان قد بلغ سير صمويل ينكر نيته أن يقدم خضوعه للحكومة أمامه .

وقد جمع سير صمويل بيكر مائتى حمال وأعطى تعليماته للصاغ قول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى واختار موضع المحطة على بعد ثمانين مترا تقريبا من محطة أبى السعود وأقسم له هذا الاخير من جديد أغلظ الايمان أن يسلك مسلكا شريفا .

سفر الحملة الى أونيو—ورو

أخذ سير صمويل بيكر بعد ذلك يستعد للرحيل الى اقليم « اونيوورو » Ounyorو الذى كانت تفصله منه مسيرة مائة وخمسة وعشرين كيلومترا فى مروج غير مأهولة وكان يقوده فى هذه السفرة أمينه وضديقه شولى Shouli .

فسافر فى ١٨ مارس سنة ١٨٧٢ بعد أن ودع الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى وترك له جانبا عظيما من الابقار والاغنام .

وكانت حدود الأرض المأهولة على بعد أربعة كيلومترات من معسكر فاتيكو ومن بعد ذلك لغاية « أونيوورو » يمشى الانسان في جوف أرض مقفرة.

وأظهر اهالى فاتيكو شئما يفوق شئم اهالى لابوريه من جهة الاخلاق والآداب حتى أن أحدهم أصيب بمرض في ساقه منعه عن السفر فرد البقرة التى كان أخذها في نظير كراه ويين في الوقت ذاته الداعى لتخلفه . وهذا هو الوحيد الذي تخلف عن السفر .

وفي ٢٢ مارس وصل سير صمويل بيكر ورفاقه الى نيل فكتوريا الكبير في « فويرا » Foweira الذى يجرى بين ضفاف يبلغ ارتفاعها من عشرين الى خمسة وعشرين مترا في جوف غابة نضرة . فقرحوا فرحا عظيما إذ وجدوا ماء رائقا صافيا بعد أن قدر عليهم أن يسيغوا مدة أربعة أيام ماء كريها من مستنقعات تمرغت فيها الافيال والجاموس .

واجتاز سليمان وادريس النهر بقصد زيارة سير صمويل بيكر . وهذان الشخصان هما وكيلان لأبى السعود وكان يعرف سير صمويل بيكر من رحلته الأولى انهما اشتركا في حملة ابراهيم فبادر وأحاطها بانتهاء عقد العقد الأمر الذى كان قد أخفاه أبو السعود عنهما اخفاء تاما .

وأنى ايضا أكبر شيخ في الناحية لزيارته وهو المدعو « كيوونجا » Qouonga ومعه حاشية كبيرة وهو أحد معارفه القدماء والمستشار المحبوب لدى ملك أونيوورو المدعو « كمراسى » Kamrasi الذى توفي منذ عامين .

وحمل له هذا الشيخ اخباراً هامة للغاية . ذلك أن موت « كمراسى » سبب حربا مدنية شبت نيرانها بين ولدى الملك المعزوزين « كباريجا » Kabba-Réga

و « كبايرو » Kabb-Miro والعدو اللدود للأسرة « ريونجا » Rionga ابن عم الملك المتوفى . وان الثانى قتل واعتلى الأول عرش والده .

وأحاط سير صمويل بيكر « كوؤنجا » بمشروعات الإصلاحات التى كان ينوى اتخاذها وسامه بعض الهدايا « لكباريجا » الذى كان يقيم على مسافة مسيرة ستة أيام تقريبا .

وكانت الثبوتة تصل رغما عن وعود الشيخ ببطء عظيم لدرجة كان يخشى معها أن تقع الحملة فى العوز والاحتياج فاضطر سير صمويل بيكر ان يقوم بمظاهرة عسكرية ليحمه على انجاز الطلبات فى الحال .

وفى ٥ أبريل زار السير بيكر جمع من كبار المشايخ ومن بينهم « راهونكا » Rahonka خال كمرازى وفى الغد وصل رسل « لكباريجا » ومعهم بقرتان جميلتا المنظر وشيء من الملح وجانب من الموز هدية لسير صمويل .

وفى ٧ أبريل سر سرورا كبيرا إذ قيد فى هذا التاريخ عقودا يتعهد فيها كافة رجال سليمان وادريس بخدمة الحكومة لمدة سنة وعلى ذلك صار فى استطاعته بعد الآن ان يؤسس خلفه محطة فى فويرا لتجسس مراقبه فى مدة سفره الى مازندى عاصمة بلد أونيوورو .

وفى ١١ أبريل بينما كانت الحملة متأهبة للسفر حضر سليمان واخبر سير صمويل بيكر بأن لديه اشغالا هامة تعوقه عن السفر فى هذا اليوم برفقته . فأذن له سير صمويل بالتخلف وأمره فى الوقت نفسه بأن يلحقه فى أقرب وقت ممكن إذ أنه يريد ان يقدمه الى « لكباريجا » بصفة وكيل عن الحكومة .

وسافرت الحملة من فويرا في الساعة الثامنة والنصف ووصلت بعد مسيرة ٣٤ كيلومترا الى « كيزونا » Kisouna وهي أول محطة وكان المطر ينهر عليها اثناء مسيرها ، والضياح العديدة التي تتألف منها هذه البلدة كانت منبثة بين باقات الموز كأوكار الطيور .

ولم يحضر أحد من الأهالي في الغد لتوريد ما يلزم من الزاد ومما زاد في الطين بلة أن سير صمويل لم يجد حتى ولا شخصا واحدا من المائتي حامل الذين كانوا برفقته إذ كانوا قد تسربوا ليلا . فاضطر أن يوقف سير الحملة وأن يرجع البكباشي عبد القادر افندى الى فويرا ومعه ثلاثون جنديا ويكفنه أن يأمر سليمان بجمع ثلثمائة رجل .

وقد أنجز هذا الضابط اليقظ البارع مأموريته وعاد في ظرف ٢٧ ساعة قطع فيها ثمانية وستين كيلومترا .

وفي ١٤ أبريل قدم « كوونجا » شيخ هذه الناحية وأخبر سير صمويل بيكر بأن الملك « كباريجا » مشتاق لرؤيته كثيرا .

وفي الساعة الحادية عشرة من يوم ١٥ أبريل قامت الحملة ووصلت في الغد الى « كوكي » Koki فحضر رئيسها المدعو « كيتاكارا » Kittakara وزارها . اختفى جميع حمالي الحملة وأحضر لها غيرهم في ١٩ أبريل فأمكنها ان

تعاود مسيرها في جوف بلاد مخصبة خصبا مدهشا ولكن خربتها الحروب الاهلية التي حدثت بعد وفاة الملك « كمرازي » وانتهت بقتل الملك الشرعي « كباميرو » واستواء « كباريجا » على العرش . وفي ٢٠ أبريل رأى سير صمويل بيكر من فوق مرتفع على بعد ٣٢ كيلومترا غربا مياه

البرت نينازا وكان إذ ذاك على مسافة ٤٣ كيلومترا من « مازندى » المعسكر العام للملك « كبارنجيا » ومع ان الجمالين الذين أحضروا كانوا يتوارون عن الاعين تدريجيا بعد احضارهم فقد تمكنت الحملة من الوصول الى المحل الذى يمته فى ٢٥ أبريل .

وتشغل مازندى عاصمة « اونيورو » نجدا غير مستوى السطح يمتد منه البصر الى مسافات شاسعة وتحجب الأفق الغربى منه على بعد ٨٠ كيلومترا سلسلة جبال ممتدة على شاطئ البرت نينازا وتغطى الاعشاب الطويلة كل مكان فى ذلك النجد .

وكانت الحملة على مسافة ١٢٥ كيلومترا من « فويرا » و ٥٣٥ من الاسماعيليه تقريبا . وأرسل « كبارنجيا » هدية الى سير صمويل بيكر مؤلفة من ٢٩ حملا من حبة يسميها الاهالى هناك « طلابون » وكمية وافرة من الموز والبطاطس وست عنزات .

وفى ٢٦ أبريل زار سير صمويل بيكر الملك الزبارة الرسمية فكانت الضباط والعساكر مرتدية ثياب التشريفة الكبرى تتقدمهم الموسيقى .

وكان الملك « كبارنجيا » متسربلا حلة جميلة من قشور الشجر مخططة بخطوط سوداء وكان يلوح أنه فى العشرين من العمر تقريبا . وحادث سير صمويل بيكر عن أعمال شركات أبى السعود العظيمة وكان حديثه فى ذلك مطابقا لما قرره رجاله وأعرب له عن الفرح الذى أدركه بمناسبة قدومه والسرور الذى شمله عند ما علم ايقاف بعض رجال أبى السعود . فجأوبه سير صمويل على هذا الكلام وأبان له حسن مقاصد الخديو ثم قال للملك انه

متأسف كثيراً للانقلابات التي حدثت في البلاد من وقت زيارته لها واستشف من خلال المستقبل خيرات كثيرة وإيما سعيدة وأكده أن ليس له أن يخشى أمرا مادام حاصلا على حماية مصر .

وكان كباريجا قد وطد العزم أن يرد الزيارة لسير صمويل بيكر في ٢٧ أبريل فاصطفت الجنود وهي متحيلة بكساوى التشريفة على جانبي الطريق المتسعة التي كان قد اختطها مبتدئة من ديوان الملك ومتصلة بسراقة الخوصى ووقف رجال الموسيقى بالقرب من ذلك السراق الذي شمرت جوانبه وفرش بالسجاد .

وبعد مضي بضع دقائق دوت اصوات الأبواق وقرعت الطبول ورنّت الصفافير مؤذنة بوصول الملك الذي كان يتقدم بكيفية غاية في الغرابة إذ كان يمشى بخطوات واسعة كأنه كان يريد أن يهمل خطوات الزرافة .

وهكذا كان يمشى كباريجا ومن خلفه كبار رؤساء بلده « كيتا كارا » Kittakara و « ماتونسيه » Matonsé و « كوونجا » وكثيرون غيرهم . ولما اقترب من الموسيقى وصدحت هذه بألحانها ذهل عند ذلك ودخل في السراق بشكل لا يليق بملك . وكانت هيئته تدل على شيء من الجبن والجرأة في وقت واحد . وبعد تردد قليل كانت في أثنائه أعصابه ترتجف قلقة جلس على المقعد الذي كان قد أعد له وجلس كبار رؤسائه على الجلود والسجاجيد وقدمت له القهوة والمشروبات فأبى أن يشرب شيئا غير أنه أمر اثنين من الرؤساء أن يحتسبا شيئا منها أمامه . وبينما كانا يتجرعان كان هو يحدد فيهما نظره منتظرا ولا شك فعل السم في أمعائهما .

ولكى يغير سير صمويل بيكر مجرى الحديث استحضر علة كبيرة من المعدن ممتلئة بصنوف من الهدايا ومن ضمنها ساعة وقال للملك ان هذه الساعة كانت برسم والده « كمرزى » . فقال له عندئذ « كباريجا » انه يعلم انه كان الصديق الأمين لوالده وأنه يتقبل بطيبة خاطر كل هدية كانت باسم أبيه . واستأذن حينئذ « كباريجا » وانصرف عائداً من الطريق الذى أتى منه .

وفى ٢٩ أبريل شرع سير صمويل بيكر فى تشييد دار للحكومة وديوان عام وكان للملك اوغنده Ouganda المسمى « متيسا » Mtésé سفراء فى كل البلاد المحيطة بأراضيه . فزار مفوض هذا الملك سير صمويل بيكر وأمدّه بارشادات قيمة ومفيدة .

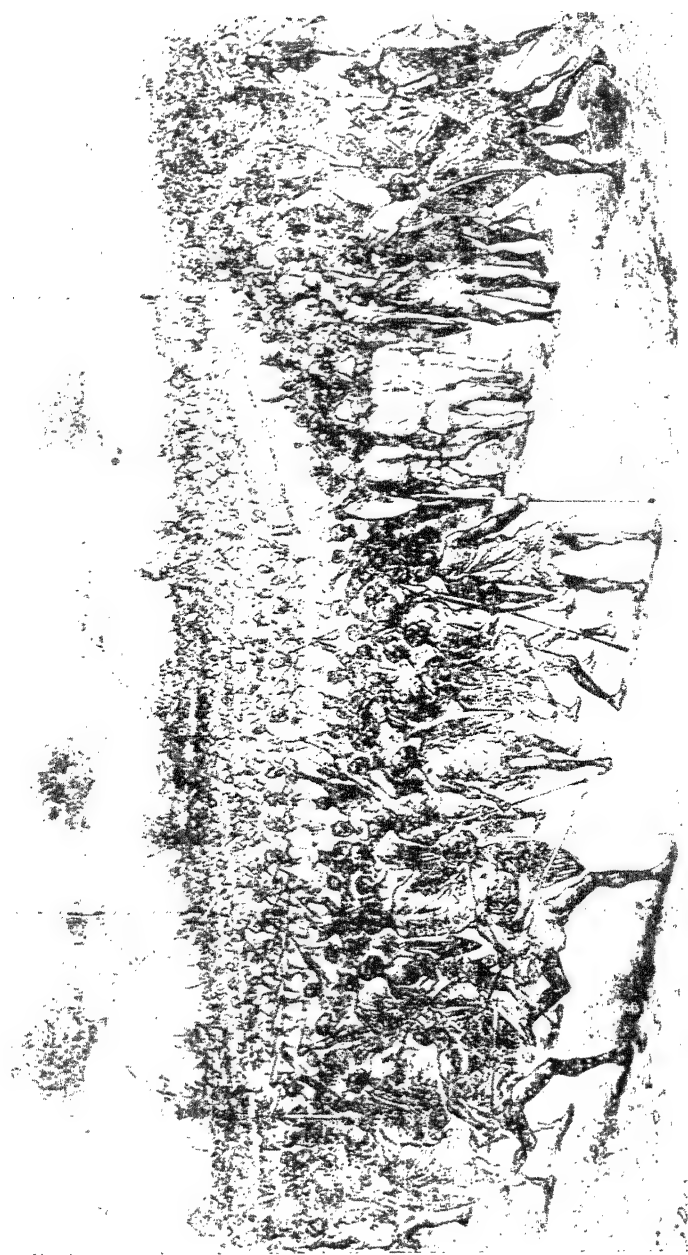
وفى ٣٠ أبريل أرسل كباريجا الى سير صمويل بيكر هدية مؤلفة من ١٢ ناب فيل و ٤١ حملا من حبوب « طلابون » و ١٢ وعاء من شراب الموز و ٣٤ بقرة .

استيلاء الحملة على أونيوورو

وفى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ وضع سير صمويل بيكر يده على مقاطعة « أونيوورو » باسم خديو مصر بالطرق والاحتفالات المعتادة وبحضور كباريجا ونحو الف من الأهالى . وحالما انتهت الحملة أرسل الملك ١٢ عنزة هدية للدلالة على رضاه وشكره .

وفى ٢٣ مايو سافرت شرذمة أرسلها سير صمويل بيكر الى فاتيكو وتتألف هذه الشرذمة من ١٢ جنديا من العساكر النظامية وجاويش

صباح من الجند المصرية والسودانية أمام مظاهر عداية من الأيوبيين



و ٢٥ جنديا من العساكر غير النظامية يقودهم الترجمان محمد و ٣٠٠ من الأهالي لمل متاع الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى وقد خفض سفر تلك الشزيمة قوات سير صمويل بيكر تخفيضا هائلا فلم يبق لديه إلا مائة عسكرى نظامى و ٤ بحارة و ٤ من الباريين مسلحين .

ومع ذلك لم يكن ما أظهره الملك عند ضم بلده الى الحكومة المصرية من الرضا والارتياح إلا تمويها . فقد قامت عدة مظاهرات عدائية من الأهالي إلا ان نقطة سير صمويل بيكر ومهارته أحبطت تلك المظاهرات .

وقد وطد سير صمويل بيكر العزم على اقامة حصن دائر تحميه ستارة من التراب وخنندق عمقه متران حتى لا يؤخذ الجند على غرة ، الأمر الذى لا يبعد حدوثه نظراً لما هو معلوم من ميل الاهالى للخيانة . وأخذ رجاله فى العمل بنشاطهم المعهود فبهلت قلوب الأهالي خوفا من ذلك ولكنه جعلهم يركنون الى الوثوق بأنه لا يريد بهذا العمل إلا تغطية مخازن بارود الحملة وبذلك تكون مدينة مازندى Masindi فى مأمن من الحريق . وقد ابتدأ العمل فى الحصن فى ٢ يونيه وانتهى فى ٥ منه وفى ظرف أربعة ايام صار موضع المحطة آمناً من عقاب الجو .

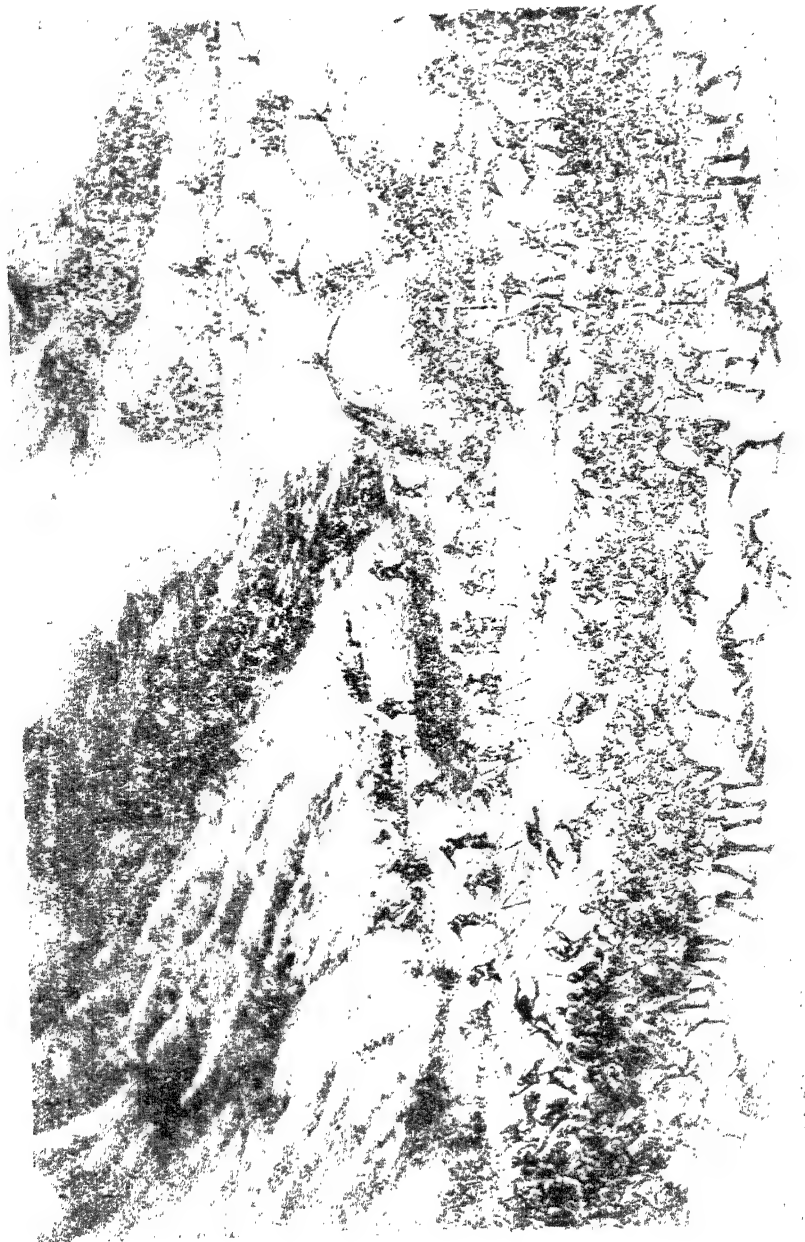
وفى ٤ يونيه جاء رسل من قبل « متيسا » ملك أوغندة ومعهم رسالة مكتوبة باللغة العربية فأنحفهم سير صمويل بيكر بشيء كثير من الهدايا لهم ولدايهم . وأعطاهم من كتبوا للملك أوضح له فيه الغرض من مجيء الحملة . وفى ٥ يونيه رجعوا الى بلادهم مشروحي الصدر مغتبطين بزيارتهم .

وفي ٧ يونيوه لم يكن لدى الجند شيء من الزاد وانقطع ورود المؤونة رغم عن تكرار طلب وكثرة الوعود . وفي آخر النهار ورد لهم ست جرت من شراب الموز وورد ايضا جانب من الغلال . واتضح ان شراب كان ممزوجا بنسيم وكل من شرب منه وقع مريضا . ولكن لحسن الطالع تمكنوا بالعلاج في الحال وشفى الجميع من المرض .

وفي تلك العشية ساد سكون عميق في مازندى خلافا للمعادة فكان شبه شيء بهذوء الذي يسبق العاصفة . واستشف سير صمويل بيسكر سوء القصد من خلال الحوادث فأخذ الحذر وضاعف الحرس وأمر باليقظة واتخاذ الحيطة . وتمدد صوب في رد عين الحقيقة إذ ما كاد التجر يلوح حتى هاجم لأهلى حصن هجومه عما فردوا على أعقابهم بخسائر فادحة . ومن باب مقابلة شر بشر أرسل سير صمويل بيسكر الملازم فرج افندى السواحلى ومعه ١٥ جنديا وكفنه بحرق المدينة وفعلا أحرقها وفي ظرف ساعة من الزمان أضحت عاصمة وينورو أثرا بعد عين .

ام كيتارىخ فانه من بادىء الأمر تعلق بأذيال الفراز واختفى وفي غد ليوم ثنى بعث برس ليقرروا أن ما وقع لم يحدث إلا لسبب سوء تفاهة فزعموا أن مسئولية ذلك الحادث تقع على أحد الرؤساء المدعو « ماتونيه » وقالوا ان هذا سيعاقب وان الملك يأسف أشد الأسف على ما حصل . ومع ان سير صمويل لم يخذعه هذا القول إلا انه تظاهر بالتصديق حتى لا يستفحل الشر .

وفي ١٠ يونيوه أتاه رئيس ومعه عدد من الأهالى من قبل « كيتارىجا » وقدموا له على سبيل الهدية بقرتين لونهما أبيض ومنظرهما جميل وأكدوا



موقعه مارندني عاصمة آييمرو وفد اشكتات بها حدود الجبله مع الاونيورين

في ٨ يونيو سنة ١٨٧١

له صدق المودة فكان ما قالوه ينطبق على ما قالته الرسل الذين سبقوهم ثم قالوا له مؤكدين انه سيرد له قريباً كمية من المئونة و ٢٥ ناب فيل من الأنياب الفاخرة .

ولما كان سير صمويل يبكر ينجح كثيرا للسلم امتثل للقضاء وقبلت نفسه بأن يرسل للملك صندوق الموسيقى الكبير الذي كان يطمح دواما للحصول عليه .

وفي الغد أى ١١ يونيه أرسل ذلك الصندوق مع مندوبين وأصحابها بشيخ يكون معها بصفة دليل الى الملك الذى كان قد انسحب الى مدينة تبعد مسيرة نصف يوم .

ودخل الليل ولم يرجع المندوبان ولم يأت عنهما خبر فانشغل بال سير صمويل يبكر وساورته الأفكار .

وكان قد أقام معسكراً خارج الحصن فأمر باخلائه ووضع كل من كان به فى الداخل . وهذا احتياط يدل على الحكمة وبعد النظر ، ففى تلك الليلة أحرق الأهالى المعسكر لأنهم كانوا يأملون من وراء ذلك ان تخرج العساكر لتطفىء الحريق وتقع فى كمين غير أنه لم يخرج أحد وجب طمسهم .

وفى ١٣ يونيه فى نحو الساعة العاشرة صباحا انقض الوطنيون بغتة على ماشية الحملة التي كانت ترعى على مسافة ستين مترا من الحصن ورموا من بداخل الحصن بنبال مسمومة ودوت القذائف فوق رؤوسهم فكان القتال عاما وردوا بعد خسائر جسيمة .

لم يكن هنالك أى شك فى خداع « كباريجا » ثم ان سير صمويل ييكر أيقن أنه مع القوة القليلة التى فى حوزته ومع نقص المئونة لا يمكنه الإقامة فى البلد ليوطد فى ربوعها دعائم الأمن ولا أن ينشئ محطة دائمة فيترك فيها قسما من جنوده . وعلى هذا عقد النية على الرجوع وكان إذ ذاك يبعد عن المركز الذى كان قد أسسه فى « فويرا » مسافة سبعة أيام وكان لديه من المئونة ما يكفيه لقطع هذه المسافة . فجمع جنوده وبين لهم الحالة بجلاء ووزع عليهم المتاع الذى يتحتم نقله وقرر حرق ما يتبقى بعد ذلك .

ولم يخف سير صمويل ييكر عن رجاله أنه سوف يهاجمهم أعداء كامنون لهم فى الطريق وأن الفوز يتعلق بطاعتهم ورباطة جأشهم فقط . وأعطاهم تعليمات عن المسافة التى تلزم ان تكون بين الجندى والآخر وماهى المناورات التى يجب أن تعمل عند حدوث هجوم على الجناحين فى آن واحد .

وبعد أن أصغى الجنود والضباط اصغاء تاما للتعليمات التى وجهها اليهم قال الجميع بصوت واحد انهم مستعدون أن يتبعوه أيا ن يذهب وأي أن يقودهم وأن يطيعوه طاعة عمياء .

وبقى على سير صمويل ييكر أن يقوم بتضحية شديدة مؤلة . فقد كوم الأمتعة الأخرى فى ديوانه ووضع فوقها سرادقه الكبير وصب فوق كل هذا أثير حامض الكبريت والكحول وخلاصة الترابنتينة وكل محتويات صندوق العقاقير ولم يحتفظ منه إلا بملف مشمع وبعض أربطة وربطة كبيرة من الذسالة ووضع فى آخر الأمر فوق ذلك كله نحو الستين صاروخا .

تراجع الحملة عن أونيورو تحت ضغط الأهالى

وفى ١٤ يونيه فى الساعة التاسعة والنصف سارت المقدمة صفوفًا متتالية فى الدرب الرملى ثم وقفت عند نهاية محطة مازندى وكان يسود صفوفها سكون عميق اتباعًا للأمر .

والتفت سير صمويل بيكر الى المحطة التى أنشأها بشغف عظيم ليشهد زوالها وهى تحترق إذ وضعت مؤخرة الحملة النار على الكومة فتصاعد اللهب فى الهواء ثم اعطى أمراً بالسير . وارتفع الدخان فكان كالسحب المتراكمة البيضاء فوق الديوان ومسكن سير صمويل بيكر الخصوصى . واشتعلت النيران فى منزل الملازم بيكر واتصلت على التوالى بباقي المساكن . ولما تمت عملية التخريب والابادة سارت المؤخرة والتحققت بالجيش . ثم ما لبث الجيش أن دخل فى الحشائش العالية التى كانت تهبط تحت هطل الامطار . وهكذا ظلت الحملة سائرة نحو الكيلومتريين بدون أن تسمع همسا يشتم منه رائحة العداء . وبعد ذلك قامت خلفها ضججات وصيحات الأهالى الذين هرعوا الى المحطة عند ما رأوها تحترق . وكان يكثر وقوف الحملة بسبب تشتت المواشى وتراجعها فى سيرها حتى انها بعد مسيرة سبع ساعات ما كانت قطعت إلا مسافة ١٦ كيلومترا .

ولم يكن عرض الدرب الذى تسير فيه الحملة بين الحشائش يزيد على قدم واحدة وكان يشبه خطا رسمته أرجل الغنم . وبينما كان الجيش سائراً فى طريقه اذا بالمقدمة تصوب على حين فجأة نيرانا حامية والبوق ينفخ فيه

فى الوقت نفسه إىذا نا بالوقوف عن المسىر وأخذت الرماح تتطائر خلال الدرب غير أنه بعد بضع طلقات من افواه بنادق السنىدر أخلى الطريق وشق الجيش له ممراً بين الاعشاب ثم تسلق سفح التل . وهناك لم تكن حشائش . ووقف الجنـد فى ذلك المكان بين أشجار الموز وبعد أن رتب الحرس قطعت الرجال اشجاراً ونصبوها حاجزاً حول المعسكر .

ولم ينقطع المطر طول النهار وكانت فرائص جمىع الرجال ترتعد من البرد ولم يكن لدى الجيش مما يصلح للتدثر به إلا بعض المضارب التى لا تحترقها المياء وكانت فى حالة سيئة .

وكان لا يزال يوجد لدى الحملة حشيات (مراتب) ففضوا تلك الليلة براحة لا بأس بها . غير ان سىر صمويل بىكر كان يرى أن هذه هى آخر ليلة تتمتع فىها الحملة بهذه الحشايا إذ ان الاحمال الباهظة التى كانت تنوء ظهور الجنود تحت عبئها كانت تستدعى اتلاف البعض من المتاع وكان يسود المعسكر سكوت أشبه بسكوت أهل القبور . ونام جمىع رجال الحملة ولم يبق منها أحد متيقظا اللهم إلا الحراس .

وقد أحرق سىر صمويل بىكر قبل ان يسافر عدداً كبيراً من الاشياء التى تعوق السفر ومن ضمنها عضادة منظار الرصد « تلسكوب » المصنوعة من خشب البلوط . وبعد مسير ساعة ونصف وصل الجيش الى منحدر فى نهايته ارض فسيحة بها مستنقعات يقطعها من الوسط مجرى ماء . وما كادت تصل المقدمة الى مائة متر والجنـد من خلفها صفوفاً متراصة إلا وقامت ضجة هائلة حتى كأن الجحيم لفظ كل من به من مرده

وشياطين . وارتفع الصياح دفعة واحدة وضجت الطبول وقصفت أصوات
الأبواق والصفافير مع جلبة وضوضاء شديدة بهت من هولها الجند ووقفوا لحظة
وكان على رؤوسهم الطير . وكان يستشف من خلال تماوج الحشائش وحفيفها
الشديد وجود كمين واسع النطاق .

وفي الحال ألقى الجند الاحمال وخروا ركعا فكان وجه الواحد
منهم متجها يميناً ووجه الآخر يساراً وذلك عند ما بدأت المزاريق
تخترق الدرب . وإن هو إلا أن تفخ في البوق حتى اشتعلت
نار الحرب .

ولا يمكن القول كم من الزمن استمرت نار الحرب مستعرة
غير أنه من المحقق ان الجنود استنفدت مقدارا كبيرا من الذخيرة قبل
أن تضع الحرب اوزارها .

وفي نهاية الأمر أخذت اصوات الطبول تتعد . وعندئذ تفخ في
الابواق إيذانا بالسير . وقد وقع ضغط شديد على المؤخرة لأن الاهالى
انقضوا عليها في الدرب نفسه غير ان بنادق السنيدر اقتصت منهم قصاصا
عاجلا ومجيدا .

وكان سير صمويل ييكر مقتنعا بضرورة تخفيف احمال الرجال إذ
كان من الصعب حمل النقلات لأن أرجلها كانت تشبك بالحشائش .
ففتاح رجاله بهذا الصدد فكان جوابهم بالاجماع انهم لا يهابون الوطنيين إذا
كانت احمالهم اقل ثقلا .

وبناء على ذلك أمر بجمع الاحطاب وأضرمتها وأحرق فيها جميع الأمتعة

التي يتعسر نقلها . وبعد أن نفذ هذا الأمر أمر فتنفخ في البوق ايذانا بالمسير وأخذت الحملة سبيلها وكانت السماء رائية والشمس ترسل اشعتها فتجفف ثياب جنودها المبتلة .

ودوى فجأة صوت اطلاق البنادق في المقدمة وهوجت المؤخرة في الوقت نفسه فصبوب الجند الى الاعداء طلقات متواترة ومحكمة فلم يسع هؤلاء إلا اخلاء الطريق . ولكن لما رأى سير صمويل ييكر ان عساكره متهيجة كثيرا يدب فيها روح الحماس أمر أن ينفخ في البوق ايذانا بإبطال اطلاق النيران وبالمسير الى الأمام .

وصلت الحملة في نهاية الامر الى موضع جعل السير صمويل ييكر يفترض أنه محتل بقوة كبيرة من الاعداء إذ كانت الحملة تسير بموازاة صف من التلال الصخرية واقعة على يمينها وتتجه الى مخاضة لا يمكنها الوصول اليها إلا اذا تخطت قطعاً هائلة من الصوان مشرفة على تلك المخاضة من جميع نواحيها . وارتفاع كل قطعة من هذه القطع كان على أقل تقدير من ٦ الى ٨ اقدام وارتفاع البعض منها يزيد على ذلك وكانت تمتد تحت اقدامها وفي كل صوب حشائش عالية وباقات من الأشجار . وقد أوصى سير صمويل ييكر الجنود ألا يطلقوا النيران إلا اذا رأوا العدو وان يحكموا اطلاقها ويسددوا مراميها اليه .

وابتدأ الهجوم عند ما وصلت الحملة الى المنحنى الذي في تلك الجهة فأصيب البكباشي عبد القادر افندى بجرتين احدهما أصابته في ساعده والاخرى انزلت على جرموقه « توزلكه » المصنوع من جلد سميك . واخذت بنادق



واقعة الأونيوريين مع جنود الحملة عند السحابة من مازندى فى يوم ١٦ يونيه سنة ١٨٧٢ . ٢

السنيذر تفعل فعلها إلا أن الحملة بعد أن أطلقت الطلقات الأولى أسرع الخطى لكي تخرج من هذه الوهدة . وكانت المراحل التي قطعها قصيرة إلا أن سير صمويل ييكر رأى ضرورة الوصول إلى محل صالح للنزول فيه في وقت يترك مجالا لاقامة حاجز من فروع الأشجار والعوسج تتحصن فيه الجنود ليلا .

وانقضى الليل في هدوء وسكينة وفي ١٦ يونيه رحلت الجنود في الساعة السادسة والنصف بدون ضجة ولا ضوضاء . وحين وصولها عند جدول يجري في منخفض أرضه موحلة وقعت في كمين هاش . ذلك أن بعض الأعداء خرج من مخبئه وانقض على الصف الأول من المقدمة وفي الحال وقع كثير منهم يتخبطون في دمائهم إذ أصيبوا بطقت من أفواه بنادق السنيذر غير أن أحدهم أنقذ رحمه في صدر جندي لم ينطلق مقذوف بندقيته . وكان الجنود قد أسرفوا في إطلاق النيران أثناء السير كما أسرفوا في إطلاقها في السير السابق فصار من اللازم الضروري وضع حد لذلك .

فجمع سير صمويل ييكر جنوده وقتش اكياس الخرطوش ثم نبه عليهم ألا يطلقوا طلقات واحدا بدون أمر اللهم إلا إذا حصل رمي بمزراق فجاء وفي هذه الحالة تصوب بعض طلقات نحو المكان الذي أتى منه المزراق تصويبا محكما . وأنه من غير المصرح به إطلاق النار عنفوا بأي حجة كانت . وبعد أن وجه إلى عساكره هذا التأييب صرفهم فأخذوا يشتغلون بإقامة حاجز لحماية المعسكر .

وفي ١٧ يونيه عند الساعة السادسة والرابع صباحا عاودت الحملة السير

بقصد الوصول الى « كوكى » Koki وعرف سير صمويل بيسكر عدة قرى تجاوزتها بدون أن تقف فيها ووصلت الى طريق معبد يسع سير عربية ذات عجلتين . وكانت الظواهر كلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الطريق أعد نفا لجذب الحملة ووقعها فى كمين هائل . وما كادت التجريدة تسلك خطوات فى هذا الطريق حتى هوجمت . وإن هو إلا أن صوب الجند على الاعداء ناراً حامية حتى ولوا وتشتتوا وهم يعوون عواء الذئاب ويصفرون .

ورأى سير صمويل بيسكر فى ذلك اليوم ان حسابه لا يتفق والمسافات ودهش لذلك دهشا عظيما . إذ كان يجب أن يكون قد بلغ « كوكى » ومع ذلك فانه كان ما زال أمامه احراش كبيرة وحشائش ليس لها آخر . وقد كان واثقا أنه تجاوز « كوكى » وهى قرية تكتنفها المزارع وانه لم يخطئها إلا بسبب الطريق التى مهدت بقصد تضليله .

وفى الحال تطايرت الحراب فوق رؤوس الجنود فجوابتها بنادق السنيذر بسرعة البرق وارتفع صوت بوق مقدمة الحملة مناديا بالوقوف . وفى هذه اندفعة جرح الملازم محمد مصطفى افندى .

وفى ظرف ربع ساعة انتشر الضوء ودخلت الحملة فى واد واسع تكتنفه الغابات يبلغ سطحه $\frac{1}{4}$ من الافدنة وكان فى قلب ذلك الوادى بئر فيها ماء عذب وعمقها يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار واستدارتها واسعة ويمكن الانسان أن ينزل فيها بواسطة مدرجات محفورة فى جدارها الرملى . ووقفت الجنود فى هذا المكان . وكانت قد سلكت سلوكا محمودا واثمرت توصيات سير صمويل بيسكر الثمرة التى كان ينتظرها فمع مواصلة اطلاق النار لم يستنفدوا إلا

قليلا جداً من الذخيرة .

وفي ١٨ يونيه عند بزوغ الشمس سارت الحملة . ومن العيث ذكر جميع دقائق سلسلة المكامن والمخابىء التى صادفتها . ففى كل يوم كان يحصل هجوم وكانت كل الهجمات ترد بهمة لاتعرف الكلال . فطول يوم ١٨ هذا قاتل الجند قتالا شديداً . وأصيب فى ذلك اليوم أربعة جنود بجراح من الحراب وكانت مسألة الجرحى مسألة محيرة . وكان الجندى اذا خر قتيلا فمهما كان يبلغ كدر اخوانه من أجله فانهم كانوا لا يعودون للاهتمام به . ولكن ما العمل فى الجرحى ومن الصعب أن يتبعوا الحملة بدون حمالين ؟

وكان يستحيل الوقوف فى تلك الاقطار الشاسعة المغطاة بالأعشاب العالية والأشجار غير ان سير صمويل بيكر شاهد امامه تماما تلا تكلمه أجمة من أشجار الموز فعاون عقيلته فى الصعود اليه . وبعد قليل سارت الحملة فى أجمة كثيفة حيث الارض مجردة من الحشائش كما هو الحال دواما فى الاراضى المزروعة موزا .

ثم أمرت الحملة بالوقوف فقبول هذا الامر بالارتياح التام وبالأخص من النساء اللواتى كان قد انهكن احمالهن الثقيلة . ووضع سير صمويل بيكر كثيرا من الحراس مختلفين عن الاعين اختفاء تاما ليراقبوا العدو الذى كان ولا بد يتتبع خطواتهم ابتغاء الاستيلاء على متاع جريح كان قد تخلف .

وساد المعسكر سكوت عميق يشبه سكوت أهل القبور حتى ما كان يسمع

لمن به همس ولا ركز .

وكان يوم ١٩ يونيه من اشق الايام على الحملة فاجتازت عدة اخوار ووديان واحراش اشجارها مشتبكة يتعسر السير فيها . وفي تلك الارض هوجمت اكثر من مرة .

وبعد عشر دقائق وصلت الحملة الى مزرعة بطاطة وخرجت بغتة من الظلام الذى يسود الادغال والآجام الى الضوء الزاهر الذى يتلأأ في الاراضى المكشوفة وهذا من شأنه أن يبعث دواما في النفوس شيئا من الغبطة والهناء .

ووقف سير صمويل بيكر في وسط هذه المزرعة لينتظر مؤخرة الجيش . وصار الجيش الآن فوق ارض خالية من الحشائش والاحراش وبها اكواخ تأويه وحقول واسعة يمكنه ان يأخذ منها المقدار الذى يريده من البطاطة .

ولما وصلت المؤخرة جمع سير صمويل بيكر كل رجاله وأثنى على الضباط والعساكر لاطاعتهم وأوامره وقدم لهم التهانى على وصولهم الى هذا المكان بعد سفر طويل رغمًا عن كثرة الاعداء ومع خسارة طفيفة جدًا . وأحاطهم بأن المسافة الباقية بينهم وبين « فويرا » هي فقط ٣٣ كيلومترا وأنه يعرف الطريق الموصل اليها . ثم قال ان « ريونجا » سيصل اليه عما قريب خبر وصولهم . وأنه سيحصن المكان الذى هم نازلون به الآن وأنهم سيظلون به بضعة ايام ليتسنى في غضونهما للجرحى استرداد قوتهم . وأنه يلزم ان يشتغل كل انسان بصنع محفوظات من البطاطة . فقبل ان ينفرط عقد صفوف الجيش صفق الجند تصفيقا طويلا وجاوب سير صمويل بيكر على ذلك التكريم بأن أوصاهم

بالاعتماد على الله وعمل الواجب دوما . ثم اقام الجند حولهم حاجزا متينا وأقاموا به عدة ايام متحصنين . ورجعت للجرحى قوائم وشنت قدما اللادى ييكر تقريبا وتقرر سفر الحملة في ٢٣ يونيه .

وصولها الى فويرا وإقامة محطة جديدة

رحلت الحملة سحرا وبعد مسيرة ٢١ كيلومترا وصلت الى بئر فأناخت بحملها بجانبها لتقضى الليل ولم يخرج من رجالها في هذه المرحلة إلا شخص واحد . وفي يوم ٢٤ وصلت الحملة بعد مسيرة ١١ كيلومترا الى « فويرا » بدون أن تصادف في طريقها عدوا . وفويرا هذه هي معسكر سليمان القديم . وكان سير صمويل ييكر معتمدا على أن يجد فيه له ولرجاله ما يأويهم إلا أنه رأى أن كل الاكواخ قد احترقت ولم يبق من المعسكر إلا رماده .

وبلغت خسائر سير صمويل من ٨ الى ٢٤ يونيه ٦ من القتلى و ١١ جريحا . وكانت جميع ضباطه وعساكره قد أدت واجباتها وأبدت كثيرا من الشجاعة ورباطة الجأش في وسط حوادث مدهمة تشيب لهولها الولدان . وليس الكائن أيا كان سوى العساكر السودانيين ان يقوم برحلة مداها ١٣٠ كيلومترا محملا أحمالا باهظة ويقااتل فوق ذلك كل يوم .

وقد شرع سير صمويل ييكر في اقامة محطة جديدة واستخدم خشب حظيرة سليمان القديمة في عمل حواجز . وبما ان الواح البلوط السميكة كان لا أثر لها فقد أمر بأن يغرس في الأرض الى مسافة بعيدة أوتاد من

الخشب قوية بحيث ما يبقى منها ظاهرا فوق سطح الارض يكون ارتفاعه نحو ٧ أقدام وأن تسد فرجة ال ٢٥ سنتيمترا الفارقة بينها بالواح طويلة توضع بالعرض الواحد فوق الآخر وأن تشاد طائيتان فوق كل زاوية من زوايا المربع لحماية واجهة الحصن على وضع منحرف .

وتم اقامة هذه المنشآت في ايام قلائل . وهى تكفى لحماية الاكواخ المؤقتة فى المحطة الجديدة . وبعد أن وضع سير صمويل بيكر عساكره فيها شرع يفكر فيما يأتى به الغد فقال فى نفسه : من المحتم أن يكون الصاغقون اغاسى عبد الله افندى وقع فى الشرك الذى نصبه له « كباريجا » وعلى ذلك صار لا يمكنه هو ان يعمل إلا على العدد القليل من الرجال الذى بقى الآن تحت يده . واذا كان عبد الله افندى قد ادركته المنية هو وجيشه فانه لا يخسر مددا ثمينا فحسب بل يصبح فى الفاقة والعوز من جهة المسئونة إذ لا بد ان اسلحة الحملة تقع حتما فى يد العدو . وكان هذا الاحتمال الاخير يجول فى خاطره فبيعت فى نفسه هما وغما .

سفر سير صمويل بيكر الى فاتيكو
لاعداد حملة على أونيوورو

وعلى ذلك عقد النية على ان يظل البكباشى عبد القادر افندى فى الحاجز الحصين الذى أقامه على ضفة النهر فى نفس هذا المكان لمعاضدة « ريونجا » وتنظيم القوات الاهلية . أما هو فيذهب مع اربعين رجلا مسلحين ببنادق السنيدر الى « فاتيكو » ليستقى أخبار الحوادث التى وقعت فى مدة غيبته ويؤلف فيها جيشا من العساكر غير النظاميين ويرسله بلا توان

بقيادة « واد الملك » ليحتل « أونورو » .

أما ريونجا فكان ينوى أن يغير على « مرولى » Mrouli في الحال بمعاونة « اللنجيين » Langguiens و « الأومريين » Oumiriens الذين يدخلون هذا البلد بدون أى مقاومة الآن وقد خلا « كباريجا » من معاونة صيادى العبيد .

واعطى ريونجا سير صمويل بيكر ٥٠ رجلا من الأهالى ليحملوا متاع الحملة لغاية فاتيكو وأخذ هذا فى المسير فى ٢٧ يولييه . بعد ان ترك كل خزره الى البكباشى عبد القادر افندى ليشتري به ما يمونه هو ورجاله .

وفى الغد بعد ان اجتازت الحملة النهر قابلت ٨ من اهالى « شولى » و « فاتيكو » كان الصاغقول اغاسى عبد الله افندى قد ارسلهم الى سير صمويل بيكر . وقد تبدل فرحه الذى شعر به عند مقابلة أولئك الرجال باكتئاب وهم حالما علم بالاخبار التى كانوا يحملونها . ذلك ان الخيانة التى أوشتك الحملة ان تكون وقودا لها قد نسج خيوطها أبو السعود . وبما انه كان يخالجه الأمل أن سيقضى قضاء مبرما على جميع افراد تلك الحملة فى قلب أونورو فقد وطد هذا الشقى استبدادا منه سيطرته فى فاتيكو وضواحيها بعد سفر سير صمويل بيكر .

وكان الشيخ الكبير المدعو « روت جرما » الذى ظل مخلصا للحكومة أعطى جانبا من الغلال الى الصاغقول اغاسى عبد الله افندى رغما عن نهى أبى السعود له عن ذلك نهيا باتا فكان جزاؤه أن أغار عليه هذا الاخير بواسطة طائفة كبيرة من العبيد الارقاء ونهب مواشيه وكلف « واد الملك »

بأن يعمل في البلد حرقا وتقتيلا .

وكان الصاغقول اغاسى عبد الله افندى قد أراد منع ذلك ولكن على غير طائل وقوبل بالامتهان والازدراء من أبي السعود بل زاد على ذلك ان أمر بأخذ الأهالى الذين التجؤوا الى المعسكر عنوة .

وكتب الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الى سير صمويل يسكر ينبئه بجلسية الأمر غير أن الشخص الذى كلفه بحمل رسالته وكان من اهالى « فويرا » وصل فى نفس اليوم الذى كانت فيه الحرب سجالا إلى « مازندى » فتسلق شجرة وأخذ يرقب من فوقها ادوار القتبال . وأدركه الجوع والخوف إذ سمع الرصاص يدوى فوق رأسه فنزل من مرصده وتعلق بأذيال الحرب عائداً الى « فاتيكو » ومعه الرسالة التى كان يحملها وعلى ذلك لم تصل ليد سير صمويل يسكر مطلقا . وإذا رأى ان جنود سير صمويل محاطة من كل جانب ظمها قد ضاعت فراح يخبر عن هلاكها . وقد يدرك المرء مقدار الفرح والسرور الذى شمل أبا السعود عند ما بلغت هذه الاخبار .

وبعد بضعة ايام وصلت العساكر الذين كان قد ارسلهم سير صمويل يسكر الى « مازندى » وقد هاجم هذه الحملة أثناء سيرها فى الطريق فريق الجمالين الذين كانوا من الأهالى غير ان تعطش هؤلاء لسفك الدماء حملهم على ان يقدموا الموعد المضروب سائفا للهجوم فكان تعجلهم هذا سببا فى عدم هلاك تلك التجريدة برمتها ووصولها الى الجهة التى كانت متوجهة اليها بدون ان تخسر سوى احد عشر رجلا .

وكان سليمان بعد ان اخلى أبو السعود سبيله يتولى الامور في محطة « فابو » من قبله أما « واد الملك » فكان يريد ان يظل مخلعاً للحكومة ولذلك طلب من أبي السعود ١٠٠ رجل ومن الصاغقون اغاسى عبد الله افندى ٥٠ ليتمكن من المسير الى أونيوورو وينضم الى ريونجا ويأخذ الجميع فى البحث عن سير صمويل بيكر وعن الذين بمعيته فرفض أبو السعود هذا الطلب رفضاً باتاً وعلى هذا ترك هؤلاء تحت رحمة القضاء والقدر .

• وإذن كان يتعين على سير صمويل بيكر أن يعجل السفر اذا كان يرغب فى انقاذ الصاغقون اغاسى عبد الله افندى وانتقاذ مؤن وذخائر الحملة وفى الحال اصدر أمره بالرحيل .

وفى ٢ أغسطس وصلت التجريدة الى سفح النجد المقامة عليه محطة قاتيكو . وكان عند اجتيازها القرى العديدة ينضم اليها الأهالى إذ كان قد وقر فى أنفسهم ان الصاغقون اغاسى عبد الله افندى سيهاجم من هؤلاء وكانوا فى شوق الى مشاهدة القتال . وإن هو إلا قليل حتى تجمع منهم نحو الالف وسار هذا الجمع خلف التجريدة .

وعند ما تسلقت الجنود المنحدر أمر سير صمويل بيكر بالنفخ فى الابواق لإيداناً بالانضمام وفى الحال حدث ضجة كبيرة فى المحطة وطفقت المساكين يعانق بعضها بعضاً بينما كان سير صمويل بيكر يصافح الصاغقون اغاسى عبد الله افندى .

ولم يأت احد من قبل أبي السعود لتحية سير صمويل بيكر . وكان يجب عليه لاعتباره وكيلاً عن الحكومة أن يقابله رافعاً الاعلام .

وكانت هذه إهانة مقصودة .

وعقب ما وصل سير صمويل بيكر لبس كسوته واستعرض جنود الصاغقول اغاسى عبد الله افندى فوجدهم على غاية ما يرام من الصحة وقوى الجندية المغنوية .

وفي نفس اليوم الذى وصل فيه سير صمويل بيكر هاجم فريق من صيادى العيد بقيادة اثنين من رؤسائها وهما « واد الملك » وعلى حسين مركز فاتيكو وذلك بتحريض أبى السعود فرد الجنود المغيرين وكبدوهم خسائر فادحة وجرح واد الملك وأخذ أسيرا . أما على حسين فقتل .

وعرض واد الملك على سير صمويل بيكر أن يصفح عنه وأنه يحلف له على المصحف بالطاعة والاخلاص ويقدم له فى الحال برهانا على اخلاصه بجمع جيش من العساكر غير النظاميين من رجاله . وكان هذا الرجل شجاعا فى طبيعته وملما بحالة البلاد اكثر من أى انسان . وكان سير صمويل بيكر يرغب دوما أن يضمه اليه فأراد أن ينتهز هذه الفرصة لتنفيذ ارادته والتست الضباط شموله بالعفو .

واقنيد واد الملك الى جدول ماء رائق فاغتسل فيه من اخصه الى قمة رأسه بالصابون واتشح بثياب نظيفة أعيرت له بهذه المناسبة ثم وضع يده المجروحة فى المصحف وهو مفتوح على آية مخصوصة وتلا وهو خاشع اليمين . ومن ذلك الحين لم يحدث منه ما يوجب أن يواخذه سير صمويل بيكر عليه . وبعد ذلك أمده ببعض وصايا وحاول أن يوطد فى نفسه فكرة أن الله عاقبه عقابا خاصا .

وفي ٥ أغسطس كتب سير صمويل بيكر كتابا الى أبي السعود أمره فيه بالمشول لديه عاجلا وهذا الكتاب حمّله اليه حداد الحملة وهو من الأهالي وثمانية من مواظنيه . وقد عاد هؤلاء في اليوم التالي وقالوا ان أبا السعود قابلهم بطلقات البنادق .

وفي ٧ أغسطس قدم أبو السعود ومعه أربعون رجلا ولم يشأ أن يدخل المعسكر إلا بعد أن حصل على إفادة خطية من سير صمويل بيكر يؤكد له فيها ألا يأخذه أسيرا . فأنكر كعادته شروره . وأقسم بأنه لم يعط أمراً بتصويب النار وانه اذا كانت رجاله قد اطلقت النار فما ذاك إلا لأنهم كانوا يخافون أن تهاجمهم الأهالي الذين كانوا بصحبته وأن النار فوق ذلك صوبت على الأهالي لا على جيش الحكومة .

ولكنه لم يكن قد أصيب أحد من الأهالي الذين كانوا متجمعين فوق الصخور والذين كان يبلغ عددهم نحو ١٠٠٠ بينما قد أصيب ٧ من رجال الحملة كما وقع على اكواخ المعسكر وابل من المقذوفات .

وعند ما أتم خطابه مؤكدا انه ضحية بريئة لويلات نزلت به بدون ذنب جنّاه وان كل العالم انقلب ضده دهش سير صمويل بيكر دهشا حقيقيا .

وأتى أبو السعود في غد صباح اليوم التالي يستأذن سير صمويل بيكر في السفر وأكد له مرة أخرى أنه مخلص له وأنه مذ الآن سيعمل بعزم باعتباره وكيلا له وأنه عند ما يرجع الى « فابو » Fabbo يضع أحسن رجاله في خدمة الحكومة .

وكانت هذه آخر مرة وقع فيها نظر سير صمويل بيكر على أبي السعود . فمن هناك سافر أبو السعود الى الخرطوم . ومنها الى القاهرة ليشيع خبر قتل سير صمويل بيكر وعقيلته وهو ذلك الخبر الذى نقلته الصحف الانكليزية فى ابريل سنة ١٨٧٣ ويتظلم للخديو بوجه خاص من الطرق التى عامله بها سير صمويل بيكر .

وقدم عدد كبير من صيادى العبيد بعد سفر أبي السعود وقيدوا اسماءهم ليستغلوا فى الجندية واستظلوا برأية الحكومة .

وكان اختلاف الجنسين من عرب وسودانيين يذكى نار الخلاف فيما بينهما فاتخذ سير صمويل بيكر هذا الشقاق ذريعة لبسط سلطته على كليهما . فاختار من بينهما ٦٦ رجلا ووضعهم تحت إمرة على جن نار Ali-Genninar وهو شاب المعى كان قد ألقته من « مازندى » فى خدمته وأرسلهم الى أونيوورو ليحلوا فيها لدى « ريونجا » محل البكبباشى عبد القادر افندى وجيشه واستدعى هؤلاء الى فاتيكو .

وكان لا بد أن يكون الاسطول الذى سافر من الخرطوم فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧١ قد وصل الى غندوكورو فأرسل سير صمويل بيكر الى هذه القرية « واد الملك » ومعه ٧٥ جنديا من الجنود غير النظامية و ٢٥ جنديا نظاميا بقيادة ضابط برتبة اليوزباشى وكان هذا يحمل أمراً برسم رؤوف بك بأن يرسل هذا الى سير صمويل بيكر ٢٠٠ جندي وماشية .

ولم يتم تشييد حصن فاتيكو الذى شرع فى بنائه فى ٢٨ أغسطس إلا فى ٢٥ ديسمبر بسبب يبوسة وصلابة الطبقة التى تحت سطح الارض يبوسة وصلابة



مصر في سنة ١٨٧٢ م

في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٢ م

متناهية إذ كانت تبلغ في صلابتها صلابة البتـن Béton . ويرتكز هذا الحصن الذي يحميه خندق عرضه ثمانى أقدام وعمقه ثمانى أقدام كذلك على صخرة تشرف على البلد . وأمر سير صمويل بيكر بأن يشاد فوق هذا الاساس المتين مخزن للبارود ومخزن آخر لا تعمل فيهما النيران . أما السقف فصنع من مادة الاسمنت الصلبة المركبة من خرف بيوت النمل بعد أن نقت بالماء عدة أسابيع وخلطت بقش مغرى .

وانتهت اعمال سير صمويل بيكر ولم يبق لديه غير انتظار وصول المدد الذى كان قد طلبه من غندوكورو . وكانت الاهالى تقدم بدون تضرر ضريبة الغلال الخفيفة التى فرضت عليهم . وكثيراً ما كانوا يأتون بالمشات يرقصون ويغنون حاملين فوق رؤوسهم فى سلات كبيرة مقادير من حبهـم المسمى طلابون فيفرغونها فى مخازن الحملة .

وقد جاء فى آخر نشرة من سير صمويل بيكر بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٢ هذه الكلمات وهى :

أتى آخر العام ونحن بحمد الله متمتعون بسلم تام فى هذا البلد .
والحالة تبشر بمستقبل زاه زاهر .

سنة ١٨٧٣ م

تبادل المسودة بين ملك أوغندة

وسير صمويل بيكر

وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٧٣ بلغ حرس القلعة اقتراب جيش كبير آت عن طريق أونيوورو . وبعد ذلك بقليل دوت طلقات نارية وأسفرت الحال عن قدوم سفراء من قبل « متيسا » ملك أوغندة مصحوبين بحرس من الأهالي وبجنديين من جنود ريونجا وكان رجال متيسا مسلحين بالبنادق . وأدخل السفراء في الحال الى الديوان الجديد وهو بناء دائري قطره ٦ أمتار شيد تشيدا حسنا وطلّى بدهان رمادي فاتح مخلوط برماد الخشب .

وكان السفير الاول ويدعى على يوسف من اهالي « السواحلية » وهو بلد واقم على شواطئ البحر الاحمر عند مخرجه الى المحيط الهندي . وكان من بين ضباط سير صمويل بيكر عدة من رجال هذه القبيلة فمنهم ذلك الجريء فرج افندي وكذلك سعيد افندي فكان لديه إذن تراجمة باريون .

وكان أولئك السفراء لابسين ثيابا فاخرة جدا من القطن صنع بمباي مهذبين كثيراً ويضارعون في ذكائهم الاورييين وكان يلوح انهم يعرفون معرفة تامة طريق الهند ومختلف القبائل التي تقطن سفح خط الاستواء الافريقي الشرقى . فكانت إذن الطريق مفتوحة بين فاتيكو وزنبار بفضل عواطف متيسا الودية .

وفي ١٣ فبراير اتخذ سفراء « متيسا » سبيلهم ميممين وجوههم شطر أوغندة يصحبهم سليمان نيابة عن سير صمويل بيكر وذلك بعد ان قضوا في فاتيكو بضعة ايام في اتم صفاء وهناء .

وقدم في نهاية الأمر بعد انقضاء ٩٠ يوما المدد مع البكباشي الطيب عبد الله افندى وكان قد سلك في اثناء الطريق مسلكا شائنا إذ انه بدون سبب معقول قد أحرق قرية في بلد « الموجين » Moogis فحق عليه الأهالي وهاجموه فخر في القتال ضابطا و ٢٨ جنديا وكساوى واسلحة وابقارا . ومع أنه كان لديه وتحت تصرفه ٢٨٠ جنديا فقد قاتل مرتدا بدون ان يحاول ان يأخذ أجسام موتاه أو يسترد ماشيته .

وقد صار الآن في حوزة سير صمويل بيكر ٦٢٠ جنديا وبذلك تسنى له ترقية مختلف محطاته . وفي ٢٠ مارس كان قد تأهب للعودة الى غندوكورو وترك الى الصاغقول اغاسى عبد الله افندى قبل أن يسافر تعليمات خطية بشأن صيانة محطة فاتيكو وحرم أخذ ومشتري الرقيق تحريما باتا .

وصول سير صمويل بيكر الى غندوكورو

ووصل سير صمويل بيكر ومن معه الى غندوكورو سالمين في أول أبريل سنة ١٨٧٣ بدون أن يصادفهم في الطريق أى أمر يزعجهم . وكان هذا اليوم هو اليوم الذى تنتهى فيه بالضبط مدة خدمة سير صمويل بيكر حسب الاتفاق المعقود بينه وبين الخديو . وقد قبلوا عند قدومهم باطلاق المدافع . وشاهد سير صمويل بيكر أن رءوف بك وجيشه فى غاية من الصحة والسلامة وأنه يوجد على صفحات ماء النهر باخرة جديدة نفيسة بمحركين مصنوعة

من الحديد حملتها ١٠٨ اطنان صنعها ابناء بلدته الذين كانوا قد اجتهدوا أن يظهروا ما يستطيع أن يعملهُ البناؤون الانكليز . وقد سميت هذه الباخرة فيما بعد « الخديو » .

وقد فحص سير صمويل الباخرة المذكورة فوجدها مبنية بناء عجيبا إذ يتسنى لها نظراً لعدم وجود دواليب بجانيها أن تنزلق مثل السمكة في مجارى بحر الزراف الضيقة . نعم . ان المحطة كانت قذرة ومهملة للغاية إلا انه يجب إظهارا للحقيقة الاعتراف بأن رءوف بك كان قد وجه كل عنايته الى جنائن الجزر فكان يأخذ يوميا ما يلزم الجيش من الخضروات الجنية .

وكان قد أظهر هذا الضابط ايضا حزما وعزما إذ أخذ على عاتقه مسئولية عظمى ذلك أنه أمر باعدام جندى كان قد فر من الجيش رميا بالرصاص اثناء غيبة سير صمويل بيكر .

وكان المدد الذي ورد حديثا مؤلفا من العبيد المبيعة للحكومة دون سواها الذين ألحقوا بالجيش توا عقب مشترام . وكان اغلب هؤلاء العبيد من اهالى النيل الابيض وبالضرورة كانوا على الاستعداد للهرب عند ما تلوح لهم أول فرصة . وكان الكثير منهم قد تعلق بأذيال الفرار فيما سلف ومعهم سلاحهم وأمتعتهم وبنادق وقرايينات سرقوها من منزل رءوف بك ولاذوا بجهة بلنيان .

وطلب رءوف بك الهاربين فكان الجواب الذى تلقاه القيام بمظاهرة عدائية وجهها الوطنيون أثناء الليل الى محطة غندوكورو . ومن باب مقابلة الشر بمثله أغار على بلنيان بحرب منظمة صوب فى غضونهما الهاربون النار

على الجيش فقتل منه اثنان .

وأرسل سير صمويل بيكر في الحال يستحضر اللورون الذي صار من أخلص المخلصين بين المشايخ للحكومة وأقر هذا بخطئه وألقى بالطبع الذنب على أبي السعود وقال انه هو الذي حرصه على القيام في وجه الحكومة . ولكن لم يصغ سير صمويل بيكر الى هذه الايضاحات إذ كان يشك في أنها صادرة عن اخلاص وأمر اللورون أن يرجع بلا إبطاء الى البلينان ويخبر الأهالي بأنهم اذا لم يساموا الهاربين فإنه سيرد لهم الزيارة بالقمصان الحمراء التي عاد بها من فاتيكو . أى أنه يحاربهم ووعده في الوقت نفسه بثلاث أبقار اذا نجح في مأموريته .

وقد عاد اللورون بعد بضعة أيام ومعه الهاربون فحوكموا في مجلس عسكري واتضح ادانتهم وأعدموا بالرصاص امام الجنود . وفعل استعمال هذه الشدة منفعوله فتوطد النظام في الحال بين صفوف الجيش . اما البلينانيون فقد تراءى لهم ألا يعودوا الى الاقتراب من المعسكر ليلا بعد هذا التاريخ .

أما « واد الملك » الذي كان يرافق سير صمويل بيكر الى غندوكورو فقد رجع الى مركزه ومعه مدد وقطيع من الماشية . وفارق سير صمويل بيكر « شولى » و « جيمورو » Djimoro أسفا بعد ان زودهما ببعض هدايا ذات فائدة .

وفي ١٠ أبريل شرع في اقامة حصن جديد وحفر خندق حوله وعمل جسر حول المخازن غير ان طبيعة الارض الرملية في هذه الجهة ستجعل صيانة هذا الحصن من الامور الصعبة في فصل الامطار الشديدة .

وأوعز الى المستر « ماركوپولو » أن يحرر بمعاونة فؤاد افندى وهو

من الضباط المصريين قوائم بكل ما تبقى بالمخازن وأن يأخذ ايصالا بالموجودات .
واستغرق هذا العمل شهراً .

وبعد ان تم الانكليز حزم جميع قطع الباخرة رقم ٣ وآلاتها بعناية
وضعوها في مخزن خصوصى وعهدوا بحراسته الى ضابط وأخذوا ايصالا بذلك .

سفر سير صمويل بيكر الى فاشودة

وسافر سير صمويل بيكر فى ٢٦ مايو بعد أن ودع عساكر حرسه الخاص
الذين أبدى أكثرهم أنه الشديد لهذا الفراق . وعند ما دار على واجهة الجيش
أثناء الوداع الرسمي صاحت جنوده القداماء غير مبالين بواجب النظام : أطال
الله عمرك وردك الى أسرتك وهى بأجمعها فى غاية من الصحة والسلامة .

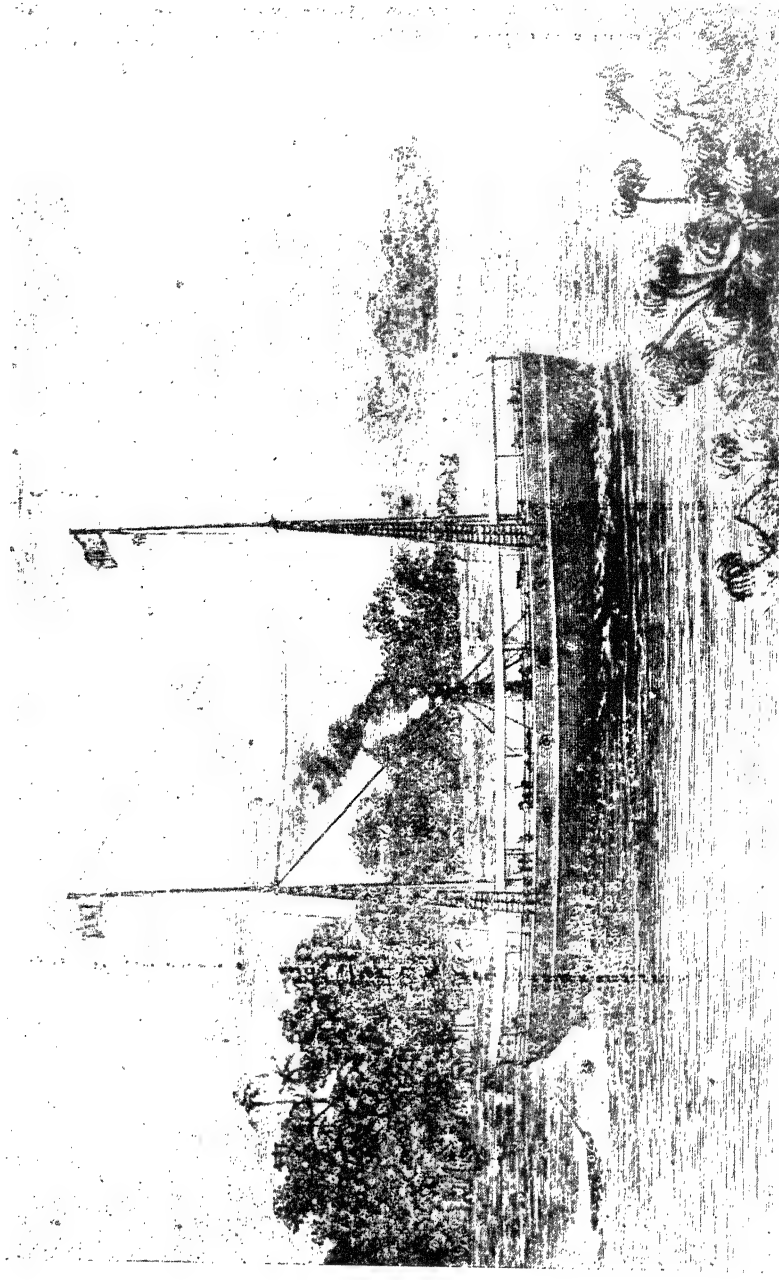
وقطرت الباخرة الجديدة « الخديو » سير صمويل بيكر ورفاقه وسارت
فى النهر بسرعة مع التيار . وفى ٣٠ يونيه وصلوا الى فاشوده فى الساعة الثالثة
والنصف بعد الظهر . وقدم يوسف حسن بك المحافظ ليقابلهم على ظهر سفينتهم
وكان هذا الضابط قد عين حديثاً فى هذا المركز برتبة قائمقام وهو ضابط
ذكى من أصل جركسى وقد أبدى أنه مستعد استعداداً كبيراً لمعاونة سير
صمويل بيكر وأكد له أنه لا يمكن أن يترك مركباً محملاً رقيقاً يمر أمام
فاشوده بدون أن يناله عقاب الآن وهو قد أصبح نائباً عن الحكومة فيها .

سفره الى الخرطوم

وفى ٢١ يونيه ودع سير صمويل بيكر يوسف بك . وفى ٢٨ منه فى
الساعة الحادية عشرة صباحاً وصل الى الشجرة الكبيرة القائمة على الفوهة الموصلة

هـ
ل ٨٧١ سنة ٦٠٠ هـ





جہاز بخار «محمود» ۱۰۸ فٹن کا وچلدا پور دہلی میں
فی غلدو کوروی فی دن پورن سنہ ۱۸۷۳ء

أقام بضعة أيام في الخرطوم ورحل الى القاهرة على ظهر باخرة . وعند ما وصل الى بربر وجد حالتها قد تحسنت عما كانت عليه في المدة السابقة إذ طفق العرب يعمرّون سواقيهم على طول ضفتي النهر الخصبتين وكان ذلك نتيجة اصلاحات حكيمة أدخلها الخديو تقضى بتقسيم السودان الى مديريات يحكم كل مديرية مدير مسئول غير تابع كما كان الحال سابقا الى حكمدار عام محل اقامته بعيد بمراحل كالخرطوم .

وكان مدير بربر وقتئذ هو حسن خليفة الشيخ العربي الكبير الذي ساعد بذكائه المفرط مستر هجنوثام في نقل اجزاء آلات البواخر من كروسكو الى بربر في فيافي صحراء النوبة المترامية الاطراف مسافة تبلغ على أقل تقدير ٦٥٠ كيلومترا . وقد كان فرح العرب عظيما بتعيين شخص من أبناء جلدتهم بوظيفة مدير .

مقابلته للخديو والانعام عليه وعلى ضباطه

ووصل سير صمويل بيكر الى القاهرة في ٢٤ أغسطس وتشرف في اليوم التالي بمقابلة الخديو وقدم له بيانات بخصوص الاراضى التى ضمها الى مصر موضحا بها الظروف والاحوال التى صادفها . ومنحه الخديو مكافأة له على خدماته النيشان العثمانى من الدرجة الثانية . وقبل أن يسافر الى مأموريته كان قد منحه ايضا النيشان المجيدى من الدرجة الثانية . ومنح الملازم بيكر النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة .

وكان قد قرر سموه أن يحاكم أبا السعود فى مجلس خصوصى مؤلف من شريف باشا ونوبار باشا واسماعيل باشا وزير المالية . وطلب سير صمويل



البكباشي عبد القادر افندي قائد مدرس سيرا مسيرين بكير الخصورجيني

وهو غير عبد القادر حامي باشا بعكس ما ذكره بعض المؤلفين لأن الأخير كان
رتبة أمير الأتاي في سنة ١٨٦٩م أي قبل حمله مديرية جنه الامتواء بثلاث سنوات

بيكر أن يحضر بشخصه المحاكمة بصفة مدع ضد أبي السعود غير أنه طلب إليه أن يعود الى بريطانيا ويترك المتهم بين يدي الحكومة لأن الخديو كان قد أبي أن يحاكمه في المحاكم العادية .

وتفضل الجناب العالي فأذن بترقية ضابطين من أكثر ضباط سير صمويل بىكر اخلاصا وهما البكبائى عبد القادر افندى^(١) واليوزباشى محمد ضياء افندى فترقى الأول الى رتبة قائمقام والثانى الى رتبة صاغقول اغاسى ومنح ايضا مكافآت للعساكر الذين قاتلوا فى مازندى وامتازوا فى ذلك الانسحاب الشهير .

ومنح كل مهندس وعامل من المهندسين والعمال الانكليز مكافأة بقيمة راتب شهر ثم سافروا الى بلاد الانكليز .

وبعد ان أقام سير صمويل بىكر بالقاهرة مدة ٦ أسابيع سمح له سمو الخديو بالمقابلة وفى أثناءها استأذنه كما استأذن من الأمراء بالسفر وقد قال سير صمويل بىكر انه مدين لهم جميعا لما عاملوه به من البشاشة واللفظ وحسن الالتفات وان هذا الدين يقوم بوفائه مسرورا .

وقد بلغت نفقة هذه الحملة التى كانت بقيادة سير صمويل بىكر ثمانمائة ألف جنيه .

(١) - قتل بعد ذلك فى احدى الوقائع التى دارت بين العراقيين والانكليز فى سنة ١٨٨٢م وهو بلا ريب غير عبد القادر حامى باشا المشهور الذى كان حكاما عاما للسودان ثم ناظرا للحرية والبحرية فى عهد الخديو توفيق وتوفى فى ٨ يوليه سنة ١٩٠٨م .

ادارة أميرالاي محل رءوف بك^(١)

لهذه المديرية

من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٤ م

بعد سفر سير صمويل ييكر عين أميرالاي رءوف بك
مديرا لمديرية خط الاستواء لكونه أرقى الضباط الذين كانوا مع سير صمويل .
ولم يكن حكمدارا لهذه المديرية لأن مديرية خط الاستواء التي كانت مستقلة
عن حكومة السودان في عهد سلفه قد ألحقت بهذه الحكومة في عهده
وصارت تابعة لحكمدارية السودان العامة لغاية قدوم غوردون .

والظاهر أن رءوف بك قام بأعباء المهمة التي أُلقيت على عاتقه خير قيام كما
سيبين ذلك من مكاتبات غوردون الرسمية المنشورة بعد في غير هذا المكان .
ويبدو أنه لم يحدث أى شىء له خطورة في عهد هذا المدير .

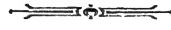
(١) - هو فيما بعد محمد رءوف باشا محافظ زيلع ثم فاتح هرر وحاكمها العام ثم حكمدار عموم
السودان من ٢١ يناير سنة ١٨٨٠ الى ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ م وفي عهده ظهر المهدى واستفحل
أمره . ولو استعمل الحزم والحكمة فى بدء ظهوره لما كان ما كان . وقد عاد رءوف باشا من
السودان الى مصر ورأس وهو فيها المجلس العسكرى الذى حكم على عرابى باشا بالاعدام .



رءوف باشا

حكمدارية غوردون باشا

من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٦ م



سنة ١٨٧٤ م

مفاوضته في توليه هذه الحكمدارية

في عام ١٨٧٣م كان ينتهى أمد عقد خدمة سير صمويل بيكر . وكانت الحكومة المصرية قد أخذت بواسطة نوبار باشا تبحث عن خلف له قبل ذلك التاريخ . وكان غوردون يشغل في تلك الفترة منصب عضو بريطاني في قوميون^(١) نهر الدانوب . وقد قابل في سبتمبر سنة ١٨٧٢م الوزير المصري نوبار باشا في السفارة البريطانية في الآستانة وتعرف به . ثم سأله نوبار عما اذا كانت له معرفة بضابط من فرقة مهندسى الجيش البريطاني يقبل أن يخفف سير صمويل بيكر فوعده غوردون بالتفكير في هذا الأمر وان يأتيه بالجواب فيما بعد .

وفي يولييه عام ١٨٧٣م كتب غوردون لنوبار أنه يقبل هو نفسه أن يشغل هذه الوظيفة اذا رضيت بذلك الحكومة البريطانية . وفي الحال عملت المساعي اللازمة للوصول الى ذلك الغرض وقبلت بريطانيا هذا التعيين . ووصل غوردون الى القاهرة في شهر فبراير سنة ١٨٧٤ . فقابل له الخديو

(١) - هذا القوميون ألف من جراء تعدى روسيا على الملاحة في نهر الدانوب (الطونة) في البحر الأسود ، وكان قوميونا دوليا مؤلفا من مندوبى فرنسا وانجلترا وروسيا وتركيا وبروسيا وسردينيا . والغرض منه الاشراف على الملاحة في هذا النهر .

اسماعيل وطلب منه أن يعين بنفسه اشتراطاته فالتمس أن يعطى راتبا قدره ٢٠٠٠ جنيه في السنة فأجاب طلبه بالطبع إذ ان هذه القيمة كانت زهيدة جداً بالقياس الى قيمة راتب سلفه الذي كان ١٠٠٠٠ جنيه .

تقسيم السودان وفصل مديرية خط الاستواء عن ادارته

كان السودان برمته ابتداء من رحيل سير صمويل بيكر لغاية تاريخ تعيين غوردون تحت سيطرة حكام عام واحد غير أن الخديو غير هذه الطريقة وقسمه الى قسمين وهما :—

- (١) - السودان مع فاشودة كحد جنوبي وقد ولى عليه اسماعيل أيوب باشا .
- (٢) - مديرية خط الاستواء وهى تشمل جميع المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة المصرية ابتداء من جنوب فاشودة وتشمل أيضا المناطق التى يجب ان تتكون منها وقد ولى عليها غوردون باشا .

وهاك صورة الأمر العالى الذى وجه اليه بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١هـ - ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م رقم ٩١ ونحن نشرها هنا بالنص الذى وجدت به فى الأوراق التى بسرأى عابدين :—

عزتلو قولونيل غوردن مأمور جهة خط الاستوى .
أمر كريم منطوقه أنه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية قد عيناكم مأمورا على جهة الاستوى التابعة للحكومة وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية انما كان لوازماتها التى تقتضى الحال تداركها من طرف الحكمدارية هذه يجرى تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابلة محاسبة



عوردو پشا

المالية بذلك كما أمرنا الحكمدار المومى اليه بأمرنا الصادر له فى تاريخه ومرسول لكم طى هذا لتوصيله اليه عن يدكم . وبما أن أمور التجارة فى ذاك الطرف هى يد واحدة يقتضى ان الذى تتحصلوا عليه من تلك الجهات من انواع التجارة وبعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعيينات ترسلوه الى حكمدار السودان لقبوله من أصل ما يصرفه فى اثمان اللوازم التى تطلبوها منه . وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختباركم احوالها تجروا ترتيبها بحسب ما يترأى لكم وتستحسنوه سواء كان باجمال مديرتين أو اجمال أقسام أو نحو ذلك مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهاليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عمارتهم وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم فى سلك الانسانية شيئاً فشيئاً . وهكذا مما يلزم اجراه على حسب التعليمات التى اعطيت لكم بالفرنساوى وها هو موجود هناك رءوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف . وتحرر له أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم وأمرناه به أن يكون هو والعساكر تحت أمركم فيما يجب اجراه فى صالح المصلحة ولو ان المومى اليه وما معه من العساكر صار لهم مدة زائدة فى تلك الجهات ولذلك منظور من ارسال خلافهم من هذا الطرف لتغييرهم لكنه فى مسافة ارسال البديل يكون المومى اليه والعساكر منقادين لاوامركم حسب أصول وقوانين الجهادية . وعلى هذا وما هو منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والاهلية مؤملين الاستحصال علما فيه عمارية جهات خط الاستوى المحكى عنها وراحة اهاليها وحسن توطيئهم وتأليفهم على الدخول فى سلك الانسانية شيئاً فشيئاً كما هو مطلوبنا .

حاشية — انه بعد توجهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم

عن مصاريف تلك الجهة بحسبما يلزم لها من الخدمة والعساكر . وكلما يلزم تداركه وارساله من جهة الحكمدارية على حسب الترتيب المذكور تطلبوه من الحكمدار وتعينوا له الاوقات والمواعيد اللازمة تدارك وارسال اللوازمات المذكورة فيها بحيث اذا كانت الايرادات على فرض لا تكفى المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه . ويحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم ما

* * *

وفيما يلي ترجمة خلاصة التعليمات التي أعطيت لغوردون باللغة الفرنسية بتاريخ ١٦ فبراير سنة ١٨٧٤ وهى التعليمات التي أشير اليها بالأمر العالى السابق :-

« ان المديرية التى شرع أميرالالاي غوردون فى مباشرة تنظيمها . وحكمها لا يعرف من أمرها سوى الشئ القليل . ولغاية هذه السنوات الاخيرة كانت واقعة بين مخالف قوم من الأفاقين همهم فقط الحصول على الارباح غير المشروعة فكانوا يتجرون بالعاج والرقيق معا وذلك بأن ينشئوا متاجر يديرونها بواسطة رجال مسلحين . وكان يضطر رجال القبائل المجاورة سواء أكان ذلك بطيبة خاطر أم باكره أن يشتركوا معهم فى تلك التجارة . وكانت الحكومة المصرية قد استولت على مكاتب أولئك التجار بعد أن دفعت تعويضات لأربابها مؤملة أن تتوصل من وراء ذلك الى وضع حد لهذه التجارة المقوطة المنافية لشروط الانسانية .

وكان قد أبيع للبعض من هؤلاء أن يستمر فى تعاظم متاجره فى المراكز بعد ان قطع هذا البعض على نفسه عهدا بأن لا يتجر فى الرقيق ووضع بعد ذلك تحت مراقبة حكمدار السودان . غير ان سلطة الحكمدار لم

تكن قد تمكنت إلا قليلا من جعل الناس تشعر بها في تلك الاقطار
النائية القصية . لذلك قرر الخديو أن يؤلف من هذه الارجاع حكومة
منفصلة وان يعمل التجارة مع الخارج كاحتكار من حق الحكومة .
وما كانت توجد وسيلة أخرى لوضع حد لتجارة الرقيق التي ما زالت تركز
الى الآن على قوة السلاح دون سواها متحدية الشرائع والقوانين .
فتمت انقطعت اللصوصية وأضحت في سير الغابرين وانفتحت ثغرة في عوائد
هؤلاء الاقوام تلك العوائد المجنفة التي تأصلت في نفوسهم مع كر السنين فعندئذ
يؤذن بحرية التجارة للجميع .

وكان على أميرالاي غوردون اذا رأى الفرق التي كانت مأجورة
لأولئك الافاقين مستعدة لخدمة الحكومة أن يحنى كل فائدة يمكن جنيها
منهم . واذا رآهم يتوخون سلوك سيرتهم الأولى كان عليه أن يشعرهم بكل
ما في الاحكام العسكرية من بطش وشدة . فأمثال أولئك المخلوقات كان
لا ينبغي ان يلاقوا من الحكمدار الجديد رحمة ولا شفقة . وكان يلزم
ان يعرف الناس قاطبة حتى من كان منهم في الاصقاع البعيدة النائية ان فرقا
بسيطا في لون البشرة لا يحول بنى البشر الى سلعة تباع وتشترى وان الحياة
والحرية هما من الأشياء المقدسة .

وقد وقع آخرون في خطأ وخيم العاقبة كان يجب أن يتجنب . ذلك
أن من الواجب اطعام الجيش اطعما جيّداً فلا يكون هنالك حاجة
للاستيلاء كما كان حاصلًا في الزمن الماضي على مستودعات حبوب القبائل .
إذ ان مثل هذا العمل يدعو تلك القبائل الى سوء الظن بالحكومة فضلا عن أنه
مناف لارادة الخديو الذي يود كسب ثقة الاهالى وحسن ظنهم . فيجب ان

تزرع الجنود الارض وان تزداد المحصولات .

واذا كانت غندوكورو كما هو الظاهر موضعاً أخطئ في اختياره لكون تربته جدياً فكان يجب نقل عاصمة المديرية الى مكان اكثر ملاءمة .

واذا وجد بين الأهالى الذين يعتقدون من ايدى النحاسين اناس لا يمكن الاهتداء الى عشيرتهم نظراً للأماكن القصية التى نقلوا منها وتعد ردم الى أوطانهم فهؤلاء يستحسن تشغيلهم فى استغلال الارض بجوار البلاد التى بها محطات .

ويجب على الحكمدار الجديد أن يجعل نصب عينيه اقامة خط للنقط العسكرية خلال المديرية التابعة له يربطها مع بعضها من طرف الى آخر بحيث تستطيع جميعها ان ترسل الخراطوم مباشرة . ويجب أن يتبع هذا الخط ضفة النيل ويتمشى معها الى اقصى حد ممكن . وبما انه فى غير حيز الامكان الملاحية فى النيل فى مسافة طولها ٧٠ ميلاً بسبب الشلالات فعلى الحكمدار أن يتلمس وسيلة يستطيع معها التغلب على هذه العقبة ويرفع تقريراً بذلك للخديو .

وعلى الحكمدار قبل كل شئ فيما يختص بعلاقاته مع القبائل الضاربة على سواحل البحيرات أن يحاول اكتساب مودتهم وان يجعل نفسه موضعاً لثقتهم . وان يحافظ على ممتلكاتهم وان يستجلب رضاهم بواسطة الهدايا . وعليه ايضا مهما كان نفوذه عندهم ان يجتهد فى حملهم على الاقتناع بالكف عن الحروب التى يضرمون نارها بغية الحصول على العبيد . ولبلوغ ذلك الأرب لا بد من كثير من المهارة والذوق . وفى الواقع حتى لو وفق الحكمدار الى ابطال

النخاسة أن الحروب ستستمر بين رؤساء القبائل وأن من الجائز كثيرا لعدم وجود سوق للرقيق ان تذبح الأسرى .

وإذا رأى الحكمدار ضرورة لفرض رقابة حقيقية على قبيلة ما من تلك القبائل فيكون الافضل ان يترك للرؤساء الحكم المباشر . وعليه ان يتحقق من خضوعهم وطاعتهم مع جعلهم يخشون سيطرته » .

واليك نص الخطاب الموجه الى اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان بتاريخ ٦ الحجة سنة ١٢٩٠ هـ - ٢٥ يناير سنة ١٨٧٤م رقم ٩ واننا نشره هنا كما وجدناه بنصه في محفوظات سراى عابدين :-

أمر كريم منطوقه - حيث أنه من مقتضى ارادتنا اجرى الوسائط والأسباب الموصلة للحصول على ما فيه ادخال جهات خط الاستوى التابعة للحكومة فى سلك العمارة وانتظام احوالها وتقدم وتأليف اهاليها وسكانها شيئا فشيئا ولذلك سبق تشكيل مديرية مخصوصة اليها كما حررت لمعيتنا عن ذلك . غير أنه بالنظر لكون تلك الجهات فى نقط مبتعدة وتلاحظ انه شق عليكم نوعا ملاحظتها وقتيا فلذا قد صار انتخاب وتعيين القبولونيل غوردن بوظيفة مأهـور خط الاستوى لما هو معلوم فيه من حسن الادارة الموصلة للنتائج المرغوبة فى عمارة تلك الجهات وحسن توطن اهاليها بحيث ان هذه المأمورية تكون قائمة بنفسها خارجة عن ادارة الحكمدارية وحساباتها واوراقها تتعلق بالمالية بدون واسطة الحكمدارية وفقط يلزم عليكم مراعاة تنجيز وتدارك لوازمتها وطلباتها أول بأول وكلما يقتضى الحال لمشتري وتدارك مأكولات أو مهمات وغيره من المعتاد ارساله الى ذاك الطرف فبمعرفة الحكمدارية يجرى تداركه وصرف ثمنه مقابلة قيده

فى العهد وما ىرد من تلك الجهات من الاصناف المعتاد تورىدها على ذمة المىرى مثل سن فىل أو رىش نعم أو غىره ىجرى قبوله بالحكمدرارىة بالخصم من المقىد بالعهد وفى آخر السنة ىنظر لمقدار ما صرف على تلك المأمورىة وبعد استبعاد وخصم ما ىكون ورد منها من تلك الاصناف فاذا ظهر باقى للحكمدرارىة ىحسب من الاىرادات المقررة على السودان . واذا ظهر فاىض تجرى ضمه وعلاوته على اىراد السودان وىتقدم بذلك حساب واضح الىبان للمالىة لمراجعتة بها حسب الاصول . هذا مع بقاء العساكر وقومندانهم الموجدودىن هناك والحالة هذه تحت إدارة القونونىل غوردن المأمور المومى الیه حتى ىنظر فىما بعد فى تغىیرهم بخلافهم . وأمرنا رءوف بك قومندان العساكر المذكورة فى تاریخه بما ذكر وأصدرنا أمرنا هذا الیکم لاجراء مقتضاه

وهاك اىضا نص الخطاب المحرر الى رءوف بك قومندان عساكر مدىرىة خط الاستواء بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١ هـ - ١٩ فبرارى سنة ١٨٧٤ م رقم ٩٠ :-

أمر كرىم منطوقه - حىث أن مدىرىة خط الاستوى صار نزعها من إدارة حكمدرارىة السودان وصارت مأمورىة قائمة بنفسها بالتبعية الى المالىة بدون توسط الحكمدرارىة وقد تعین القولونىل غوردن مأمورا علیها بحسب اهلیته لذلك وصارت مأمورىتكم هى قوماندة وریاسة العساكر الموجدودة بذلك الطرف تحت أمر المأمور المومى الیه وانه وان كان منظور فى تغىیركم وارسال من ىلزم بدلا عنكم لریاسة هؤلاء العساكر لمناسبة طول اقامتكم بتلك الجهات غىر انه فى مسافة تعین وارسال خلافكم ىقتضى أنكم تكونوا أنتم وما معكم من العساكر تحت أمر المأمور المومى الیه كما ذكر وتنقادوا

لما يأمركم بأجراه حسب شؤون المصلحة بالتطبيق لقوانين الجهادية حتى
يتعين خلافكم كما تقدم الايضاح وأصدرنا أمرا هذا لكم بالاشعار
لتجروا بمقتضاه .

حاشية - الضباط الموجودين معكم يقتضى انكم تفهموهم أمرا هذا
واننا ممنونين منكم ومنهم جميعا من منذ توجيهم في هذه المأمورية للآن
وتخبروهم بأنه سيجرى تغييرهم ايضا عند تغييركم حتى عند حضوركم يحضروا
معكم سوية الى هذا الطرف وبذلك لزم التحية مـ

وها هو أيضا نص الخطاب المرسل الى محافظ سواكن بتاريخ ٢ محرم
سنة ١٢٩١ هـ - ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م رقم ٩٢ :-

أمر كريم منطوقه - بما ان القولونيل غوردن مأمور جهة خط الاستوى
متوجه الآن الى مأموريته من على طريق سواكن فيقتضى بوصول
المومى اليه لطرفكم حالا تجروا ترحيله من سواكن الى الخرطوم بدون
تأخير . وكلما يصرف من طرفكم على ترحيل المومى اليه تحاسبوا ديوان المالية
وأصدرنا أمرا هذا لكم للاجراء كما ذكر مـ

* * *

واختار غوردون القائم مقام شاليه لونج Chaillé Long ليكون ضابط
أركان حرب له وهو ضابط امريكى الجنس ومن ضباط اركان الحرب العام
بالجيش المصرى . وقد قال غوردون له ان الجنرال ستانتون Stanton قنصل
بريطانيا العام عارض فى تعيينه وقال انه ينبغى ان يعين شخص انكليزى فى هذه
الوظيفة فأجابه أنه لا يريد أن يستصحب معه ضابطا من الانكليز وانه يميل

الى الامريكان لأنه خدم معهم في الصين .

وقال شاليه لونيچ ان غوردون أرسل خلفه واستحضره في ليل ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ وأخبره بأنه تعين وأمره بالاستعداد للسفر وعرفه بأن الخديو يطلب مقابله في صباح الغد في الساعة الثامنة في سراى عابدين . وبعد ذلك استأذن لونيچ من رئيسه في الانصراف وتوجه في اليوم التالي الى السراى في الساعة المعينة وأذن له في الحال بمقابلة الخديو .

واليك ما كتبه شاليه لونيچ بصدد هذه المقابلة في كتابه « حياتى في أربع قارات » ج ١ ص ٦٧ :—

« كان الخديو اسماعيل يذرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة ومتهيجا تهيجا عصبياً عندما دخلت يصحبني طونينو بك Tonino Bey التشريفاتى الثانى . فسألنى الخديو هل رأيت الاميرالاي غوردون فأجبت : نعم رأيته يامولاي وقضيت معه المزيح الاكبر من الليل . فقال الخديو احسنت والآن اصغ الى ما سأقول .

لقد وقع الاختيار عليك بصفة رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها حماية مصالح الحكومة واعلم ان القوم في لندن على وشك ان يجهزوا حملة تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الامريكية يسمى استانلى Stanley وهو في الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة الى الدكتور ليفنجستون Livingstone أما في الباطن والحقيقة فرفع العلم البريطانى على أوغنده . فعليك الآن أن تذهب الى غندوكورو إلا انه يلزمك ان لا تضع شيئا من الوقت بل يم في الحال أوغنده واسبق هناك حملة انجلترا واعقد محالفة مع ملك تلك

البلاد . ومصر لا تنسى لك أبد الدهر هذه العارفة وهذا الجليل . اذهب
وليسر عقبك النجاح إن شاء الله » .

ولكن هل كان غوردون ملما بهذه التعليقات أم لا ؟ هذا السؤال
من الأسئلة التي يتعذر الإجابة عليها ، غير أن شاليه لونج روى في ص ٦٧
من كتابه الآنف الذكر أنه كان يجهلها وقد تحدد ميعاد السفر في اليوم
التالى . وكان غوردون يريد أن يسافر من السويس على سفينة البريد
المعتادة حتى بذلك يمكنه أن يقتصد نفقات السفينة الخصوصية فعارض
نوبار باشا قائلاً إنه لا يجوز للحكمدار عام فى رتبته أن يذهب الى مركز
عمله بهذه الطريقة .

قيام الحملة من القاهرة الى السويس

وفى صباح ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ كان قطار خاص يتأهب لينقل
من القاهرة الى السويس أمير الأتلاى غوردون الحكمدار العام لمديرية
خط الاستواء المصرية لكي يذهب الى غندوكورو عاصمة حكمدارية حكومته
فى المستقبل .

وكان يرافقه فى هذه الرحلة القائمقام شاليه لونج بصفة رئيس أركان
حرب الحملة والملازم الأول حسن واصف افندى الذى كان أيضا من ضباط
اركان الحرب العام بالجيش المصرى بصفة ياور لغوردون . وحسن واصف افندى
هذا هو الذى تعين فيما بعد مديرا للأسبوط وأنعم عليه بلقب الباشوية .

وحضر بالخطبة خلق كثيرون من موظفين وغير موظفين لوداعهم .
وحضر أيضا ابراهيم بك توفيق وكان عندئذ من ضباط أركان الحرب ثم صار

فيما بعد محافظ عموم القنال وأنعم عليه برتبة الباشوية . وكان هذا الضابط قد كلف من طرف سمو الخديو بمصاحبة غوردون ومن معه من رجال مقدمة الحملة لغاية السويس حيث كانت الباخرة « لطيف » في انتظاره .

وكانت مؤخرة الحملة المعدة لاقتناء أثرهم ومعها الأمتعة وباقي الأدوات واللوازم تحت إمرة البكباشي كامبل Campbell . وكان من بين صفوفها مسيو م. أوجست لينان دى بلقون^(١) M. Auguste Linant de Bellefonds والمهندس كيمب Kemp ، و رسل Russell وهو ابن اللورد رسل ، و أنسون Anson ابن عم غوردون وابن الأميرال أنسون ، و رومولو جيسى Romulo Gessi وهذا كان يتولى جميع أعمال غوردون وكان محل ثقته وقد صحبه بهذه الصفة منذ حرب القرم ثم ترقى فيما بعد الى مدير بحر الغزال ونال رتبة الباشوية . و دويت Dewitt ، و بهرندورف Bohrendorf وهما معاونا جيسى في أعماله . ثم أبو السعود الذى أضفى أشهر من نار على علم والذى بعد أن خرج من السجن ألحق بالحملة بصفة عضو وذلك بناء على الحاج خلف سير صمويل أعني غوردون .

وقبيل منتصف الليل بلغ القطار السويس وقضى غوردون ورفاقه بقية ليلتهم في الفندق البريطانى وفي صبيحة ٢٣ فبراير استقلوا الباخرة لطيف التى كانت قد أعدت سلفا لنقل مقدمة الحملة الى سواكن .

وصولها الى سواكن

وقد قطعت الباخرة الطريق بسرعة وبدون أن يعترضها فيه أى

(١) - هو أحد أنجال لينان باشا المهندس الفرنسى المشهور الذى أحضره محمد على باشا الى مصر وكلفه بأعمال هندسية كثيرة منها القناطر الخيرية .



أوجست لينال دي ميمون

عارض . وفي ٢٥ فبراير عند منتصف النهار شوهد ساحل سواكن وهو ساحل مستو لا جبال فيه وفي الساعة الثالثة بعد الظهر كانت الباخرة مُم سواكن . وحالت اجراءات مصنحة الحاجر التي كانت متخذة في ذلك الوقت دون نزول اعضاء الحملة الى البر قبل صباح اليوم التالى . وقبل علاء الدين بك الحافظ غوردون ومن معه مقابلة غاية في لباشة والائناس وأكرم وفادتهم أيما اكرام . وعلاء الدين بك هذا عين في بعد حكمدارا عاما للسودان ونال رتبة الباشوية . وهو الذى رافق حملة هكس باشا وكان من قتلاها .

قيامها الى بربر ووصولها الى الخرطوم

وفي ٢٨ منه ولت القافلة التي كان الحافظ قد أعدها لهم وجهت شطر بربر بحرسها ١٥ جنديا وبعد سير مضم ومستمر ليلا ونهارا على متن الجمال بلغت بربر في ٨ مارس وبذلك تكون قد قطعت المسافة بين هذه المدينة وسواكن في ظرف عشرة أيام .

وقد استقبلهم الشيخ حسين خليفة مدير الناحية استقبلا نفيا ورحب بقدمهم . والشيخ حسين هذا نال فيما بعد لقب باشا .

ثم أعدوا لوازمهم بسرعة واستعدوا في الحال لمبارحة بربر . وفي صبيحة يوم ٩ مارس استقلوا سفينتين نيليتين ويمموا الخرطوم . وفي ١٢ منه قابتهم باخرة كان حكمدار السودان العام اسماعيل ايوب باشا قد أعدها لهم فتركوا مراكبهم البطيئة وركبوها فرحين مسرورين . وفي صباح يوم ١٣ منه بغوا الخرطوم أى بعد ٢٠ يوما من مغادرتهم القاهرة .

واستقبلهم سعادة الحكمدار العام بمزيد الحفاوة واستعرضت أمامهم الجنود وحياتهم مدافعها ونزلوا بسرأي واقعة شرق المدينة تسمى سراي راسخ بك أحد حكمداري السودان السابقين .

وفي ١٨ مارس دعاهم الحكمدار العام الى وليمة أعدها لهم وكان يوجد بين المدعوين العديدين عدا الموظفين ضباط الحماية وقناصل الدول . وبعد ذلك بيومين اثنين دعا غوردون نفس تلك الهيئات الى مأدبة أقامها لهم في السراي المذكورة .

إزالة الحكمدار العام 'السود' من طريقها

وقدمت الحملة الشكر الى اسماعيل باشا أيوب الحكمدار نعام لانتزاعه اكداش الحشائش المتنفة والمشتبكة ببعضها من منطقة المعروفة بالسود تلك الحشائش التي كانت تحول دون الاتجاه صوب الجنوب بين بحر الغزال وبحر الزراف والتي أعجزت همّة سير صمويل بيكر واضطرته للنكوص على عقبه راجعا الى التوفيقية في شهر أبريل سنة ١٨٧٠ .

ففي تلك الناحية عسكرت جنود صمويل على بعد بضعة أميال من مصب نهر سوباظ بجوار مستنقع وبيء فهلك من رجاله خلق كثير وذهبت بأرواحهم الحيات . وبعد ذلك ذهب الحكمدار العام الى تلك الجهة على رأس أورطة من عساكر السودان قبل قدوم حملة غوردون ببضعة اسابيع وبأشر انجاز تلك المهمة بقصد فتح طريق للمواصلات مع غندوكورو التي كانت وقتئذ تابعة له وواقعة تحت إشرافه .

وبعد بذل مجهود عظيم متواصل استغرق ثلاثة أسابيع أزيلت اكداش

تلك المواد النباتية الهائلة بهمة هؤلاء الجنود البواسل المخلصين الذين زهقت ارواح كثيرين منهم متأثرة بحمى الملاريا والحُميات الأخرى الخبيثة والدوسنطاريا ثم ان كثيراً من أولئك الذين بقوا على قيد الحياة أُمست حياتهم مهددة بدودة غانة الرهية التي تسمم المياه ومستنقعات هذه الأنهر . وفي اللحظة التي سقط فيها كوم الأعشاب الكثيف تدفق الماء فجرف التيار بشدة قوية عدداً وافراً من أفراس البحر التي تملأ النيل من هذه المنطقة الى منبعه وغلبها على أمرها فأخذت تصيح صياحاً مزعجاً شنيعاً عم الفضاء لما أصابها من الخوف والجزع . وفي الوقت نفسه ارتطم مركب واختفى بين تلك الاجرام المضطربة التي انتشرت على مسافة بعيدة فيما بعد وجهه التيار معه تدريجياً .

وارتاح الحكمدار العام لهذا الفوز المبين جد الارتياح وقال لأعضاء الحملة بصيغة التوكيد انهم سينقلون على باخرة الى غندوكورو مباشرة دون أن تصادفهم أية عقبة في الطريق . وكان لابد من مقابلة هذه البشري بالفرح والابتهاج إذ ان وسائل التغلب على هذه العقبة كانت شغلهم الشاغل وموضع تفكيرهم واهتمامهم اثناء مجيئهم . وقد تفاءلت الحملة خيراً بإزالة هذا العائق لأن ذلك يمكنها من ان تنقل في الحال الى غندوكورو مركز عملها .

وصولها الى فاشودة

وكانت جميع ادوات الرحيل قد تم اعدادها في صباح ٢٢ مارس : وكانت سبع بوآخر راسية وقتئذ في الخرطوم مهيئة للقيام بالخدمة في مديريت خط الاستواء بين الخرطوم وغندوكورو .

هذا ومن الانصاف ان ننوه بأن سير صمويل بيكر كان قد استحضر من انكثرا سفنا مفككة وركبها هنا تحت مباشرته وهي لا تحتاج الى مياه غزيرة للعموم وفي استطاعتها أن تذهب صعدا في النيل الى غندوكورو وهي من النقط الصالحة للملاحة واكثرها ارتفاعا في الجنوب وذلك فيما عدا حقبة قصيرة في فصل الامطار حيث يستطيع المسافر في أثنائها ان يبلغ جبل الرجاف الواقع على بعد ١٥ ميلا من هذه الناحية جنوبا ولكن مع بعض المشاق .

وبعد تناول الطعام على النمط التركي مع الحكمدار العام توجه اعضاء الحملة الى الباخرة « تلحوين » التي كانت على تمام الاستعداد لنقلهم وأطلقت المدافع تحية لهم وودعهم الجموع الكثيرة التي كانت قد اجتمعت لتزود حكمدار خط الاستواء الجديد بالتمنيات العظيمة للنجاح التام .

ومن الضروري أن نشير هنا الى التأثير السيء الذي أحدثه في نفس الحكمدار العام والموظفين وكل من كان يهمه أمر نجاح هذه الحملة ، خبر رجوع ابن السعود الى وظيفته وعلمهم أنه قادم في الطريق لينضم الى رفاق غوردون ثم يواصل السير الى غندوكورو بصفة ملحق بمصلحة مديريات خط الاستواء . وفي الواقع كان أبو السعود مشهورا في الخرطوم بأنه يسلك مسلكا مضادا لمصالح الحكومة في تلك الأقطار .

وفي ٣١ مارس وصلت الحملة الى فاشودة . فنقلت متاعها وكل ما معها الى جوف الباخرة « بردين » وهي باخرة تفوق في النظام والترتيب الباخرة التي كانت الحملة تستقلها . وكانت هذه الباخرة عائدة من غندوكورو .

وفاشودة واقعة على ضفة النيل اليسرى . وهى أبعد نقطة فى ولاية الخرطوم . وعلى يسارها توجد قرية مأهولة يقوم من قبيلة الشك وهى مؤلفة من اكواخ من القش . أما نفس المدينة فليست إلا مجموعة من الاكواخ المبنية بالطين يضاف اليها بعض أبنية من الحجر منها سجن وبناء للحكومة .

ولما كانت تلك القبيلة وضعت تحت مراقبة ضابط من شبيهه الخلم والعدل والرفق ألا وهو أمير الألاى يوسف حسن بك فقد شجعت تلك الصفات الشك وبثت فيهم روح العزيمة فزرعوا الأرض ذرة فتحسنت حالة معيشتهم تحسنا محسوسا لأن تربة هذه المنطقة صالحة لثل هذا الزرع . ومع ذلك فمن فاشودة الى غندوكورو لا تقع عين الانسان إلا على بحر من المستنقعات وفى وسط هذه المستنقعات المملوءة بأكداس من الأوحال يسير النيل فى مجرى كثير المنعرجات والمنحنيات فى مسافة تبلغ ١٠٠٠ ميل .

بلوغها مديرية خط الاستواء

وفى ٢ أبريل بلغت الحملة مصب نهر سوبات حيث توجد نقطة عسكرية إشارة الى نهاية حدود ولاية الخرطوم وبداية مديرية خط الاستواء . فوقت الحملة فى هذا المكان لتحتطب .

وفى ٥ أبريل وصلت الحملة الى الموضع الذى كانت عاقت فيه الحشائش مسير ييكر باشا وقد ذكرنا ذلك آنفا . ووجدت الحملة طريقها به مسلوكا . وكان يوجد على متن الباخرة التى أفلتها بعض الجنود الذين استخدموا

فى نزع أعشاب السدود وفى سيقانهم الجـراح التى أحدثتها دودة غانة وهى
تم عما قاسوه من الصعاب والمشاق .

وفى ١١ منه انتهت الى « بور » Bor وهى محل لتجارة العاج وبها يوجد
شرذمة من الدناقلة وهى جزء من فرقة مستقلة مأجورة لجماعة تجار العبيد وتجار
العاج بالخرطوم فاستقبلتها وحيثها .

وفى ١٧ أبريل سنة ١٨٧٤ حطت الحملة رحالها فى غندوكورو حيث
استقبلها بالحنافة قائد الحامية أمير الألاى رءوف بك الذى كان مدير هذه المديرية
بالنيابة من وقت سفر سير صمويل بيكر .

وصف غوردون لهذه النواحي

ولقد وصف غوردون فى خطاب أرسله الى صاحب السعادة نوبار باشا ناظر
الخارجية التأثيرات التى وقعت فى نفسه فى أول الأمر فقال :—

لقد استقبلنى رءوف بك احسن استقبال وهو انسان يستحق الحمد
والثناء الجهم لعنايته بجنده واهتمامه بشؤونهم . فعسكره غاية فى النظافة
ويلوح أنه محبوب من عسكره . فألتمس من صاحب السمو أن ينيط
به مراقبة مديرتين .

وإنى لا أريد أن اتوسع فى ذكر ما يقوم بخاطرى من الاعمال غير
أنه فى استطاعتى أن اقول إنه لا يوجد أسمى أية صعوبة يجب على تذليلها .
وأظن أنه لا يلزم ان نصوب حتى ولا طلقة واحدة من فوهة بندقية
سواء أكان ذلك على الزنوج أم على المشتغلين باختطافهم وأعنى بذلك

صيادى العبيد .

والمديريات الخاضعة الآن لصاحب السمو ليست على جانب عظيم من الأهمية ومحطاتها هي حامية غندوكورو وتتألف من ٣٠٠ عسكرى سودانى و ١٦٠ جنديا مصرى . وفاتيكو وتتكون من ٢٠٠ جندى سودانى . وقد عملت الآن كل ما فى الاستطاعة عمله فتركت حامية فى بور لاحتلالها . وبور هذه موقع هام فى شمال غندوكورو .

وجميع الحروب التى شب أوارها ههنا فى الزمن الماضى ليس لها إلا سبب واحد هو نقص المونة . ولقد قيل لى أن الزوج لم يكونوا فى مرة من المرات المعتدين الأولين وانهم ما قاتلوا قط إلا فى سبيل الدفاع عن قطعانهم وانه حتى فى هذه الحالة ما كانوا يقاتلون بحماسة .

وقد كان من رأى رءوف بك محاربة القبائل غير ائى لم اشاركه فى هذا الرأى كما ائى لم أقره على طلباته الخاصة بزيادة الجيش زيادة كبيرة . ومع ذلك ينبغى أن اصرح لسعادتكم أنه كان يجب أن يكون لدينا هنا أكثر من هذه الجنود الخمائة . هذا اذا كان صاحب السمو الخديو يرغب فى مراقبة كل الاراضى التى يحتلها الآن صيادو العبيد من جهة حدود هذه المديريات . ولا أرى من المستحسن والصواب أن يكون عندنا قدر ضئيل من المصريين كالعدد الذى لدينا يقابله عدد كبير من السودانين . وغندوكورو كما شاهدنا على مسافة غير بعيدة من القاهرة . ويوجد هنا جملة مواقع تستحق بلا ريب ما يبذل من المشاق فى سبيل احتلالها .

وانى لست مرتاحا كثيراً لاستخدام غير النظاميين من الجند إلا ان

استخدامهم في الوقت الحاضر من الضروريات .

أما اسماعيل باشا أيوب فيستحق منى كل اعجاب وثناء لقيامه بفتح السدود فبعمله هذا المجيد رد في الواقع هذه المديریات الى صاحب السمو الخديو .

* * *

وكان يوجد أيضا خلاف حاميتى غندوكورو وفاتيكو اللتين ذكرهما غوردون في خطابه الآنف الذكر حامية فويرا وكانت مكونة من ٢٠٠ جندي سوداني من الجيش النظامي كما يرى فيما بعد عند ذكر رحلة القائمقام شاليه لونج الى أوغندا وقد فات غوردون ذكر هذه الحامية .

وتم تفتيش المحطة وحاميتها في زمن يسير وعلى جناح السرعة . وهذا التفتيش كان نتيجة طبيعية لقدم غوردون . وبعد ذلك عقد النية على أن يعود الى الخرطوم ليعجل مجيء أبى السعود الذى بارح القاهرة مع مؤخرة الحملة ثم يرجع معه الى غندوكورو .

واستقبل أمير الألاى غوردون في غندوكورو رسلا قدموا من قبل « متيسا » ملك أوغندا ومعهم هدايا من العاج واشياء اخرى متنوعة صنع بلده برسم سمو الخديو . وأعرب هذا الملك في الوقت نفسه على لسان رسله عن رغبته في أن يرتبط مع حكومة مصر بعلاقات ودية وطلب ارسال أحد العلماء كى يعلمه وشعبه العقيدة الاسلامية حسب نص القرآن .

وأرسل الأمير الزنجي « ريونجا » رسلا الى غوردون ليعلن هو الآخر على لسانهم أنه راغب الرغبة الأكيدة في صداقة الخديو .

ولما كان لا يعزب عن بال أمير الألاى غوردون أهمية الحصول على مودة واحترام هؤلاء الرؤساء الزوج ارسل فى ٢٤ إبريل سنة ١٨٧٤ القائم شاليه لونج محملا بالهدايا لكل من « متيسا » و « ريونجا » ورد فى الوقت ذاته الى متيسا جانباً مما بعث به من الهدايا وهو عبارة عن أطفال من العيد وأصحابهم رسالة قال له فيها انه سوف يوضح له الداعى الذى حدا به الى رد هؤلاء الاولاد .

عودة غوردون الى الخرطوم

وبعد أن زود غوردون القائم لونج بالأوامر اللازمة بشأن رحلته وأقرضه حصانه الخاص . ليستخدمه فى سفره هذا وتحقق أن كل شيء أضحى على ما يرام ، بارح غندوكورو فى ٢١ إبريل موليا وجهه شطر الخرطوم لكي يستعجل أثناء وجوده فى هذه المدينة بما يبذله من المجهودات المؤن المعدة لما سيقوم به من الاعمال . وبعد سفر دام أحد عشر وصل الى الخرطوم .

وفى أثناء رحلته الى الخرطوم هذه أنجز رسم مسودة خريطة مجرى النيل بين الخرطوم وغندوكورو وكان ابتداءً فى عملها فيما سلف عند صعوده النهر .

وقال فى خطاب كتبه وهو فى الخرطوم بتاريخ ٥ مايو سنة ١٨٧٤ إنه وطد العزم على أن يقيم نقطة عسكرية على مقربة من مصب نهر سوبات ليشرف بطريقة مثلى على خطوط المواصلات بين مديرياته والعالم المتمدين وليحول بهذه الوساطة بطريقة أضمن دون مرور عصابات صيادى العيد عند اقتيادهم لفرائسهم البشرية وأيضا لينمى تهريب الأسلحة النارية والذخائر

فى نفس هذه المديرىات تلك الأدوات التى لا بد منها ولا غنى عنها فى أعمال صائدى العيد .

وكانت تساوره الآمال أيضا أنه يستطيع من هذه النقطة مباشرة رقابة فعالة على تجارة العاج التى كثيرا ما كان يتستر تحتها النحاسون ويتخذونها ذريعة لممارسة تجارتهم الممقوتة .

وفى الخطاب المذكور إشارة الى تأسيس ثلاث مديريات والاعراب عن أمله أن يحصل على جمال وحمير فى المستقبل لاستعمالها فى نقل الذخيرة والمؤونة الى تلك المديرىات الثلاث فى الذهاب والعودة وابتغاء نقل العاج الى مركز الحكمدارية ليرسله بطريق النهر الى الخرطوم . وبذا يستغنى عن استخدام عدد كبير من الجمالين كالعهد الذى كان يستخدم دواما حتى ذلك التاريخ . ويظهر أنه مال لهذا الترتيب كل الميل للسبيين الآتين :

١ - ان مثل هذا التغيير كان يفضى الى اقتصاد محسوس فى وسائل النقل .

٢ - بالاستغناء عن جيش عرمرم من الجمالين لا تكون هناك حاجة لطلب زاد فى الطريق من الاهالى لتموين أولئك الجمالين وبذلك يزول السبب الرئيسى الذى يدعو الاهالى للتذمر .

وقد أوصى غوردون فى ذلك الخطاب أن يلفت نظر سمو الخديو الى الهدايا المرسله من قبل متيسا عن يده تلك الهدايا التى بعضها كما يقول غوردون ويكرر القول — يدل على وجود درجة من المدنية بين الاهالى الاوغنديين . ويشير بارسال شيخ صالح من القاهرة له المام تام بنصوص

القرآن ومعانيه الى أوغندة ليكون في معيته وتحت رعاية متيسا لياشر تعليمه وتعليم شعبه وان يلتفت كذلك نظره الى توجيه هدايا لائقة الى هذا الأمير . ويسترعى الانظار الى ان متيسا ملك أقوى من « كباريجا » أو « رومانكا » ويوصى أيضاً بارسال هدية مليحة الى الشيخ « لورو » الذى أظهر استعداداً حسناً نحو الحكومة وهو من الرؤساء الوطنيين وكان قد أعرب عما تكنه جوانحه بارسال ناب فيل بصفة هدية وهو ناب من أحسن الأناب والطفها .

وذكر فى خطابه أيضاً أنه أمر بزراعة الذرة بدون تأخير وأنه من حسن الحظ ان كان ذلك فى الموسم الملائم لهذه الزراعة وانه بذلك يمكنه اجتناب المجاعة .

وقد أرسل غوردون مع هذا المکتوب ثلاثة مكاتيب أخرى جاءت من متيسا .

وفى ١٨ مايو سنة ١٨٧٤ كان أمير الألاى غوردون فى بربر حيث أنجز بنفسه الاحتياطات التى رآها لازمة للتأكد من شحن الثونة والدخائر بانتظام .

ومن تلك الساعة أضفى هادى البسال آمنا مطمئنا لانه لم يكن ثم ما يشغله عن التفرغ تماما مدة سنين لاعماله الهامة فى اواسط افريقية بدون أن يرى نفسه فى حاجة الى ان يبارح مرة أخرى منطقة المديریات التى ألقى عليه مقاليد حكمها قبل أن يكون قد وطد أسس نظامها توطيدا محكما .

وفى تلك الحقبة كانت الاوامر قد أعطيت الى أورطة من الجيش

كانت تخدم تحت إمرة صاحب السعادة مورتزنجر بك Munzinger Bey الحاكم العام للسودان الشرقى وساحل البحر الأحمر بأن تنتقل الى مديريات خط الاستواء لكي يستطيع غوردون أن يعتمد عليها فى اجراآته القادمة عند الاحتياج الى امداد .

وفى ٣١ مايو كان غوردون بالخرطوم وفيها لحق به البكبشى كامبل وهو من الضباط البحريين وكان قد طلب غوردون تعيينه للاستفادة من خبرته وانضم اليه أيضا بهذه المدينة عدد كبير آخر من الملحقين بالقيادة تحت أمره . ووقع اختياره كذلك على ٤ بلوكات مسلحين بسلاح من طراز رمنجتون أقلتهم البواخر الآتى اسمائها وهى : بردين و تلحوين و الصافية و المنصورة .

عودته الى فاشودة واقامة محطة عند مصب نهر سوباط

وقد أقلعت تلك البواخر قبل سفر الحكمدار العام بعد ان زودها بتعليقات مقتضاها ان تنتظره عند مدخل نهر سوباط . اما هو فقد بارح الخرطوم فى ٨ يونيه سنة ١٨٧٤ على ظهر الباخرة الخديو وكان ابراهيم افندى فوزى الذى أنعم عليه فيما بعد برتبة الباشوية يقود حرسه الخاص . وبعد مسيرة ٧ أيام ألت سفينته مراسيها فى فاشودة واستقبله يوسف بك حسن المدير بجميع انواع الحفاوة والاكرام اللائقين بشخص فى مرتبته . وبعد اقامة يومين فى فاشوده عاود السير ميمما مصب نهر سوباط فوصل بعد يومين ووجد البواخر والجند فى انتظار مقدمه .

وكانت مديرية خط الاستواء التى تولى غوردون حكمادريتها تبتدىء

عند هذه المنطقة . فعقد النية على أن يؤسس فيها محطة وفعلا خططها وأمر الجند بأن يشتغلوا بعملها . وفي ظرف ١٥ يوما تم عملها وعين لقيادتها اليوزباشى محمد افندى احمد وترك له بصفة حامية البلوك الذى تحت إمرته وذلك بعد أن وصاه بأن يعامل الأهالى المعاملة الحسنة ويرعاهم بعين رعايته ويراقب من جهة أخرى النحاسين مراقبة دقيقة ليستأصل تجارة الرق إذ ان مركز مصب نهر سوباط هذا كان له أهمية كبرى من هذه الوجهة أعنى وجهة منع تجارة الرقيق .

وقد أقام غوردون فى هذه الناحية شهرين تقريبا لى القبض فى غضونهما على كثير من المراكب المشحونة بالعاج والرقيق إذ كان تجار هذين النوعين يجولون وجوده فى هذه المنطقة وقد صدر الحكمادار العاج باعتباره محتكرا للحكومة . أما العبيد فأطلق سراحهم . وقام عدا ذلك بعدة استكشافات فى تلك البقعة .

وفى أثناء اقامته عند نهر سوباط أرسل جيسى Gessi الذى نال فيها بعد لقب باشا و أنسون Anson ليقوما بجولة تفتيش على طول بحر الغزال وفى أثناء هذه الجولة أصيب الأخير اعنى أنسون بحمى خيثة لى من جرائها حتفه .

وبعد أن رحل من نهر سوباط حط رحاله فى شمبى Shambé حيث أقام كبار التجار مثل أبى عمورى وكشك على وغطاس وآخرين غيرهم محطات هامة لتأجيرهم فاستقبله فيها بغاية الاحترام شيخ المركز وهو رجل دنكاوى اسمه الشيخ الحداد . وبعد أن أخذ راحته خطط رسوم محطة وأقامها ثم قد قيادها اليوزباشى مصطفى فتحى افندى

وترك له بصفة حامية البلوك الذى تحت قيادته ووصاه نفس الوصاية التى أوصى بها قائد المحطة التى قبلها .

عودته الى بور وغندوكورو

وانطلق من هناك الى محطة « بور » فوجد بها ٤٠٠ جندى من الجنود غير النظاميين التابعين للتجار فأمر بتجنيدهم فى خدمة الحكومة ونبه عليهم بأن يقدموا له بيانا بعدد الاسلحة وأنواع المؤن والذخائر التى فى حوزتهم فصدعوا بالأمر وعين لهم بالمركز بصفة قائد ومدير ضابطا سودانيا كان من جملة الضباط الذين خدموا فى حملة سير صمويل بيكر . ويسمى هذا الضابط آدم افندى عامر وقد ارتقى الضابط المذكور فيما بعد الى رتبة البكباشى وعند قيام ثورة المهدي كان مديرا فى « كيكيه » وهى من ملحقات دارفور . ولما سقطت هذه المديرية سلم مديريته لجيوش المهدي بأمر من سلاطين باشا الذى كان سلم قبله سلاحه .

وبعد ان سوى غوردون سائر الاعمال الخاصة بالمحطة تفصيلا وأعطى أوامر مطابقة تماما للأوامر التى أعطاهها للمحطات السابقة ولى وجهه شطر غندوكورو فوصل اليها فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٧٤ .

وقد وجد أمير الألاى غوردون عند قدومه هذه الناحية أن جميع الأوامر سائرة حسبما يشتهى وذلك بهمة القائممقام رءوف بك الذى قام بواجباته خير قيام ونفذ التعليمات التى أصدرها له بشأن الخطة الواجب اتباعها تجاه الأهالى ومشايخهم فكانت جميع العشائر الضاربة بجوار المحطة على أحسن ما يرام من العلاقات مع الحامية .

ولكن كان القائمقام رءوف بك قد قضى سنين عديدة فى الخدمة فى تلك
الاصقاع ولذلك كان يحن الى زيارة القاهرة فحمله هذا الحين الى طلب اجازة
مداها تسعة أشهر .

وكان اميرالاولاى غوردون لا يستطيع أن يستغنى عن خدمة رجل
محنك مثله ولكنه كان يرى من جهة أخرى أن العدل لا يرضى بأقل من
إجابة هذا الطلب فكتب الى نوبار باشا فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٧٤ ما يأتى :-

« اقدم لسعادتكم هذا الخطاب بواسطة رءوف بك الذى طلب منى التصريح
باجازة قدرها تسعة أشهر ليزور فيها القاهرة .

وأخبر سعادتكم أنى أعربت لصاحب السمو فى سلف عن ارتياحى لرءوف
بك نظرا لما أبداه لى هنا من المعونة وتقديرى لما قام به من المجهودات فى
وسط ظروف بلغت غاية الحرج وذلك فى سبيل حفظ وصون جنوده . وان
هؤلاء يعتبرونه كأب نظرا للصعاب التى تحملها فى سبيل راحتهم .

ويخامرنى الأمل بأن صاحب السمو الذى هو على بينة من كفايته وجدارته
قبل الآن يتقبل شهادتى فيه قبولا حسنا .

واكرر القول يا صاحب السعادة بأنه فيما اذا لو سمح سموه وتنازل برجوع
رءوف بك الى هنا فان ذلك يكون من حسن حظى وانا على يقين من ان اجد
له دواما محلا يليق بمرتبه ويرتاح لوجوده فيه . »

عودة رءوف بك الى القاهرة

عاد هذا الضابط الباسل الى القاهرة وفيها كافأه سمو الخديو على شهامته في تأدية وظيفته بترقيته الى رتبة لواء معتمداً في هذه المنحة على شهادة أميرالاي غوردون . ورءوف باشا الذي صار فعلاً من ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب لم يعد الى مديريات خط الاستواء بل عهد اليه فيما بعد قيادة منفصلة وقائمة بذاتها في منطقة أخرى وهى منطقة هرر حيث أدى اعمالاً لسمو الخديو تذكر فتشكر وبذلك حقق مرة أخرى الرأى الذى أبداه غوردون فيه .

وبعد سفر رءوف بك نصب غوردون البكباشى الطيب عبد الله افندى قائداً لغندوكورو ومنحه رتبة قائمقام وهو الذى كان يقود الاورطة السودانية فى حملة سير صمويل بيكر ثم نقله الى « لادو » عند ما تقرر جعلها عاصمة لمديرية خط الاستواء وعين كذلك الصاغقولى أغاسى عبد الله افندى قائداً فاتيكو بنفس هذه الوظيفة فى الرجاف وقتما أنشئت فيها محطة .

وفى هذا الحين - ٥ سبتمبر سنة ١٨٧٤ - أى عند ما بارح رءوف بك مديريات خط الاستواء كان جميع أولئك الذين يجب بحكم الطبيعة أن يعول أميرالاي غوردون عليهم لتأدية مأموريته الهامة غائبين وليس فى استطاعته الانتفاع بأحدهم . فالقائمقام لونج كان غائبا فى مأمورية فى أوغندة والبكباشى كامبل الضابط البحرى والمستر أوجست لينان والمستر رسل كانوا الثلاثة يقاسون آلام الحمى التى أصيبوا بها وحالتهم

خطرة فكان يقضى اكثر أوقاته فى بذل العناية بهم . وكان مع هذا لا يفتر عن أن يهيئ المشاريع والرسوم اللازمة لترتيب وتنسيق الأقطار الواقعة تحت سيطرته ويستعد لعمل استكشافات منظمة فى الأرجاء التى كانت ما زالت مجهولة من النيل والبحيرات الكبرى كما أنه كان يعمل فى سبيل إيجاد مراكز فى نقاط تستطيع منها حكومته مراقبة المراكز التى كشفت بطريقة ثابتة ومستديمة .

وكان يعمل أيضا على إيجاد مواصلات بطريق النيل تحل محل وسائل النقل بطريق البر المنهكة والتى كانت تكلفه نفقات باهظة . وهذه الوسائل كان لا بد منها بين معسكره العام ونقط نواحي الجنوب .

وكان مشروع استخدام النيل للنقل فى جنوب غندوكورو فيه شيء من المجازفة إذ كان يسود الناس لغاية هذا الزمن وذلك بدون سبب معقول ، الاعتقاد بأن النيل ابتداء من جنوب الرجاف لغاية دوفيليه غير صالح للملاحة ولا يمكن استعماله لهذا الغرض .

وكان شلال دوفيليه أمره معلوما وكان من المظنون ان المسافة بين الرجاف ودوفيليه لم تكن صالحة للسلوك إلا قليلا . فسلم بهذه الفكرة ولكن مؤقتا فقط وترك فخص هذا الجزء من النهر الواقع بين الرجاف ودوفيليه الى ما بعد وكان لم يزل لديه بقية أمل فى العثور على قسم مطروق وذلك عند ما يدرس سائر الترع درسا وافيا . فأرسل الى دوفيليه مع المستر كعب المهندس الميكانيكى الانكليزى أجزاء باخرة صغيرة وآلاتها بقصد ضم هذه الأجزاء وتركيبها هناك لأجل استخدامها . وكان قد استحضر معه من القاهرة أبا السعود وهو ذلك الرجل الذى صيرته أفعاله فى عهد حكمدارية سير

صمويل بيكر أشهر من نار على علم .

ولما كان غوردون على بينة من أن أبا السعود له معرفة تامة بجميع تلك الأقطار والقبائل الضاربة فيها وبسائر عصابات صيادي العبيد التي يستخدمها التجار فقد كانت لديه أسباب وجيهة تدعوه لأن يعتقد أن ما نال أبا السعود من العقاب الصارم بسبب ما بثه من الدسائس والفتن في الزمن الغابر يرده الى صوابه ويبرئه من تصرفاته العوجاء فيما يستقبل من الزمان ويث في نفسه الرغبة في أن يبرهن للحكومة بأمانته وشرفه في خدمتها على ان شخصه في الحقيقة خير من سمعته .

فلكى يستفيد من معلومات هذا الرجل وخبرته ونشاطه استفادة تامة تجاسر غوردون وجعله المعاون الأول له وكلفه بالمأمورية الهامة ألا وهى مأمورية العناية الدقيقة بنقل اجزاء الباخرة السابق الكلام عنها والتي كان يعلق آماله على أن يجعلها تقوم بالملاحة فيما بعد بين شلال دوفيليه وبحيرة البيرت نائزا .

وترأى بادية ذى بدء أن أبا السعود حقق ما ارتآه فيه غوردون بتفويضه إياه مركزا ذا أهمية كبرى إذ أظهر الشئ الكثير من الدقة والمهارة والنشاط في تنفيذ التعليمات التي أمده بها رئيسه .

وقد قال أميرالائي غوردون في كتاب كتبه بتاريخ ٢٧ سبتمبر : « انه من حسن الحظ يمكن ان أقول انه في ظرف ١٠ أيام ستكون اجزاء الباخرة كما أرجو في محطة الابراهيمية » دوفيليه « وما ذلك إلا بهمة ومجهودات أبي السعود » .

وبتاريخ ١١ من الشهر المذكور كتب مرة أخرى يعرب عن ثقته بأن أبا السعود والآخريين الذين كانوا في جيوش النخاسين ثم سرحوا وانضموا بعد ذلك الى خدمة الحكومة تستفيد الحكومة من عملهم لا سيما وقد تحققوا أن الاشغال التي كانوا يمارسونها فيما سلف أصبح لا وجود لها وستظل كذلك الى ما شاء الله . ولما كانوا زيادة على ذلك ملمين بالمأما تاما بالبلاد واحوالها فقد تهيأت لهم الفرصة التي تمكنهم من أن يبرهنوا للحكومة على انهم لم يبلغوا في عدم الاستقامة والدناءة الدرجة التي ظنهم بها .

ترتيب غوردون قيادة الجنود وتقديم مشايخ القبائل الطاعة

وقد اتخذ أميرالأي غوردون فوق ذلك احتياطات حكيمة ذلك أنه مع وضعه أبا السعود ورجاله في مراكز يستطيعون فيها تأدية خدمات جليلة قد وجه عنايته الى ترتيب القيادة بكيفية لا تجعل الجيوش النظامية بحال من الاحوال تابعة لأولئك الرؤساء غير النظاميين بل تضعهم تحت سلطة الضابط النظامي الاقدم رتبة الذي كان عليه ان يرجع في كل الامور الى الحكماء العام .

وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٤ قدم ٢٥ شيخا من مشايخ قبائل الزنوج الضارين حول غندوكورو ليقدموا لغوردون خضوعهم وحسن ولائهم فأكرم وفادتهم وعرض عليهم كلهم الذهاب لمدينة الخرطوم لزيارتها فتقبلوا هذه الدعوة بشغف . وكتب غوردون أنه يقصد من وراء هذه الزيارة لتلك المدينة على متن وابور بخارى أن يتنسّم أولئك الشيوخ من

من خلالها ربح المدينة الأمر الذى لا بد أن يأخذ بألبابهم ويؤثر على مشاعرهم ويريمهم عدا ذلك السلطة والسيطرة المخولة له .

الصعاب التى صادفها وتغلبه عليها

وكان كل من البكباشى كامبيل ومستر رسل مصابا بالحمى وحالتها خطيرة وحسالى منتصف شهر سبتمبر سافرا بطريق النيل الى الخرطوم تبديلا للهواء وليعالجا فى مستشفاهما . أما مسيو أوجست لينان السكرتير الخاص للحكمдар العام فكان فى حيز عدم الاستطاعة ارساله معها كما كان ينوى غوردون إذ انه ما كان يتحمل مشاق السفر بسبب اشتداد وطأة المرض عليه وضعفه بعد الانتكاس الذى أصيب به . وهذا الرجل المنكود الطالع فاض روحه فى ١٦ سبتمبر . وعلى هذا ظل غوردون تقريبا وحيدا فريدا مع جيوشه الوطنية غير النظامية . وفى برهة يقل مداها عن شهر واحد نكب أيضا بمرض أربعة من الأوربيين الستة الذين كانوا معه قضى عليهم . أما الاثنان الباقيان فكان أحدهما وهو المستر كمب المهندس قد رحل مع قطع الباخرة وأرسل الآخر وهو مسيو جيسى الى الخرطوم لينوب عنه فيها بصفة وكيل عام له .

وغرت كثيرا هذه الحالة أبا السعود وكبار ضباطه غير النظاميين والحديثى الولاء وقام برؤوس أولئك الرجال ان الفرصة سحت للاستيلاء على حكم الاقطار التى جابوها فيما سلف وأن يكونوا أربابا لها . فانقلب أبو السعود فجأة وغير خطته وتظاهر أمام رؤوس الأهالى ورؤوس الجيش بمظهر الشدة والعظمة وربما فعل ذلك لاعتقاده انه أصبح الآن فى قدرته أن يجعل الحكمدار العام الجديد يخضع لأرادته .

ولقد ضل أبو السعود سواء السبيل وجهل الرجل الذي كان يريد أن يخدعه جهلاً مطبقاً . ولم يلبث غوردون أن أدرك حالاً رياءه وسوء نيته كما أدرك كفاءته فيما سبق . فخذ ظهرت أول أماراة منه تدل على سوء مقاصده نحو الحكومة رأى نفسه معزولاً من مركز المعاونة الأولى لغوردون ووضع تحت المراقبة في غندوكورو ومن ثم أرسل بطريق النيل الى الخرطوم .

وبدا من صفار الضباط في أول الأمر الاستعداد لظهور سوء شعورهم من هذا الابعاد إلا ان غوردون عند ما لاحت منهم بارقة التظاهر بعدم الرضا عاجلهم مع الهدوء المشفوع بالثبات بأعمالهم بأن في استطاعته الاستغناء عن خدماتهم بسهولة في المديرية اذا لم يظهروا تمام الطاعة والخضوع . وفي الحال رجعت المياه الى مجاريها وانحسم الاشكال .

تعليمه الأهالي التبادل بالنقود وتعيم ذلك بينهم

وكتب أمير الأي غوردون من الرجاء بتاريخ أول اكتوبر بشأن الرؤساء الدنقلويين ما يأتي :—

« ان الاطروش وكيل محل العقاد وبعض الدناقلة كانوا حائقين مني فقلت لهم ان كنتم غير مرتاحين فتم استطاعتكم العودة الى الخرطوم وعلى ذلك لم يلبثوا ان طلبوا العفو في الحال . وقد كان من اللازم تفهيم أولئك الدناقلة أن سمو الخديو هو السيد الحقيقي لهذه البلاد وان الحكومة لديها قوة كافية فلا تخشى اناساً مثلهم غير لازميين لنا بالمرّة الأمر الذي كانوا قبلاً غير مقتنعين به .

وفي ٢٦ سبتمبر سافر من هذه الجهة المستركب الى دوفيليه ومعه عساكر نظامية وغير نظامية والقسم الاكبر من قطع المركب البخارى . ومقتضى الخبر الوحيد الذى نقل الى بشأنه بواسطة بعض الزنوج ان الاهالى قتلوا البعض من رجالنا فى أثناء الطريق وجندلوا العساكر خمسة منهم وان جنودنا ما فعلت ذلك إلا فى سبيل الدفاع والذود عن ارواحهم ويتضح من ذلك اننا غير قادمين على حرب .

وكان المستركمبيل قد تلقى تعليمات تقضى عليه بأن يجتهد فى معاملة الرؤوس الأهليين معاملة حسنة .

وفي ٢٦ سبتمبر أيضا ذهبت فى الليل نحو الجنوب مسافة ٤ أميال فوصلت قرب جبل الرجاف . والارض هناك مرتفعة وهى مركز أصلح بكثير من مركز غوندوكورو التى عولت على تركها لرداءة مناخها وسوء اختيارها كمعسكر عام .

وقد حاولت فى عهد وصولي الى هنا تدريب الأهالى على المعاملة بالنقود ونجحت . وللوصول الى هذا الغرض دفعت أول يوم ثمننا للنقش الذى استحضر لعمال المساكن عملة من الخرز .

وكانت العادة الجارية هي أن لا يعطى شئ للرجال بل تقدم هدية للشيخ . وهذه طريقة فاسدة لأن الرجال الذين كانوا اشتغلوا لم ينالوا شيئاً مقابل كدهم وجدهم . وفى اليوم التالى أعطيت كل رجل من الرجال الذين اشتغلوا قطعاً من النقود ثم استرجعت منهم النقود وقدمت لهم بدلها خرزا . وهكذا صرت افعل حتى آل الامر الى أن فهموا ان النقود تضارع

الخرز في القيمة .

ولقد يخالني الأمل ان آتى بهذه الوسيلة على طريقة الاقطاعات التي فرضها الشيوخ . ومتى عرف الزنجي ان في استطاعته ان يكتسب نقودا لنفسه بواسطة عمله الخاص ضعفت درجة خنوعه لرئيسه وزادت بالعكس درجة تعلقه بالحكومة . ولم يلاحظ الشيوخ مع ذلك شيئا من كل هذا إذ انهم هم انفسهم مرتاحون لطريقة قبضهم النقود . وأتى اليوم شيخ ومعه ناب فيل وأراد ان يبادل عليه بجلجلين لدوابه فأيت ان أعطيها اياه بل قدمت له ريالين في مقابل هذا الناب فقبل ثم عرضت عليه الجلجلين في مقابل رياليه فاشتراهما . وأحضر فيما بعد في اليوم نفسه نايتين وعرضهما للبيع .

والآن لا يخامرني الشك ان في استطاعتنا من اليوم ان نشترى بالنقود دون ان نصادف صعوبة ، العلاج والابنوس والذرة وغير ذلك . ولا بد من الاعتراف بأن الطريقة القديمة التي كانت متبعة هنا مناقضة على خط مستقيم لهذه الطريقة .

وقد دهش الزنوج حينما رأونا نطلق المدفع ونحن على بعد ١٥٠ ياردة منه وذلك بواسطة آلة كهربائية . ويسلك هؤلاء مسلحا جيدا . وحقا يستغرب الانسان كثيرا عند ما يجد ان سير صمويل بيكر كان يضطر لشن الغارات للحصول على مواشى في نفس قرية الرجااف هذه التي نعيش فيها هادئين آمنين والزنوج على أتم الاستعداد لاجابة مطالبنا » .

وفي ٦ أكتوبر سنة ١٨٧٤ كتب ايضا ما يأتي :-

« توجهت اليوم الى غندوكورو فوجدت جميع الاحوال على غاية

ما يرام . والمأمول أننا نتمكن من تقرير طريقة المعاملة بالنقد فى سائر
انحاء المديرىات . »

مكاتبات من أميرالآلى غوردون فى شؤون أخرى

وفى ٧ من شهر أكتوبر المذكور عاد إلى الرجاف ومنها كتب
ما يأتى :-

« رأيت اليوم لاركو Larco وهو الذى بدت منه امارات العدوان .
وانى لا اثق بهذا الرجل رغما عما يظهره من المودة . فاذا رأيت من
وارث هذا العرش الصغير حسن الاستعداد وانه من الممكن أن نستفيد
منه فانى أبعث « لاركو » واسرته الى الخرطوم للاقامة فيها ونمنحه مبلغا
صغيرا ليعيش به . ومتى رأى وارثو أولئك المشايخ ان الحكومة مصافية
لهم على شرط أن يكونوا هم ايضا لها مخلصين فانى أظن أنه لا يكون أماننا
الا قليل من المصاعب .

وأظن اننا لا نلاقى ايضا مصاعب بخصوص توريد الذرة لنا ولقد اشترت
منها بالأمس ٣ أراذب ونصف أردب أرسل لكم منها عينة . ومتى أعطيت
الاهالى من ذرة الخرطوم ليزرعوها فسيكون فى المستقبل هذا النوع هنا . »

وفى ٩ من الشهر عينه كتب ما يأتى :-

« لقد استدعيت اليوم مرة أخرى الى غوندوكورو بمناسبة وصول الباخرة
بردين . وورد لى خطاب مع هذه الباخرة من القائمقام يوسف حسن بك مدير
فاشودة يخبرنى فيه بأنه قبض على ارسالية تحتوى على ١٦٠٠ من العبيد و ١٩٠

بقرة قادمة من محطات « غطاس » و « كشك على » الواقعة على بحر الزراف .
ولقد أوضحت فيما مضى . أنى على يقين من أن هذه الارسالية سائرة فى
الطريق وتأسفت لعجزى عن القبض عليها . ويحزننى عدم الاحتفاظ بأوثث
العبيد برسم مديرية الفيوم (١) .

ولقد تصرف يوسف حسن بك أحسن تصرف . ويكون من حسن حظى
أن تتكرموا سعادتكم وتلتمسوا له من الجنب العالى رتبة أميرالائى .

ومن الهام جدا بذل هممة عظمى لمنع جلب الأسلحة النارية والبارود الى
هذه المديرىات لأننى اعتقد أن الخراب قد حل بتجارة الرقيق من جراء
القبض الذى حدث حديثا على هذه الارسالية . وسوف تكون عاقبة هذا
الحادث زيادة عدد العاطلين من الدناقلة . ويصبح من المحتمل ان أولئك
سيذهبون أفواجا الى دارفور حيث يعرضون خدماتهم على سلطانها وفى ذلك
بعض المكارة لحكومة الجنب الخديو .

والسبب الذى جعل غوردون يقول هذا هو أنه كان عالما بالخدمة
التي كانت تجهز تحت قيادة اسماعيل أيوب باشا حكامدار عموم السودان
والوزير رحمة الله باشا لفتح دارفور ولو توجه هؤلاء الاشخاص لسلطان ذلك
الاقليم لزدادوا قوته ضد قوات الحكومة المصرية .

وفى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤ كتب أميرالائى غوردون من الرجاف
ما يأتى :-

(١) - ذكرت مديرية الفيوم هنا لمناسبة عرض غوردون على الخديو اسماعيل مشروعا مقضاه
ان العبيد الذين يقبض عليهم ويؤخذون من النخاسين بواسطة الحكومة يرسلون الى مديرية
الفيوم ويقطعون اطيانا لاستغلالها .

« لقد آب بالأمس المستركب المهندس الميكانيكي ومعه الجمالون الذين أمدّه بهم احمد الاطروش فلم يحتاجوا لاكثر من ١٠ ايام لقطع المسافة بين الرجاف ودوفيليه وعلى ذلك يكون طول تلك المسافة ١٣٤ ميلا انكليزيا قطعوها وهم حاملون القسم الأكبر من اجزاء الباخرة .

ولم يبد الزوج في اثناء الطريق أية مظاهر عدوانية . ولكن التراجمة الدناقلة نهبوا مساكن أولئك الزوج فقاوموهم بحكم الطبيعة وقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة .

واستقبل شيخ الماديين Madis القافلة أحسن استقبال في « دوفيليه » وسر سرورا كثيرا إذ رأى جنودا منظمة معسكرة على مقربة منه بدلا من الدناقلة . ويوجد في دوفيليه كميات كبيرة من الذرة وسأقيم بها أو على الضفة المقابلة لها محطة حسنة ومتينة . هذا وقد كان المستركب عند قدومه مريضا مرضا شديدا إلا أن حالته قد تحسنت الآن .

وربما كان من الضروري أن تفسر لكم معنى كلمة « تراجمة » فهذه الكلمة تطلق على طائفة العبيد الذين أسره الدناقلة وهم حديثو السن ثم لما شبوا وكبروا تزودوا ببنادق عتيقة . ويحتسب هذا الفريق من عداد خاطفيهم القدام أعنى الدناقلة .

والتراجمة بلا استثناء هم من اكبر اللصوص الذين وقعت عليهم عيني . وقد جربتهم واختبرت سلوكهم والمستركب حدثني عما ارتكبوه من حوادث السرقات في الطريق . ومن الضروري تجريدكم من السلاح أيما وجدوا لأنهم لا يدينون لأحد لا باحترام ولا بطاعة حتى ولا

لأسيادهم القدماء .

ولقد لاحظت انه لا يوجد دواما عمق كاف من الماء بين الرجاف وغندوكورو ولذلك قررت ان يقيم نصف حامية هذه الجهة الأخيرة في جبل « لادو » Lado الواقع على بعد ٨ أميال منها شمالا والنصف الآخر هنا . واني ارغب كثيرا في سحب الجند من غندوكورو للأسباب الآتية وهي : أن مناخ هذه الجهة غير صحي بسبب الغدران التي تكتنفها . وهذا عدا خلوها من الاخشاب التي تستعمل وقودا للبواخر الأمر الذي يضطرنا للسير ساعتين أو ثلاثا للحصول عليه . وبالعكس لادو فان مناخها صحي وترتبتها جيدة فضلا عن أنها واقعة بالقرب من غابة . وعلى الرغم من هذا يلوح أن الشكل هنا أى في غندوكورو كأنهم موثقون فيها حتى أنه ليتعذر اخراج الجنود منها للخدمة في جهة اخرى .

وفي ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ كتب أمير الألاي غوردون ما يأتي بعد ما جاءته تقارير القائم مقام لونج عن رحلته في أوغندة ذهابا وايابا وكان لونج وقتئذ بالقرب من غندوكورو وفي طريق عودته منها وقد وصل تقريبا في نفس الوقت الذي وصلت فيه تقاريره :—

« لى الشرف بأن أرسل الى الجنب العالى ملخص بعض تقارير وردت من القائم مقام لونج الذى رجع من أوغندة وكان قد ذهب إليها مع الرسل الذين حضروا هنا بالهدايا المرسلة لسمو الخديو من قبل متيسا في شهر أبريل . ومرسل اليكم ثلاثة من هذه التقارير بصورتها الأصلية .

واني اتجاسر فألتمس من سموه أن يتفضل بالموافقة على ترقية هذا

الضابط الى رتبة أميرألاى إذ أنه لبث وقتا طويلا برتبة القائمقام . وأرى أنه قام بالمأمورية التى ألقىت على عاتقه خير قيام . وقد كتبت لكم هذا المكتوب قبل أن يصل الضابط المشار اليه الى هنا حتى لا يفوتنى البريد .

ولا يوجد لدى الآن شىء هام اذكره منذ خطابى الأخير اللهم إلا أن أقول لكم انى ازداد مع الوقت يقينا بضرورة تطهير الناحية التى نحن فيها من الدناقلة وهذا ما سأفعله تدريجا مع توالى الايام كلما أتنا جنود ليحلوا محلهم .

ولم نزل المستركب للآن طريق الفراش يعانى آلاما شديدة » .

وفى ١٩ من الشهر السالف الذكر كتب أميرالألاى غوردون يخبر بوصول القائمقام لونج ويبين بايجاز ولكن مع الايضاح ما وقع أثناء رحلة هذا الضابط وما تلاها من العواقب . أما بيان هذه الرحلة فنحيل القارئ عليه فى ملحق سنة ١٨٧٤ م الآتى بعد .

واليك القرارات التى اتخذها غوردون بعد ان تلقى التقارير الكتابية وسمع البيانات الشفوية من القائمقام لونج .

لقد أمرت بطرد سائر الدناقلة الذين فى هذه الإنحاء والقاء القبض على أبى بكر حال قدومه من قبل متيسا وايجاد نقط عسكرية فى الجهات الآتية وهى : لابوريه ، و دوفيليه ، « الابراهيمية » ، وفاتيكو ، وفويرا .

وأمرت علاوة على ما ذكر بارسال مفوض حاذق للملك متيسا واستبقاء كباريجا فى مركزه مؤقتا .

ويقول القائمقام لونج الذى ساح فى بحيرة فكتوريا إن عرض هذه البحيرة لا يجاوز عشرة أميال . وقد عانى هذا الضابط مشاق كثيرة وصادف مصاعب شتى بسبب الدسائس التى دسها له الدناقلة . ومن المدهش حقاً نجاحه من شر ما ألقى فى سبيله من المكائد والأشراك . وانى لعلى يقين بأنه سيكافأ من الجناح العالى لأن العمل الذى أداه عمل جليل . »

وعند وصول هذا الخطاب نشر الأمر العالى الآتى :—

مكتب رئيس أركان حرب

القاهرة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤

« هجم نحو ٤٠٠ رجل من اعادى سمو الخديو على القائمقام لونج وهو مسافر بقرب بحيرة البرت ولم يكن لديه سوى جندين فصد هجماتهم المتسواترة وشتهم بعد أن قتل منهم ٨٢ رجلاً . فنظرا لهذا الفوز الباهر ونظرا لقيامه بالمهمة التى عهد اليه أمر القيام بها فى أوغندة خير قيام رغما عما لقيه من المشاق الكبيرة تفضل سمو الخديو فرقه من درجة قائمقام الى درجة أميرالاي فى هيئة أركان الحرب . »

بأمر سمو الامير ناظر الجهادية

رئيس أركان الحرب العام

الامضاء « استون »

وأرسل أيضا الخطاب الآتى الى أميرالاي غوردون الحكمدار العام لمديريات خط الاستواء من حضرة صاحب السمو الأمير حسين كامل ناظر الجهادية « الحرية » فى ذلك الحين :—

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية مكتب الناظر

ياحضرة الميرالاي

أراد سمو الخديو ان يقدم برهانا لحضرة القائمقام لونج عن رضاه
نظرا لحسن سلوكه واقدامه وثباته في المعتقدين اللتين لقيهما في « مروي »
بالقرب من خط الاستواء فأنعم عليه برتبة أميرالاي وقلده النيشان المجيدى .
وتجدون مع هذا براءة الرتبة فأرجوكم تسليمها لأمرالاي لونج بك
وتقدموا له من قبلى التهانى .

وتقبل ياحضرة الميرالاي أحسن عواطف الود

الامضاء « حسين »

* * *

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ان أورطة كانت تعمل مع صاحب العزة
مونزنجر بك قد صدرت لها الأوامر بالقيام بالخدمة فى مديرية خط الاستواء
تحت إمرة أميرالاي غوردون . وهذه الأورطة مضى على وجودها فى
الخرطوم مدة فأرسل غوردون أميرالاي لونج ليعيد المعدات لاستحضارها الى
لادو لتشتغل بأعمال أخرى تخص مديريات خط الاستواء .

وفى ٢٩ أكتوبر بارح لونج غندوكورو لتأدية هذه المهمة فوصل الى
الخرطوم فى ٩ نوفمبر . وبعد أن أقام شهرا فى هذه المدينة رجع الى

لأدو قبيل آخر العام ليتولى قيادة القوة التي تقرر تخصيصها لضم بلد المكركة
مكراكا « نيام نيام » .

وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٤ وصل الى معسكر أمير الأملاي غوردون العام
الملازمان « وطسون » Watson ^(١) و « شيندال » Chippendall من
رجال الهندسة في الجيش البريطاني وعرضا خدمتهما عليه . وهذان الضابطان
استقالا مؤقتا من هيئة الهندسة الملكية وتعيينا في الخدمة تحت إمرة غوردون
في الجيش المصري .

وفي ٢١ من الشهر السالف الذكر كتب الحكمدار العام من غندوكورو
ما يأتي : —

« أشرف بأن احيطكم علما وتعلموا بذلك الجنب العالي ان الملازمين
وطسون و شيندال وصلا الى هنا في ١٧ نوفمبر . واني أرى نفسى عاجزا عن
الاعراب عما يحتاج فؤادى من الارتياح والشكر لصاحب السمو نظرا لما أسداه
لى من المعونة بارسال هذين الضابطين .

فان على عاتقى اشغالا كثيرة تدعو الى وجودى هنا وفي جهة الشمال حتى
انه ليتعذر على بدون ان يكون لى معين ان اتقدم نحو الجنوب فى اتجاه البحيرة
لأقوم ببعض الاستكشافات على مسافات بعيدة .

فوجود هذين الضابطين اللذين نالا من العلوم قسطا وافرا يفسح أمانى
المجال ويترك لى مندوحة اتفرغ فيها للعناية بالأأمور الخاصة بوظيفتى أعنى ترتيب

(١) — كان أحد الضباط الذين عيّنهم الحكومة المصرية فى الجيش الجديد الذى ألف بعد
الثورة العرابية وكان فيه برتبة اللواء .

وإدارة أعمال المديرية .

ولقد استقرنا الآن تقريبا في الرجاف وفي لادو ولم يبق هنا في غندوكورو سوى حامية صغيرة . وإن لادو أحسن كثيرا من الوجهة الصحية ومتوافر فيها أشياء لا وجود لها في غندوكورو ففيها أخشاب كثيرة لوقود البواخر . وما زال رؤساء الأهالي يحضرون إلينا عاجهم وهذا شيء لم يكن معهودا في الزمن السالف .

وإني أرى نفسي سعيدا بأحاطتكم بآني وطدت العلاقات الحسنة مع قبائل « لوقير » Locquier فإذا حالتني النجاح في هذا السبيل اختصر الطريق بين غندوكورو و لاتوكا Latouka وأصبح الراحل يقطعه في ٤ أيام بدلا من عشرة كما هو الحال الآن إذ من الضروري أن يرسم المسافر برا في طريقه منحنيا كبيرا ابتغاء اجتناب جر عداوة تلك القبائل وإني كثير الرغبة في عقد وفاق مع أولئك القوم والغرض من ذلك شق طريق يذهب من بلدة لاتوكا وينتهي عند نهر سوبا . ولا ينبغي أن يتجاوز طول هذا الطريق سفر أكثر من ٦ أيام . ويجب أن يمر الخط التلغرافي المزمع أنشاؤه من هذه السكة .

وإني الآن أجهز حملات للجنوب وتخامرني الآمال بأن تلك الحملات تكون على قدم الاستعداد للرحيل في القريب العاجل . وسأرسل أحد المراكب الحديدية إلى فويرا للقيام بالخدمة بين هذه القرية و « أورووندوجاني » Urondogani وهذا الطريق اختبرها أمير الألاي لونج فوجدها صالحة للملاحة . وأورووندوجاني على مسافة لا تتجاوز مسيرة ٣ أيام من سراي متيسا الذي سأوجه إليه الجواب والهدايا التي أرسلها برسمه



محطة « لادو » المسبقة عاصمة مديرية خيلا الاستوائية

جناب الخديو . وسأعجل بإرسال العالم الدينى مع المركب فيصل قبل
الجواب والهدايا .

وانى لم أشأ ان أرسله قبل الآن إذ ينبغي ان يصل عند متيسا بحالة
أفضل من حالة من سبقه من زوار متيسا - أعنى الحالة المزرية التى وصل بها
سيبك وغرانت وأميرالآلى لونج .

ولقد كلفت المستر أرنست لينان ^(١) Ernest Linant بهذه المهمة .
وارنست هذا انضم الى وموكول له القيام بخدمتى الخاصة وهو شاب مثقف
ثقافة حسنة بديع الاسلوب . وبما أنه يتكلم اللغة العربية فذلك يفضل
على من سواه فى هذه المهمة .

وسأرسل المركب الحديد الثانى « والمركب الذى تكرم صاحب السمو
الخديو بتعيينه إذا أتى فى الوقت اللازم » الى الابراهيمية « دوفيليه » ويقوم
بخطرى أنى قبل زمن طويل سأكون فى حالة تمكنى من ان ارسل تليفرافا
للجناب العالى أخبره به أن المراكب أقلت قاصدة البحيرات . وانى فى غير
حاجة لكثير من الجنود كما بعثت لكم بذلك تليفرايفا - واذا أحسنت
العساكر مسلحهم فأننا لآنخشى أمرا من جانب الزنوج » .

وانى أنعى لكم مع الاسف البكباشى كامبيل بالخرطوم . وعلى ذلك
لم يبق لدى من كبار الضباط غير أميرالآلى لونج . لذلك التمس من سمو
الجناب العالى ان يتكرم بالسماح لى بإبقائه لدى حتى ولو بضعة شهور . وان

(١) — هو شقيق أوجست لينان ونجل لينان باشا المهندس الفرنسى المشهور الذى
ذكرناه آنفا .

هذا الضابط خدمنى خدمات جلية » .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أرسل الى القاهرة تقارير خاصة بملاحظات علمية لاحظها الملازمان وطسون و شينيدال لغاية هذا التاريخ بشأن مرور كوكب الزهرة . وفى الخطاب الذى أرسله مع هذه التقارير كتب يقول : —

« ان المستر كمب ما زال مريضا . ومن جراء ذلك حدث بعض التأخير فى تركيب الباخرة إذ أن كمب هذا هو المهندس إلا انه سيكون لدى قريباً المراكب الحديدية متأهبة للقيام بالخدمة .

وعندى الآن كمية وافرة من العلاج وأملى وطيد أن اتمكن من دفع كل نفقات الادارة فى المديرية وأن يبقى فوق ذلك لدينا شيء من المال زائدا » .

وكتب فى حاشية هذا المکتوب يقول : ان « لاركو » وهو من الرؤساء المحليين ما برح يشن الغارات على القبائل الخاضعة للحكومة فلذلك ألقى القبض عليه وأرسلته الى الخرطوم . وان هذا العمل كما يلوح أحدث تأثيرا حسنا فى القبائل المجاورة ونال ارتياحا عاما .

وفى هذا الحين كان فى استطاعة أميرالالاي غوردون ان يحرر بيانا بترتيبات مراكز الحكومة الواقعة على طول الخط الجنوبى النازل من الحدود الشمالية لغاية نيل فكتوريا .

واليك بيان المحطات الهامة .

١ — محطة نهر سوبات واقعة عند ملتقى نهر سوبات بالنيل . وعدد

حاميتها ٥٠ جنديا سودانيا نظاميا .

٢ — محطة نصر موقعها على نهر سوبات وعدد حاميتها ١٠٠ جندي من الدناقة غير النظاميين .

٣ — محطة شمى و عدد حاميتها ٣٠ جنديا سودانيا نظاميا و ١٥٠ من الدناقة غير النظاميين .

٤ — محطة مكرا كا واقعة فى بلاد المكرا كا « نيام نيام » وعددها ٢٠ جنديا سودانيا نظاميا و ٢٠٠ من الدناقة .

٥ — محطة بور وعدد حاميتها ١٠ جنود سودانية نظامية و ١٥٠ من الدناقة .

٦ — محطة لاتوكا وعدد حاميتها ١٠ جنود سودانية نظامية و ١٥٠ من الدناقة .

٧ — محطة لادو « وهى المعسكر العام » وبها ١٨٠ جنديا سودانيا نظاميا و ٥٠ جنديا مصريا نظاميا .

٨ — محطة الرجاف وبها ٨٠ جنديا سودانيا نظاميا .

٩ — محطة الابراهيمية « دوفيليه » وبها ١٠٠ جندي من السودانيين النظاميين .

١٠ — محطة فاتيكو وبها ٢٥٠ جنديا سودانيا نظاميا و ١٠٠ من الدناقة .

١١ — محطة فويرا وبها ١٠٠ من السودانيين النظاميين و ١٠٠ من الدناقلة .

ووضعت الجيوش النظامية كلها تحت قيادة ضباطها انفسهم وبهذه الكيفية تمكن هؤلاء بواسطة ما اكتسبوه من خبرة بأحوال البلاد وعادات قاطنيتها ان يكبحوا جماح الدناقلة وان يحولوا دون تصرفاتهم القديمة مع الأهلى . والفضل فى ذلك عائد الى وجود الضباط فى النقط النظامية التى أسستها الحكومة فشعر الناس للمرة الأولى ان النظام قد استتب وشرع فى تنفيذ منطوق القوانين فى افريقية الوسطى .

ويعتبر خطاب غوردون الآنف الذكر خاتمة سلسلة التقارير الخاصة بعام ١٨٧٤ م .

النتائج التى أفضى اليها تولى غوردون حكم هذه الجهات

انا اذا القينا نظرة على ما سبق وفكرنا فيما كانت عليه الحالة عند قدوم أميرالائى غوردون الى هذه النواحي أعنى قبل ٩ أشهر ارتحنا للنتائج التى حصلنا عليها فى هذه المدة الوجيزة بل حق لنا ان نعجب وندهش . واليك هذه النتائج :—

١ — رسم خريطة النيل الأبيض من الخرطوم الى الرجاف رسماً مضبوطاً ضبطاً تاماً .

٢ — إصابة النخاسة فى النيل الأبيض بضربة قاتلة وهى ضربة لم يسبق لها نظير حتى أضحت هذه التجارة شديدة الخطر على من يزاولها للدرجة القصوى ولا فائدة ترجى من ورائها اللهم إلا فائدة تافهة إذا صادفها

حسن الحظ حتى ان أى تاجر عاقل مهما نزعته به شهواته الى ممارسة هذه التجارة لا يخاطر بنفسه فى هذا السبيل طالما كان غوردون أو رجل آخر من عجيته مكلفا هناك بتنفيذ أوامر الجناب العالى بدقة تلك الأوامر التى تقضى بمنع النخاسة والغائها .

٣ — سيادة السلام وتوطد الأمن وحلول الثقة بين الأهالى حوالى غندوكورو حتى أن القبائل التى كانت تناصب الحكومة أشد العداوة والبغضاء ولا تأمن الحكومة جانبها كلية منذ ٩ أشهر لا أكثر فكانت تضطر ان تلجأ الى الخرطوم لتحصل على المؤن للجيش أو تشن الغارات على القبائل ، أصبحت الآن ترتع فى بجموحة من السلم والأمن جميعها فلا تناوىء احداها الاخرى ولا تناصب الحكومة أية عداوة وصارت تأنى طائفة مختارة لتبيع فى النقط ثيرانها وذرتها وعاجها .

٤ — الشروع بجرد ونشاط فى شق طريق بين غندوكورو والبحيرات الكبرى للملاحة والمضى فى ذلك بخطوات واسعة .

٥ — فتح باب المواصلات مع متيسا وهو ذلك الرئيس القوى المسيطر على بلاد أوغنده الواقعة على ضفاف بحيرة فيكتوريا ولم يعد بعد هذا شك فى الاتصال المباشر بين المجرى الآخذ من هذه البحيرة عند مساقط ريبون والمجرى الذى يصب فى بحيرة البرت قرب ماجونجو إذ تحقق اتصالهما ببعضهما .

٦ — تشييد مراكز للحكومة فى هذه الجهات وتنظيم أعمال هذه المراكز من أقصى حدود المديرية الشمالية الى فويرا جنوبا وترتيب المواصلات بين النقط البعيدة والمحطة الرئيسية بطريقة مأمونة .

٧ — تجهيز الحملات الجديدة المعدة للترتيب والاستكشاف للشروع في أعمالها عند ما تمهل السنة الجديدة .

هذه هي أعمال تسعة أشهر وقد حازت ارتياح صاحب السمو الخديو الذي تعطف وأنعم على أمير الألاى غوردون برتبة فريق وأرسل له الوسام العثماني .



شایسته لوح پات

١ — ملحق سنة ١٨٧٤ م

مأمورية القائمقام شاليه لونج في اقليم أوغندة

من ٢٤ فبراير الى ١٦ أكتوبر

كلف الخديو اسماعيل القائمقام شاليه لونج كما نوهنا .
يقوم بمأمورية في أوغندة . وكانت هذه المأمورية سياسية =
عسكرية والغرض الحقيقي منها تمهيد السبيل إما لضم هذا الاقليم الى الديار
المصرية أو وضعه تحت حماية هذه الديار . ففى ٢٠ أبريل سافر أميرالاًى
غوردون الى الخرطوم وألقى على عاتق شاليه لونج عهدة توصيل الهدايا الى
متيسا وارتياذ ذلك الاقليم فى آن واحد .

وكان قد وصل الى فويرا رسول من قبل متيسا يسمى أبا بكر يحمل هدايا
برسم الخديو وخطابا من الملك المذكور الى سير صمويل بيكر . وكان
الفصل مع ذلك غير موافق نظرا لاقتراب زمن الامطار إلا أنه لاح لشاليه
لونج أن الفرصة مناسبة إذ تمكنه من الاستفادة من مرافقة أبى بكر هذا
عند أوبته الى أوغندة .

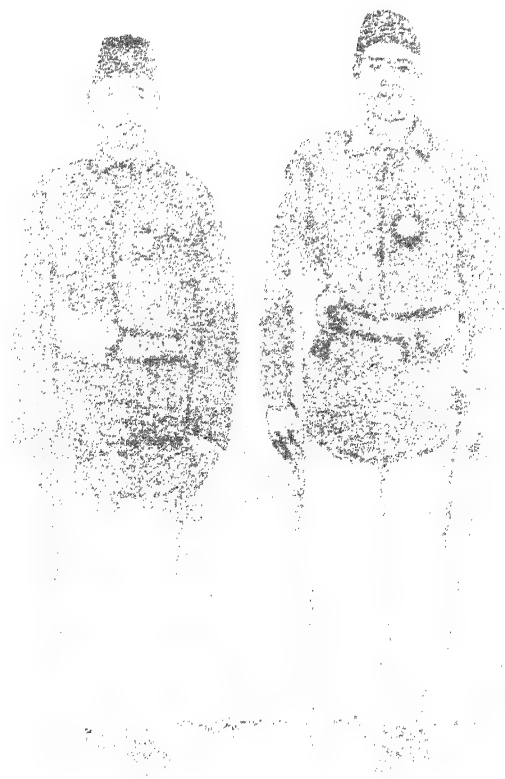
وبعد أن تزود لونج بتعليمات الحكمдар العام غوردون طلب من رؤوف بك
قائد حامية غندوكورو أن يعطيه حرسا . وبما ان الحالة تتطلب العمل باحتراس
حتى لا تتطرق الريب والظنون الى نفس متيسا تقرر أن لا يزود إلا بحرس
قليل عداده وان يكون هذا الحرس مؤلفا من جنديين فقط حتى لا يشم
منه رائحة حملة عسكرية ووقع الاختيار على اثنين احدهما يسمى سعيد

بقاره والثانى عبد الرحمن الغوراوى وهما سودانيان قاتلا فى حرب المكسيك تحت قيادة المارشال « بازين » Bazaine فى الاورطة السودانية التى أرسلتها مصر لمساعدة فرنسا فى الحرب المذكورة . أما أعضاء حاشيته فهم : ابراهيم افندى وأصله من المصريين المنفيين بصفة مترجم . وكلرمان Kellermann وهو من بلاد الألزاس اصطفاه غوردون من الخرطوم ليكون فراشا . وآدم وهذا اتخذ شاليه لونج من القاهرة ليكون طاهيا له . ثم سليم وهو رجل من بلاد الزنبار اختاره لونج من بين عساكر فاتيكو لألمامه بكلام أهالى أوغندة إذ أنه أقام بها زمنا .

وانتهز شاليه لونج فرصة إياب كتيبة عسكرية من غندوكورو الى فاتيكو مؤلفة من اثنين ملازمين ومن ٦٠ جنديا ومن سليمان ، وهو رجل من الدناقلة وقائد فرقة من العساكر غير النظامية ، و ٣٠٠ جمال فسافر معها الى هذه المحطة .

وقد سافر هذا الجمع فى ٢٤ أبريل وشيعهم رءوف بك مسافة ساعتين ثم ودعهم وعاد أدراجه بعد أن تمنى لهم سفرا سعيدا . وبعد ان اجتازوا مجرى السيل الذى ودعهم رءوف بك عنده استمروا فى السير الى الساعة الثالثة والنصف مساء حيث شعروا بقرب هبوب اعصار فخطوا رحالهم . وقد ابتدأت العاصفة فى الساعة الرابعة واستمرت باقى اليوم وهزيعا من الليل فجرت عليهم بعض المكاره . وكانت الناحية التى اجتازوها فى ذلك اليوم تموج بالمنخفضات والمرتفعات والتلال وتقطعها مجارى سيول عسيرة العبور .

ثم عاودوا السير فى اليوم التالى « ٢٥ منه » عند الساعة السادسة



الى اليمى - سعد قماره ورجاله عبد الرحمن قماراوى

والنصف وأخذ منظر الجهة يتحسن وسطحها يأخذ في الارتفاع شيئا فشيئا نحو الجنوب بكيفية ظاهرة . وعند الظهر عبرت القافلة خور الرملة وهو خور عمقه متر واحد ثم نزلت في الساعة الثالثة في قرية مهجورة .

وفي ٢٦ أبريل انطلقوا في السير في الساعة السادسة والنصف وزاد في نظرهم منظر البلاد حسنا وأضحى جديرا بريشة المصور وهذه الجهة تسمى بلاد ناشو Belad Nashou وأبدى شيخ الناحية روح المحبة غير أن الأهالي تعتموا بأذيال الفرار وذلك بسبب ما عانوه من غارات الدناقلة فيما مضى .

وفي ٢٧ منه ارتحل المعسكر في الساعة السادسة . وأصيب الملازم الذى يقود الكتيبة بمرض فأعطاه شاليه لونج شيئا من العقاقير وعسكرت القافلة تحت هطل الامطار .

وفي ٢٨ منه شرعت في المسير في الساعة السادسة . وبعد مسير أربع ساعات تركت بلد البارين لتمعن في بلد الموجى . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر بلغ مقدمة الكتيبة وجود جموع محتشدة من الأهالي وأن هذه الجموع تتظاهر بالعداوة . وكان قد قتل في هذا المكان منذ عام ملازم وثلاثون جنديا بيد هؤلاء الأهالي .

وما كاد المعسكر يأخذ أهبطه والحراس يستعدون حتى أتى الى شاليه لونج خبر ذبح ثلاثة من الممالين كانوا قد حاوزوا حدود المعسكر مخالفين بذلك أوامره . فخرج في ٢٠ جنديا إلا أن الأهالي تشتتوا أيدي سبا بعد بضع طلقات من البنادق . وبعد البحث عن جثث القتلى لم يعثر عليها ومع ذلك فقد قام الأهالي بضجة مزعجة رهيبة حول

المعسكر فاضطر الجنود أن يظلوا طول الليل متأهين بسلاحهم مستعدين للقتال .

وفي ٢٩ أبريل سافروا في الساعة السادسة . وقد أتعب رجال الموجى الكتبية بالهجوم على جناحها اليسار وساقها غير أن شاليه لونج أمر الجند بعدم إطلاق النيران معتبرا الغاية المقصودة نشر السلم لا المحاربة .

وفي ٣٠ منه رفع المعسكر وكانت الأهالي مازالت تتبع الجنود ومشت الكتبية في أرض تكسوها الأشجار والحشائش العالية مدة ثلاث ساعات وعند الظهر وصلت الى « لابوريه » وهي مسقط رأس بعض الجمالين فقدم ذووهم للتسليم عليهم وسلم والد أحد أولئك الجمالين على ولده بأن أمسك برأسه بين يديه وبصق على جبينه .

وفي أول مايو بدأت تسير في الساعة السابعة . وكان في عهدة سليمان سجين من أهالي تونس تسلمه من غندوكورو ولما رآه وقع في مرض تركه في عهدة الشيخ « واني » Wani وكان هذا وكيلا للعاج في هذا المركز .

وفي ٢ مايو همت للرحيل عند الساعة السادسة وكان الطريق كثير المنحنيات والمنعرجات يمر بين ادغال وغدران . وفي الساعة الواحدة بلغت القافلة نهير أسوا Asua وقد عبرته وعمقه متر واحد . وقال سليمان انه بعد بضعة اسابيع يتعذر اجتياز هذا النهير خوفا على الاقدام بسبب هطل الامطار وقد عسكرت الكتبية في الساعة الثالثة .

وفي ٣ مايو هبت تسير في الساعة الخامسة وبعد مسير ثلاث ساعات

وصلوا الى « أپودو » Appudo وهنا انفصل سليات بجيشه غير النظامى عن الكتيبة وولى وجهه شطر فابو Fabbo و فالورو Faloro .

وفى ٤ مايو شرعت الكتيبة تسير فى الساعة السادسة . وكان منظر الناحية أشبه الاشياء بمنظرها فى العشية . وكان السير بين الادغال والحشائش العالية صعبا عسيرا . وعند الساعة الواحدة والنصف عسكرت .

وفى ٥ مايو مات أثناء المسير اثنان من الحمالين المرافقين للكتيبة وبعض الذين كانوا عائدين الى أوغنده . وكانت أهالى فاتيكو أكثر الزوج أمانة واخلصا . وعسكرت الكتيبة فى الساعة الثانية فى ظل جبل « شوا » . وفى ٦ منه عند الساعة السادسة والنصف همت بالرحيل وبلغت فاتيكو فى الساعة الحادية عشرة والنصف .

وقابل أهالى هذه القرية مواطنيهم وهم واقفون على الصخور بالترحاب والحماسة . واستقبلت الحامية المؤلفة من ٢٠٠ جندى سودانى شاليه لونج على باب الحصن وأدت له رسميا واجبات التعظيم وحيته الضباط والجنود أحسن تحية . وكان كثير من أولئك الجنود يحمل الأوسمة والشارات العسكرية التى أنعم عليهم بها جزاء خدمتهم فى حرب المكسيك .

وكان القائد لهذه الحامية الصاغقول اغاسى عبد الله افندى الدنساوى وهو من الجنود الذين حاربوا فى المكسيك وكان يحمل شارة « الاجيون دونور » التى نالها عند مروره من باريس هو وآخرون غيره من الضباط حال عودتهم من الحرب المذكورة . وكانت هيئة ونظام أولئك الجنود على ما ينبغى وبالغين حد الكمال . وفى فاتيكو هذه انضم

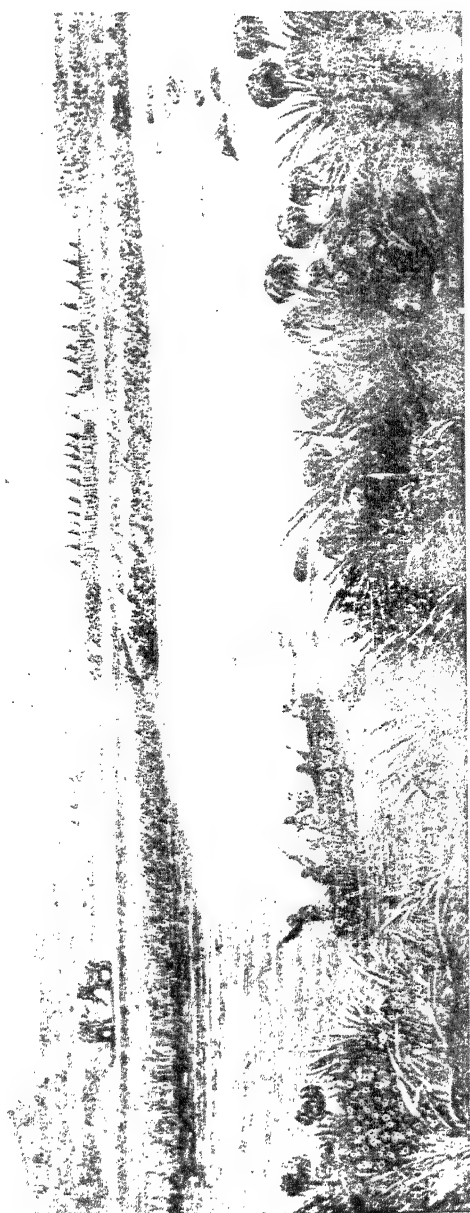
سليم الى حاشية شاليه لونج .

وفي ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ مايو لبث شاليه لونج ومن معه ممن يتألف منهم وفده الى متيسا مقيمين في فاتيكو للاستراحة من وعشاء السفر وليستردوا قواهم ويستتموا معداتهم في رحلتهم الخصوصية الى أوغندة . وفي ١٢ منه سافر هذا الوفد عند الساعة الثامنة ورافقه واد الملك لغاية فويرا مع بعض جنود فاتيكو .

وفي ١٣ و ١٤ و ١٥ منه سار في جوف بلاد غير مأهول به كثير من المستنقعات . وفي ١٦ منه واصل سيره عند الساعة السابعة وفي الساعة الثانية مساء بلغ نيل فكتوريا تجاه فويرا . وكان اتساع هذا النهر في الموضع الذي ينبغي عبوره للوصول الى هذه المحطة زهاء ١٠٠ متر .

وقد قامت مصاعب في سبيل نقل حصان شاليه لونج إذ لا يوجد هناك لعبور النهر سوى شبه زوارق وهي عبارة عن جذوع أشجار يخفر الجزع منها حتى يكون له جوف مثل الزورق ثم يرقون مقدمه ومؤخره ويستعملونه للنقل والملاحة وأخيرا أدتهم الحالة الى تغطية عينيه ونزوله في احد هذه الزوارق ووصلوه الى الشاطئ المقابل سليما .

واستقبل شاليه لونج عند بلوغه محطة فويرا بنفس الحفاوة والتعظيم اللذين قوبل بهما في فاتيكو من الحامية المؤلفة من ١٥٠ جنديا سودانيا نظاميا و ٦٠ من الدناقلة غير النظاميين . وجميع هذه الجنود تحت إمرة الصاغفول اغاسي بابا بوكا افندي الذي كان يحمل شارة « الاجيون دونور »



شخطه فويرا ويرى أممها في الطوف « المدية » شالبه لوبخ وجواده

هو وآخرون غيره من الضباط تلك الشارة التي حازوها لاشتراكهم في حرب المكسيك . وكان يحمل كذلك كثير من العساكر نياشين عسكرية أخرى . وكان المعسكر مثالا في النظام والنظافة .

وقدم ريونجا الذي كان فيا سلف ملكا ليزور شاليه لونج . وهذا الملك خلعه من مرولى مقامه قديما ملك أونيوورو المدعو كمرازى . وبعد وفاة كمرازى استمر ولده وخليفته كباريجا يقاتل ريونجا حتى اضطره أن يأتى ويضع نفسه تحت حماية حامية فويرا وان يتخذ له مسكنا في جزيرة تبعد زهاء ١٥ كيلومترا من هذه المحطة .

وقضى الوفد أيام ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ مايو بمحطة فويرا وفي ٢٥ منه تحرك في الساعة التاسعة واتخذ طريقه في السفر ورافقه الصاغقول أغاسى لغاية كسمبواس Kissembos وهو محل إقامة ريونجا الذي أكرم وفادتهم واستقبلهم أحسن استقبال . وقد قضى عنده شاليه لونج ومن معه يومى ٢٦ و ٢٧ من الشهر المذكور .

وفي ٢٨ منه امتنع حمالو أبى بكر عن السفر وبعد مناظرة ساعة من الزمان أجبرهم شاليه لونج على متابعة السير ومشى معه الصاغقول أغاسى وريونجا بعض مسافات ثم استأذنا منه ورجعا من حيث أتيا . فأصبح شاليه وحيدا منفردا مع جنوده الثلاثة ورفاقه الآخرين وكان الطريق مارة بين غابات وأشجار موز والبلد سطحه مستو مبسوط .

وفي ٢٩ منه قدم الحمالون مرة أخرى أعذارا بقصد اغنائهم من متابعة المسير واضطر شاليه الى الخضوع لأجابة هذا الطلب . ولاحظ أن

حمالى أوغندة يعدون فى مقدمة كسالى العالم بأسره وينبغى أن يكون هو ومن معه بمنزل عنهم وإن استخدام الجنود والبغال لنقل الأمتعة خير من استخدامهم .

وفى ٣٠ مايو أمطرت السماء فكان الطريق أشبه بالمستنقعات . وبعد مسير سبع ساعات ونصف ساعة حط الوفد رحاله وأخذ يبحث عن ماء للشرب فلم يجد إلا ماء آسنا . وفى ٣١ من الشهر المذكور أخذ فى السير وعند الظهر مر بجبة مرولى .

وفى ١ و ٢ و ٣ و ٤ يونيه أكرهوا على الوقوف والاقامة لأنهم أصيبوا بالحمى ومن بينهم شاليه لونج . وعند ما علم متيسا بمقدمهم أرسل يستحث أبا بكر على المجيء بسرعة .

وفى ٥ منه تابع الوفد سيره غير أنه بعد مسيرة ساعتين طلب من شاليه لونج جميع رفاقه أن يحطوا رحالهم فأجابهم الى مطلبهم إذ أن ابراهيم افندى لم يزل مريضا هو وكيرمان وادم واضطر شاليه لونج ان يجهز طعامه بنفسه .

وفى ٦ منه ساروا خمس ساعات تحت أمطار منهمرة مـدـرارة . وفى ٧ منه أخذوا طريقهم عند الساعة السابعة وعند الساعة العاشرة صباحا وقفوا بسبب هطل الامطار التى حولت سطح الأرض الى مستنقعات حتى كانت حوافر الحصان تنزلق فى كل خطوة .

وفى ٨ منه سافروا فى الساعة الثامنة وواصلوا السير لغاية الساعة الثانية مساء . وكانت أهالى البلاد كلما دنوا منهم فروا من وجوههم تاركين

أَكْوَاحِهِمْ . وكانت هذه البلاد أكثر عمارية بالسكان ويستدل من ذلك أن الوفد أضحي على مقربة من أوغندة والأرض التي كان يسلكها أرض محايدة بين هذه البلاد وبلاد أوينيورو .

وفي ٩ يونيه حمل متاعه عند الساعة السابعة وواصل السير لغاية الساعة الحادية عشرة صباحا . وكان عندئذ في أرض أوغندة . وأغار الشيخ موراكو Morako على قرية مأهولة بتوابعه ورجع رجوع الظافر ومعه ٣ عنزات و ٣ خراف و ٣ كلاب و ٣ نساء . وقد علم شاليه لونج من هذا الشيخ ومن سليم أن متيسا صرح للمتونجوليين Mtongolis أى المشايخ بهذا تمييزا لهم .

وكما أمعن المرء في جوف أوغندة ازدادت مناظر بلادها بهاء وحسنا وبعد أن كان يرى في الاقطار الأخرى المستنقعات الموبوءة التي كانت تعترض سيره يرى الآن طرقا رحبية ممتدة بشكل حلزوني تصل به الى قمم تلال عالية خلعت عليها الطبيعة حللها السندسية .

وفي ١٠ منه لم يتحرك الوفد من مكانه . وفي ١١ منه أتى اليه « كاهوتاه » Kahotah أعنى شيخا كبيرا من قبل متيسا مزودا بأمر منه أن يحمل الى شاليه لونج أبقارا وبطاطس وموزا . فقدم كاهوتاه هذا ومعه حاشية كبيرة رافعة الاعلام وتتقدمها الموسيقى وعسكر قرب شاليه لونج وأرسل يقول له إنه مستعد لمقابلته . ورأى شاليه لونج أنه إذا لبي طلبه لكان ذلك بمثابة اعتراف منه بأن ذلك القادم أرفع منه مرتبة فقرر ألا يجيب هذا الطلب وقال للمرسلين إنه أتى ليزور متيسا فقط وكلفهم أن يقولوا ذلك لمن أرسلهم . وقد حسم هذا الجواب هذه المسألة فأرسل الكاهوتاه يقول إنه على

قدم الاستعداد لزيارته .

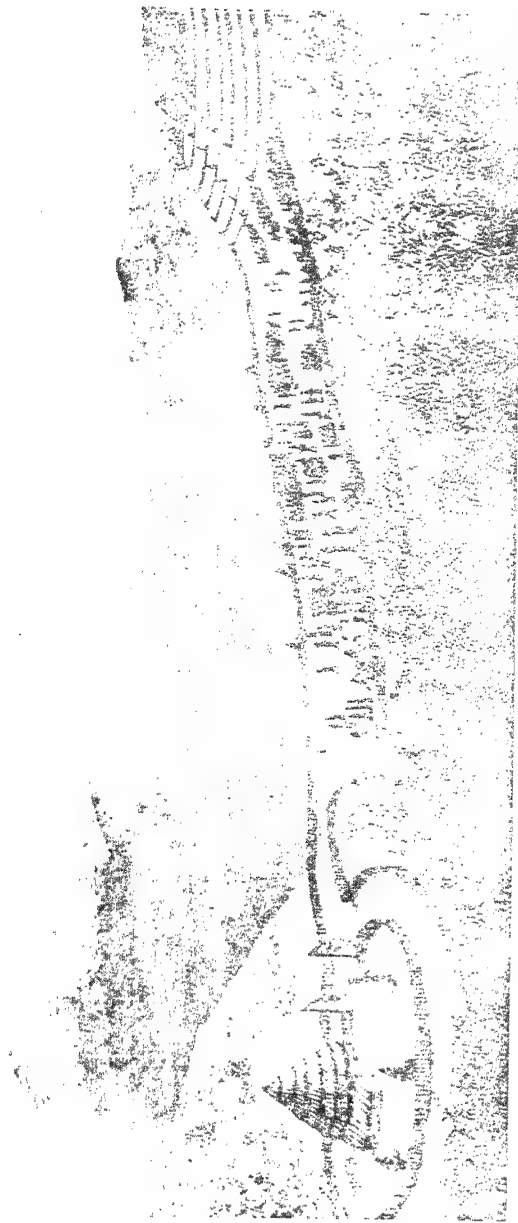
وفي ١٢ يونيه لبث شاليه لونج في مكانه منتظرا قدوم الكاهوتاه وفعلا أتى هذا وزاره وقال ان متيسا أعد له دارا وأقام له أفراحا كثيرة .

وفي ١٣ منه قامت أدلة على رياء ابراهيم افندي الترجمان وخيائته فألقى القبض عليه وقرر أن يظل في زريبة موراكو Morako الى ان يتمكن من ارساله الى فويرا . وفي ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ منه لم يتحرك الوفد من مكانه إذ ان جميع افراده كانوا مصابين بالحمى .

وفي ١٨ منه انطلق في المسير عند الساعة السابعة . وقدمت رسل من قبل متيسا لحث الوفد على سرعة القدوم لأن متيسا كان شديد الرغبة لأن يرى الرجل الأبيض أى شاليه لونج . وفي الساعة العاشرة والنصف وصل الوفد الى طريق واسع عرضه ٢٥ مترا وهذا الطريق غاية في النظافة يوصل الى قمة تل مشرف على منظر شيق فاخر ممتد اتجاء بحيرة فكتوريا نيانزا . ولما كان المطر قد أخذ يتهاطل حط الوفد رحاله في الساعة الحادية عشرة .

وفي ١٩ منه سافر في الساعة السابعة . وكانت الارض التي يجتازها كثيرة المرتفعات والمنخفضات والطرق لا بأس بها . وفي الساعة التاسعة بلغ ذروة تل تطل على النواحي التي حوله وهي نواح يأخذ منظرها بالألباب لعظم جماله وبهائه . وقد أقام الوفد في هذه الجهة عند منتصف النهار .

وفي ٢٠ منه سار في الساعة السابعة وكان منزرعا على حافتي الطريق



قوس مقبضا ملائ أومندة ويزن أم اللات شاليه لومج باك وهم متوججه لبارته

في يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٧٢

موز فيخرج منه جموع كبيرة من اخلق رجالا ونساء وأولادا ليمتعوا
أنظارهم بالرجل الأبيض والحصان ذلك الحيوان الذى لم يسبق لهم رؤية نظيره .
واستقبلتهم فى أسفل الجبل شزيمة مؤلفة من ٢٠٠٠ رجل متشحين بأغرب
الملابس وكونوا حرسا خلف شاليه لونج وأعضاء الوفد . أما الكاهوتاه فكان
يمشى الى الامام يتقدمه علم أوغندة منشورا .

وبهذه الكيفية كان الوفد فى المقدمة . وأخذ أعضاء الحرس يقتفون
ويشبون ويطلقون الأعيرة النارية الى أن بلغوا ذروة تل حيث يوجد
قصر أم الملك وهناك وقف الجمع وتلقى شاليه منها التحيات وقابلها بمثلها .

واستمروا فى السير وبعد ساعة تقريبا وصلوا الى قمة تل آخر يرى
منها على بعد مسافة ٥٠٠ متر تل آخر وعلى هذا التل أقام متيسا قصره .
وقدم رسل من قبل هذا الملك وارتقوا على أقدام شاليه لونج ورجعوا به
نيابة عن ملكهم ورجعوه ان يأتى ويطلع الملك على الحصان الذى يركبه
فأخذ يجرى بحصانه فى اتجاه القصر إلا أنه لما رأى أن ذلك يرهب الملك
ويرهب الجمع انحشد حوله عدل عن ذلك وآب الى رفاقه .

ورافقه بعد ذلك المتونجوليون Mtongolis الى الدار التى أعدت له
وأرسل له الملك هدايا . وقد قطع المسافة من غندوكورو الى هذا الموضع
فى ٥٩ يوما .

وفى الغد « ٢١ يونيه » أتى رسول من قبل متيسا ليصحب شاليه لونج
الى القصر . وكان العلم المصرى يرفرف فوق داره فلبس شاليه كسوة التشريفة
الكبرى وانطلق هو وأبو بكر والجنديان سعيد وعبد الرحمان وسليم الى

القصر وهو على مرتفع . وإن هو إلا قليل حتى بلغه واجتاز سبعة أبواب ثم وقف وترجل فأدخل في التـو والساعة عند الملك فسلم عليه واقفا وأجلسه بجانبه بعد أن جلس هو . والظاهر أنه لم يحظ أحد قبل الآن بمثل هذا الشرف .

ومتيسا هذا رجل ناهز الخامسة والثلاثين من العمر طويل النجاد يلبس الملابس العربية التي يرتديها عليـة العرب ويتقلد حساما تركيا محلى بالذهب أهدها اليه سلطان زنبار .

وقد وجه شاليه لونج كلامه الى الملك قائلا إنه قد قدم باذن باشا غندوكورو من قبل سلطان مصر الاعظم ليسلم على ملك افريقية العظيم وليعرب عما يكن له في قلبه من خالص الود فقبول هذا الخطاب بصيحات الفرح من جميع الحاضرين قائلين : كورنجى !! كورنجى !! ومعنى ذلك : حسنا !! حسنا !! والمتونجوليون خروا ركعا وجثينا مشتبكي الأيدي صارخين : يانـج !! يانـج !! أعنى يشكرون متيسا لأنه أحضر لهم أميرا بلغ نهاية العظم ويعنون بهذا الأمير شاليه لونج .

الى هنا كان المنظر يكاد يكون هزليا ولكن سرعان ما تبدل بمنظر آخر مروع ورهيب لدرجة لا نظير لها . ذلك أنهم أحضروا ٣٠ رجلا مكبلين بالأحبال وفصلوا رؤوسهم من أجسامهم احتفاء بقـدوم الرجل الأبيض . ومع أن هذا المنظر بلغ في شناعته مبلغا يستفز القلوب الصخرية فان شاليه رأى نفسه مكرها على كسبح جماع مشاعره وان ليس أمامه إلا ان يتظاهر بأنه غير مبال بما رأى إذ أنه لو صدرت اى إشارة يلوـح من خلالها الاشـمـتـزاز لعرض ذاته للسخرية وأضاع نفوذه .

وانتهى الاستقبال عند هذا الحد فنهض شاليه لونج وهم بالانصراف إلا ان متيسا ألح عليه طالبا منه ان يريه نساءه اللواتى ينبغ عددهن مائة فصحبه الى داخل القصر وأحاط به أولئك النسوة وأخذن فى حفص كبسوته وزخارفها المذهبة . وبعد هذا أطلعه على جميع غرف وقاعات القصر وكانت نساؤه يتبعنه اثناء ذلك . وعند ما تم هذا استأذن من متيسا وانصرف الى داره .

وقد وقع الاختيار على يوم ٢٢ يونيه لتقديم الهدايا . وأتى رسول من قبل متيسا عند الساعة الثامنة صباحا ليخبر شاليه لونج بأن الملك منتظر قدومه بفارغ الصبر فامتطى الجواد بعد أن لبس كسوة التشريفة الكبرى ومشى وخلفه حاشيته الى القصر .

وأخذ أبو بكر على عاتقه حمل الهدايا بصفته رئيس تشريفات الملك . وعند ما وصل شاليه الى القصر قابله الملك فى الحال وهو واقف وأجلسه على الكرسي الذى قعد عليه بالأمس . واستحضرت الصناديق التى بداخلها الهدايا . وأمر أبا بكر بأن يضعها بجانب بعضها عند اقدام الملك وان يفتحها . وكانت تحتوى على أنسجة قطنية وأنسجة أخرى ذات ألوان قرمزية وبصمة وعقود وفتحات « دبل » وأساور ومرآة كبيرة مذهبة وصندوق بداخله موسيقا واصناف أخرى كثيرة . فتولت كل هذه الأشياء بفرح شديد ولكن الشئ الذى وقع فى نفس متيسا موقع الاستحسان العظيم ببندقية تعباً برصاص ينفجر فقال لشاليه : حقا إنك لرجل عظيم حتى أنك أتحنّنى ببندقية من طراز ببندقيتك . ألا يمكنك أن تقتل كباريجا إكراما لخاطري ؟ وهذا الموضوع كان يحلو له أن يردده والسبب فى ذلك عداوة قديمة توارثها

بحكم التقليد ملوك أونيوورو وأوغندة - فأجابه شاليه لونج بأنه يلزمه قبل أن يقدم على ذلك أن يستأذن باشا غندوكورو .

ثم ضحوا بعد ذلك بعشرة أنفس بالطريقة عينها التي فعلوها بالأمس وعندئذ استأذن شاليه لونج من الملك وانصرف في الحال ونفسه تتقزز من هذا المنظر الشنيع .

وقد أقام شاليه لونج في ضيافة متيسا لغاية ١٤ يولييه . وكان يقابله يوميا ولا يتخلف عن زيارته إلا في الأيام التي يكون فيها مريضا وكان يعرب له أثناء تلك المقابلات عن رغبته في زيارة بحيرة فكتوريا نيازا ومنها يعود الى غندوكورو بطريق النهر .

فقبول هذا الطلب بعدم الرضا من جانب الوزراء وما ذلك إلا لأنه يرين على قلوب هذا الشعب اعتقاد فاسد فهم يتخيلون أن ضفة البحيرة المقابلة لضفة بلدهم مأهولة بالشياطين وأن أولئك المخلوقات مكلفة بحراسة مائها ، وانهم كثيرا ما أمسكوا بأناس من أهالي أوغندة وأهلكوهم . وبعد الحاح كثير آل الامر بالسماح له بزيارة البحيرة وأبى الملك أن يصرح له بالعودة بطريق النهر بحجة أن النهر لا يتصل بمرولى كما يظن شاليه وانه اذا قتل فسلطانه يأتى الى متيسا ويقتله أيضا .

وفي عشية يوم السفر ذهب شاليه لونج وودع متيسا وشكره على ما أولاه من العناية وحسن الرعاية . وأمر لونج كليرمان Kellermann وآدم أن يتوجها رأسا الى أورووندوجانى ومعهما الأمتعة والجمالون الذين زودهم الملك بهم وينتظروه هناك حتى يفرغ من عبور البحيرة ويصل الى الشاطئ

الشرقى ثم يولى وجهه بعد ذلك نحو الشمال ليذهب الى أورووندوجانى بطريق
النهر غير أن هذه الترتيبات تعذر تنفيذها .

وفى ١٤ يوليه اتخذ شاليه لونج سبيله موليا وجهه شطر البحيرة فبلغها
بعد مسيرة ٣ ساعات . وهناك يرى الانسان من قمة رابية مشرفة على
خليج مرشيزون بحيرة فكتوريا نياترا وماءها الرائق الصافى الهادى
الشبه بساط من اللجين ينعكس على صفحاته أمواج من الضوء فيتألأ
ذلك الماء تحت وهج شمس الجنوب .

أتى المتونجولى « وهذا هو أميرال البحيرة » ومعه ٤٠ زورقا وبكل
زورق ٢٠ مجدفا هذا عدا الموسيقيين والطبالين . وأمر شاليه لونج سليما
أن يقيم فى هذا الموضع ٤ أيام ومعه الجواد وقال انه إذا لم يعد اليه عند نهاية
هذه المدة فعليه أن يرجع الى متيسا ومن هناك يتوجه الى اورووندوجانى وفيها
ينتظره مع الآخرين . وفى الساعة الخامسة أبحر مع الجنديين سعيد وعبد الرحمن
وبعد أن ساروا مدة ولوا وجوههم شطر رأس واقع على الضفة الشرقية
حيث قضوا ليلتهم .

وفى ١٥ منه صباحا بكروا بالسفر وكانت صفحات الماء تلمع كالمرآة وظهر
من سبر غور الماء أن عمقه يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ قدما . وحاول شاليه لونج
عبثا ان يحمل المتونجولى على عبور البحيرة لأن متيسا أسر اليه أن لا يفعل
ذلك فاضطر ان يعفيه راضيا من الغنيمة بالاياب قيسل الغروب فوصلوا الى
مدخل خليج مرشيزون حيث قضوا ليلتهم .

وفى ١٦ منه أبحروا فى البكور ووصلوا الى المحل الذى رحلوا منه يوم

١٤ وهو الموضع الذى أسر سليماً أن ينتظره فيه ومعه الجواد . وعاد منه موليا وجهه شطر متيسا فوصل عنده فى العشى .

وفى ١٧ يوليه بعث له متيسا بتخياته ووعدته بأن يمهده بحمالين غذا غير ان هؤلاء لم يأتوا فى اليوم الموعود . وقضوا هذين اليومين فى اعداد معدات العودة .

وفى ١٩ منه قدم الجمالون . وقام الوفد بعد أن ودع متيسا الذى أطل عليهم من باب قصره تكتنفه نساؤه وكان اليوم ممطراً . ومن ٢٠ منه الى أول أغسطس أعنى التاريخ الذى وصل فيه الوفد الى أورووندوجانى عانى شاليه لونج صعوبات حمة من الجمالين حتى انه أجبر مرارا أن يقف عن السير ويخبر متيسا فجاء الرد بأنه يقطع رأس كل الذين يعصون أوامره .

وكانت خطة شاليه لونج ان ينحدر مع النيل فى زورق من أورووندوجانى الى مرولى وربما الى فويرا .

وفى ٢ أغسطس طلب من المتونجولى الذى كان مرافقا له ان يحضر المراكب اللازمة فأجاب هذا بأن ليس لديه مراكب وان من اللازم الانتظار .

وفى ٣ منه قدم متونجولى آخر من قبل متيسا وكان لدى هذا أمر باستحضار المراكب . وفى ٤ منه قضى الوفد ذلك اليوم فى معسكره فلم يتحرك منه . وفى ٥ منه بارح الوفد أورووندوجانى مع المتونجولى وأقنع هذا شاليه لونج بأنه مع متابعة السير حذاء النهر الذى كان فى ذلك الوقت صالحا لسير السفن توجد مراكب حسنة .

وسار الوفد مع مجرى الماء وعند الظهر دخل في فضاء رحيب مربع الشكل يخفق فوقه علم أوغندة . وهذا المكان هو المركز العام لقيادة الأسطول النهري .

وفي ٦ أغسطس زار الأميرال شاليه لونج ووعده بأن يحضر له مراكب غدا وأعطى لونج أوامر لسليم بأن يسير بحصانه بمحاذاة النهر على قدر استطاعته ثم يذهب الى مرولى وينتظره فيها مدة ثلاثة أيام وفي حالة عدم قدومه يتوجه الى فويرا ويبلغ الضابط المتولى قيادة هذه المحطة لكي يأخذ الاحتياطات التي تتطلبها الحالة .

وفي ٧ منه كانت أربعة مراكب واقفة ومتأهبّة لنقلهم فنزلوا بها ورافقهم المتونجولى وكان الماء عميقا صالحا لأن تمخر فيه البواخر الكبيرة . فأبحروا وقتا ولما بهم يرون مركبا كبيرا مشحونا بالرجال يقترب منهم . وسأل أولئك الرجال شاليه ومن معه : من أنتم وأين وجهتكم ؟ ولما رأوا أنهم لم يحصلوا على جواب شاف انصرفوا .

وصرح المتونجولى ورجال الحرس بأنهم بلغوا المنطقة المحايدة بين أونبور وأوغندة وعلى ذلك لا يستطيعون مجاوزة هذا الحد . وأن المركب الذى دنا منهم هو من ممتلكات كباريجا . ثم قال المتونجولى ان الاصول هو الدنو من اليابسة لطلب الترخيص بالمرور فقبل شاليه أن يعمل بهذا الرأى واقترب الفلك من الشاطئ وحط الوفد رحاله وندب شخصا للقيام بأمورية طلب الرخصة .

وفي ٨ منه انتظروا الجواب طول اليوم ولما لم يرد قرر شاليه لونج

متابعة السفر في الغد . وفي ٩ أغسطس أفلح هو ورفاقه في ثلاثة مراكب في الساعة الثامنة وتركوا المتونجـولى ورفاقه وقطر أحد المراكب المراكبين الآخرين . وظلت المراكب الثلاثة تسبح بهم الى الساعة الخامسة وفي هذا الوقت لاحت بواذر عاصفة فرسوا على الضفة ليقضوا عليها الليل . وهنا استغنوا عن أحد المراكب وتركوه .

وفي ١٠ أغسطس أبحروا في الساعة السادسة . وأتى بعض الأهالى لزيارتهم غير أنهم ما لبثوا أن فروا واختفوا . وهطل المطر طول اليوم ولم يتمكنوا من الدنو من البر فقضوا ليدهم في جوف المراكب .

وفي ١١ منه أفلحت بهم المراكب في الساعة الرابعة وعند الظهيرة دخلوا في بحيرة وبعد ان ساروا فيها بعض الوقت صادفوا جزيرة عائمة مكونة من نبت مائى وفوقها كوخ مصنوع من الخيزران يسكنه بعض الصيادين . واستمروا في سيرهم ولما لم يتيسر لهم الاقتراب من البر قضوا ليدهم في المراكب .

وفي ١٢ منه أفلحوا عند الساعة الخامسة مستعينين بالمجاديف حتى المساء . وبعد كثير من الجهد والعناء رسوا على البر وأقاموا تحت هطل الأمطار .

وفي ١٣ منه سافروا في الساعة الخامسة . وكان يوما عسيرا للدرجة القصوى إذ توالى فيه نزول الأمطار ولم تنقطع تقريبا وكان لا بد من نزع المياه من وقت الى آخر من المراكب التى قضوا ليدهم فيها أيضا .

وفي ١٤ منه سافروا طول اليوم بواسطة الاستعانة بالمجاديف . وفي ١٥ منه كانت الرياح على ما تشتهى السفن فساعدتهم على السير إلا أنهم لم يستطيعوا الدنو



واقعة مروي التي اشتبك فيها أمير الأتاني شاليه لويج وجندياه مع الأونيوريين المرسلين من قبل كبارجا ملك أونيورو في ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٠ م .

من البر . وفي ١٦ أغسطس التزموا أن يعودوا الى التجديف حتى المساء ولكنهم تمكنوا من الرسو فجروا المراكب الى اليابسة ورموها على قدر الامكان لمنع تسرب الماء الى جوفها . وقد قل الزاد فاضطروا أن يخفضوا الجراية الى النصف .

وفي ١٧ منه أقلعوا في الساعة العاشرة . وقيل منتصف النهار قام بفكر شاليه لونج انه على مقربة من مرولى التي أمر سليماً أن ينتظره بها فأطلق من بندقيته عيارين ناريين ودنا الى الشاطئ واذا به يدهش إذ رأى بين البردى النبات على ضفة النهر عدة مراكب مشحونة بالرجال المسلحين بالمزاريق وكان يلوح من خلال احوالهم أنهم يرقبونه ويتربصون له . وفي الحال دوى صوت البوق ودقت الطبول . هذا مما لا يدع شكاً من جهة نياتهم ومقاصدهم إذ أن معنى ذلك صراحة : العدوان .

وأمر شاليه لونج الوفد في الحال بالانسحاب فتبعهم ٤٠ مركبا بها زهاء ٤٠٠ رجل مزودين بالحراب . ولما رأى شاليه لونج أن مراكبهم تلاحقه وتوشك أن تلاحقه أمر بتعبئة الاسلحة وربط المراكب ببعضها .

وكان المتونجولى الذى يقود قوة العدو في المقدمة واقفا في مركبه ويبدى حركات العدوان فأنذره شاليه بالانسحاب وأعلمه على غير جدوى ولا فائدة ان صلاته حسنة مع ملكه كباريجا ولما رآه آخذا دواما في الدنو صوب نحوه رصاصة سكنت في صدره وأردته فى جوف مركبه وأمر عساكره بإطلاق النيران . ولما كان سلاح الاهالى الوحيد هو الحراب فالقرايينات ذات المرمى البعيد لم تدع لهم سبيلا للتقدم وأقصتهم بعيدا وأهلك عدد كبيراً منهم فضلا عن انها أغرقت كثيرا من مراكبهم .

وبعد ان حاولوا الاقتراب عشا مدة ساعتين لاذوا فى النهاية بأذيال الفرار
تاركين نحو ٨٠ قتيلًا .

واستمر شاليه لونج ورفاقه فى السير طول الليل تفاديا من تكرار
الهجوم خصوصا بعد أن استنفدوا ٤٥٠ ظرفا وبعد ان قل الزاد وصار من
أصالة الرأى الابتعاد على قدر الامكان من أولئك القوم .

وفى ١٨ أغسطس استعمل المجداف طول اليوم مع ان الرجال كانت
منهكة القوى خاوية البطون . ولم يفتروا عن التجديف إلا عند الساعة
العاشرة مساء وبعد ذلك رست المراكب فخطوا رحالهم . وكان النهر واسعا
وعميqa وصالحا لأن تمخر فيه البواخر الكبيرة . ولاح جبل كيكو نجورا
Kikungura الى شاليه لونج فساورته الآمال بأن يصل فى الغد الى كسمبواس
محل اقامة ريونجا .

وفى ١٩ منه شرعوا فى السير فى الساعة السابعة بعد ان أتوا فى العشى على
آخر ما عندهم من الزاد . وكانت الريح على غير المراد فدعت الحالة
للتجديف واستمر الرجال هكذا يعملون الى منتصف الليل بدون تناول
طعام . وقد ظن شاليه لونج فى هذه اللحظة انه تجاه كسمبواس فأمر
ان يطلق عيار نارى وردا على ذلك سمع دوى طبل . فأرسوا المراكب
وأطلقت أعيرة أخرى . وفى هذه المرة سمع فى وضوح وجلاء رنات عزف
جيش نظامى تدق دقات الاجتماع . وبعد ساعة قدم فلك حاملا على متنه
الصاغقول اغاسى بابا توكا افندى قائد محطة فويرا وريونجا ومعهما طعام التهمه
الوفد حال وصوله اليه .

وفي ٢٠ منه ذهب أعضاء الوفد الى محل اقامة ريونجا حيث أحضر لهم فطورا فاخرا فاكلوا هنيئا وشربوا مريثا .

وكان سبب مجيء الصاغقول اغاسى بابا توكا افندى الى هذه الناحية الحصول على العلف وكان مقررا ان يعود الى فويرا فى نفس اليوم . وسافر الكل معا فدخلوا هذه القرية عند الظهر . وتبين أن سليما والجواد لم يصلا الى ذلك الوقت .

ومن ٢٠ أغسطس الى ١٣ سبتمبر أعنى المدة التى أقامها شاليه لونج فى فويرا ما زال هذا يخامره الامل بأن يصله امداد يمكنه من ان يضم الى قائمة الاستكشافات التى أتمها حل المسألة الخاصة بحيرة البرت نيازنا فلم يصله أقل مدد لأن العييد لا يريدون المجازفة باقتحام السير فى فصل الامطار .

وأرسل شاليه لونج مكتوبا الى كباريجا فى مازندى ليستعلم منه عن السبب فى هجوم رئيس تجارته ورجاله عليه هجوما متعمدا فى مرولى . فلم يرد له الرد رأسا بل ورد له جواب من سليمان سفير مصر فى أونيسورو القاطن فى قصر كباريجا وهو جواب عباراته ملتبسة بمهمة تؤيد ما خامر شاليه من الظنون بشأن مسلكه فى هذه المسألة . وفى مدة اقامته فى فويرا دخل المعسكر ثعبان هائل الجثة فقتلوه ووجدوا طوله ٩ أمتار .

وفى ١٣ سبتمبر وصل سليم وسليمان والسائس ومعهما الحصان والحمير . فتقرر السفر بعد الغد وكلف ريونجا بتقديم الحمالين . وانقضى يوم ١٤ من هذا الشهر فى تجهيز معدات السفر . والتمس ابراهيم افندى وهو ذلك الترجمان

الذى رده شاليه الى هذه النقطة مغضوبا عليه ، الصنح عنه فوعده باعادته الى غندوكورو مع واد الملك الذى سيذهب اليها بالعاج .

وفى ١٥ سبتمبر كان الجمالون وفريق من الجند على استعداد للسفر . وأخذ الجميع فى السير عند الساعة الثامنة . وفى ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ منه تابعوا السير فكانت المرحلة اليومية تبتدىء عند الساعة السادسة صباحا ولا تنتهى الا فى السادسة مساء . وكان على وجه عام لا ينقطع يوميا المطر المدرار وأضحت الادغال والحشائش الطويلة الألياف غير المأهولة بالسكان غير مسلوكة .

وفى ٢٠ منه بلغت القافلة فى هذا اليوم فاتيكو فقبولت بمزيد الحفاوة والتكريم من الضباط ومن الصاغمقول أغاسى عبد الله افندى الدنساوى قائد هذه المحطة . ومن ٢١ سبتمبر الى ٥ اكتوبر قضى الوفد هذه الايام فى فاتيكو للاستراحة من عناء السفر ولتعافى افراده ويسترجعوا قواهم .

وفى ٥ اكتوبر ودع شاليه لونج قائد المحطة وضباطها وقدم لهم مزيد تشكراته على ما خصوه به من الاكرام ثم انطلق فى السير ورافقه ضابط برتبة ملازم و ٦٠ جنديا من المحطة و ٢٠ جنديا من الجنود غير النظاميين و ٧٠ من الأهالى لحمل العاج . وكان هذا الحرس لازما لداعى ماتبيديه قبييلة الموجى من العداوة والبغضاء . ورجال هذه القبيلة هم الذين هاجموا حين ذهابه الى الجنوب .

وفى ٧ منه واصلوا السير من الساعة السادسة وفى ٨ منه بلغوا فاجرينيا Fagrinia . وفاجرينيا هذه هى زريبة للدناقلة وكانت موضوعة إذ ذاك تحت

مراقبة الحكومة المصرية ويديرها جندي قديم يسمى بخيتا . وقد قضوا ليلتهم في هذه الزريبة .

وفي ٩ أكتوبر وصلوا الى ضفة نهر يقال له « أسوا » Asua . وفي ١٠ منه اجتازوه بلا صعوبة . وفي ١١ منه دخلوا لآبوريه . وفي ١٢ منه مروا من بلد أهالى الموجى فلم يبد هؤلاء أى اشارة عدائية . وفي ١٣ و ١٤ منه واصلوا السير وفي ١٥ منه كانوا ازاء الرجاف غير أنهم لم يستطيعوا عبور النهر لعدم وجود مراكب والتزموا أن يخطوا رحالهم .

وفي ١٦ منه استحضر القائمقام الطيب عبد الله بك قائد محطة الرجاف مركبا وقدم اليهم بها وقابلهم بفرح عظيم . ولما كان شاليه لونج شديد الحنين الى الرجوع حرك كتيبته ونزل الى المركب يرافقه الجنديان سعيد وعبد الرحمن وولوا وجوههم شطر غندوكورو فوصلوا اليها عند غروب الشمس .

وقد استقبلهم غوردون بها أحسن استقبال وكال لشاليه عبارات المدح والثناء وقال « لقد عملت فوق ما عمله أى انسان آخر في هذا البلد » . فكان هذا القول تعزية لشاليه لونج وتعويضا لما عاناه من الصعاب في سبيل استكشافاته .

سنة ١٨٧٥ م

فتح غوردون طريق المواصلات مع أوغندة

وكان غوردون قد أرسل في أواخر العام المنصرم الملازمين وطسوت وشيئندال ليرتادا بحيرة البرت إلا أنه علم في أوائل شهر يناير أنها وقعا بين برائن المرض .

فبعث بباخرة لتأتى بهما وعهد بهذه المهمة فيما بعد الى مسيو جيسى وكان من الضروري أن يتوجه غوردون الى جهة نهر سوبات إلا أنه لما كان جميع اركان حربه تقريبا مصابين بالامراض لم يتمكن من الذهاب الى تلك المنطقة وقد قال إنه لا ينبغي لأى شخص أن يأتى الى تلك الجهات اذا كانت سنه دون الثلاثين سنة . وكانت حركة العمل قد ازدادت وتضاعفت فى اقامة المستودعات والورش فى لادو التى اضحت عاصمة لمديرية خط الاستواء . وكان أميرالالاي لونج قد وصل ومعه ٤٠٠ جندي من الخرطوم إلا أنهم كانوا لسوء الحظ من الجنود المصرية إذ أن غوردون كان يؤثر على هؤلاء جنودا سودانية لتستطيع مقاومة المناخ لأن ال ٢٥٠ جنديا الذين كان استحضرهم معه عاجلت المنية نصفهم واضطر ان يرجع الى مصر مائة منهم . أما العسكر الذين قدموا حديثا فنصفهم وقع فى مخالب المرض فى الأيام التى وصلوا فيها .

وتلقى غوردون تقريرا قبيلا آخر شهر يناير من الضابط المعين للقيادة فى فويرا يقول فيه انه أرجع الجنود القدماء الذين كانوا تابعين فيما سلف

للنخاسين وجهزهم سير صمويل بيكر باشا للقيام بخدمة الحكومة لأنهم تواطؤوا عمدا مع كباريجا ملك أونيوورو على الخيانة والاستيلاء على المحطة . ووصل أولئك الجند البالغ عددهم ٥٠ جنديا بصحبة واد الملك وفي الحال جردهم غوردون من أسلحتهم ووجههم الى الخرطوم وأرسل كذلك أمرا الى محطة فاتيكو بأن ترد من عندها من أولئك الجنود البالغ عددهم ٩٠ الى لادو وعند وصولهم عاملهم بالطريقة التي عامل بها جنود فويرا . ووطد العزم لوقوع هذه الحوادث على ان يعاضد ريونجا العدو اللدود لكباريجا ضد هذا وان يضع الأول محل الثاني . والتمس من الخديو أيضا أن يرسل على ظهر باخرة ١٥٠ جنديا الى خليج مبدسه الواقع على ساحل افريقية الشرقى ليقيم هناك محطة ويفتح طرق المواصلات مع أوغندة وذلك ابتغاء تسهيل الاتصال بمديريته .

وقد أجاب الخديو اسماعيل طلبه وأرسل حملة تحت قيادة ما كيلوب باشا احتلت فعلا تلك المنطقة ولكن نظرا لتشبث الحكومة الانكليزية بانسحاب هذه الحملة من هناك أمر الخديو بانسحابها وهذا العمل من الحكومة الانكليزية لم يكن إلا تمهيدا لغايتها الذاتية حيث أنها أعلنت حمايتها على زنجبار وملحقاتها في سنة ١٨٩٠ م كما سيمر بك ذكره فيما بعد .

وسافر غوردون من لادو الى نهر سوباط في ٢٦ يناير حيث كان في نيته زيارة محطات مديريته الشمالية ليزودها بجميع ما تحتاج اليه من المؤونة والذخيرة مدة ثمانية أشهر ثم العودة والتوجه الى فاتيكو مع نقل السفن الحديدية وجميع آلات البواخر الى دوفيليه . وقرر في أثناء السير أن يشيد محطات تبعد احداها عن الأخرى مسيرة يوم واحد إذ بهذه

الوسيلة يكون في حيز الاستطاعة حراسة كل ارسالية بعشرة من الرجال بينما كانت أخبار المحطات لا تصل الآن إلا في ظرف ستة أشهر هذا عدا انه كان من اللازم أن يرافق كل ارسالية مائة جندي لتدفع كل غائلة عنها .

وعند ما وصل الى سوبا في ٩ فبراير أرجع الملازم وطسون الى إنجلترا لأن حالته الصحية لم تسمح له بالبقاء في السودان وقد أرجعه على كره منه لأن ذلك كان يخفض عدد أركان حربه الذي أمسى من قبل ضئيلا .

وعاد غوردون الى لادو في ٥ مارس وفي ١٣ منه يم محطة الرجاف . وكان يوجد على مقربة من هذه المحطة شيخ يقال له « بيدن » وكان هذا الشيخ لا ينفك عن اظهار العداوة والبغضاء للحكومة حتى في مدة وجود حكومة سير صمويل بيكر كان غوردون قد حاول أن يستجلب مودته بواسطة تحف وهدايا كان يرسلها اليه غير أن جميع مساعيه ذهبت أدراج الرياح . وبما أنه كان قد عول على تخفيض حامية هذه المحطة وكان لا يمكنه ان يترك قريبا منها نفرا يبدون للحكومة الكراهة فقد صمم على الاغارة على زرائب هذا الشيخ ونهب ماشيته بطريق المباغتة .

فألف لهذا الغرض كتيبتين احدهما من ٥٠ جنديا وقد سار معها بنفسه والثانية من ٢٠٠ جندي وهذه الأخيرة كلفت بالأحاطة بالزرائب ومحاصرتها .

وفي الساعة العاشرة مساء أخذت الكتيبتان في السير ووصلتا قبيل انبثاق

الفجر الى موضع الزرائب وبعد اطلاق عدة طلقات ولى الخنمراء الادبار وتركوا بين يديه وتحت تصرفه ٢٦٠٠ رأس من المواشى .

وأغار فى الغد على أرض شيخ من المشايخ المعادية يقال له « لوكوكو » Lococo واستولى على ٥٠٠ رأس أخرى . واستبقى عنده هاتين الغنيمتين مؤملا أن يرجع أصحابهما عن غيهم ويبدوا شيئا من المسألة .

وفى ٣٠ مارس سافر من الرجاف الى نقطة تبعد عنها ٤٠ كيلومترا ليبتنى عليها محطة . وكان عاقدا النية على أن يقيم أيضا محطتين بين هذه ودوفيليه وبذلك تسمى مواصلاته طلقة لا شىء يعوقها عن فاتيكو .

وفى ٧ أبريل رجع الى الرجاف ليهتم بنقل أجزاء البواخر الباهظة الثقل التى كان قد عول على أن يسيرها فى البحيرة . وكان هذا العمل عرضة لمصاعب كبرى نظرا لثقل هذه الاجزاء من جهة ولطول المسافة اللازم قطعها من جهة أخرى وهى مسافة لا تقل عن مائة وخمسين كيلومترا تقريبا . غير أنه كان يرى ان شرفه مرتبط بوعده صدر منه على أن يسير باخرة فى البحيرة . وقد انتضى الميعاد دون أن يبر بوعده والوقت أمسى لديه قصيرا فلا يسمح له بضياع برهة منه .

وبعد وصوله الى الرجاف ببضعة أيام وردت ارساليات الواحدة من لاتوكا والاخرى من غربى مكراكا . وكان قد هل فصل الامطار . وكان عليه أن يباشر نقل جميع الآلات الثقيلة وقطع الباخرة على مرحلة ١٥٠ كيلومترا فى طرق مجبولة . ففكر أولا فى تأجيل هذا العمل الى السنة القادمة ولكن ذلك كان لا يأتى منه سوى تأخير مسألة كان ينبغى

أن تكون قد تمت فى الأيام الخالية وعلى هذا كان ليس ثمة فائدة
ترجى من وراء التأجيل .

وقد نوى أيضا أن ينشئ محطة على قيد مسيرة يوم من الرجاف ثم
ينقل إليها الآلات . ومتى وصلت هذه الى تلك المحطة يكرر هذه العملية
وذلك بأن يقيم سلسلة من المحطات الى ان يبلغ فوق الشلالات . غير أنه
قامت فى وجهه مسألة تموين هذه المحطات وهى مسألة لا يستهان بها . وكان
أمامه حل آخر وهو أن ينشئ محطة فى لابوريه وان يشتري الميرة من
الأهالى وهذا اعترضه أيضا أمر عبور نهير « أسوا » إذ ان اجتيازها فى
فصل الامطار ليس من المسائل الهينة . حتى على فرض انه اجتاز ذلك
النهر يكون قد صار هذا خلفه ولا يكون هو متأكدا أن يحصل على
اقوات من الأهالى .

وآل الامر فى النهاية الى أن يوطن العزم على اختيار الحل الأول
مؤملا أنه متى أقام المحطة على مقربة من لابوريه فان الأهالى تأتى بالاقوات
ليبيعوها ولكنه فى الوقت ذاته كان يرى أنه لا ينبغى الركون كثيرا
الى هذا الحل وذلك لأن هذا الأوان كان اوان بذر الحبوب وبعبارة أخرى
كان وقت انتهاء الفصل وفى هذا الوقت لا يمتلك الأهالى بالطبع إلا النزر
اليسير من القوت .

وبما أنه لم يكن لديه متسع من الوقت فقد شرع فى السير مع ٤٠
جنديا سودانيا و ٥٠ آخرين من اهالى نيام نيام من ناحية مكرىكا
وأخذ معه زاد ١٥ يوما . واستخدم أيضا خمالي ارساليتى لاتوكا ومكرىكا

في الغرض عينه .

وتقدمت الحملة مسافة ٤٠ كيلومترا تقريبا فوصلت الى مكان يقال له كرى Kerri واقع على شاطئ النهر . وبلغه عند وصوله الى هذه الناحية أن الماشية التي اخذها غنيمة وهو يحسب انها من ممتلكات الشيخ بيدن الذي يناسب الحكومة العداوة هي في الواقع ونفس الأمر خاصة بشيخ من المشايخ الموالين للحكومة . فدهش لذلك كثيرا واصلح في الحال هذا الخطأ برد الماشية الى صاحبها الحقيقي . وقرر أنه لا يقدم من هذا الحين على عمل كهذا إلا بعد أن يتأكد مما هو قادم على فعله .

وبعد أن قام المعسكر هبت عاصفة واستدعت الحال الالتجاء الى الاشجار لالتقاء شرها على قدر الاستطاعة وعند ما بلغت تلك العاصفة أشدها سمعت طلقات بعض الاعيرة النارية صادرة من الأهالي ولما رأى الجند أن هذه الطلقات مصوبة اليهم جاوبوها بطلقات ردت المغيرين على اعقابهم ونهبوا القرية القريبة من المعسكر على سبيل العقوبة لهم .

وأطلقت أيضا بعض اعيرة صوب الأهالي المقيمين على الضفة المقابلة فجعلتهم أعداء بطبيعة الحال .

عودة غوردون الى الرجاف

وعند ما أتم غوردون اقامة المعسكر رجع الى الرجاف بطريق النهر ليتحقق من صلاحيته للملاحة فاتضح له ذلك .

وعند ما ألتفت سفينته مراسيها عند الرجاف خرج وولى وجهه شطر جزر

يبدن ليفحص مضيق النهر فاذا به يرى بعض الأهالى جلوسا تحت شجرة فاتجسه نحوهم وسألهم عما إذا كانوا من أتباعه ودهش عند ما رآهم يشيرون الى واحد منهم وهو رجل بلغ من الكبر عتيا ويوشك أن يكون كفيف البصر قائلين ان هذا هو الشيخ عينا وذاتا فاشتبك معه غوردون فى الحديث وقال له انه لا يأخذ منهم شيئا لو سلكت قبيلته مسلكا حسنا ثم ناوله صفارة وتبغا وحشه على أن يأتى لزيارته فوعده الشيخ باجابة هذا الطلب . وأمر غوردون جنوده بأن لا يمسوا شيئا من ماشيته . والذي بعث الطمانينة فى نفس بيدن هو رد ماشية الشيخ المسالم للحكومة تلك المسألة التى نقل اليه خبرها هذا الشيخ . اما لوكوكو وهو ذلك الشيخ الآخر الذى كان يناصر غوردون العدوان فبلغته أيضا هذه الحكاية فكان ذلك داعيا لحيثه الى المعسكر وتقديمه الطاعة .

وفى ١٠ أبريل قدم بيدن الى المعسكر فباه غوردون بمنحة قدرها ٢٠ من الابقار ومقتص . وهذا المسلك كان لا بد أن يؤدى فى الواقع الى عواقب محمودة لأنه عند ما ينتشر هذا الخبر بين الأهالى كانت تتوطد الثقة فى نفوسهم فيجنحون الى الخضوع وينبت السلام بين ربوعهم .

وفى ١٧ منه ألق غوردون من الرجاف ليذهب فى النهر صعدا فصرح رئيس السفينة أن ذلك من رابع المستحيلات وقال انه قد كان حاول فيما سلف من الايام القيام بمثل هذا العمل فكان الفشل نصيبه إلا ان غوردون انخ كثيرا وفى النهاية عثروا على ممر . وكان التيار السريع يمتد الى

طول زهاء ٦ كيلومترات ووصلوا الى مكان يبعد ١٥٠ مترا عن النقطة التي تسهل منها الملاحة الى كرى . وفي هذه ال ١٥٠ مترا كان يوجد فرق في منسوب سطح الماء قدره خمسة أمتار وذلك مما يجعل صعود هذه المسافة عسيرا جدا ويستلزم نقل المشحونات الى مراكب اخرى وهذا كان يستدعى ايجاد اسطول آخر صغير في القسم العالى من النهر .

فعاد غوردون الى الرجاف وهناك تلاقى مع الملازم الأول شيندال الذى كان آتيا ومعه عدد كبير من حمالي فاتيكو . وكان هذا الملازم صعد النهر حتى صار على مسافة صغيرة من البحيرة . غير أنه لم يستطع الوصول اليها بسبب عدم امداده بأية معاونة من المدير . واتصل بغوردون علاوة على ما ذكر أن كباريجا ملك أونيوورو كان يقيم العقبات في سبيل انجاح مهمته وان متيسا ملك أوغندا أرسل اليه ساعتين لاصلاحهما .

بناء محطة في بيدن وتحسن سبل المواصلات والأمن

وفي ٢٠ مايو رجع غوردون الى لادو ليسوى بعض أعمال مصلحة وعاد الى كرى في ٥ يونيه . وكانت رجاله منذ زيارته الاخيرة قد تمكنوا من امرار ٣ مراكب صعدا من المضيق الشرقى فذهب الى هذا المكان ومعه ١٠٠ رجل ليبنى محطة سماها باسم الشيخ بيدن . وقد لاقت ال ٣ مراكب مصاعب جمة في الصعود وكان يخشى عليها كثيرا من الغرق إلا أنه لحسن الطالع جرت الامور مجراها بدون ان يقع حادث مكدر .

وفي ١٣ يونيه آب غوردون الى لادو وكان الفيضان بلغ أشده وماء

النهر مرتفعاً ارتفاعاً شديداً وبالتالي كانت الملاحة صعبة . ووجد الامور جارية في مجرى لم يرتح اليه لأنه في أثناء غياب المدير الذي عاد الى الخرطوم كان قد وقف دولاب الاعمال . والبواخر التي كانت سافرت الى الخرطوم من مدة ١٣٠ يوماً لم ترجع لغاية ٢٩ يونيه فظن غوردون ان يد الاقدار لعبت بها واغتم لذلك . وتحسنت حالة المواصلات مع المناطق الجنوبية تحسناً محسوساً حتى لقد قدم رجل بمفرده من محطة بيدن في يوم واحد مع ان هذه الرحلة قبل هذا الوقت كانت تستغرق زهاء ٢٠ يوماً وكان لا يخلو الأمر من ان يغير على سالكها الاهالي . وهذا يدل على أن السلم كان يجري في مجرى التقدم وأن الثقة أخذت تسود في النفوس .

وكانت الحملة التي كان يقودها المهندس كيب الى كرى في شهر سبتمبر من العام الماضي لاقت أعباء ونصبا على طول الطريق بينما كان غوردون قد ذهب بمفرده ومعه ٥ من الجنود الى هذه الناحية في هذا العام بدون أن يصادف في طريقه ازعاجاً ولا اقلاناً . وكان لابد لكل مركب تسافر في العام المنصرم ان يكون معها حرس مؤلف من ٥ من الجنود أما الآن فكانت تسافر السفن وحدها وبدون حرس ويمكن ان تغزى هذه الحالة الى الأوامر التي صدرت بمنع نهب القرى الواقعة على الطريق .

ولغاية ٥ يوليه أيضاً ما كانت البواخر وصلت وكان النهر آخذاً في الازدياد وتكونت بحيرة واسعة شاسعة جنوب المحطة ولم يبق مكان يمكن السفن ان ترسو فيه للاتصال باليابسة إلا في سوبات ، وبور ،

وشير ، ولادو ، وغندوكورو ، والرجاف .

قيام العقبات في طريقه وتذليلها

وفي ٩ يوليه رجع غوردون الى بيدن وسبر غور الماء فوجد ان عمقه يكفى لمرور الباخرة « الخديو » فأخلى سبيل عدد من الجند القدماء وجند ٧٠ جنديا جديدا .

وورد بعد كل هذا وذاك البريد وعلم منه اتمام الباخرة الكبيرة التي كان استحضرها سير صمويل بيكر وسماها : « الاسماعيلية » .

وولى غوردون وجهه في ٣١ يوليه شطر موضع واقف على مسافة ٣ كيلومترات جنوب كرى ليصعد السفن من ممر صعب وتم له ما أراد إلا انه في أثناء القيام بهذه العملية هب عليهم إعصار شديد نالهم منه مكاره جمة .

وفي ٣ اغسطس فرغوا من عملية صعود ٣ سفن في تيار موجى السريع بعد أن نالهم من المتاعب والمصاعب مالا يحصى ولا يستقصى لان سرعة التيار كانت ١٠ كيلومترات في الساعة . وبسبب قطع عدد كبير من الاحبال انسابت السفن وذهبت تتخبط في النهر على غير هدى . واستلزم الحال البحث عنها في اماكن قصية . وبقي عليهم بعد كل ذلك قطع زهاء ١٠ كيلومترات حتى يكونوا قد اجتازوا بلاد قبيلة الباريين الذين وان كانوا عاونوا غوردون في هذه الاعمال ولم تبد منهم أية اشارة عدوان الا انه كان يفضل ان يعبر بلادهم ليدخل بلد قبيلة الماديين التي هي اكثر وداعة من القبيلة الاولى . وكان يرى فوق ذلك ان مروره من منطقة قبيلة الباريين بدون قتال يعد فوزا مينا .

وتحسنت الحالة في اليوم التالى واستطاعوا ان يقطعوا زهاء ١٥ كيلومترا غير ان الريب التى كانت تساور نفس غوردون وجهل ما يخبئه المستقبل في طريقه غرسا في مخيلته الهم والنعم . نعم ان الاهالى لم تبد نحوه شيئا يوى الى سوء النية وفساد الطوية ولكن حالتهم كانت تنم عن مبلغ كبير من الخوف والفرع وما كان في حيز الاستطاعة الحصول منهم على أية دلالة أو أى ارشاد . وساورت غوردون تلقاء جميع هذه المصاعب الشكوك بصدد صعود الباخرة النهر هذا العام .

وحاولوا في ٨ اغسطس صعود الباخرة الخديو تيار بيدن السريع فتم لهم ذلك بسهولة وبكيفية ما كانوا يحامون بها وصعدت تلك الباخرة ذلك التيار براحة تامة بقوة البخار وبمساعدة الجر بالحبال « اللبان » وبذلك تأيد انه في امكانها أن تصل الى كرى لأنه لم يبق في طريقها شئ يعوق سيرها .

وفي ١٠ منه وقع حادث . ذلك انهم عبروا الاجزاء الصعبة المريبة ودخلوا في أقسام الماء الهادى واذا بمركب قطعت أقلاسا بسبب بلاهة وغباوة رئيسها وجرها التيار الى الماء السريع الجريان وشحطت على الصخور في منتصف المضيق وأرسلت مركب أخرى لانقاذها فكان حظها نفس حظ سابقتها . ومما زاد في الطين بلة ان جميع الاحبال كانت في جوف هذين المركبين . غير أنه لحسن الطالع أمكن في اليوم التالى تعويمها .

وفي ١٤ منه جاهر الاهالى بالعداوة وكان قد بدا منهم منذ يومين بوادر تنم عن الاستعداد لنشر راية العصيان . فأخذوا يتسللون خلال الحشائش المرتفعة باذلين الجهود ابتغاء الوصول الى المعسكر غير أن الجنود كانوا يقظين وواقفين لهم بالمرصاد فأمكنهم بواسطة القرايينات ذات المرمى البعيد أن يوقفوهم

على بعض المسافة منهم ويدعوهم الى تغيير ما قام برؤوسهم . وما كان لهؤلاء القوم عذر فيما أتوه وذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة إلا أنهم لما رأوا ان الحملة مشغلة ببحر انراكب أرادوا الاستفادة من هذه الحالة وأخذ المعسكر على غرة منه وصرفوا النظر عن دعوتهم لسلوك المسالك الحسنة وإعطائهم الوعود بان لا يمسوا بشيء .

وقدم في اليوم التالى ثلاثة من المشايخ وقدموا الماعذير فقبلت معاذيرهم وعافاهم غوردون من الغرامات التى كان قد فرضها عليهم وتنحصر هذه الغرامات فى توريد عدد من الابقار .

وقد كان يرتقب امدادا من لادو مكونا من ٢٥٠ جنديا وعددا آخر من أهالى « مكديه » Makadé يمكنه بواسطتها تسيير الأعمال بسرعة عظيمة .

وكان الأهالى المقيمون على الضفة الغربية حيث تشتغل الحملة أعجز من أن يسوقوا لها ضررا كبيرا . لأنهم كانوا محصورين بين النهر شرقا والجبال الواقعة على بعد ١٠ كيلومترات من النهر ومحطات الحكومة التى فى الشمال والجنوب غربا .

اما لو كانت الحملة تشتغل على الشاطئ الشرقى حيث الجبل واقعة على مسافة زهاء ٦٠ كيلومترا من النهر والاهالى أكثر عددا لشارت عليها كل قبيلة الباريين إذ أن الأهالى ما كانوا مهتاجين لأن يروا بلادهم تحتل احتلالا نهائيا .

وفى ١٧ اغسطس عبر غوردون النهر الى الضفة الشرقية ليرى اذا كانت المضيق أكثر موافقة من الشاطئ الغربى . وعند ما سمع دوى صوت طلق

نارى يتجاوب صداد فى تقضاء صوبه غوردون الى فرس من أفراس البحر
أدركت احمية رهبة وساورته الظنون على حياته لأن قاطنى هذا الشاطئ
كانوا أشد عداوة للحكومة من ساكنى الشاطئ الشرقى .

ورجع غوردون دون أن يقع له أى حادث ولكنه شعر بأنه قوبل بمقابلة
مجردة من المودة وإن هذا العبور صادف استياء من الأهالى .

وفى ٢٠ أغسطس ورد الى غوردون نبأ بأن المحطة الواقعة على مسيرة
كيلومترين من المحطة التى كان يقسم بها هوجت فى الليلة الماضية إلا أنها
صدت المغيرين بعد أن حملتهم خسائر يظن بعدها أن لا يجددوا هجومهم
الذى يلوح أنه كان متواطئاً على القيام به ثلاث قبائل . وأراد غوردون أن
يعطيهم درساً قاسياً يوقظهم من سباتهم إلا أن قوته كانت ضئيلة لا تسوغ
له القيام بالعمل الذى كان يرمى اليه . نعم انه كان لا يضرر للقوم أية
عداوة غير أنه مما لا يحتاج الى ايضاح أنهم اذا استمروا فى مثل هذا المسلك
كان يضطر الى قتالهم .

وفى ٢٢ منه وصل الأهالى الذين كان يتربص قدومهم من مكديه
برفقة إرنست بن نينان دى بلفورت باشا . وكان هذا الشاب سافر بمهمة
الى متيسا ملك أوغندا وقدم منها . وكان قد قابل فى هذه المملكة فى شهر
أبريل استائلى الذى كان قد سبقه اليها بثمانية ايام .

وفى ٢٨ منه كان غوردون فى مكان يقال له موجى واقع جنوب
« كرى » التى كان قد تقرر انشاء محطة بها . ولما علم أن الباخرة وصلت
الى نقطة تبعد عنها قليلا من الخلف وقريبة للضفة الشرقية اجتاز النهر



محطة « كوري كوري » العسكرية بمدينة خط الاستواء

وسار مسافة بقصد مقابلتها . غير أنه لما لم ير لها أصدر أمرا بصعودها من الجهة الشرقية . ولدى وصول الباخرة الى المضيق لم تتمكن بسبب وجود جزيرة مستطيلة أن تتصل بالبر الغربى . وفى أثناء دخول غوردون فى المضيق أرسل أمرا الى ٣٠ جنديا من الجنود المقيمة فى محطته بعبور النهر الى الشاطئ الشرقى .

وعندما رأتهم الأهالى قادمين أخذوا يقرعون طبولهم الكبيرة للتجمع والقيام بالهجوم . واندفعوا بقضيمهم وقضيضهم على الجنود . ولما رأى ذلك غوردون عجل بعبور النهر وانضم الى جنده تماما فى اللحظة التى بدأ فيها نشوب القتال ورد الهجوم بسهولة .

وقد حاول أن يدخل معهم فى مفاوضة فذهبت مجهوداته فى ذلك أدراج الرياح . فأمر قوته بالصعود الى جيبىل هناك فلما رأى الأهالى بذلوا جهودهم ليحيطوا بهم فتركهم الجنود يقتربون ثم أمطروهم وابلا من الرصاص فارتدوا على أعقابهم الارتداد الأخير . وأظهر الأهالى فى هذا الهجوم الفاصل كثيرا من الشجاعة والمهارة فكانوا يزحفون على بطونهم وعندما يرون العساكر تحشى سلاحها ينهضون ليركضوا نحوهم ثم ينطرحون عند ما يرونهم مصوبين عليهم النيران . وانتهى بهم الأمر الى أن بلغوا الى مسافة ٨٠ مترا من خط النار . وقد حضر إرنست دى بلتون هذه الموقعة .

ولما كان غوردون يريد أن يستوثق من المكان الذى به الباخرة نزل قليلا فى الضفة الغربية ورجع الى المعسكر بدون أن يهتدى الى موضعها .

ولم يرافقه إرنست فى هذه الرحلة القصيرة بل ظل فى المعسكر لينشئ مكاتيب . وطلب من غوردون فى المساء السماح باجتياز النهر مرة أخرى الى البر الشرقى وان يضرم النار فى أكواخ الأهالى المعادين . وبما ان غوردون كان يخشى انه لو تركهم فى هدوء وطمانينة لشنوا الغارة على الباخرة فقد أجاب هذا الطلب مؤملا انه بهذه المشاغلة يستطيع أن يمنعهم عن القيام بمثل هذه الغارة وأعطاه ضابطين و ٣٦ جنديا وصندوقى جبنانة . هذا عدا ٣٠ رصاصة أودعت فى جراب كل واحد من العساكر .

وقامت هذه الحملة فى الساعة ٨ صباحا وكان يسمع من وقت لآخر دوى بعض أعيرة نارية يرن صداها فى الفضاء . وقيل الظهر كانت الحملة فوق الروابى على بعد ٣ كيلومترات تقريبا من المحطة ورأى غوردون إرنست يلبس قميصا أحمر كان قد أعطاه له .

وكان يلوح ان كل الامور تجري فى مجرى حسن . وظلت الحملة فى هذا الموضع لغاية الساعة الثانية مساء ثم توارت عن الأعين . وخرج غوردون عند الساعة الرابعة والنصف للرياضة واذا به يسمع صوت طلق مدفع من المحطة فارتد على عقبه مسرعا وأمسك نظارته وتطلع واذا به يرى زهاء ٤٠ نفسا من الأهالى ينحدرون ركضا فى الضفة المقابلة فلم يعر ذلك التفاته وظن أولا أنهم أتوا ليردوا الباخرة واستمر يتطلع اليهم فشاهد أنهم أخذوا ينسحبون وعندئذ أرسل عليهم بعض رصاصات . وبعد نحو ١٠ دقائق رأى ويالشووم ما رأى !! رأى على الضفة المقابلة جنديا مجردا من سلاحه فأرسل قاربا ليأتى به فى الحال وسأله : أين بنديتك ؟ فأجاب : أخذها الأهالى . ثم سأله : ولماذا انفصلت عن رفاقك ؟ فأجاب : لم يذر الأهالى منهم ديارا . ثم

سأله : وكيف حصل ذلك ؟ فأجاب : لأنهم استنفدوا ظروفيهم .

ولم يكن لدى غوردون في هذه اللحظة سوى ٣٠ جنديا و ٣٠ آخرين في محطة موجى وكان يظن انه يوجد ٩٠ جنديا غيرهم مع الباخرة في المضيق الشرقى إلا أنه ما كانت توجد لديه أية وسيلة للاتصال بهؤلاء وكانت الساعة عندئذ ٦ مساء . وبما أن معسكره لم يكن محصنا قرر ان ينزل وينضم الى المحطة الاخرى . وبعد ان تكبد غناء جما في المسير ليلا وصل ومن معه الى محطة موجى في الفجر . وحال وصوله شوهد جندي آخر من العساكر التى صحبت إرنست الى الجزيرة المستطيلة على الجهة الاخرى فعبر غوردون بنفسه النهر ليأتى به وليرى ايضا ما فعل الله بالباخرة لأنه كان فى هم وغم ناصب من جهتها .

ولما طلع الى الجزيرة داخله الفرح إذ رأى أن الباخرة رجعت الى البر الغربى بعكس الأوامر التى أصدرها . وعلى هذا رجع أدراجه ومعه الجندى الذى قدم للبحث عنه الى المحطة . ولدى وصوله اليها سر سرورا آخر إذ علم ان أربعة عساكر آخرين من جنود إرنست قدموا اليها . وذكر هؤلاء الجنود الاربعة أنه أحيط بالجنود وأنه بعد فراغ جبخاناتهم هاجمهم الأهالى وقتلواهم . وقتل بين من قتل إرنست متأثرا من الجروح التى أحدثتها حربتان إحداهما أصابته فى عنقه والثانية فى ظهره . غير انه اتضح فيما بعد أن سبب نفاد الجبخانة انهم كانوا قد أعادوا مقدارا منها الى المركب التى كانت فى انتظارهم وقد استولى الأهالى مع الأسف على ٣٣ بندقية . والقبيلة التى اجترحت هذه الفعلة هى نفس القبيلة التى قتلت من رجال البكباشى الطيب عبد الله افندى ضابطا واحدا و ٢٨ جنديا

سنة ١٨٧٢ م .

وكتب غوردون الى لبنان باشا ينعي اليه ولده المذكور . فكانت هذه مهمة بالغة أقصى درجات الايلام إذ كان هذا الابن النجل الثانى الذى يفقده لبنان فى هذه الحملة .

وكان من الواجب ان لا تقت هذه المسألة فى عضد غوردون وتدعوه الى تأجيل إتمامه مشروع إقامة خط من المحطات يبتدىء من لادو وينتهى عند مكديه إذ أنه لم يبق عليه لأجل اتمام هذا الخط سوى انشاء محطة واحدة إلا أن انشاءها كان يستوجب تأخير اصعاد الباخرة لانه كان لا يستطيع ان يكون فى مكانين فى آن واحد .

ووصل الى غوردون إمدادات بلغ بها عدد الجنود الذين تحت إمرته ٥٠٠ جندى . وقدم أيضا نور افندى محمد ^(١) مدير فاتيكو فارتاح غوردون الى ذلك جد الارتياح إذ أنه كان يعتبره ضابطا من خيرة الضباط وأنه سيوفر عليه متاعب كثيرة .

وبما انه قد أصبح لديه الآن العدد الكافى من الجند فقد رأى أن يجمع غنائم فأرسل كتيبتين من الجند لهذا الغرض وباغت هؤلاء الاهالى واستولوا منهم على ٢٠٠ من الأبقار و ٥٠٠ رأس من الضأن .

وفى ١٣ سبتمبر بذلت مجهودات أخرى فى سبيل اصعاد الباخرة غير أنه

(١) — وصل فيما بعد الى رتبة أميرالاي وكان قائدا لحامية سنار فى أثناء الثورة المهدية وعند سقوط هذه المدينة أسره الدراويش . وقد عاش بعد ذلك الى أن توفاه الله .

بسبب خطأ وقع في العمل أفلتت الأحبال من أيدي الجنود الذين كانوا يعاونون في جر هذه الباخرة فتراجعت وارتمت على جانبها فوق الصخور . ولكن والحمد لله لم يحصل بها عطب وانحصر الضرر في ضياع شيء من الزمن لتعويمها وهو زمن كان يمكن صرفه في أشياء أكثر منفعة . وفي غداة اليوم التالي شرع في العمل ولم يمض سوى ٤ أيام حتى كانت الباخرة تسبح فوق سطح الماء .

وفي ١٦ سبتمبر بدت من قبيلة من القبائل روح العداوة وفي ١٨ منه قامت ثلة من الجنود للاستيلاء على غنائم من هذه القبيلة غير ان الأهالي استنشقت الخبر فرجعت الثلة بخفي حنين لأنهم كانوا قد هربوا الماشية فلم يجد الجند غير الأواني المنزلية فغنموها .

انشاء محطة لابوريه ومحطات أخرى

وطد غوردون العزم على ان ينشئ قبل كل شيء محطة لابوريه لكي يكون آمنا من جهة سيره الى الامام فصار من موجى موليا وجهه شطر تلك الناحية في ٢١ سبتمبر فدخلها في ٢٢ منه . واشتم من احدى القبائل رائحة العدوان فقرأه على أن يستولى منها على غنائم وفعلا انطلق في المسير صبيحة ٢٧ سبتمبر غير أنه لم يستطع ان يغنم منها سوى ٢٥ بقرة ثم أضرم النار في الاكواخ .

وفي ٣٠ منه مشى نحو ١٠ كيلومترات جنوبا بين مناظر تأخذ بالالباب ورأى من الأهالي مودة أنعشته وقوت عزيمته كثيرا .

وكان أيضا مرتاحا جد الارتياح لحيازته خطا من المحطات تربط جنوب

البلاد بشمالها . ومما زاده ارتياحا على ارتياح تأكده من صلاحية النهر للملاحة طول أيام السنة للمراكب الصغيرة وشطرا من السنة للسفن الكبيرة . وهذه الحالة أبانت له صواب الخطة التي اختطها . وكانت تساوره الآمال بأنه سوف يتمكن في السنة القادمة من عبور الباخرة و ٦ أو ٨ مراكب الشلالات وأن يقيم محطات على طول نيل فكتوريا في ماجونجو ، و انفينا Infina ، و فويرا التي قد تم إنشاؤها ، و مرولى ، وعلى بحيرة فكتوريا . وكان من ضمن الفوائد الجلى التي يجنيها من وراء تلك الخطة الحصول على الماء الرائق الصافى طول الطريق وكذلك لما رأى الأهالى أن تشييد خط المحطات أضفى فى حكم الشئ الواقع جنحوا الى الهدوء والسكينة . هذا عدا أن السير بمحاذاة النهر يجعل الانسان بمنجاة من أن يضل الطريق . وفوق هذا وذاك كانت الاخشاب توجد بكثرة والامدادات سهلة وذلك بدون القاء كثير من الجور على عاتق الأهالى .

وفى ٨ أكتوبر سافر غوردون من لابوريه قاصدا دوفيليه وخط رحاله فى أول يوم على قيد زهاء ٢٠ كيلومترا جنوب المحطة الأولى بين صفين من الاطواد الشاخة فى المضيق الذى نوه عنه بىكر . وكان النهر ضيقا جدا فى هذا المكان ويبلغ عرضه ٤٠ مترا على اكبر تقدير . وفى اليوم التالى عاود المسير ووصل الى دوفيليه بدون ان يعترضه أى عارض من قبل الأهالى الذين لبثوا متمسكين بالهدوء والسكينة طول الطريق .

وفى ١٧ منه بارح دوفيليه واتخذ سبيله فى الاقسام العالية التى تبعد قليلا عن النهر وذلك ابتغاء تجنبه شواطئه المغطاة بالغدران . ثم عاد وسلك طريقه على الشواطىء بعد ان قطع نحو ١٠ كيلومترات . وعندئذ تسنى له

ان يسمع ضجّة مثل قصف الرعد وكان يزداد هذا الصوت كلما سار الى الامام .
وفي نهاية الأمر ارتقى صخرة مرتفعة ارتفاعا عموديا من جهة النهر ومن
فوق هذه الصخرة تمثل امام عينيه منظر نخم يفتن الألباب ويلقى في النفوس
في الوقت نفسه فزعا وجزعا .

وكان اتساع النهر من جهته العليا حيث ينحدر الماء يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠
مترا والماء فيها هادىء ساكن . أما أمام الصخرة فالنهر ضيق وينحصر انحدار
الماء منه في مضيقين تبلغ سعة كل منهما زهاء ٢٠ مترا وتفصل احدهما عن
الآخر صخرة . ويستمر الماء في انحدار بنسبة ١ : ٦ وهو ينفور ويجيش الى
مسافة ٣ كيلومترات . وما كانت تلك إلا شلالات فـويره الشهيرة باسم
« مكديه » . أما تحت هذه المسافة فالماء ساكن . وكان يجب على المرء أن
يصرف النظر بتاتا عن التفكير في الجر بالجبال طول هذه الكيلومترات الثلاثة
بل كان لا بد من نقل جميع الأشياء جليها وحقيرها وهـذه ولا ريب عطلة
ينبغي إضافتها الى ما سبقها من العطلات وضياع الوقت .

والأهالى في هـذه الناحية يبنون أكواخهم مجمعة مع بعضها عكس
الباريين الذين يقضون معيشتهم في أكواخ متفرقة . والأولون يجنحون الى
الهدوء والسكينة أكثر من الآخرين وهذا ما سر له غوردون .

وفي ١٨ أكتوبر ورد البريد من لا بوريه وورد معه نبأ نعى الطيب فقد
توفاه الله في ١٤ منه وبذا أمسى غوردون محروما من أية مساعدة طبية .
وجالت بفكره المصاعب التي يلاقها الخديو في سبيل حكم البلاد بواسطة موظفين
من الاجانب إذ أودت هذه الحملة بكثير من أركان حربه .

وفي ٢٢ أكتوبر جاء بريد آخر يحمل خبر قتل رجل بينما كان ذاهبا من محطة الى أخرى وتقريراً من الضابط المعين لقيادة لادو يقول فيه إن الأهالي ينوبون مهاجرة هذه المحطة . وبما أنه كان بها ٤ ضباط و ٨٠ جندياً وهي قوة يراها غوردون كافية لصد هجمات المغيرين فقد رد عليه غوردون يقول :

« ماعليك أنت ومن معك إلا ان تكونوا يقظين وعلى حذر دوماً وأن تكون المحطة محاطة بسياج » .

وكان يوجد أيضاً كمية كبيرة من العاج كان قد صادرها سير صمويل بيكر أيام ان كان هو وأبو السعود يناصب كلاهما الآخر العداء وهذه الكمية أمر غوردون بتصديرها .

وأصيب غوردون بحمى متقطعة فذهب الى فاشيليه Fashelie الواقعة على بعد ١٢ كيلومتراً شرق دوفيلية إذ ان سطح أرض الأولى مرتفع عن أرض الناحية الثانية التي تحيط بها الغدران والمستنقعات . وهناك أبل من مرضه . وكان يبحث عن مكان يصلح لتكوين الباخرة فيه .

وفي ٣١ منه أتى بريد يحمل نبأ قتل جندي من الجنود ذلك ان هؤلاء الجنود ارادوا ان يسلبوا شيئاً من الأهالي وانتهت المسألة بقتل ذلك الجندي .

وفي ١٠ نوفمبر ورد بريد علم منه ان الأهالي تحاصر جانباً من محطة لاتوكا . فخطر بباله ان المدير لابد أن يكون قد اقترف عملاً من الاعمال ثارت له نفوسهم وإلا فما كانوا هاجموه . فأرسل في الحال الأوامر الى محطة بور ان ترسل اليه مدداً .

وطلب مدير محطة أخرى نجدة وعلل طلبه هذا بأن قبيلتين تقتتلان وأنه مكره على أن يتدخل في الأمر فرد عليه غوردون يقول : بما أنه ليس لديك العدد الكافي من الجند فما عليك سوى أن تلازم الأقامة في محطتك .

وكان لديه مقادير من العاج تبلغ قيمتها ٥٠ ألف جنيه مصرى كان ينوى أن يرسلها مجزأة .

إخضاعه قبائل الموجى

وكان ينوى أيضا السفر نحو الجنوب غير أنه لما كانت القبائل التى تحيط بموجى لم تقدم الطاعة رأى أنه ليس فى شيء من أصالة رأى أن يقوم بتلك الرحلة قبل أن تخضع تلك القبائل . وعول على أن يجمع ٦٠٠ أو ٧٠٠ جندى للقيام بهذا العمل .

وفى ١٤ نوفمبر رجع غوردون الى دوفيليه ومنها عاد الى موجى فى ٢٠ منه فوجد فيها خطابا من الخديو يقول له فيه إنه وضع تحت إمرته الأميرال ماكيلوب باشا وأنه أرسل معه ٣ مراكز حربية و ٦٠٠ جندى بقيادة أميرال الألاى شاليه لونيغ الى « جوبا » Goba الواقعة على شاطئ افريقية الشرقى ليحتلوها .

وقد ألفت هذه الحملة بناء على إيعاز من غوردون للخديو منذ مدة وذلك لفتح طريق المواصلات من هذه الناحية مع مديرية خط الاستواء لأنه كان يظن أنها من هذا الطريق أسهل منها من طريق ناحية السدود .

وعلم أيضا بوقوع كارثة في ناحية فاشودة . ويظهر ان قبائل الشلاك رفعت راية العصيان وطردت الجنود من محطة « حلة كاكا » Hillet Kaka واستولت على مدفع وان المدير يوسف حسن بك خرج ليعاقبهم فلقى حتفه وأنه لولا قدوم جيسى الى فاشودة على ظهر باخرة لكانت فاشودة وقعت في أيدي الثوار .

وفي ١٠ ديسمبر سارت التجريدة التي أعدت لقتال قبائل الموجي غير انها لم توفق في اعمالها ولم تفز بشيء من الغنائم حتى ولا ببقرة . والكتيبة التي سارت نحو الجنوب تابعت في مسيرها مجرى النهر بدلا من ان تتوغل في داخلية البلاد وعلى ذلك وجد الأهالي مندوحة من الوقت للفرار بماشييتهم .

وفي ١٢ منه أعادت التجريدة الكرة وفي هذه الدفعة كانت اكثر توفيقا إذ انها غنمت ١٥٠٠ من الأبقار ، وأمل غوردون هذه المرة أن تقدم تلك القبائل الطاعة .

وفي ٢٢ منه رجع غوردون الى لابوريه ليشتغل بمسألة نقل قطع الباخرة المراد نقلها . وفي ٢٩ منه تأكد أنها سائرة في الطريق .

١ — ملحق سنة ١٨٧٥ م

تجريدة مكراكا (نيام نيام) .

من ٣٠ يناير الى ١٤ مارس

إعداد التجريدة واحتلال بلاد نيام نيام

بعد أن آب أمير الألاي شاليه لونج من مأموريته في أوغندة أذن له غوردون بالذهاب الى الخرطوم ليستريح من وعناء السفر ثم يرجع ليتسلم قيادة التجريدة المزمع إرسالها لضم بلاد مكراكا « نيام نيام » . واتباعا لهذا الأمر عاد في ١٠ يناير سنة ١٨٧٥ الى لادو التي أصبحت مقرا لكرسى مديريات خط الاستواء . واستدعى عمل هذا التبديل زيادة عدد الوفيات زيادة فاحشة في غندوكورو صيرت هذه الجهة مقبرة حقيقية وثوى في ترابها كثير من رجال الحملة من أجانب ووطنيين .

وظفق بمجرد قدومه يشتغل في تحضير لوازم التجريدة التي كان الغرض من إرسالها شق طريق وسط قبائل ينباري Yanbaris المعادية والتي حالت لغاية هذا الوقت دون المرور الى بلاد المكراكيين وسدت طريق الوصول إليها في غرب النيل . وكان الغرض من احتلال هذه النواحي الاستفادة بمقدار من العاج الذي يوجد فيها بكثرة وتوطيد دعائم سيطرة الحكومة حتى تتمكن من تأدية مهمتها في نشر المدنية بين تلك الربوع .

ثم انه كان يوجد هنالك داع آخر ألا وهو صحة الجنود المصرية التي أمست في حالة حرجة كثيرا . فقد اختار شاليه لونج في الخرطوم ٤٥٠ جنديا من أورطة مكونة من ٨٥٠ جنديا وصلوا بصحة جيدة ولكن ما لبث ان وقع منهم عدد كبير بين برائن المرض وهذا دليل واضح على أن أجسامهم لا يلائمها مناخ هذه النواحي .

ولما كانت بلاد نيام نيام مشهورة من الوجهة الصحية انها جنوة افريقية الوسطى فقد تقرر احتلالها لاستغلال ثروتها ولاستشفاء الجنود بعليل هوائها .

والكتيبة التي تألفت لهذه التجربة كان مجموعها ٧٠٠ جندي بين مصريين وسودانيين والكل مسلحون بأسلحة رمنجتون .

وفي مساء ٣٠ يناير تمت كافة الاستعدادات وفي ٣١ منه بارح شاليه لونج لادو باكرا على رأس ثلثة من الجنود يرافقه ٢٠ عسكريا سودانيا بصفة حرس خصوصي . وقبل ذلك ببضعة أيام أرسل كتيبة مثل هذه تقريبا معدة لنفس هذا الغرض وأمرها بأن تتقدم في مسيرها متحرزة وان تمشي الهوينا . وكان عقد النية على ان يلحق بها وينضم اليها قبل ان يدخل في بلد الينباريين الذي كان يتعين عليه حتما ان يجتازه . وكان يرافقه الجنديان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوى و ١٥٠ حمالا من قبيلة الباريين ليحملوا أمتعة التجربة بأجرة بقرة لكل حمال منهم .

ونصبوا المعسكر في اليوم الأول على مد البصر تقريبا من غندوكورو التي كانت فيما سلف عاصمة المديرية على ضفة النهر الغربية .

وفي أول فبراير عند الساعة السادسة صباحا اقتلعت الجنود المضارب واستدبرت النهر ووات وجوها شطر داخلية اليابسة . والطريق التي ساروا فيها في اليوم الأول والثاني تناسب في بلد جميل المنظر كثير المرتفعات والمنخفضات وتنتشر بين ربوعه الأشجار الشائخة فيرى الانسان وهو يستظل بظلالها الوارفة قرى بديعة تتألف من اكواخ من القش ذات شكل مستدير واهراء ملاءى بالحبوب .

وفي ٢ منه توغلت التجريدة في بقاع تغطيها الأدغال أرضها ذات أخاديد وجافة واخايدها صيرت السير فيها ليس صعبا فحسب بل خطرا أيضا . وحرها لافح يشوى الوجوه والماء فيها معدوم ولا يوجد إلا في جذوع الأشجار في مواضع حفرتها القيلة وتلك المواضع تعلوها الأوحال . وكان لابد من الوقوف مرارا وتكرارا ليتيسر أخذ شيء من الراحة للجنود وللحمالين الباريين . وقد وصلت التجريدة في ذلك اليوم الى خور عسكرت بجانبه لتقضى فيه ليلتها .

وفي ٣ منه سارت في الساعة السادسة صباحا ووصلت في منتصف الساعة الثانية الى جبل مرى Gabal Meri وهناك قضى الجنود ليلتهم . وفي ٥ منه بعد مسير بين أدغال لاقت بسببه التجريدة عناء جما انتهت الى جبل المياه حيث حفرت في مسيل خور ناضب حفرا ابتغاء العثور على الماء . وفاض روح الاونباشى على جلال افندى بعد ان شعر بالمرض قبل وفاته بوضع لحظات فواروه التراب عند غروب الشمس باحتفال عسكري . وفي ٦ منه مات جندي آخر متأثرا من مرضه بالحمى ووري التراب باحتفال عسكري كذلك .

بلوغها بلد الينباريين

وفي ٧ فبراير بلغت التجريدة حدود بلد الينباريين . وهذه العشيرة تعشى تقرىبا بقعة ذات اتساع شاسع برمتها كانت واحة اليد عليها فى العصور الخالية قبائل اكثر منها ركونا الى الهدوء والسكينة فقتلها الينباريون أو طردوها . ونظرا لكونهم قوم حرب وجلاد غلاظ الاكباد فقد نجحوا فعلا فى سد المرور بين النيل والغرب .

ومع ان شاليه لونج لم تحددته نفسه أن يعلن عليهم حربا إلا أنه ما كان يرتاب فى انهم سيهاجمونه . وعلى ذلك سير التجريدة صفين وسير خلفها ساقه ذات قوة كبيرة لوقايتها وأعطى أوامر مشددة حتى لا يتعد أحد من الجنود عن الصفوف وارسل الى المقدمة كشافة لاستكشاف حالة الادغال التى يتخذ منها الاهالى مواقع صالحة للهجوم وكان يرى من خلال الحشائش زرائب كثيرة . وهذه الزرائب المبنية بناء ليس فيه شيء من النظام يحيط بها سياج من صغار الصبار يحدد دواما زرعها . وهذا النبات له اشواك قاطعة كالسكاكين وعلى ذلك فالسياج الذى يتخذ منه لا يمكن للمحاصر العارى الجسد ان يخترقه . والسائل اللبى الذى يخرج منه سم قاتل يغمس الينباريون فيه سهامهم وحراهم مرات عديدة الى ان تكتسب طبقة عجيبة منه . والجروح التى تحدثها هذه السهام والحراهم هى جروح قاضية ولم يكن معروفا فى ذلك الوقت دواء مضاد لهذا السم ينجى المصاب به وهذه القبيلة هى الوحيدة بين قبائل افريقية الوسطى برمتها التى تسمم بهذه الطريقة سلاحها . وفى ليلة هذا اليوم نفسه بلغت التجريدة ارضا مكشوفة ونزلت تحت دوحة هائلة . ولم تقع العين لغاية هذه

اللحظة على الينباريين الذين كانوا يفرون فرار الآبق عند ما يلوح لهم شبح التجريدة . ومع هذا لوحظ عند أفول الشمس عدد كبير منهم مجتمع على الميسرة .

وفي ٨ فبراير حملت التجريدة رحالها مبكرة . وابتعد جندي من جنود ساقها عن صفوف الجيش فخالف بفعلته هذه تعليمات شاليه لونج وهو عسكري سوداني يقال له اسماعيل داشا . وكان ابتعاده هذا في اللحظة التي أوشكت ان تعطى فيها الأوامر بالوقوف . وفي هذا الوقت سمع في الخلف طلقة عيار ناري فامتطى في الحال شاليه دابته ورجع عدوا مع العساكر السودانية فوجد الجندي سابجا في بحر من الدم الذي سال من الجروح الهائلة التي أحدثتها بجسمه السهام والحراب . وخف هو ومن معه خلف أولئك السود الذين كانوا منهم على مرمى البصر وأصلوهم نارا حامية وهم على وشك الاختفاء في جوف الادغال وبعد ذلك أضحت كل مطاردة عقيمة . وعند ما وصلوا الى المصاب ضمدوا جراحه وتيسر لهم إيقاف الزيف ثم نقل على سرير « عنقريب » الى المحطة حيث توفي بعد أربعة أيام متأثرا من جراحه . وعقدوا النية على الإقامة في هذه المحطة وكان وصولهم اليها في ١٠ منه .

وصولها الى خور إليه

وعند ظهيرة اليوم العاشر من فبراير بلغوا شواطئ « خور إليه » Khor El Yeh قرب زريبة الشيخ الاطروش وهو شيخ مضاف للحكومة وهناك وجدوا الفصيلة التي أرسلت قبلا . وقدم الاطروش والضباط ليقدّموا واجب التحية الى شاليه لونج وأخبروه انهم أضاعوا كثيرا من الرجال أثناء

الطريق بسبب الحيات .

والاطروش هذا صياد من صيادى العاج القدماء قدم الى هذه البلاد منذ زمن بعيد مع عصابة من الدناقلة واشتغل في تجارة العاج في بلد المكرايين « نيام نيام » ونجح فيها . وسار بعدة حملات سيرا مرضيا وتوغل بها في داخلية البلاد . ثم لما احتكرت الحكومة العاج انضم اليها ودخل في خدمتها . وكانت الصلات مع نيام نيام على أتم ما يكون من الصفاء والمودة وكان ينقصهم أمر واحد ألا وهو القوة العسكرية وكان شاليه قد عقد النية على سد هذا الفراغ باقامة نقطة عسكرية مستديمة في ديارهم .

وكان نهر إليه La rivière El Yeh ينساب متجها الى الشمال ويستمر في اتجاهه هذا الى أن يبلغ شبي وفيها تختلط مياهه بمياه البحر الأبيض . وهذا النهر لا يصلح لسير السفن الكبيرة إلا في فصل الأمطار . وكانت محطة الأطروش واقعة على قيد ١٥ دقيقة من ضفته وعلى ضفة مجرى صغير يصب في نهر إليه .

وقسم شاليه لونج كتيبته الى اربع فصائل كل فصيلة قائمة بذاتها مسترشدا في ذلك بتجارب الأطروش . ووضع كل فصيلة تحت إمرة واحد من الضباط وزود كل ضابط بتعليمات مقتضاها أن يبذل كل منهم مجهوده في توطيد حسن العلاقات مع الأهالي وأن يسعى في تحسين أحوالهم من جميع الوجوه . وبعد أن أتم تقسيم جنوده وواجه كل قسم منها الوجهة التي أرادها عقد النية على أن يكثرى ٦٠٠ حمال لترافقه الى البحر الأبيض ولتنقل ٦٠٠ ناب من أنياب الفيلة طبقا لرغبة الأطروش .

وبسبب ما قاساه النيام نيام من ضروب القسوة وما عانوه من المشاق بسبب غارات الينباريين على بلادهم التمسوا من شاليه لونج أن يأذن لهم بإعلان الحرب على هؤلاء الآخرين . وجعلوا في هذا الأذن شرطا لعودتهم معه . وكان هذا جل مراده أيضا إذ انه كان يرغب أن يثار من الينباريين لسفكهم دم اسماعيل داشا وكان رفاق هذا يرغبون هم الآخرون في أخذ الثار أضعافا مضاعفة عما كان يرغب شاليه لونج وعلى ذلك تم الاتفاق على ان يذهب النيام نيام معه .

سفرها الى بلاد مكراكا

وفي ١٥ فبراير سافر الى محطة أخرى في الشمال الغربي يصحبه حرسه السوداني والاطروش . وهذه المحطة يقال لها مكراكا اساريا Makraka Assaria وبعد مسيرة أربع ساعات دخلوها بسلام . وشيخ هذه النقطة كان رجلا أفغانيا اسمه احمد أغا قدم هذه النواحي منذ اعوام كثيرة وعلق آماله بنيل الثراء بواسطة الدناقلة . وزرييته التابعة للاطروش كانت مثالا في النظافة وحديثه الشاسعة الواسعة المعدة لزرع الخضر والموز كانت برهانا ساطعا على ما تحلى به من حسن الفطن الأمر الذي لم تعهد رؤيته في افريقية . وبما ان شاليه لونج كان ينوى أن يقيم هناك محطة وكان قبل ذلك قدم الى هذا المكان الضباط والجنود فتقدم هؤلاء وقدموا له شكرهم وأكبدوا له أنهم يرتاحون جد الراحة للاقامة في هذه الجهة . والظاهر أن في استطاعتهم أن يجدوا فيها عدداً من النساء لا حصر له .

وفي ١٨ منه بارح هذه المحطة في الساعة السادسة صباحا يصحبه أيضا الاطروش وولى وجهه شطر مكراكا الكبيرة حيث كان فيما سلف من

الأيام قد أقام محطة . فكانت عينه تقع دائماً أبداً على مناظر لا تتغير ولا تتبدل والأهالى الذين يقابلهم في طريقه يبدون له ولاء ومودة . وانتهوا من المرحلة الأولى الى نجد مستوى السطح تكسوه الكواخ من القش حسنة البناء حيث كان في انتظارهم الشيخ پارافيو Parafio ليرحب بقدمهم ويكرم وفادتهم . والشيخ پارافيو هذا من اهالى النيام نيام وله ١٠٠ زوجة و ٢٥٠ ولدا . وبعد أن اكرم مشواهم وقضوا ليلتهم انطلقوا فى الغد يمشون الى ان بلغوا نقطة أمامية وضعت فيها ثمة من الجند . اما المحطة نفسها فكانت قائمة عند قاعدة جبل لينجتيير Lingeterre . ومن هذا المكان يستطيع المرء ان يرى جبل باجينسى Baginsi الذى وصل اليه الدكتور شوينفورث Dr. Schweinfurth عند ما قدم من بحر الغزال بصحبة أبى حامد . وهذا من المشايخ الدناقلة رافق الأول بصفة دليل فى هذه السياحة .

وكانت طبيعة أراضى تلك الناحية حديدية وساكنوها يشتغلون بأذابة المعادن وصنع مزاريقهم ذات الأسنان المهلكة . أما السبائك والأطواق النحاس التى يتخذون منها حزامهم فتورد اليهم من أفليم دارفور الذى يمكن الوصول اليه بعد مسيرة ٢٥ يوما فى طريق يسلكه الدناقلة رواد الزبير رحمة الله باشا .

وكان هؤلاء دخلوا هذه الأراضى منذ سنين كثيرة بقصد استغلال العاج . وبين هذه الناحية ولادو قاعدة الحكومة على ضفة النيل مسافة ٢٥٠ كيلومترا وذلك مما يجعل طريق الداخلية اكثر استقامة وبالتالي أقصر كثيرا . وهى فائدة عظمى للحكومة . غير انه كان يبقى بعد ذلك لتوطيد الأمن فى هذه المسافة ايقاع العقاب بالينباريين وخضد شوكتهم بل ملاشاتهم

إذا دعت الحالة الى ذلك لأن وجود هؤلاء القوم كان ضربة قاضية على القبائل المجاورة .

وكانت الزريبة الموضوعة تحت اشراف كبير من كبار الزنوج يقال له فضل الله لا تختلف في شيء عن مجموعة الاكواخ التي من القش المحاطة بسياج والمساة بهذا الاسم .

وفي ٢١ فبراير رجع شاليه لونج الى مكراكا أساريا مبكرا بعد أن عرض الجنود . وكان عليه ان يظل في هذه الناحية يوما وكان ينوي بعد ذلك ان يعود الى « مكراكا مونديو » Makraka Mundo وهي محطة الاطروش لكي يتخذ الاجراءات اللازمة لاييجاد العدد اللازم له من النيام نيام ليرافقوه بصفة حمالين لنقل العاج .

وبعد مسافة أربع ساعات وصل الى زريبة صديقه پارافيو Parafio الذي أقنع الاطروش صديقه أن يطلب منه البقاء الى اليوم التالي فأجيب الى هذا الطلب وفي المساء أقيمت حفلة رقص كبيرة من نوع رقص الكنغو احتفاء به .

وفي الغد عند الساعة السادسة صباحا ودع شاليه لونج پارافيو وبعد مسيرة ثلاث ساعات دخل محطة مكراكا أساريا تحت رذاذ من المطر واستقبله الشيخ احمد اغا بكثير من الابتهاج والفرح وأنبأه أنه جمع كثيرا من العاج وأن مسألة جمع الحمالين سائرة سيرا مريضا .

وفي ليل ٢٣ منه أقام الشيخ مرقصا كبيرا على النمط الكونغو وجمع لهذه المناسبة سائر رجال حربه وأرسل دعوة الى كل عذارى النيام نيام .

وكان الشيخ وهو رجل قوى البنية شديد العضل يدير حركة مرقص رجال حربه . وكان يحمل صارما عجيب الشكل رمزا لسيطرته . وظلت الحفلة حتى مطلع الفجر .

وفي ٢٤ فبراير رجع شاليه لونج الى مكرا كا موندو وهي محطة الأطروش التي كان ينوى ان يجهز فيها معدات السفر في أقرب وقت لأنه كانت تتوعده رياح زعزع عاتية تحمل في ثناياها بردا منذرة بقدوم فصل الأمطار قبل الأوان . ونبأه الشيخ أن فصل الأمطار هناك يتقدم شهرا على زمن حلوله في غندوكورو .

معاينة شاليه لونج للينباريين

وكانت التجربة عندئذ قد بلغت مرادها وأصاب المرمى الذي قدمت من أجله . وكان يحق له أن يغتبط بالنتيجة التي وصل اليها لأنه وطد اركان الحكومة وثبت دعائمها وجمع معلومات قيمة خاصة بالبلد وسكانه ولم يبق على كاهله إلا أمر واحد ألا وهو إنزال القصاص عند أوبته بعشيرة الينباريين . فوجه كل التفاته وحصر كل عنايته في تجهيد اهالى النيام نيام وهذه المسألة لم تكلفه سوى شيء زهيد من الغناء . ومهد له الطريق لبلوغ غرضه هذا منحه الأهالى بعض هدايا من نسيج القطن .

وفي ليلة ٦ مارس كان شاليه قد فرغ من تجهيز جميع المعدات . وأمر باقتران كل ناب من ال ٦٠٠ ناب القيل المتجمعة لديه الواحد بالآخر بواسطة جبل . وكان ٦٠٠ رجل من المكراكيين واقفين على أهبة السفر في الغد عند أول إشارة . ورغب الشيخ الأطروش الاياب معه وأن يستصحب

صيادى العاج الدناقة غير النظاميين البالغ عددهم ٥٠ . وكان قد زاد عدد الحرس السودانى المكلف بمرافقته بمن انضم اليه من المجندين الجدد . وانضم كذلك الى حرسه الخاص كثير من أهالى نيام نيام . هذا ، وبضم غير النظاميين والحمالين الى من تقدم ذكره كان يبلغ عدد الذين تحت إمرة شاليه لونج ١٤٠٠ رجل . وقد ساوره شئ من الهم بشأن أقواتهم إلا أن الأطروش طمأنه من هذه الناحية وقال له انهم سوف يجدون الشئ الكثير من الزاد اثناء الطريق .

وكانت التجارب قد علمته انه اذا أراد السفر مبكرا لزم أن يأخذ فى السير من العشى . وعلى هذا أمر حمالى العاج وغير النظاميين أن يذهبوا ليلا الى نهر إليه ويعسكروا بجانبه وان يتأهبوا للسفر فى الغد وهذا الاحتياط حال دون أى تأخير فى المسير صباحا .

وفى ٧ مارس عند ما برز قرن الغزالة بارح شاليه لونج المعسكر مصحوبا بالأطروش وبالجنديين سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوى وحرسه السودانى كى يذهب وينضم الى الكتيبة النازلة على ضفة نهر إليه التى كانت مترقبة قدومه لتعاود السير معه متجهة شطر البحر الأبيض . وشعر شاليه بتحسن فى حالته الصحية بينما كان موليا وجهه نحو لادو مع أنه كان هو ورجاله عرضة فى كل يوم لنوبات الحمى . وما ذلك إلا لأن جسمه كان يتوق الى الراحة عقب عام قضاه فى حركة مستمرة بين أوحال وأدغال والاختلاط بأقوام هميج متوحشين . وبناء على ما تقدم كان يرى أن وصوله الى لادو يضع حدا لمتاعبه .

ولم يبد العساكر السودانيون أى تذمر من المسافات الشاسعة التى كان

يكلنهم بقطعها . وهذه شهادة حق كان يقر لهم بها فرحا مسرورا . وفوق ذلك فانه لم ير منهم ولا من الجنود المصرية في أثناء رحلات متعبة وطويلة إلا إخلاصا ووفاء ونظاما لا يسمو عليه نظام عند ما كانوا يقومون بأعمال تحت إشرافه .

وفي ٩ مارس قبيل منتصف النهار وصت التجريدة قرب المكان الذى كان هوجم فيه الجندى اسماعيل داشا هجوما فظيعا لقي فيه حتفه . فتهيج عند ذلك رفاقه السودانيون هيجانا شديدا غير أنهم أطاعوا الأوامر التى وجهها لهم شاليه لونج ولم يخرجوا عند منطوقها قيد أنملة . وكانت هذه الأوامر تقضى بأن لا يقوموا بأى عمل دون أن يوافق عليه . وكان فى نيته أن يتجه الى نجد ملاصق لجبل حتى إذا بلغه استحضر الشيخ الذى وقعت من رجائه الجناية وطلب منه تسليم القتلى . وأقيمت العقبات فى سبيل بلوغ هذا الأرب وعند ما انتهى الجيش الى المضيق الموصل الى النجد الذى كان يطمح الى الوصول اليه رأى أن الذروة اليمنى منه تحتلها قوة من الينباريين . وقابل هؤلاء الجيش بالصياح وتحرشوا لقتاله وعندئذ دفع شاليه القوة غير النظامية الى الامام بقيادة الأطروش لتطرد العدو من الأدغال الكثيفة التى كان يحتجب فيها ويتخذ منها الجنود بسهامه السمومة . وعند ما طرد شيخهم من مكانه أصابته قذيفة فى رأسه نخر صريعا على الطريق . وفى هذا الوقت كان شاليه لونج لا بدا على صخرة مشرفة على الميدان يدير حركة القتال وما لبث الجيش أن طرد الأعداء من مكانهم واجتاز المضيق عدوا بدون خسارة واستمر يرسل النار بانتظام وهو يتسلق منحدر النجد .

وأمر شاليه لونج رجال نيام نيام أن يكسوا العجاج وأقام عليه فصيلة



واقعة الينباريين مع الجنود المصرية والسودانية بقيادة أمير الأتلي شاليه لونج بك
وهو المتطلي الجواد ، في ٩ مارس سنة ١٨٧٥ م

من السودانين لحراسته وأحاط المعسكر أيضا بحرس بعد أن جمع بداخله غير المقاتلين . وطرد بواسطة العساكر السودانية والجنود غير النظامية الينباريين من الأدغال التي تحيط بالناحية وأرسل رجال نيام نيام في وسط الأعداء لينازلوهم جسما لجسم . وفي الحال أخذ الينباريون وهم لا يذنون بأذيل الفرار يبذلون الجهد لبلوغ الجبال القائمة أمام الجنود .

وعند ما أرخى الليل سدوله شوهد لب ودخان يتصاعد في الفضاء ويحيط الوادى والجند بدائرة من النيران . ولم يرجع رجال نيام نيام إلا في الغد وذلك عند غروب الشمس بعد أن أشعلوا النار في ٢٠ قرية وغنموا ماشية . وبذا تلقى الينباريون درسا يضمن عدم عودتهم في المستقبل لسد الطريق بين البحر الأبيض وأراضى نيام نيام المواعين .

وصول التجريدة الى لادو

وفي صباح الغد ١١ مارس والت التجريدة سيرها فلم تر في طريقها تقرا من الينباريين حتى كأنهم اختفوا بين سمع الأرض وبصرها . وفي عشية يوم ١٢ منه انتهت الى المكان الذى كان قضى فيه الانباشى على جلال أفندى نجبه ونزلت فيه عند ما توارت الشمس بالحجاب وكان التعب قد أنهكها بعد مسيرة يوم كامل . ورغما عن ال ٣٦ ساعة التي وقفتها في بلد الينباريين تقدمت بسرعة مذهشة فوصلت الى لادو في ١٤ مارس . وانتشر خبر مقدمه وعند دخوله فيها استقبلته حاميتها المؤلفة من ٢٥٠ جنديا استقبالا عسكريا

نفخا وأخبره البكباشى على لطفى افندى (١) قائد المحطة بأنه أمر بأن يعمل هكذا وألح عليه إلحاحا شديدا بأن يظهر أمام الجيش رغما عن ان كسوته كانت ملوثة وممزقة . فنزل شاليه لونج عن صهوة جواده واتجه نحو الجيش يصحبه القومندان وصالح افندى طيب المحطة فقدمت له السلاح تكريما وتعظيما . وفى أثناء ذلك كان القومندان يتلو الأوامر العالية التى منحه بمقتضاها كل من جلالة السلطان عبد العزيز وصاحب السمو الخديو رتبة أمير الألاى والنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة مكافأة له على ما أداه من الخدم المبينة بالخطاب الذى سيذكر فيما بعد والموجه من صاحب السمو الأمير حسين كامل ناظر الجهادية الى أمير الألاى غوردون الحكمدار العام لمديريات خط الاستواء :-

القاهرة فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية مكتب الناظر

ياحضرة الميرالاي

لقد تعطف سمو الخديو وأراد أن يظهر للمقام لونج التفاته وحسن رضاه نظرا لما أبداه من حسن السلوك والاقدام والثبات فى الموقعتين اللتين حدثتا عند مرمى بالقرب من خط الاستواء فمنحه رتبة أمير الألاى مع النيشان المجيدى .

(١) — ترقى فيما بعد الى رتبة قائم مقام وأرسله عبد القادر باشا حلمى حاكم السودان العام على رأس فرقة لتعزيز حامية الأيض التى كان محاصرها عند ذاك المهدي فلم تمكن من الوصول الى الجهة المرسله اليها وأبداها تقريبا عن آخرها المهديون بالقرب من باره وقتلوه هو الآخر .

وتجدون مع هذا فرمان الصادر بذلك فأرجوكم أن تسلموه لأُميرالألأى
لُونج بك وتقدموا له فى الوقت ذاته من قبلى التهانى .

وتفضل يا حضرة الميرالأى بقبول تمنياتى الطيبة
« إمضاء » حسين كامل

* * *

وفى ١٧ مارس قام شاليه لُونج الى الرجاف ليقدم تقاريره ويتحدث مع
أُميرالألأى غوردون فى عدة مسائل هامة تتعلق بأفريقية الوسطى . وكان يتمنى
أن يكون كباريجا عوقب وكان يعتقد ان تنصيب ريونجا ملكا فى مرولى يمتن
رابطة المودة مع متيسا ويدعو كباريجا لمزايلة البلد ويرى ان كوكبة من
الرجال ممتطية ظهور الجياد أو البغال تستطيع عندئذ أن تتكفل باخضاع تلك
البقاع وتعجل حل مسألة البرت نيازنا .

وتقرر فى نهاية الأمر أن يرجع الى القاهرة للاستشفاء واسترجاع صحته التى
أُمتست فى اسوأ حالة . وزوده الحُكمُدار العام بوصاية بلغت عباراتها منتهى
المدح لنيل قيادة تجريدة كان تقرر قيامها من نقطة من النقط الواقعة على شاطئ
أفريقية الشرقى ومسيرها الى أن تبلغ بحيرة البرت نيازنا .

ولم يبق عليه إلا أن يقدم للحكمُدار العام وافر تشكراته لتقديره
ما قام به من الاعمال تقديرا ساميا وان يعرب له عما يخالجه من
الأمل ببلوغ الأرب واتمام الاعمال التى أُمست شغله الشاغل ألا وهى
ترتيب باخرة فى بحيرة البرت نيازنا وسبر غور ماء هذه البحيرة جميعه .

وفى ٢٠ منه عاد شاليه لونج الى « لادو » وبعد ان سلم جميع ما بعهدته وأخلى نفسه من كل المسئوليات الرسمية أبحر منها فى ٢٢ منه على ظهر باخرة قاصدا الخرطوم واصطحب معه الجنــديين سعيد وعبد الرحمن الى القاهرة لانه كان يريد أن يقدمها بنفسه الى الخديو مكافأة لما أبدياه من الاقدام والبالاة والاخلاص .

وفى ٧ أبريل بلغ الخرطوم وفيها تلقى أمرا من خيرى باشا بأن يتوجه فى الحال الى القاهرة عن طريق كروسكو . وبحر الخرطوم فى ١٦ منه ميمما بربر وفيها قابل البكباشى پروت Prout الذى كان قد تقرر أن يخلف أميرالآلى غوردون بصفة حـكمـدار عام لمديريات خط الاستواء .

وفى ٢٨ منه سافر من بربر وفى ٨ مايو وصل الى كروسكو ومنها أبحر فى الحال على متن زهينة كانت قد أعدت له خصيصا لتنقله الى اسوان . وفى ١٦ منه وصل إليها فوجد الباخرة فؤاد راسية بها متربصة قدومه من عدة أيام فركبها وسافر فى اليوم الذى ولى يوم مجيئه وقصد اسقوط وهى المحطة الاخيرة لسكة الحديد فدخلها فى ٢١ منه .

وصوله الى القاهرة ومقابلته للخديو

وفى بـكـور يوم ٢٢ مايو ركب القطار الى القاهرة فوصل اليها فى اليوم عينه الساعة السادسة مساء . وبلغ الخديو خبر قدومه غداة اليوم الذى وصل فيه فأرسل يقول له انه مستعد لمقابلته فى الحال بسرأى عابدين . وعند ما أدخل عليه تقدم نحوه وصاحه وشكره بعبارات مؤثرة على

الخدم التي أداها في افريقية الوسطى .

وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاه مرة أخرى الى قصر النيل حيث كان الخديو يحيط به وزراؤه وكبار موظفى البلاط وضباط الجيش فقابله بالايانس والبشر والمجاملة وانتهز شاليه لونج هذه الفرصة لتقديم مجموعة الأسلاب والغنائم التي رجع بها من حملاته .

وفى ٣٠ مايو أرسل الخديو يستدعيه مرة ثالثة فى قصر النيل حيث اجتمع عدد كبير من الموظفين ملكيين وعسكريين والجنديان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوى اللذان أمرا بمرافقته .

وألقى الخديو خطبة حافلة بعبارات فصيحة مؤثرة ردد فيها جمل المدح والثناء على ما أبدوه من الاخلاص والبسالة فى واقعة مرولى وما قاموا به من الخدم فى الحملة الثانية . وقدم الجنا ب العالى كدليل على رضاه وارتياحه الى شاليه لونج فرمانا بالانعام على الجنديين المذكورين برتبة باشجاو يش والنيشان المحمىدى من الدرجة الخامسة حتى يمكنه أن يعلقه بنفسه على صدرها . وهذه أول مرة فى تاريخ الخدمة تمنح فيها النياشين للجنود البسطاء .

واليك ما حدث فيما بعد لهذين الجنديين البطلين أثناء قيامها بالخدمة :

ترقى سعيد الى رتبة ملازم وكان يقود فصيلة فى محطة بور عام ١٨٨٨ م حين اغارة المهديين على مديرية خط الاستواء فهاجم هؤلاء نقطته واستولوا عليها وقتلوا جميع الحامية بما فيها سعيد .

أما عبد الرحمن فبقى برتبة باشجاو يش لغاية سفر أمين باشا من مديرية

خط الاستواء ولحق بأحد قسمى الجيش الذى انضم تحت قيادة سليم بك مطر
عند تقسيمه كما سيأتى ذكره .



پروفسور محمد علی رفیع

٢ — ملحق سنة ١٨٧٥ م

مأمورية إرنست دي بلفون في أوغندة

من ٢٥ فبراير الى ٢٢ أغسطس

إرسال وفد لربط العلاقات بين مصر وأوغندة

أراد أمير الألاي غوردون أن يوثق عرى الصداقة والمودة بين مصر وأوغندة فوطد العزم على أن يرسل وفدا الى ملكها متيسرا يكون على رأسه إرنست دي بلفون لأتمام المأمورية التي قام بها أمير الألاي شاليه لونيغ في تلك النواحي في السنة الماضية .

وصول الوفد الى فويرا

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٥ بارح مسيو إرنست دي بلفون محطة فاتيكو العسكرية التي كان بها ويمم محطة فويرا ومعه ٣٠ جنديا سودانيا وسعيد أغا بصفة دليل . وعبر باديء ذي بدء نجد فاتيكو من الشمال الى الجنوب . وامتداد هذا النجد في هذا الاتجاه يبلغ زهاء ثلاثة كيلومترات . وكان الفصل عند ذلك فصل الجفاف والأرض مغطاة بأعشاب جافة وهذا ما صير اجتيازها سهلا . وكان يوجد في الغرب بعض قرى كبيرة مولية ظهورها الى جبال شاهقة . أما في الشرق والشمال فليس فيها شيء . وما وراء مرمى البصر . وينحدر الانسان بفته من الجبل فيصير السور . قليلة الاتساع .

وعلى بعد ١٤ كيلومترا من فاتيكو توجد قرية « سا كا » Saka وتسمى كل هذه البقعة بفاتيكو . أما مركز سا كا فقد اصطلح الدناقلة على ان يسموه وادى العجوز Wadi El Agouz .

ومركز فاتيكو غنى ففيه الشيء الكثير من الحبوب والطيور والمعز والشاء وبه قرى عديدة ونواحيه عامرة وسكانه عاثشون في مجبوحه من العيش هادئين ساكنين والحماية لا تدع يد السوء تصل اليهم فيبيعون منتوجاتهم بلا خوف ولا وجل من حيف أو ظلم من الدناقلة الذين قد زالت اشباحهم واختفت آثارهم .

ولدى الوصول الى ساكا تنازل الأهالى عن اكواخهم لرجال الوفد بما فيها من الأدوات المنزلية وتركوا بها حتى النيران موقدة . والشيخ ساكا المسماة القرية باسمه هو ترجمان وادى العجوز قدم لهم دقيقا ودجاجا وييسا وكل ذلك عن طيبة خاطر وبديشة مبديا ارتياحه لرؤية الجيش في دياره . وقضت الارسالية يومى ٢٦ و ٢٧ فى ساكا .

وفى ٢٨ حملوا متاعهم عند الساعة ٥ صباحا . وكان المطر قد هطل طوول الليل وبلل الأرض . ويمم الوفد وجهه شطر الجنوب الغربى وبعد مسيرة ١١ كيلومترا انتهى الى « خور الزلط » وهو خور يمكن عبوره إذ انه لا يوجد به فى هذا الأوان إلا طبقة رقيقة من الماء ولكنه فى فصل الامطار ينقلب سيلا عرما .

وبعد مسيرة ١٢ كيلومترا أخرى وصل الوفد الى « خور الطور » وهو نهر يتجه نحو النيل الأبيض ويصب فيه تجاه فويرا . وفى جنوب هذا

الخور وعلى بعد ٨٠٠ متر منه يوجد مكان معسكر سير صمويل بيكر القديم ودوحة من شجر الحمير يطلق عليها اسم « شجرة الباشا » لأنه كان يعقد تحتها جلساته . وهنا قضى الوفد ليلته .

وفي أول مارس حمل الوفد متاعه عند الساعة الخامسة بعد ليلة ممطرة واجتاز نجدا واسعا فياحا به غابات وبه تشاهد آثار كثيرة لأقدام الفيلة والجاموس . وعلى مرحلة ١٥ كيلومترا من خور الطور يصل المرء الى بقعة مستديرة يقال لها « سجا » Sagga كان بها قديما معسكر الدناقلة وهي نقطة مفرق طريقي « فاتيكو » و « فابو » وفي وسطها شجرة وارفة الظلال حفر في جذعها : « شاليه لونج ١٨٧٤ م » .

وبعد مسيرة ١١ كيلومترا من سجا يصل المسافر الى خور يقال له « خور الكرفا » Khor El Korva وعند هذا الخور نزل الوفد . وكان المطر قد أخذ يهطل ولم ينقطع إلا عند ما آذنت الشمس بالغييب . وفي ٢ منه سار عند الساعة السادسة وعبر غابة وبعد سفر ١٣ كيلومترا حط رحاله ليقضى ليلته . وفي ٣ منه انطلق في السير عند الساعة السادسة . وفي أثناء الطريق فرغ من رجاله الماء ووعد الدليل أن يجد لهم ماء في بئر « الألابار » Elabar . وقد بلغ الوفد هذه البئر بعد أن قطع ١٠ كيلومترات غير أنه ألفاها ناضبة لا ماء فيها وعلى ذلك اقتضى الحال مداومة السير لغاية « خور الكابولي » Khor El Kabouli الواقع على مسافة ١٥ كيلومترا حيث وقف . وهاجت بين هذين الموضعين جماعة من قبيلة يقال لها لانجو Lango المتخلفين من رجاله ولكن نيران الخمسة الجنود الذين كانوا مكثفين بمرافقة هؤلاء المتخلفين بددت شملهم وجعلتهم يلوذون بأذيال الفرار . وعند الساعة

السابعة هبت زوبعة عاتية وأرسلت السماء صاعقة وقعت على مسافة ٢٠٠ متر من المعسكر ونزل المطر مدرارا الى الساعة التاسعة .

وفي ٤ مارس كان رجال الوفد في ارتقاب بزوغ الشمس ليجففوا متاعهم . وفي الساعة التاسعة تكشفت السماء وأرسلت الغزاة أشعتها فتحرك واتجه شطر فويرا وبعد سفر ساعة بلغ مصب خور الكابولى في الموضع الذى تصب مياهه في النيل اتجاه فويرا .

وكان الخبر قد بلغ مسامع ريونجا في العشية فأرسل عدة زوارق ليجتاز الوفد النيل عليها وكان يوجد بين هذه الزوارق زورقان طول الواحد ١٥ مترا وعرضه ١٥٠ من الامتار فعبر الوفد النيل أمام فويرا .

وهنا تجلى أمام العين منظر يفتن الالباب ويأخذ بمجامع القلوب إذ يسرح الطرف فوق سطح ماء النيل البالغ مسطح عرضه ٤٠٠ متر وقد صقلت تلك الصفحة وكانت شبه المرأة ثم ينتهى الى الضفة الشمالية وقد وقتت منتصبة انتصابا يوشك أن يكون عموديا وفرش الشاطئ فوقها ببساط من زهر النيلوفر تحمله حشائش ذات خضرة فاقع لونها داعبها أنفاس نسيم عليل فتمايلت عجباً ورقصت طرباً . وقامت عند منتصف تلك الضفة غابة من أشجار الموز بسطت أوراقها العريضة الزاهية فكانت كستائر نصبت لوقاية تلك الحشائش . وفوق هذا وذاك كانت أكواخ فويرا تلوح كأنها تتكون منها سلسلة قباب سقوفها ذهبية . ويرفرف العلم المصري مزدهيا على السطح وقد قامت خلفه دوحات باسقات تزدري بهبوب الرياح ولا تبالي بالعواصف الجسام طاولت أعناقها وشمخت رؤوسها فراحت تناطح السحاب . وقد سبى ذلك المشهد عقل المسيو إرنست وشجى لبه . وتقدم اليه الحكمدار بكير افندى

وصدره محلى بالنيشان العسكري الذي أنعم عليه به لاشتراكه في تجريدة المكسيك . وبعد تأدية حفلة الاستقبال العسكرية يتم الحفل الذي أعد لنزوله فوجده مستوفيا جميع أسباب الراحة .

وقضى يومى ٥ و ٦ مارس فى فويرا . وجاء ريونج لينزوره وأحضره بقرة وخروفا . فأهدى اليه إرنست ثوبا من الحرير ومسدسا وضروف جبجينة . وأخبر ريونجا مضيفه ان رجال كباريجا فى منطقة مرونى يمنعون هانى مجندا M'Ganda من المرور فى الأرض . فضاقت صدره لهذا الخبر لأنه خشى أن يكون ذلك سببا فى تأخير سفره متابعة متيسا إذ يتعذر حينئذ وجود الحملين :

وكان الشيخ اتينا قد انزوى فى جزيرة على مسافة زهاء ٣٠ كيلومترا شمال فويرا وامتنع كلية من الحجب الى الحطة خوفا من أن يقع أسيرا ويسم الى كباريجا . وأراد إرنست أن يقابله وينزل ما علق بذهنه من الخاوف .

وفى ٧ منه انطلق ومعه ٢٠ جنديا ونزل النهر وسار بمحاذاة الضفة لاسرى وكان دليلهم فى هذه الرحلة رئيس من رؤساء سفن ريونج أى « متونجونى » واجتازوا غابة من العوسج والحشائش لا حد لها وبنغوا شلالات أسكا Assaka وفيها أقاموا معسكرا . وكلف إرنست سعيدا أن يتوجه الى الأمم مع ثلة من الجنود لينبئ اتينا بقدومه . وشيدت الجنود سقينة ببعض من فروع الأشجار غير أنهم لم يحسبوا للمطر حسبا . وفى الساعة الحادية عشرة أخذ المطر يتساقط وبلل كل المعسكر .

وفى ٨ منه جففوا متاعهم وساروا متابعين مجرى النهر . وعند الظهر وصلوا أمام معسكر به ٢٠٠٠ من رجال قبيلة يقل لها لانجو Lango غير أن مقدم

سعيد أغابث في نفوسهم الطمأنينة في الحال . وكان الجند عندئذ امام دار
انفينا . أما رجال قبيلة لانجسو فكانوا عائدين من غزوة وجهوها ضد
كباريجا وكانوا يفعلون ذلك بأمر انفينا فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا قدرا
كثيرا من الماشية .

وعند ما قدم إرنست بارح انفينا جزيرته وأتى لزيارته . فبث إرنست في
نفسه الطمأنينة من نحو نيات الحكومة وأهدى اليه ثوبا وخرزا من
الزجاج . وبعد ذلك ذهبوا الى انفينا فأعد لهم ملجأ وأرسل اليهم بقرة
وخرافا وفراريج وبيضا ودقيقا وذرة وأهدى الى إرنست أربعة أنياب جميلة من
أنياب الفيلة .

وفي ٩ مارس رجع انفينا معه ليتعرف بحكمдар فويرا وأعطاء دابة
وهذه الدابة عبارة عن ثور فسر بها كثيرا وعلم انفينا علم اليقين عند ما دخل
فويرا حيث يسود النظام والنظافة أن الجيوش التي أمامه هي بلا جدال
جيوش الحكومة وقرر أن يعين نائبا عنه مستديما في هذا المكان ويجب
فيه العاج والدقيق .

وفي ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ منه لم يستطع إرنست أن يباشر عملا ما
لأنحراف صحته . وفي ١٤ منه تقدمت له شكوى من بعض الجنود يطلبون
فيها الاتصاف من ضابطهم ويتهمون به بأنه قال لريونجبا أن الجنود ما هم
إلا عبيد له أرقاء . فشكل مجلسا لفحص هذه الشكوى والبت فيها .
ولفت نظره شيء واحد وهو أن عساكره السودانيين لا شيء يشير
نائرة الغضب في نفوسهم أكثر من تسميتهم عبيدا بل هم يعتبرون هذه
التسمية أكبر مسبة .

وفي هذا التاريخ حضر من قبل ريونجا ٤٠ زنجيا بقصد الذهاب الى فاتيكو ليأخذوا باقى الأمتعة التى برسم مديرية فـويرا . وقبل سفرهم أقامو مرقصا .

وفي ١٥ مارس وصل وفد من اهالى أوغندة مؤلف من ٤٠٠ رجل . ووقما زايلاوا أوغندة لم يكن عندهم علم بقدم إرنست . وهذا الوفد كان مرسلا من قبل متيسا الى غوردون باشا ومعه مكتوبان بطلب إرسال حلاق ومقرىء . وكان متيسا يطلب غير ذلك عقاقير طبية ويرجو أن يؤذن بتصليح ساعتين له . فذهب ثمانية من المتونجوليين فى هذا الوفد لزيارته وقرروا أنهم لا يذهبون إلى لادو بل يرافقونه عند ملكهم .

ولغاية ٢٦ منه كان إرنست لم يزل فى فـويرا بسبب انحراف صحته . وكان عند ما قدم اليها ينوى أن يصعد بلا قواف فى النيل لمقابلة متيسا . ولكن قيل له ان أهالى مرولى وهم أولئك القوم الذين هاجموا شاليه لونج سيحولون دون مروره .

وكان غوردون قد سمح لارنست أن يستولى على ناحية مرولى عنوة ويولى عليها ريونجا الذى كان صاحبها فى الأصل ثم انتزعها منه كمرازى والد كباريجا . ولكن بعد أن فكر إرنست فى الأمر مليا رأى أن ريونجا لا يستطيع أن يثبت أقدامه فى هذه الجهة إلا اذا أقيم فيها حامية . وفوق ذلك فان قوات النقط كانت ضعيفة كثيرا والذخيرة غير وافية إذ لم يكن لدى كل جندى سوى ٣٠ ظرفا . ورأى أيضا أن الحالة ستكون عند الاياب على غير ذلك إذ تكون المؤونة والذخيرة قد وردتا من فاتيكو فلا يكون عندئذ ما يمنعه من البقاء فى مرولى الوقت اللازم لينظم المحطة الجديدة . وعلى ذلك

صحت عزيمته على الرحيل في غد اليوم التالي الى أوغندة .

وقدم وفد جديد من أوغندة وكان يقوده شيخ من كبار المشايخ يسمونه القاضي . وقد دخل هذا الشيخ المحطة وزار إرنست . والظاهر ان متيسا كان ينتظر بفارغ الصبر قدومه . وكان هذا الشيخ يتخيل أنه سلطان كبير ولكنه صار يدرك الآن أنه لا سلطان في افريقية الا واحد وهو سلطان المسلمين . وطلب أن تقدم له جميع الوسائل لدخول رعاياه في الدين الاسلامي فأجابه إرنست بأن مليكه سيرسل حتما كل ما يلزم لتثقيفه وتهذيبه .

وفي ٢٧ مارس رأى إرنست أن صحته قد تحسنت فأخذ يجهز معدات السفر في الغد . وقدم الأوغنديون ليتفقوا على مسألة الترحال وكان عددهم يربو على ٤٠٠ رجل وكان من المحقق أن يوجد العدد الكافي من الحمالين . وأتى ريونجا لمقابلته والحزن يطفح على وجهه إذ رآه متهيئا للسفر قبل أن يقره في مروى . وكان سير صمويل يبكر وبعده شاليه لونج وعداه باتمام هذه المسألة ولم ينميا بذلك وها هو الآن يرى للمرة الثالثة الاخلال بالوعد . وشق ذلك على إرنست وأعطى على نفسه عهدا بأنه عند إيايه اذا شاء الله يمدّه بالمساعدة .

وفي ٢٨ منه في الساعة السادسة كانت معدات السفر قد جهزت وأخذ الأوغنديون يتجاذبون الأمتعة وقد حدث اختلال وضجيج مريع لكثرة عددهم . وسافروا في نهاية الأمر عند الساعة الثامنة . وعلل إرنست النفس بالآمال ألا يتجدد هذا المشهد كل يوم وترك في فويرا حميره لأنه ما كان يرجى من وجودها معه سوى حدوث العراقيل . وجواده الثاني كان قد نفق على أثر لدغة ذبابة ولم يأخذ غير الثلاثة البغال .

وولوا وجوههم شطر الغرب تاركين النهر خلف ظهورهم . وكانت السماء محجبة بالسحب والشمس تطل من ورائها بين حين وآخر وترسل عليهم أشعتها . ودخلوا غابة بها أشجار يسر مرآها الأعين وعند ما خرجوا منها توغلوا في غابة أخرى تختلف عن الأولى . وهاتان الغابتان عبارة عن أشجار موز غاية في الجسامه تكون من مجموعها بساط من الخضرة لا يدرك البصر نهايته وتعجز أشعة الشمس عن اختراقه . وكان مسيرهم تحت هذا البساط .

وبعد ٤ ساعات اتجهوا شرقا وساروا حتى أفضوا الى شاطئ النهر تجاه الجزيرة التي يقيم فيها ريونجا . وأخذت الغيوم التي كانت تتجمع ترسل ماء تجاجا فوق رؤوسهم وساروا ساعة تحت نزول هذا المطر الهطل ابتغاء الوصول الى « كسامبوا » Kissembois . وهو الحبل الوحيد الذي يستطيعون أن يجدوا لهم فيه عاصما من الامطار . وهذا المكان عبارة عن زريبة لريونجا ومحطة أيضا للاوغنديين الذين كان عددهم فيها ينوف على ٨٠٠ رجل بما في ذلك الرجال التابعون لارنست . ووصل عشية اليوم رئيس من رؤساء بحارة متيسا ليستحث الوفد على الاسراع في القدوم . وجاء أيضا ريونجا من جزيرته ومعه رأس من الضأن برسم إرنست وبقرة للجنود . واحتل القوم بعض الاكواخ ودفنوا ثيابهم بواسطة النيران على قدر ما استطاعوا .

وفي ٢٩ مارس علم إرنست بوفاة جندي يدعى مرسال في غضون الليل وكان هذا الجندي يشكو وهو في فويرا ألم المرض فأمر بالبقاء فيها إلا أنه لم يطع وهكذا قضى نحبه ومات شهيد أداء الواجب وورى التراب بعد القيام بعمل ما تقضى به شعائر الاسلام وتأدية الاحتفال العسكري الواجب لشخص في مرتبته . وبعد الفراغ من ذلك انطلق الوفد في سيره واتجه غربا بين أشجار

شائكة فكان شوكة يمزق الوجوه والأيدي ثم مر بعد ذلك من غابتين من شجر الموز وأفضى في نهاية الأمر بعد أن جد مسيرة ٣ ساعات الى « فانياتورى » Faniatori وهى زريبة عتيقة من زرائب ريونجا والآل أضحت خاوية وذهب كل ما كان بها إلا نحو ١٠٠ من الأكواخ الصغيرة أقامها الأوغنديون ليتخذوها محطة لهم .

وفى ٣٠ مارس سافر الوفد مبكرا وعند الساعة السادسة جابوا نجدا فياحا تكسوه نباتات تستوقف محاسنها الأبصار وبه كثير من الفيلة وفيه تصاد . وشوهد فى ربوعه سرب منها لاثدا بأذيل الفرار مادا خراطيمه فى الهواء .

وبعد رحيل ٤ ساعات انتهى الوفد الى « مسعودى » Massoudi وهى محطة لريونجا وقد أمست خالية تنفق فيها الغربان . وعند الظهيرة بلغ « طيطى » Titi وهى عبارة عن معسكر للأوغنديين وحمد القوم السرى إذ وجدوا بها أكواخا تقيمهم الأمطار التى بدأت تنزل مدرارا .

وصوله الى مـرولى

وفى ٣١ مارس بارح الوفد طيطى متجها شمالا فى وسط سهل كثير الاخاديد . وفى الساعة التاسعة صباحا بعد ان جاب ١٠ كيلومترات دخل فى ارض « مـرولى » . و مـرولى هذه اقليم كان يملكه فيما سلف ريونجا غير ان كمرازى استولى عليه بمعاونة الدناقلة . وهذه الناحية غنية بالأعنام والجبوب وكثرة السكان . ويوجد شرق الطريق سلسلة من الزرائب الواحدة تلو الأخرى بلا انقطاع وتعرف باسم « حـلل نـيـكا » Heilal Nyéka

و « حلل موجا » Hellal Moga ويوجد في ظهر هذه القرى طود شامخ والنهر يجرى تحت قاعدته . وفي هذا الموضع هوجم شاليه لونيج وطورد .

وبعد مسير ٤ ساعات أفضى الوفد الى نهير « كافو » Kafu فعبره ونزل في « حلل كافو » على مسافة ٣ كيلومترات من النهير . وكان الأهالي يتركون أكواخهم عند ما يدنو رجال الوفد حاملين ما استطاعوا حمله فيحتلبها هؤلاء ويقتاتون بما يجدونه بها . والظاهر أن هذه عادة اعتادها أهالي هذه المنطقة . وقد عاد على الوفد تصرفه هذا بالراحة التامة إذ لولا ذلك لعانى كثيرا من الصعاب نظرا لنزول المطر مدرارا طول تلك الليلة .

وفي أول أبريل كانت الأرض زلقا يصعب المشى فيها . وأخذ الوفد يجوب بلا انقطاع قرى تحديق بها الحدائق وأشجار الموز وحقول واسعة بها شجيرات اللوبيا وغيرها . وكان الأهالي في كل مكان يفرون من وجهه هارين تاركين كل شيء ولا يلوون على شيء .

وصوله الى حلل « واكيتوكو » و « أرجو »

وفي الساعة التاسعة بارح الوفد اقليم مرولى ليدخل في « واكيتوكو » Wakituku وهي من أراضي كبارينجا وفيها يوجد كثير من الحدائق . وفي الساعة الحادية عشرة نزل في « حلل واكيتوكو » وكان الأهالي قد أخلوها . وطريقة السلب هذه كانت لا تحلو في عين إرنست ولكنه كان مضطرا أن يعمل كما عمل الآخرون ومع هذا فانه يرى ان من واجبه ان يوفى جنوده حقهم من الشاء لامتناعهم عن النهب .

وفي ٢ أبريل حملوا رحالهم في الساعة السابعة . وكانت حالة الناحية كحالتها بالأمس وقطعوا في مدة ثلاث ساعات ١٥ كيلومترا فقط وحطوا عند « حلال وارجو » Wargu . وفي ٣ منه ساروا عند الساعة السادسة وعبروا سهلا أرضه مبللة بماء المطر الذي سقط في الليل الأمر الذي سير السير عسيرا وجعل الاقدام تنزلق في كل خطوة . وبعد أن ساروا نحو ساعة في الأوحال حمدوا الله إذ وجدوا الشمس قد أشرقت ومتاعهم أخذ يجف . وعند ما خرجوا من هذا السهل الذي صير المطر أرضه أشبه شيء بالمستنقعات دخلوا في سهل آخر ومشوا فيه ما يزيد على ٦ ساعات دون أن تصادفهم أية قرية أو أى كوخ وأفضوا في نهاية الأمر بعد مسيرة ثمانى ساعات الى « حلال ميرمبا » Hellal Merimba وفيها حطوا رحالهم .

دخوله أراضى أوغندة

وفي ٤ أبريل دخل الوفد مركز « كاجانجو » Kagangu وهو أول منطقة من أراضى مملكة أوغندة وشيخه المتونجولى موريكو من رجال حاشية إرنست . أما الناحية فنظرها تستوقف العين محاسنه . وبها من الذرة والبطاطا والقرع وغيرها الشيء الكثير . ونزلوا في جوف غابة من الموز . والشيخ عمر الذى كان يتألم من قرح في قدمه طلب منهم أن يظلوا في كاجانجو اليوم التالى . ولم يكن لدى إرنست مانع يمنعه من إجابة طلبه .

وقضوا يوم ٥ فى كاجانجو وفي ٦ منه طفقوا يسبرون عند الساعة السابعة . وهنا يتسربل البلد حلالا أجمل رونقا وأكثر بهاء فلم تعد تقع العين بعد لا على سهول ولا على غابات بل على ربي تكسوها أشجار الموز ووديان صغيرة جميلة بها كثير من القرى . وبعد أن

عبروا منطقة « كارمورى » Karmouri كلها بلغوا « لوجابالا » Lugabala
فنزلوا بها .

وفى ٧ أبريل حملوا متاعهم ووجلوا فى منطقة « بيراماز كنجأونى »
Biramaz Kangaouni وكانت أوصاف هذه الناحية كاوصاف الناحية التى قبلها
ثم أفضوا الى « برياكى » Briaki وبها وجدوا جدولا مأؤه رائق فقرر
إرنست المبيت عنده .

وفى ٨ و ٩ منه ساروا فى طريق عرضه ٢٠ مترا شيده متيسا فى قلب
مملكته وعن يمينه ويساره أقيمت قرى كبيرة وغرست النباتات البهيجة .
وعسكروا فى ذلك اليوم فى « حلال سفارجا » Hellal Safarga . وفى يوم
١٠ منه وهو اليوم الاخير فى هذه الرحلة تابعوا مسيرهم فى طريق الملك وعند
الساعة الحادية عشرة نزلوا على قيد كيلومتر واحد من قصر متيسا .

وفى ١١ منه عند منتصف النهار جاء رسول من قبل الملك يحمل سلامه .
وشرع رجال الوفد يسرون فى طريق عرضه ٤٠ مترا وكان مرأى
العساكر السودانية بسترهم الحمراء وسراويلهم البيضاء مؤثرا تأثيرا لطيفا . وكان
المتواجون يسرون فى المقدمة يدقون بنقارياتهم ويلوحون بأعلامهم .
وكان فى اثناء ذلك يحيط بالموكب جمع مؤلف من بضعة الوف من الأهالى
وهو يركض ويغنى ويقفز . ولدى المرور أمام قصر الملك وقف الموكب
ليبعث بسلامه اليها وحتى ترد اليه السلام كما هى العادة المتبعة فى مثل هذه الحالة
ثم عاود المسير . وكان فى كل ربع ساعة يأتى ساع وهو يلهد من الجرى
حاملا سلام الملك ويرجع بلا توان ومعه الجواب . ولاح فى نهاية الأمر قصر
الملك وهو قائم على منحدر رابية من ناحيتها الشمالية إلا أن هذا اليوم لم يكن

اليوم المعين مشول إرنست أمام متيسا فرافقتة حاشيته الى المنزل الذى أعده له .

مقابلة إرنست ملك أوغندة

وكان يوم ١٢ أبريل هو الموعد المضروب لمقابلة إرنست للملك متيسا غير ان المطر الذى أخذ يسح الى ان انتصف النهار حال دون ذلك . وعند الساعة الثانية تكشفت السماء وانقطع المطر فأرسل متيسا رسولا ينيء إرنست بأنه استعداد لاستقباله . فأخذ الوفد فى السير حسب النظام والاحتفال الذى جرى بالأمس . وبعد نصف ساعة بلغوا باب القصر الخارجى ثم بابا آخر وهكذا الى أن عبروا خمسة أبواب فترجل إرنست واستقبله الملك وهو واقف أمام قاعة الاستقبال وصاحفه . وكان على يسار الملك فى ذلك الوقت شخص أوربى ظنه إرنست لأول وهنة كمرون Cameron وهو فى الحقيقة أستاذانى .

ودخل متيسا قاعة الاستقبال وجلس على عرشه وأجلس إرنست على يمينه واستأنى على يساره . وكان مرتديا الثياب التى كان متسربلا بها حين زيارة شاليه نونج ومتقلدا ذات السيف الذى كان يتقلده وقت تلك الزيارة . وعرضت الهدايا ولكن متيسا أظهر عدم الاكتراث لأن مركزه السامى لا يسمح له بفحص مثل هذه الأشياء .

وبعد محادثة دامت بعض الوقت استأذن إرنست بالانصراف . وعند ما صافح استأنى دعاه لتناول الطعام فلبى دعوته . وقدم قبل المساء وظلوا معا الى الساعة الحادية عشرة يحدث كلاهما الآخر بما وعاده وقيده أثناء رحلته .

وفي ١٣ أبريل ذهب إرنست لتناول الطعام على مائدة استائلي وأعطاه هذا معلومات جغرافية لها أهمية كبيرة . وفي ١٤ منه انتقل إرنست الى قصر متيسا فأطلعته على محتوياته ومتع نظره بالمنظر الباهر الذي يشرف عليه قصره من الجهة الجنوبية وهو منظر بحيرة فكتوريا نيارا .

وأتى استائلي ليتناول العشاء مع إرنست وفي هذه الليلة عقدا النية على أن يذهبا في الغد الى البحيرة . وفي ١٥ منه سافر استائلي ليخطط رسما لقسم البحيرة الغربي . وتأهب إرنست لمرافقته لغاية الموردة التي سيبحر منها في خليج مورشيزون وانطلقا معا . وبعد مسير ساعتين تسلقا تلا رأيا من قمته منظرا يبهر الأبصار لفخامته ألا وهو منظر صفحة ماء البحيرة الملجينية ترسل عليها الشمس أشعتها فتعكس شررا والجزر الخضراء النضرة يتكون منها نطاق من الزبرجد في خليج مورشيزون . وعابدا السير الى أن وصلا الى شواطئ هذا الخليج بعد ساعة .

وكان من المقرر أن يرافق رئيس ربانة متيسا استائلي بثلاثين مركبا إلا انه ما كان يوجد هناك شيء مما ذكر . ووردت له الأنباء بأن كل شيء سيكون على استعداد في اليوم التالي . وقضيا الليل في اكواخ قائمة على الشاطئ .

وفي ١٦ منه لاح هناك عند الساعة الرابعة فقط شبح الاسطول ثم ركباه ابتغاء النزهة لأن استائلي قرر السفر في الغد وبعد ذلك رجعا الى المعسكر .

وفي ١٧ منه ايقظتهم الطبول في الساعة الخامسة وفي الحال تمت المعدات ورافق إرنست استائلي الى الاسطول وتصافحا وركب هذا الاخير السفينة

ومخرت به في اليم واخذ عند ذلك كلاهما يلوح للآخر بمنديله برهة ثم قفل ارنست راجعا متخذا طريق « روباجا » حيث يقيم متيسا فوصل الى قصره عند الساعة الحادية عشرة . ثم ما لبث أن لزم الفراش لاصابته بالحمى .

وفي ١٨ أبريل قابله الملك وألقى عليه أسئلة مختلفة خاصة ببناء السفن والمساكن . وفي ١٩ منه قابله رمضان كاتب يد الملك ليحس نبضه ويرى اذا كان يقبل هو وجيشه الانضمام الى متيسا لمهاجمة كبارينجا فأجابه ان العساكر ليست له بل لخدو الديار المصرية وأنه لا يمكنه أن يتصرف فيها في مأمورية أخرى غير المأمورية التي كلف بها .

وفي ٢٠ منه ذهب إرنست الى قصر الملك وعرض الجنود السودانية أمامه ساعة بناء على طلبه وعقب ذلك طلب أن يمنح كل جندي عشرة من العبيد غير أن ارنست مانع في ذلك . وفي ٢١ و ٢٢ و ٢٣ منه تحدث متيسا معه في شؤون مختلفة إذ أنه طلب منه معلومات شتى عن دول العالم على أنواعها من جهة عباداتهم وتآليف حكوماتهم وقواهم الحربية وغير ذلك من الأمور .

وفي ٢٤ منه وهو اليوم المضروب لمقابلة أم الملك جاء « شيمبارانجو » Chambarango رئيس الوزراء الذي ندب ليقدم لها إرنست عند الساعة السابعة وأخبره أن الملك ذهب لزور والدته ولذلك تأجلت المقابلة . وفي ٢٥ منه استدعى الملك ارنست وفتّيه الخطرية في آن واحد وحصر محادثته في القرآن دون سواه فارتبك الفقيه واحتار في أمره ولم يدر كيف يجابو على جميع الأسئلة التي وجهها اليه .

وفي ٢٦ منه قابلت أم الملك إرنست في حفلة حافلة . وكان شمبارانجو مكلنا بتقديمه لها . ولدى وصوله الى قصرها وجد الباب مغلقا وما أمامه يسوده سكوت عميق يشبه سكوت أهل المقابر . وبعد انتظار نصف ساعة فتح الباب بعتة واخذت نحو ٢٠ نقارية ترن وعدد آخر مثله من الطبول يدق ثم دخلوا في حوش كبير يوجد في نهايته كوخ وتجاهه الموسيقى .

وهذا الكوخ - وان شئت فقل قاعة الاستقبال - مبنى من الخيزران وترتكز قبته على فروع من فروع الاشجار . وكانت الملكة جالسة على الارض فوق ثوب من نسيج القطن وثيابها تتألف من قطنة تلفت حول جسمها ومشبوكة بأعلى صدرها . وثوب آخر من هذا النسيج يحيط برأسها وعقد من الخرز متمم للكسوة . وكان فريق من الضباط واقفا من ناحية وطائفة من العذارى واقفة في الجانب الآخر .

وبعد التحيات وفحص الهدايا التي قدمت اليها قال إرنست شيئا من العبارات المعتادة للمجاملة في مثل هذه الاحوال فكانت أقواله توجه الى سليم وهذا يترجمها الى شمبارانجو وهذا ينقل نفس العبارة الى وزير الملكة فينقلها بدوره اليها . وعلى هذا كان لا فائدة مطلقا من وجود الوزير ولكن المقام الملكي يترفع عن التفاهم المباشر . وبعد تبادل بعض العبارات بالكيفية والصيغة التي سلف ذكرها استأذن إرنست بالانصراف وودع بالطريقة التي قوبل بها .

وفي ٢٧ أبريل استدعاه متيسا وسأله عن الشمس والقمر والسماء فاضطر لكي يفهمه حركات الاجرام السماوية ان يرسم صورا على لوحة ومثل الاجرام السماوية بكرات دقيقة من الزجاج . وكان المجتمع قليلا عدده اذ انه

لم يكن يضم غير الوزيرين « كاتيكيرو » و « شمبارانجو » وأربعة من الضباط والكاتبين وبعض الندماء .

وكان متيسا منشرح الصدر فكان كلما سمع شيئا من ارنست شرحه بنفسه للحاضرين فتبدو على وجوههم سمة الدهش والاستغراب .

وفي ٢٨ أبريل بعث له الملكة ١٠ أبقار ومثل هذا العدد عنزات و ٨٠ حملا من الموز هدية . وفي ٢٩ منه أحاط متيسا ارنست بتاريخ أوغندة . وفي ٣٠ منه تفرغ متيسا للصيد فكانوا يعتقلون على مسافة ما تارة بقرة وطورا عنزا ثم يتمرن الملك وهو جالس في كوخ على اطلاق النار . وهذا ما يسمى في عرفهم بالصيد الملكي .

وقضى ارنست يوم ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ مايو في معالجة المرضى في المعسكر ولسوء الحظ ونكد الطالع كانوا كثيرين والضابط همام افندى كان مصابا بالتيفوس وكان يأثسا من شفائه .

وفي ٦ منه طلب متيسا من ارنست أن يرافقه هو وجيشه وبروجيته وطباؤه في رحلة نوى القيام بها لمعينة طريق أمر بتمهيدها . فاعتذر ارنست بانحراف صحته وأرسل اليه البروجية وبعض الجنود وذلك ما حمد الله فيما بعد لأجله لأن الجنود عند العودة أخبروه أن الرحلة كانت شاقة جدا .

وفي ٧ منه جاء الوزير « كاتيكيرو » من قبل الملك ليزوره ويسأل عن صحته وليخبره بأنه سيسامه الدناقلة العشرة الفارين من معسكره الذين عنده . وفي ٨ منه توجه متيسا للصيد فانهز ارنست هذه الفرصة وذهب لزيارة « كاتيكيرو » المتزوج من أخوات الملك الأربع وابنته فوجده في داره فدار

بينهما الحديث وعلم انه عنده من النساء ما يربو على ٢٠٠٠ امرأة .

وفي ٩ مايو استقبل متيسا ارنست واستعلم منه عن كيفية تخنيط الاجسام والمدة التي يمكن ان تظل فيها الجثة محفوظة وأبدى رغبته استديده أن يرى عنده اناسا لهم دراية بهذه الصناعة . وفي ١٠ منه استدعا متيسا واخذا يتجاذبان الحديث وكان الكلام يدور بينهما حول النساء وابدى ارنست رغبته في العودة الى فويرا إلا أن متيسا طلب منه أن يمد مدة اقامته شهرا .

وفي ١١ منه زار ارنست « كاتيكرو » فاستقبله وسط جمع من النساء وقدم ارنست الى مضيفه بعض الخرز على سبيل الهدية فقدم اليه فراء من جلد فأر وكسوة من قشور الشجر .

وفي ١٢ منه قابل ارنست الملك وشكا له من الاهمال الحاصل في تموين عسكره فوعده انه سيضع حدا لذلك . وانصرف بعد ان سمع نوبة موسيقية عزفت ادوارها جماعة من اهالى « السوجا » Sogas على القيثارات .

واقضى يوم ١٣ و ١٤ و ١٥ منه في معسكره . وفي ١٦ و ١٧ منه اشتبك ارنست مع متيسا في محادثة طويلة بخصوص واجب الرجل نحو نفسه وواجبه نحو اقاربه . والامر الذى كان يهتم له بنوع اخص هو ان يعرف ماهية الجنة وماهية النار والملائكة . واين مركز هؤلاء من العالم وما هى انواع المتع التي يتمتع بها الانسان أو العقاب الذى يناله بعد الموت .

وانقضى يوم ١٨ و ١٩ و ٢٠ منه في تصليح وترميم الاكواخ التي كان ينزل المطر من سقوفها لبنائها على عجل . وفي ٢٤ منه حصل ارنست من الملك أثناء محادثة طويلة جرت بينهما على أمر يحظر بيع

وشراء الرقيق في مملكته . وأبان له انه مادام يرغب في ربط صلاته بالدول المتمدينة فيجب عليه بادىء ذى بدء أن يعمل وفق مبادئ الهيئة الاجتماعية الأولية أعنى حرية الانسان .

وحصل منه أيضا على أمر يبيع سلع أوغندة في محطات الحكومة المصرية وعلى تصريح بزيارة « أوسوجا » Usoga وكان وطد العزم على ان يسافر في الغد وأن يصعد في النيل لغاية خروجه من بحيرة فكتوريا نيانزا .

وكان يوم ٢٥ مايو الموعد المضروب لسفره . وفي ٢٦ منه لم يظهر أى شىء لغاية الساعة الثامنة . ووصل في نهاية الأمر « عيد » كاتب متيسا ومعه شيخان وقال انه قد تقرر أن يرافقا الوفد وأن يقدموا لارنست ما يلزم من الحرس ثم انصرفا بدعوى استحضر ذلك الحرس غير انهما لم يعودا . وانقضى طول اليوم ولم يرد أى نبأ بخصوص سفره .

وفي ٢٦ منه علم ارنست ان عيدا الذى تعين لمرافقته سافر الى مزارعه فكتب خطابا الى متيسا يقول له فيه ان مأموريته انتهت واضحى من واجباته الاياب الى غوردون باشا . فطلب منه الملك ان يقابله لأنه لا يريد أن يراه مسافرا وهو غير منشرح الصدر ولكنه أبى وأرسل سليما ليعتذر نيابة عنه ويبدى انشغاله في تجهيز معدات السفر لأنه قرر قطعيا الرحيل غدا ميمما « اوروندوجانى » فأرسل اليه متيسا مؤثنا لجنوده .

وفي ٢٧ منه عند الساعة العاشرة حضر شقيق الملك بنفسه ومعه ضابط من كبار الضباط وعدد كبير من الرجال يقال لهم « مرونجولى » Mrongolis وهم الاشخاص الذين تعينوا لمرافقته فشكره ارنست للرعاية التى شمله بها الملك

وسافر فى الحال غير ان الطريق كانت رهيبة يسير فيها الانسان دواما بين ادغال تمزق الايدى والوجوه . هذا عدا معاكسة الامطار . وبعد سفر بطيء شاق وصل عند الساعة الثالثة الى « كيسيغولا » وفيها قضى الليل .

وفى ٢٨ مايو بارح « كيسيغولا » Kissigula وعبر عدة مجارى مياه وكان اجتيازها متعبا وشاقا دواما . وآخر مجرى عبره يقال له « لواجارى » Luagari وهذا هو المجرى الوحيد الذى يستحق الذكر من بين المجارى التى اجتازها ابتداء من روباجا حيث يقيم متيسا وبعد عدة لحظات افضى الى املاك عيد حيث توجد ابقاره ومعزه وفيها قضى الليل .

وفى ٢٩ منه لازم ارنست المعسكر ولم يتحرك منه يمنة ولا يسرة وعزم على ان ينطلق الى الصيد فى الغد وعلى ارتياد منابع مجرى « لواجارى » .

وفى ٣٠ منه ذهب لصيد النمر واصطاد واحدا بديع الشكل . وعثر ايضا على منبع « لواجارى » غير انه لاحظ ان ما ينبع منه من الماء يسير جدا فلا يكفى لتغذية هذا النهر وعلم من الاهالى ان له منابع اخرى تمده اثناء جريانه .

وفى ٣١ منه اتى الى ارنست نبأ بأن النار شبت فى قصر متيسا وان ضابطا مصريا ومعه عشرة جنود قادمون لمقابلته ومعهم شىء كثير من المتاع وان هذا الضابط يوجد الآن فى منطقة « موريكو » Moreko وهذه الظروف حملته على أن يرتد على عقبه الى « روباجا » .

* * *

هذه هى خلاصة « رحلة إرنست دى بلفون » التى دونت فى نشرة

الجمعية الجغرافية الخديوية « الملكية الآن » في السلسلة الأولى لعام ١٨٧٦ م لغاية ٣١ مايو . أما القسم الذي بعد هذا التاريخ لغاية اياه الى لابوريه في ٢٢ اغسطس فلم يمكننا العثور عليه . وكل ما علم عن هذه المدة الاخيرة مسطر في منخص الخطاب الآتي الذي كتبته إرنست الى والده بتاريخ ٢٣ اغسطس أى قبل وفاته بثلاثة أيام وقد سبق ذكر تفصيلات هذا الحادث الحزن . قل :-

تركت متيسا في ١٥ يونيه بعد مشقة عظمى لأن هذا العائى الغشوم كانت ارادته الوحيدة ابقائى فى خدمته مع حرسى وكان لا يريد ان يتحول عن ارادته هذه قيد أنملة . وكان لا يدرك ان مملكته برمتها لا تقدر ان تعوضنى الاقامة عنده اسبوعا واحدا . ولما رأى أن فى غير استطاعته بلوغ أربه من طريق الافناع صمم على أن يسلك مسلك الشدة وإراقه الدماء . واتفق مع كباريجا ملك اونيورو الذى قاتل بيكر باشا لأدراك غرضه هذا .

وفى ٥ يولييه عند الساعة السابعة صباحا لدى وصولى الى شاطئ نهير « كافو » الذى كانت مياهه تفيض من على جوانبه فتسد فى وجهى الطريق هاجمى خلائق كثيرة يبلغ عددهم ٨ أو ١٠ آلاف رجل تقريبا وكان حرسى مؤلفا من ٤٦ رجلا . وطفقنا نقاتل من الساعة ٧ صباحا الى الساعة ٣ مساء واستوليت على اكواخ المغيرين قبل الساعة العاشرة صباحا . وبما ان هذه الاكواخ مبنية من القش فكان من السهل اتلافها . وصنعت فى لمح البصر رمثا واجتاز اتباعى النهير عليه . وفى الساعة الثالثة لم يبق معى إلا ١٠ جنود وكلهم يحسنون السباحة . وعندئذ صوبنا آخر طلقات الى اعدائنا ثم القينا بأنفسنا فى الماء بعد أن وضعنا أسلحتنا على الرمث واجتازنا النهير ساجدين بدون أن

يعترضنا ولله الحمد حادث ما .

وبعد عدة أيام بلغنا فاتيكو وفيها أخذنا شيئا من الراحة . ثم زائلت هذه الناحية وسرت وجبال شوا Shua الى ان أدركت نهير « أسوا » لأن الطريق من « فابو » كانت في هذا الفصل غير مطروقة . فوجدت ان مياه هذا النهير تطفح من فوق شواطئه ومكونة سيلا عرما جارفا وبذا انقطع خط السير أمامي . وكان من العبث التفكير في عمل رمت أو اجتياز النهر سباحة أو محاولة عبوره في أى نوع من أنواع الفلك إذ أن كل ذلك كان من الامور الصعبة في فصل الأمطار . فبُست من الوصول الى لادو قبل نهاية هذا الفصل . وبينما انا كذلك إذ أخبرت بأن الجنرال غوردون صعد النيل في سفينة لغاية لابوريه . وفي الحال اجتزت النهر عند الابراهيمية « دوفيليه » وسرت وال الضفة الشرقية ونزلت في لابوريه وفيها قابلت الجنرال المذكور وعلمت منه ان محطة غندوكورو أزيلت واستعيز عنها بمحطة بور واتخذت هذه مقرا للمعسكر العام وأقيمت بالتبع لها محطات في « إلياب » Eliab و لاتوكا و مكركا . وانه شيدت أيضا محطات على بحر سوباط .

وبعد ان تم انشاء محطتى لادو و الرجاف صعد الجنرال غوردون النهر من هذه المحطة الى لابوريه مع ان الناس كانوا مجتمعين حتى الآن على ان هذه المسافة لا يمكن اجتيازها . نعم كان يوجد عدد عديد من التيارات السريعة في هذا القسم ولكن استطاع الجنرال عبورها بصعوبة وبألت هذه الصعوبة كانت منحصرة في هذه العوائق الطبيعية بل زاد الطين بلة ما كان يديه قاطنو شواطئ النهر من ضروب العداوة . ومع ذلك فقد عثر الجنرال بالمضييق الصالح لعبور المراكب واضحى اليوم يوجد في النهر عند لابوريه

وابور بخارى و ٣ مراكب كبيرة . وعلى هذا يرى ان هذا العام كان مجديا وجنيت في غضوناته اثمار يانعة . ومن ناحية اخرى فان المواصلات مع الخرطوم أصبحت يومية لأنها صارت بطريق النيل . وقد جعلت الطريق في غاية من الأمن محطتا « بيدن » و « كرى » الجديدتان اللتان أقيمتا بين الرجاف و لا بوريه .

وقد عهد الى الآن بمهمة جديدة ذلك انى سأسافر بعد بضعة أيام لأقوم بإنشاء محطات بين فويرا وبحيرة « موتان » Mutan - بحيرة البرت نيازنا - على فرع سومرست . وسأدخل في البحيرة وأخرج منها في النهر وأنحدر فيه بمركب لغاية مساقط « ما كيدو » Makedo حيث التقى مرة اخرى بالجمال غوردون الذى يكون قد وصل فى ذلك الحين الى هذه الناحية التى سنتخذها مركزا لدائرة اعمالنا . وأؤمل ان اكون قد انتهيت من عملى هذا فى ٣ أو ٤ أشهر على اكثر تقدير . وسنضع بعد ذلك الوابور البخارى فى البحيرة ونأمل انه بمعونة الله تعالى سيكون لنا بعد مرور ١٥ شهرا أو سنتين مركب تجارى على بحيرة « او كرىو » - بحيرة فكتوريا نيازنا .

سنة ١٨٧٦ م

سفر غوردون من فاتيكو الى ماجونجو

والخطة التي رسمها

قدم غوردون الى فاتيكو الواقعة على قيد ٨٠ كيلومترا من « فاشيليه » Fashelie في ٣ يناير ورحل عنها في ٩ منه ميمما فويرا فدخلها في ١٣ من الشهر المذكور . وكانت المنطقة التي سار فيها عبارة عن برية مترامية الاطراف شاسعة واسعة تموج بالادغال والشجيرات ليس بها ديار ولا نافخ نار . وبعد أن سار اليوم الأول دخل في أرض لا يوجد بها ماء إلا في الغدران . وكان عرض النهر تجاه فويرا ٢٠٠ متر وماؤه راكدا والغدران منبثة في سائر أرجاء ضفته الجنوبية .

وهذه هي خطة السير التي كان رسمها غوردون لنفسه :—

يقطع في ظرف ٣ ايام المسافة إلى مرولى الواقعة على بعد ٥٠ كيلومترا من جنوب النهر فينشء بها محطة ثم يتابع السفر الى أوروندوجاني فيقيم فيها محطة اخرى . ويولى بعد ذلك وجهه شطر شلالات ريبيون عند أول مخرج النيل من بحيرة فكتوريا نيازا فيمتتى ثلاثة وعند إتمامها يقفل راجعا الى فويرا ومنها يذهب الى « ماجونجو » حيث كان ينوى أن يؤسس محطة وبعدها يؤوب بطريق النهر الى دوفيليه . وكان قد أقام صرح آماله على أن يجد الباخرة والسفيتين المصنوعتين من الحديد وسفينة أخرى جاهزة ومستعدة فوق الشلالات فتنتقل المشونة الى ماجونجو فيدخل جيسى في البحيرة ويرتاها وبذا

يكون قد رفع العلم الخديوى فوق البحيرتين . وكان عليه بعد ذلك أن يقوم بتفتيش فى « مكراكا » ومن ثم يرجع الى الخرطوم فالقاهرة .

هذه هى الخطة التى كان قد وضعها غوردون . وعلى ذلك بدأ يسير من ١٨ يناير قاصدا مرولى وكان السير عسيرا جدا فى أرض غير مسلوكة لا بد للمنبعث فيها أن يشق له طريقا بين الأدغال . ولا تقع العين فى هذه المنطقة على مخلوق من البشر والماء لا يوجد فيها إلا فى المستنقعات . أما النهر فلا يمكن الوصول اليه لحيولة الغدران المبتوءة على ضفته . وكان غوردون يريد سرعة الوصول الى بحيرة فكتوريا نيارا ليرفع هناك علم الخديو حتى يستطيع أن يثبت حقوقه عليها . وكان قد نبذ ظهريا مسألة فتح المواصلات عن طريق البحر الأحمر لأنه كان يرى أن جنوده لا يستطيع القيام بهذا العمل وأنه لو استمر عاقدا النية على فتح هذا الطريق لاضطر الاميرال ماكيلوب وأميرالالائى شاليه لونج أن ينتظرا مع حملتهما زمنا طويلا .

وقد استرجع الخديو فيما بعد هذه الحملة بناء على طلب إنجلترا التى حتمت على مصر استدعاءها حتى أنها تمهد السيل لوضعها تحت حمايتها كما حصل بالفعل .

وفى ٢٢ منه جد غوردون فى السير الى ان أفضى الى ضفاف الكافور Kafour أمام مرولى ولدى وصوله أشعل رئيس المنطقة وهو من اتباع كباريجا ملك أونيوورو النار فى مسكنه وتعلق هو وقومه بأذيال الحرب ونزلوا فى مازندى على مرحلة يومين من مرولى ودخل غوردون هذه المحطة بعد أن عبر نهر الكافور وأرجع ريونجا خصم كباريجا الى مركزه الذى عينه فيه سير صمويل بيكر عام ١٨٧٢ م وكيلا للحكومة عوضا عن كباريجا الذى كان خلعه منه . وعين كذلك القائمقام محمد ابراهيم بك المكنى بابن جميعه ومن مواليد

السودان قائدا للمنطقة . ورحل غوردون من مرولى فى ٢٤ يناير ميمما فويرا بطريق النهر على مستن زورق فوصل اليها فى يوم ونصف يوم . وفى ٣١ منه بارح هذه الناحية قاصدا دوفيليه لان وجوده فى هذه كان محتما ضروريا لاسباب حجة . وكان يريد ايضا أن يرسل المؤن صعدا فى النيل قبل أن يهاجمه فصل الامطار الوشيك الحلول .

وفى ٣ فبراير قدم غوردون الى فاتيكو بعد أن قطع المسافة التى بينها وبين فويرا البالغة ١٢٠ كيلومترا فى ظرف ثلاثة أيام ونصف يوم . وسمع لدى وصوله ان كباريجا حين سمع بمقدمه بارح مازندى عاصمة ملكه متأبطا عرشه السحري لأن العقيدة السائدة بين قومه هو انه اذا فقد عرشه فقد معه سيطرته وضاع نفوذه .

وفى ١٠ منه وصل غوردون الى دوفيليه وأدركه أسف شديد لعدم استطاعته قياس فوهات نيل فكتوريا إذ أنه كان يرى أنه لا يوجد ما يبرر استعمال وسائل النقل التى فى حيازته للاستكشاف بينما الجند فى مختلف المحطات ينقصها كل شئ . وتلك الوسائل كانت ضرورية ولا بد منها لتموين أولئك الجنود الذين يجب أن تعطى لاحتياجاتهم الافضلية على كل ما سواها وأنه حتى فيما اذا كان انتهى العمل من الباخرة يكون من غير المستطاع استخدامها فى ارتياد بحيرة البرت نيازرا إلا بعد أن تمخر بعض الزمن بين دوفيليه و ماجونجو لنقل الزاد والذخيرة للجنود . ولدى وصوله الى دوفيليه وجد ان الاعمال تقدمت تقدما كبيرا وان سفينة من السفن الحديدية كان انتهى العمل منها واخرى على وشك التمام وأما الباخرة فكانت الاعمال فيها سائرة سيرا مرضيا .

وفى ٢٣ فبراير بعث غوردون من دوفيليه الى مرولى بكمية من المؤونة . وكان مرتاحا جد الارتياح من سير الاعمال . وكان قد تقرر ايضا سفر جيسى بعد بضعة أيام الى ماجونجو بالسفيتين الحديديتين ومعه قدر من الميرة ثم يبحر منها فيطوف بدائر البحيرة . وكان غوردون مترددا فى السماح له بالقيام بهذه الرحلة غير أنه لشدة إلحاحه أذن له بالارتحال . وبما أن ثلث الباخرة كان قد تم وجميع المحطات تقريبا كانت انشئت ساورت غوردون الآمال بأن لا يقع جيسى فى أنياب المرض فيضطر عند ذاك أن يذهب هو بنفسه لارتياح البحيرة .

وفى ٧ مارس سفر غوردون جيسى فى السفيتين الحديديتين من دوفيليه الى ماجونجو ليذهب منها الى البحيرة ثم بعد أن أرسل فى ٨ منه قافلة الى لابوريه توجه الى هذه الناحية سيرا على الاقدام بمحاذاة النهر ومر بشلالات فوللا ليتم خريطته . وكان ماء النيل ينساب من ثغرة ضيقة متدهورا من ارتفاع ٢٥ مترا ويجرى تياره مسرعا مدى ٣ أو ٤ كيلومترات يستحيل على أى انسان اجتيازها لسرعة جريان مائه . ولما كان ارتفاع كلتا الضفتين ١٥ مترا وتقطعها الخيران العميقة كان من المتعسير السير عليهما وسحب المراكب بالاحبال .

وحمل له البريد الذى جاءه من فويرا خطابا من متيسا ملك أوغندة يصف فيه ما حاق به من الهم والغم ويقسم انه مخلص لمصر . أما كباريجا فقد سافر يحمل عرشه شطر الجنوب وأخلى القسم الشمالى من مملكته .

وفى ١٢ منه شخص غوردون الى « كرى » Kerri ومر فى طريقه على « موجى » Moogi ونظرا لما صادفه من الصعوبات فى سبيل الحصول على

حمالين استحضر زهاء ٤٠ جملا بقصد التجربة . وكانت تساوره الآمال بأن يفلح باستعمال هذه الطريقة وفاته ان ذلك يثير حنق الاهالى .

وفي ٢٣ مارس رحل غوردون الى « لادو » حيث دعت بعض الأعمال إلى وجوده .

وفي ١٠ أبريل رجع الى بيدن وقرر أن ينشئ محطة صغيرة على نهير « طيو » Tyoo لأن المسافة بين لابوريه و دوفيليه يوم ونصف فكان ينشأ من جراء ذلك أن العساكر التي تسير بين هاتين المحطتين تضطر الى المبيت فى الطريق وتستولى من الأهالى على أشياء ليس لهم حق فى أخذها وكان ينتج من ذلك تغيظ الأهالى وبغضهم للحكومة . وفوق ذلك فان هذا النهير كان لا يمكن خوضه فى فصل الامطار وكان يحول دون عبوره مخاطر كبيرة وهذا ما دعا غوردون أن يشيد محطة صغيرة فى هذه النقطة ويعين بها ٤٠ جنديا ومركبا وبهذه الكيفية يقضى الجنود الذين يجتازون هذا الطريق الليل فيها .

وفي ١٢ منه بارح بيدن ميمما كرى . فوجد الناحية مليحة جدا الا أنه لا حظ ان ابقار هذه الناحية لا تعيش فى فاتيككو ولا فى الجهات الجنوبية وان الخيل تنفق ايضا وبالعكس تعيش الحمير والبغال .

وفي ٢٩ منه قدم الى كرى جيسى ليرى غوردون إذ أنه كان قد فرغ من ارتياد سواحل بحيرة البرت نيازرا . وأتم هذا العمل فى ظرف ٩ أيام فوجد طولها ٢٢٥ كيلومترا وعرضها ٨٠ وان الضفة الغربية لا يمكن الاقتراب منها نظرا لما يضره الأهالى من العداوة والبغضاء . وانه لا يخرج من البحيرة أى نهير

من ناحية الضفة المذكورة وان الماء في القسم الجنوبي قريب الغور والضفة تكسوها المستنقعات . وهبت عاصفة هوجاء فألقته على شاطئ جزيرة بها رجال من قبائل كباريجا واضطر الجند أن يرموهم بالمقذوفات النارية ليعدهوهم . وكان جيسى بحارا ماهرا ومع ذلك قال انه لم يرق شيئا كهذا . وجاهر البحارة بانهم لا يعودون الى البحيرة مقابل ما ينالونه من اجر مهما بلغ الاجر وانهم يؤثرون الهروب من الجندي على الرجوع الى البحيرة . وحاول جيسى أن يفاوض الأهالي فأبوا واصرروا على عدم حصول أية مفاوضة قبل ان ينصرف لانهم يعتبرونه كشیطان لياض لون بشرته .

وارتاح غوردون جد الراحة من هذه الريادة . وفي ٢٠ مايو قفل راجعا الى لادو فعلم ان الباخرة سيفرغ العمل منها بعد مرور ٣ اسابيع . وفي أول يونيه حضرت باخرة من الخرطوم تقل ٤٠ رجلا من الدناقلة .

وفي ١١ منه انتقل الى كري وفيها علم ان الرحالة « بياجيا » Piaggia كشف بحيرة بين مرولى و « اوروندوجانى » على نيل فكتوريا طولها ٨٠ كيلومترا وكان أمير الألاى لونج قد تحدث عن هذه البحيرة غير ان غوردون ظن ان هذه لم تكن سوى منخفض من الأرض مغمور بالمياه . وقال « بياجيا » انه رأى فرعا آخذا من البحيرة وان هذا الفرع لا بد ان ينصب مأؤه إما في سوبات أو في أسوا .

وفي ٤ يولييه وصل غوردون الى لا بوريه وكان قد استعاد صحته وزالت من أمامه جميع العوائق . وأخذ يتأهب لفك الباخرة « الخديو » التى حملتها ١٠٨ أطنان فى « موجى » الكى يعيد تركيبها فوق الشلالات فى « دوفيليه » واعدادها للملاحة فى بحيرة فكتوريا نياترا وكان يطمح أن يفرغ من هذا

العمل فى أبريل القادم فىضمن بذلك ملكية البحيرة للخدو .

وكان قد ورد الىه ٢٥٠ جنديا أخذت تتأهب للذهاب الى أونيوورو لتعزز مركزه فى تلك الاقطار . وكان يشعر بشيء من الارتياح إذ آنس من ضباطه وجنوده انشراحا وسرورا من عدالته وحسن طويته . وها هو قد مر على معاشرته لهم واختلاطه بهم أكثر من عامين وكان همه الوحيد فى أثناءها السهر على راحتهم واسعادهم على قدر ما فى استطاعته ومراعاة أحوالهم وغذائهم وكافة احتياجاتهم .

وصوله الى ماجونجو

وفى ٩ يوليه رحل غوردون الى دوفيليه فوجد ان الباخرة « نيانزا » على قدم الاستعداد فاعتلى ظهرها ومخرت به عباب النهر فى ٢٠ منه تقطر السفينتين الحديديتين . وكان عرض النهر يتراوح بين كيلومتر واحد و ٥ كيلومترات وماؤه راكدا . وكانت جزر البردى مشورة فى سائر أرجائه وتمتد بطول ضفتيه أحوال من الطمى تحول دون الدنو منها اللهم إلا بصعوبة كبرى . وهاتيك الربع تكاد تغص بمن فيها من السكان .

وفى ٢٨ منه وصل غوردون الى ماجونجو عند مخرج نيل فكتوريا فى بحيرة البرت نيانزا وقضى ليلته هناك . وكان يحجب مدخل النهر عدة جزر من شجيرات البردى . وكان قصده ان يذهب من ماجونجو الى فويرا فيرسم خريطة تلك الارحاء لأنه قرأ فى صحيفة للدكتور شوينفورت يقول فيها إنه قد يجوز أن تكون بحيرة « البرت نيانزا » تابعة لحوض النيل . ولكن هذا الأمر لم يقم عليه دليل ما لأنه كان لا يزال الى ذلك الوقت نحو ١٠٠ كيلومتر

بين فويرا وبحيرة البرت لم يرتدها أحد . وانه بناء على ذلك ليس فى استطاعة أحد أن يجزم بأن النيل يخرج من بحيرة البرت إذ أن هذه المسألة كانت لا تزال الى تلك الساعة من الأمور المشكوك فى صحتها .

وكتب غوردون يقول إنه من المختلف فيه أن النيل يخرج من بحيرة فكتوريا ويجرى مارا ببخيرة البرت نحو الشمال بل انه يخرج نهير من بحيرة فكتوريا وآخر من بحيرة البرت ثم ينضم الى بعضها فيكونان النيل . ويقول ان هذا البيان لا يمكن نفيه بتاتا بمجرد القول بأنه إلى الآن لم يتبع أحد مجرى النهر من فويرا الى ماجونجو . وهذا هو السبب الذى حداه للقيام بهذا العمل ومتابعة مسير النهر مع احتمال كثير من المشاق ليفصل فى هذه المسألة .

واتضح له أيضا انه ابتداء من فويرا أو من مساقط « كاروما » Karuma الى مساقط « مورشيزون » وهى واقعة بين بحيرتى فكتوريا نيانزا و البرت نيانزا وأقرب من البحيرة الثانية بكثير ، توجد سلسلة مساقط اخرى يحتفى بسببها تدريجيا فرق الألف قدم التى فى منسوب المياه بين « فويرا » و « ماجونجو » .

وبعد تأدية هذا العمل كان ينوى غوردون أن يميم مرولى ثم يذهب من هذه الى اوروندوجانى ومن ثم الى مساقط ريبون حيث يرفع العلم المصرى على بحيرة فكتوريا نيانزا وبعد ذلك يتم خريطة النيل من هذه المساقط الى اوروندوجانى ومنها الى مرولى . والمسافة الأولى طولها ٦٥ كيلومترا بطريق البر لأن الملاحة ممتنعة بين هاتين النقطتين وذلك بخلاف المسافة الثانية فانه ممكن اجتيازها بطريق النيل وقد سبق لغوردون أن مخر عباها . وبهذا العمل

تكون خريطة النيل قد تمت .

الأعمال التي قام بها بعد ذلك

وكان غوردون يبنى صرح آماله على أن يسافر بعد ذلك من فويرا الى مازندى ثم يهبط ليمعد الباخرتين « الخديو » و « نياز » .

وفي ٢ اغسطس ورد من مرولى ومازندى بريد فعلم منه ان متيسا يطلب بالحاح أن تقام فى عاصمته روابجا الشكنة التي أرسل غوردون الضابط نور محمد افندى ليقمها فى « اوروندوجانى » . ولما كانت هذه رغبته لى غوردون هذا الطلب وأرسل اليه ال ١٦٠ جنديا وقد جال عندئذ بخاطر غوردون أن احتفاظ متيسا باستقلاله لم يكلفه شيئا اكثر من احتلال جيشه خط اوروندوجانى - مساقط ريبون . أما وقد أضاع الآن ذلك الاستقلال فبخطئه لا بخطأ سواه وليس له ان يلوم غير نفسه .

وكان يرى غوردون انه يصيب من وراء وجوده فى مركزه هذا مزية اخرى ذلك انه يستطيع اعتمادا على وجود حامية له فى عاصمة متيسا ان يكتفى بتعيين عدد قليل من الجنود فى المحطات الأخرى وانه اذا أظهر روح التمرد أمكنه ان يأمر بأخذه أسيرا ويقبض بكلتا يديه على أزمة التجارة بحذاويرها مع زربار .

ورسح فى ذهن غوردون ان متيسا لم يطلب اقامة الشكنة فى عاصمته إلا بقصد أن يغرى الضباط والجنود ويسول لهم أن يهاجموا معه اعداءه . واستدل على صحة استنتاجه هذا بأن متيسا سبق أن طلب من إرنست دى بلفون لما كان عنده ان يهاجم سكان جزيرة كبرى يقال لها جزيرة

ساسيه Sasse وذلك بسبب ما بينه وبينهم من العداوة . وكان هؤلاء القوم من مهرة الغطاسين وكان كلما أرسل اليهم زوارق وزودها برجاله ليهاجموهم غطس أولئك تحت الزوارق وقطعوا عيذان الخيزران المؤلفة منها تلك الزوارق فغرق بمن فيها من رجال متيسا .

وفي ٥ اغسطس كان غوردون على قيد خمسة كيلومترات غرب مساقط مورشينزون وكانت ضفتا النهر تكسوها الغابات البالغة غاية الكثافة وماؤه يسيل ببطء وكانت شجيرات البردى تغطي كلتا حافته كما هو الحال في دوفيليه ولذا لم توجد إلا أمكنة قليلة يستطيع الانسان الدنو فيها من البر . وكان عرض البحر لا يتجاوز ال ٢٠٠ متر . وقدمت طائفة من اتباع كبارنجا ليقسموا يمين اخلاصهم للحكومة فأراد انفينا وهو من رؤساء القبائل المتحابة وكان عندئذ بصحبة غوردون أن يذبخوا فمانع غوردون في ذلك بطبيعة الحال .

وفي ٦ منه كان قد رسم خريطة النهر على طول ١٥ كيلومترا غير أنه اضطر أن يمشى والمطر يهطل فوقه ضعف هذه المسافة بين الأدغال حتى أنهك قواه . وعلى بعد ١٠ كيلومترات من المساقط تقع العين على نجد مرتفع تكسوه الغابات وبأسفله تلاح يفصل الواحدة عن الأخرى خور عميق يهبط لغاية مستوى النهر . ومن كبريات المجازفات عبوره مشيا على الاقدام وكان النهر صالحا للملاحة لغاية المساقط وقد أمكن الباخرة أن تصل اليها بالفعل .

وفي ٧ منه سار ٢٥ كيلومترا ورسم خريطةها وقد صادفه في هذه المسافة نفس الصعوبات التي صادفته بالأمس لبعدها عن مجرى النهر

مسيرة ٥ كيلومترات . وفي ٨ أغسطس قطع نفس المسافة وقام بالعمل عينه الذى قام به أمس . وفي ٩ منه رسم ٣٠ كيلومترا لقي فى خلالها ما لقيه فى الأيام التى قبلها ونزل على ضفة النهر .

وفى ١٠ منه بعد أن خطط ٢٥ كيلومترا وصل الى زريبة مهجورة لأتينا . وتجاوزت الصعوبة التى لقيها فى هذا النهار حد الصعوبات التى عاناها فى الايام السابقة لأنه لم يجد دربا يمشى عليه وسقط عدة مرات على الحضيض .

وفى ١٣ منه وصل غوردون الى فويرا . وكان عند ما رحل من مرولى فى ٢٥ يناير أمر ضابطا من ضباطه أن يستعلم من متيسا عما اذا كان يريد جيشا فى أورووندوجانى فاذا كان الرد بالاجاب يتوجه لزيارته أما اذا كان سلبيا فيذهب ويحتل نياميونجو Nyamyongo التابعة لكباريجا وبالاستيلاء عليها تصبح مرولى من ممتلكات الحكومة . وكان يظن عند ما قدم ان الامر قد تم واذا بالضابط يكتب له الآن يعلمه بأن متيسا يرغب فى الحصول على الحامية فى روباجا عاصمة مملكته وانه لبي طلبه وبعد أن وصل الى هذه الناحية صرف حماليه ارتكانا على وعد متيسا بأن يقدم له ما يلزمه من الحمالين . غير أنه لم يبر بوعده حتى هذه الساعة وأبدى لذلك اعتذارا أوهى من بيت العنكبوت وأنه - أى الضابط - أقام ثكنة وأنه فى انتظار ما يصدر اليه من الاوامر .

وعلم غوردون أن متيسا يمتار بكميات كبيرة من البارود يبتاعها من زنبار فتخيل أنه عقد النية على القيام بعمل عدائى وقام بفكره أن الاصول أن يذهب بنفسه الى روباجا ويسحب منها الحامية ويضعها كما

كانت عزمته متجهة في بادئ الأمر في نياميونجو الواقعة على قيد ١٥ كيلومترا شمال أوروندوجاني حيث يمكنه منها أن يرقب مجرى الحوادث . وكان النهر صالحا للملاحة بين فويرا و أوروندوجاني ومن اللازم اصعاد احدى البواخر للملاحة في هذه المرحلة . وكان الضابط قد أخبر غوردون بأن متيسا اضحى اقل اسرافا في القتل منه من قبل .

وصوله الى مرولى

وفي ١٨ اغسطس وصل غوردون الى مرولى وفي أثناء الطريق عدل عن فكرة ذهابه الى « روباجا » للأسباب الآتية :—

- ١ — تأكد أنه متيسا لا يستطيع مطلقا ان يحول دون عودة جنوده .
 - ٢ — اذا ذهب هو نفسه فمن الممكن حدوث ارتباكات من المستحسن اجتنابها .
 - ٣ — ان المسافة طويلة شاسعة ومنهكة والأمر لا يستحق هذه المشاق .
- وعلى ذلك اكتفى بأن أرسل ٦٠ جنديا الى نور محمد افندى وهذا العدد مضافا اليه ال ١٦٠ جنديا التي لديه من قبل كان يجعل في استطاعته التغلب على جميع الطواريء .

وفي ٢٣ منه قرر وهو في مرولى ما يأتي :—

يأخذ لدى رجوع الجنود من « روباجا » ١٠٠ جندي منها ويرسم خريطة النهر بين مرولى و « نياميونجو » و أوروندوجاني . أما قسم النهر الذي بين

أوروندوجاني وبحيرة فكتوريا فقد رأى نفسه مضطرا أن يؤجل رسمه مؤقتا اجتنابا لحدوث قلاقل وارتباكات قبل أن يستعد . وقد اسف لذلك جد الأسف إذ أن هذا كان القسم الوحيد من النهر بين بربر والبحيرة الذي لم يكن قد خطط خريطته . وقادته حصافته الى أن يضم قوته ليعززها بدلا من أن يفرقها فيضعفها .

وفي ٢٨ اغسطس وردت الأنباء بنحلم السلطان عبد العزيز وإحلال السلطان الجديد محله . وفي ٢٩ منه أحدث هذا النبأ هرجا ومرجا بين صفوف الجند .

وفي ٣٠ منه عرض غوردون على متيسا عقدة مخالفة يعترف فيها باستقلال أوغندة ووعدته أن يصحب سفراءه الى القاهرة وكان يقوم بفكره ان هذا أحسن ما يستطيع .

وفي ٢ سبتمبر كتب غوردون من مروي مذكرة الى البعثة الدينية الانكليزية في أوغندة ليعرفها الخطة التي يجب عليها اتباعها إذا كانت ترغب أن تفيد متيسا فائدة مستديمة فقال : « ان المصريين أخذوا يديرون للانكليز اكتافهم ويولونهم إعراضهم . وانه اضحى من المحقق أنهم لن يصبروا طويلا على احتمال ما يرسمونه لهم من الخطط إذ ان كل حادث صغير يحدث يذكى في نفوسهم نار الكراهة للانكليز ويزيد في شنائهم لهم . فمداخل الانكليز في زنبار والحبشة وارسالهم الآن ايضا هذه البعثة التي يتجلى من كيفية تأليفها انها بعثة لا دينية اكثر منها دينية كل ذلك مما يزيد في جفاء المصريين لهم . وقال ايضا لها انها اذا لم تتصرف في أعمالها بالعقل والحكمة فسوف تجر الخراب على متيسا وانها بالعكس اذا تصرفت حسب مشورته

فأن تصرفها يعود عليه بالخير . وانه يجب عليها أن تسمى في توثيق عرى الاتحاد والمودة بينه وبين مصر إذ ان وقوفه في موقف المعارضة يعرضه لأوخم العواقب . وانه مهما كانت جنود متيسا منظمة ومزودة بالسلح فان جنود مصر لا تلبث أن تنتصر عليهم وتلحق بصفوفهم الهزيمة . وعلى البعثة أن تفهم أنه يقصد من هذا القول مهمتها الدنيوية لا الدينية وهو يسألها إلى أى الأمرين يجب توجيه نظر متيسا : أ إلى تسليح رجاله أم إلى التكفير عن ذنوبه ؟ إن أولئك الذين يأخذون الناس بالسيف بالسيف يؤخذون . انه - أى غوردون - يعتقد اعتقادا لا يتسرب اليه الشك ان الله تكفل برعاية الأمور الدينية أما اذا ما هوى الانسان فاتخذ الوسائل الدنيوية فمن غير المستبعد ان تصادفه مقاومة عالمية . » .

وفي ٢ سبتمبر عند ما كان غوردون في مرولى طرأ على فكره ان مأموريته أشرفت على النهاية وانه بعد بضعة أيام سيولى وجهه شطر بلاد الانكليز وانه لم يقيم بعمل يسمى عملا حقيقيا إلا سنتين فقط بدايتها سبتمبر عام ١٨٧٤ م ونهايتها الشهر المذكور عام ١٨٧٦ م ومع ذلك سلم بأن ما أداه من الاعمال كان في حيز الاستطاعة تأديته في ١٥ شهرا فقط بدلا من عامين . هذا اذا لم تعترضه رداءة المناخ وتراعى المسافات وهما العلتان اللتان تقفان عثرة في سبيل تقدم البلد بسرعة .

وفي ٩ منه قدمت الجنود التي كانت في عاصمة متيسا الى مرولى وكان بصحبته طبيب . وكان متيسا قد طلب من هذا الطبيب أن يترجم له التوراة التي كان استانلى قد أهدى اليه نسخة منها . وللوصول الى ذلك دعت الحالة لترجمتها الى ثلاث لغات متباينة . وأخذ غوردون يتسائل عما

استطاع ان يفهمه متيسا بعد ذلك . وأراد متيسا ان يحجز لديه الشيخ الذى أرسله اليه الخـديو رغما عن كونه خرج عن دينه واعتنق الديانة المسيحية ولكن غوردون لم يجبه الى مرغوبه .

سفره من مرولى الى نياميونجو

وفى ١١ سبتمبر بارح غوردون مرولى وانتقل الى جبل ماروزى Marousi الواقع على مسافة ٢٥ كيلومترا جنوب مرولى ولدى وصوله تعلق الأهالى وهم من اتباع كباريجا فيما سلف باذيال الفرار وتواروا عن الابصار فى جوف الحشائش العالية القائمة على جروف النهر . وورد اليه تقرير من أحد ضباطه كان قد ذهب لمقابلة متيسا وهو تقرير مضحك . ويلوح ان هذا الملك استاء أشد الاستياء عند ما علم بقدوم غوردون الى ما جونجو بالباخرة .

وزايل متيسا اعتقاده فى الاسلام والنصرانية فأرسل فى طلب السحرة وتحادث معهم زهاء خمس ساعات دون ان يحصل على نتيجة طيبة . ثم بعث بعد ذلك وراء الضابط وأقسم له انه لا يضمّر لغوردون إلا المودة والحب العظيم ثم وجه الى الضابط وابلا من الاسئلة عن الموجب لقدمه دون أن يحصل من ذلك الضابط على جواب مطمئن . وكان نصف بنادقه بشطف ولم يكن لديه رصاص ولكنه كان يعمل خردقا من الحديد . وكان لديه ٥ مدافع صغيرة من البرونز بدون جرار من الطراز الذى يوضع فى اليخوت لتأدية السلام .

وكان متيسا اضاع ثقته من الناس قاطبة فما لبث أن غير ضباطه وكان جميع ما فى حوزته من البنادق ٨٠٠ بندقية مختلفة الطراز . وخشى غوردون

ان يكون متيسرا تعلم من جنود مصر كيفية تشييد الزرائب غير أنه يلوح انه هدم الزريبة التي أقامها هؤلاء الجنود .

وكانت بلاده مكشوفة من جميع نواحيها وبها الشيء القليل من الحشائش عكس بلاد المشايخ الآخرين الجانحين للعداوة والخصام الامر الذي كان يلقي المصاعب في سبيل كبح جماحهم . ومن باب الاحتياط ابتعد غوردون عن البحيرة وكان المصريون مغتاظين أشد الاغتيال من متيسرا نديانة المسيحية . وقد استدعى متيسرا الطيب وكان الماني المحتد ويدين بالديانة الاسلامية وتسمى باسم امين افندى وترقى فيما بعد الى رتبة باشا وصار حكامدار مديرية خط الاستواء . وبعد أن أراد ناقوسا قال له ان عرب زنبار حجروا عليه أن يدقه في أوقات الصلاة وطلب منه أن يعمله ماذا ينبغي عليه ان يعمل . فسأله الطيب عن الدين الذي يعتنقه فأجابه انه نصراني فقال له انه ينبغي عليه ان يدقه وقت الصلاة فأجابه بأنه سيفعل ذلك . وبعد سفر الطيب استدعى متيسرا الشيخ الذي كان بعث له به الخديو وأمره بأن يقيم الصلاة جبرا حسب الشعائر الاسلامية .

وفي ١٣ سبتمبر مشى غوردون ٣٠ كيلومترا وكان الحر شديدا . وكان عليه ان يسير عـلاوة على ذلك يوما ونصف يوم نحو الجنوب ليتمم رحلته ثم يقفل راجعا نحو الشمال . وفي ١٤ منه قطع مسافة ٢٥ كيلومترا مشى الى ٨ كيلومترات الاولى منها بين حشائش عالية وأدغال كثيفة وهجم عليه من الأدغال شرذمة من الأهالي فرد غارتهم بنوبة طلقات من افواه البنادق بعد ان جرح من عسكره جندى واحد . وفي ١٥ منه وصل الى نياميونجو وكانت الاراضى كثيرة الآجام والغابات .

عودته الى مرولى

وصمم على ان يقفل راجعا فى الغد الى مرولى التى تبعد عن نياميونجو ١٢٠ كيلومترا . وكان فى كل هذه المسافة لا يمكن الرسو بجانب جنفاف النهر بسبب شجيرات البردى والمستنقعات إلا فيما يقرب من الكيلومتريين . وتبعد مرولى عن فويرا هذه المسافة عنها ولا يمكن الدنو فيها من البر إلا فى نقطتين اثنتين . وبين فويرا ومساقط مورشيزون يوجد اكثر من نقطتين . ومن هذه الى ماجونجو مسافة ٣٠ كيلومترا لا يوجد اكثر من ٣ رسوات . ومن الناحية الاخيرة الى دوفيليه كان يوجد ٥ رسوات فى مسافة ٢٢٠ كيلومترا . وفيما وراء مساقط فولا الى الرجاف أى مسافة ١٧٠ كيلومترا كانت السفن تستطيع الرسو أينما أرادت . ومن الرجاف الى لادو مسافة ٢٠ كيلومترا لا يمكن الدنو من البر إلا فى غندوكورو لا غير . ومن لادو الى بور مسافة ١٤٠ كيلومترا لا توجد إلا رسوة واحدة فى بلد الشير . ومن بور الى سوباط مسافة ٦٠٠ كيلومتر لا يمكن الرسو إلا فى محل واحد هو محل البعثة القديمة . ومن سوباط الى فاشودة مسافة ١٠٠ كيلومتر لا توجد أية رسوة .

وفى ١٧ سبتمبر وصل غوردون الى مرولى وكان النهر أشبه شىء بالبحيرة ومأؤه رهوا . وشرع رجال كباريجا يهددونه بالهجوم غير ان بعض طلقات من البنادق ردتهم الى الصواب وحملتهم على العدول عن الاغارة . وكان اجتياز المعابر الضيقة أمرا فيه شىء كثير من الخطر لأن فى استطاعة الأهالى الاختفاء بين الاعشاب العالية وتصويب حراهم نحو المراكب بدون أن يستطيع من بها أن يراهم .

ووجد غوردون لدى وصوله مكاتبات من متيسا ردا على ما كان حرره له بشأن ما عرضه عليه من عقد المخالفة وقد التزم متيسا في رده الصمت عن هذا الأمر وأخذ يوجه الى غوردون الاستعطافات وطلب منه بنادق .

سفره الى مازندى

وفى ٢٠ سبتمبر اتخذ سبيبه فى البر ميمما مازندى وسار الى أن وصل فى ٢٢ منه الى نجد مرتفع يقال له « كيسوجا » وكان غوردون ارسل من فويرا قبل ذلك بأيام تجريدة لاحتلال مازندى وكان رغما عما بلغه من التوكيدات بصدد احتلال التجريدة لها تساوره الشكوك فى صحة الاخبار التى وصلت اليه . أما الآن وهو على قيد زهاء ٢٠ كيلومترا من مازندى فقد تحققت ظنونه وثبت لديه ان الناحية التى احتلها باسم مازندى ما هى إلا قرية تبعد عن هذه مرحلة يوم وكان سائرا شطرا مازندى معتقدا ان جنوده محملة ربوعها . ولما وصل اليها وجد انه بقى بينه وبين جنوده مرحلة يوم وكان يصحبه ١٠٠ جندى وكان يأمل أن يصل اليها بسلام . وبعد أن جالت برأسه هذه الأفكار ارتأى أن هذه الحالة ربما مهدت له سبيل توزيع الجند بطريقة اكثر نفعا وأنه على كل حال لا يقع فى ملكه سبحانه وتعالى إلا ما أراد .

وفى ٢٤ منه اجتاز مسافة ٢٥ كيلومترا . وكان الأهالي يحدقون بجنوده طول عصر هذا اليوم وهم يدقون الطبول وينفخون فى الابواق اشارة لما يجنحون اليه من مناصبته العداوة والبغضاء وعلاوة على نيتهم الاغارة عليه . وكان ما زال عالقاً بذهن غوردون مسألة انسحاب سير صمويل بيكر من

مازندى ولذلك ما كان مطمئن الخاضر ولا مستريح البال لا سيما ان ال ١٠٠ جندى التى كانت برفقته كان من بينهم ٣٠ جنديا من الجنود الحديثة لا تتجاوز سن الواحد منهم ١٦ عاما . وفى الواقع كانت الحالة داعية لعدم الطمأنينة موجبة للاشفاق لان الجنود كانت تعبر منطقة تكسوها الحشائش العالية الشديدة الكثافة تحيط بها الأهالى من كل ناحية . وكان هؤلاء صوبوا ذات مرة النيران على الجنود غير انه لحسن الحظ جرت جميع الامور فى مجرى حسن وتم كل شئ على غاية ما يرام فقدم غوردون الشكر على ذلك لله وحده من سويداء قلبه

وأخطر ضابط القوة التى كانت أرسلت لاحتلال مازندى بأن يحضر لمقابلة غوردون وكانت الآمال تساور غوردون بأن يتحدث معه عشية اليوم اذ انه كان دهشا لاقدام هذا الضابط على ان يؤرخ مكاتباته من مازندى ويرسل إليه الأخبار بالاستيلاء عليها . وكان غوردون يظن انه استولى على « كيروتو » فى الاغلب . ولما علم كباريجا بمقدم غوردون بارح مازندى وولى وجهه شطر بحيرة البرت .

وفى ٢٥ سبتمبر قطع ١٥ كيلومترا فى نواحي مغطاة بالحشائش المتناهية فى الكثافة وكان يأمل ان يصل فى الغد الى الجهة التى يقال لها مازندى . وفى ٢٦ منه قطع ايضا ٢٠ كيلومترا بين غابات كثيفة ظل فى جوانبها فأرسل ادلاء للبحث عن « كيروتو » التى قيل انها مازندى وانتهى الأمر بالعثور عليها ودخلوها فى اليوم نفسه بدون ان يحضر أحد من الحامية لمقابلته فأنب غوردون ذلك الضابط على ما حدث منه وعنفه تعنيفا شديدا الا انه نظرا لعدم طرؤ أى حادث مكدر وانقضاء الحالة على ما يرام

عفا وصفح عنه .

وقد عزم غوردون على مناوأة كباريجا وتربص حتى تجف الحشائش فيحرقها ثم يؤلف كتائب لهذا الغرض بالكيفية الآتية :-

تؤلف الكتيبة الاولى من ١٥٠ جنديا و ٣٠٠٠ رجل من قبيلة « اللانجو » وتذهب من مرولى الى كيسوجا .

وتؤلف الثانية من مثل هذه القوة وتسير من كيروتو الى مازندى .

وتقيم هاتان الكتبتان زرائب فى كيسوجا وفى مازندى . وهذا العمل يستغرق ٤ أيام ثم بعد ذلك يجوسون خلال الديار فى سبيل البحث عن كباريجا .

وتتلق الكتيبة الثالثة على ظهر الباخرة ميممة شطر بحيرة البرت نيازنا ومنها تذهب الى فاكوفيا فتحملها بقصد تلبية كباريجا وتضليله .

وكان غوردون يتساءل عما اذا كان ينبغى عليه ان ينتظر وقتا ما ليسيير هذه الكتائب .

وبعد أن قتل هذه المسألة بحشا وتمحيصا رأى أن تربصه لاتمام هذا العمل ليس ضروريا لأن القوة التى تحت تصرفه من الرجال للقيام بهذا المشروع تضمن نجاحه . نعم يوجد لدى كباريجا عدد كبير من الاتباع ولكن عند ما يهاجم من كل صوب وناحية لا يستطيع البتة الخلاص من الهزيمة . وعلاوة على ذلك فانه بعد ما يزود الضباط بالتعليمات والآراء اللازمة وتعدو فى حوزتهم جميع الوسائل المؤدية لتنفيذها فانهم يقومون بالعمل

على الوجه المرضى أحسن مما لو كان معهم غوردون إذ أن وجوده بينهم يغل أيديهم ويحصر دائرة افكارهم فلا يتصرفون إلا حسبما يوحيه اليهم ويأمرهم به . وكان وجود السياجات في كيسوجا و مازندى سندا للجنود وعضدا كبيرا لهم . ثم إن احراق الحشائش يزيل جميع الأخطار إذ به تنكشف الأرض فيمتد البصر ويرى الاشياء على مسافات شاسعة . وفوق هذا وذاك فإن اهالى هذه النواحي بعكس الباريين لا يشنون غارات البتة فى الليل .

وقد تألفت التجربة السابقة ذكرها بعد ذهاب غوردون وطاردت كباريجا وعادت بغنائم كثيرة من الماشية إلا أن الجنود ما كادوا ينسحبون من البلد حتى رجع كباريجا اليه .

وبارح غوردون فى ٢٨ سبتمبر « كيروتو » Keroto وسار ٣٠ كيلومترا ثم عاود المسير فى الغد (٢٩ منه) حتى وصل فى هذا اليوم عينه الى ماجونجو . ومن هذا يستنتج أن صحته كانت على ما يرام .

وكان من عادته انه عند ما يصل الى محطة يجمع الجنود ويسألهم عما اذا كان لديهم ما يشكون منه . وكان يفعل ذلك اتقاء لوقوع جور على الجند . غير أنه فى هذه المرة لم يفعل ذلك إذ انه رأى ان جمع الحامية عقب وصوله فى الحال من سفر ٦٠ كيلومترا عمل غير سديد .

وذهب فى الغد لمشاهدة مساقط مورشيزون فوجد ان ليس لها من الأهمية ما كان يتخيله أولا . وفى ٢ اكتوبر بارح ماجونجو قاصدا « شيبيرو » Chibero الواقعة على بحيرة البرت نيانزا وقد عقد النية على أن يعود

الى حيث سافر بعد ٤ أيام . وألقيت المرساة على قيد ٢٥ كيلومترا من « ماجونجو » .

وكان البحر مأؤه رهوا غير ان تموجه كان يشعر به . وهذا يدل على ان عاصفة قريبة العهد مرت به . وأخذت الباخرة فى الليل تتمايل بمن فيها على الجانبين ومن الأمام الى الخلف وبالعكس بسبب مرور عاصفة الأمر الذى جعل غوردون يدرك أن الانحار على تلك البحيرة مع ملاحين مجردين من الخبرة لا يميزون رداءة الجو ولا كيف يعدون المواقف الموافقة للرسو ، شىء لا تحمد عقباه .

وفى ٣ اكتوبر واصل السفر الى ان بلغ بقعة تجاه « شيبيرو » وأبصر جبال مازندى على بعد زهاء ٤٠ كيلومترا . وكان صياد من الأهالى يصطاد فى زورق فقجأته الباخرة على حين غرة منه ولم يرها إلا بعد ان دنت منه . وحاول عندئذ الهرب إلا انه لم يجد الوقت الكافى لذلك وقبض عليه . وسيق الى ظهر الباخرة . ودهش الرجل إذ أن بصره لم يقع قبل الآن على شىء كهذا . واعطاه غوردون خطابا برسم كباريجا الذى كان يوجد فى داخلية الأرض على مسافة بضعة أيام وأعطى له كذلك بعض الهديا وأطلق سراحه فانصرف وقد تلعم لسانه وأخذ يسير بدون أن يلتفت وراءه لشدة ما أصابه من الدهول الى ان اختفى فى الحشائش .

وكان غوردون ينوى من وراء هذه السياحة أن يقيم محطة فى شيبيرو لكي ينظم خط مواصلات بين البحيرة ونيل فكتوريا ولذا أصدر أمرا لجنوده بالعودة عند ما وصل الى الموضع الذى كان يرى وصوله اليه لازما .

عودته من ماجونجو الى لادو

وفي ٦ اكتوبر رحل عن ماجونجو ميما وجهه شطر الشمال ابتغاء العودة . وفي ١١ منه بلغ لادو . وبعد بضعة أيام من وصوله اليها وردت له انباء من « لاتوكا » منبئة بأن طائفة من الزنوج هاجت السيد احمد العقاد وتجارا آخرين وأن هؤلاء جميعا أمسوا في أخرج المراكز محاصرين من جميع النواحي وأخذ زادهم ينضب .

وتقول هذه الأخبار أيضا ان لدى أولئك التجار كميات كبيرة جدا من السلع الغالية عظمة القيمة وانهم يلتمسون الاسعاف في اقرب وقت وإلا فمصيرهم الأسر أو القتل ومصير بضائعهم ومتاعهم السلب والنهب . فاضطر غوردون ان يعد تجريدة ويسيرها الى تلك الربوع بقيادة الصاغ محمد عبد الكافي افدى وهو ضابط سودانى من ضباط الجيش المصرى .

وانطلق ذلك الضابط ووجهته « لاتوكا » فى طريق تتخلله الجبال الوعرة وأراضى يسكنها زنوج متوحشون فكانوا يقطعون عليه الطريق ويضطرونه لمحاربتهم وإيقاع الهزيمة بهم بواسطة الأسلحة النارية .

واستمر سائرا على هذا الحال الى ان ادرك المكان الذى يقصده فوجد طه بن محمد وكيل محمد السيد موسى العقاد وفريقا من المصريين نخلصهم من الورطة التى كانوا واقعين فيها والمأزق الحرج الذى كان محققا بهم ورجع معه أولئك الاشخاص بأمتعتهم وبضعة آلاف من حمير لاتوكا وهى حمير ذات لون اخضر تمشى ببطء فهى تشبه فى مشيها الابقار وتدر لبنا كما تدر هذه وتقنى لهذا الغرض لا للركوب وحمل الاثقال .

وقد دهش الجنود لما رأوا هذا النوع من الحمير بهذا الشكل وهذا اللون الغريبين . ووزع غوردون هذه الحيوانات على الضباط والجنود وأوصى بتدريبها تدريجياً على حمل الاثقال والانسان ودربت فعلاً الى أن استعملت لذلك ولكن بعد صعوبة كبرى .

سفره الى الخرطوم ثم القاهرة

وفي ١٦ أكتوبر بارح غوردون لادو الى الخرطوم. فبلغها في ٢٩ منه . ثم سافر من الخرطوم في ١٢ نوفمبر مولياً وجهه شطر القاهرة فدخلها في ٢ ديسمبر .

وإلى هنا انتهت حكمدارية غوردون لمديرية خط الاستواء وقد دامت من الوقت سنتين وشهرين وثمانية عشر يوماً .



جیسی باشا مدیر مہدیہ خیر العزیز

١ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

رحلة جيسى وارتياده لبحيرة

البرت نيانزا^(١)

من ٧ مارس الى ٢٣ أبريل

تكليف جيسى كشف بحيرة البرت نيانزا

كان أمير الألاى غوردون يحاول حل اشكال بحيرة البرت نيانزا من الوجهة الجغرافية أثناء وجود جيسى فى نواحى بحر الغزال وكان يريد أن يتحقق مما اذا كانت هذه البحيرة هى آخر خزان للنيل أو تابعة لمجموعة « الشيرى » أو الكنفو المائية .

وقبل هذا كان سير صمويل بيكر قد كشف من عهد غير بعيد وجود اتصال بين فكتوريا نيانزا وبحيرة البرت أعنى نيل فكتوريا ، وأكد أنه يوجد مجرى ماء شمال نيل فكتوريا الذى هو عبارة عن خزان وانه من الجائز ان هذا المجرى لم يكن سوى النيل بين دوفيليه وغندوكورو .

غير ان بعض علماء تقويم البلدان ارتابوا فى وجود هذا المجرى الشمالى الذى لم يستطع سير صمويل بيكر أن يجزم برؤيته رأى

(١) — راجع كتاب « سبع سنوات فى السودان » لمؤلفه جيسى باشا من ص ٩٩ الى ص ١٣٦ .

العين . وكان هؤلاء العلماء يؤيدون ان نيل فكتوريا يخرج من بحيرة فكتوريا نيازرا ويسير محاذيا لبحيرة البرت من جهة الشمال الشرقى بدون أن يختلط مأؤه بماء هذه البحيرة . ويوجد بالفعل عدة خرائط مخططة في ذلك العهد وفيها نيل فكتوريا مرسوم على يمين بحيرة البرت .

وعلى هذا كان يهتم غوردون بنوع خاص ان يفصل هذا الاشكال لما في ذلك من الفوائد العالمية عامة والفوائد الاقتصادية والسياسية خاصة التي تعود على الحكومة المصرية . إذ أنه لو تحقق ان النيل يخرج من بحيرة البرت لاستطاع السودان المصرى بواسطة هذا المنفذ النيل العظيم أن يمد نفوذه وممتلكاته الى قرب خط الاستواء لغاية مملكة كباريجا شرقا ومونبيتو Monbettu و أككا Akka والاقطار التي لم يرتدها أحد الى ذلك الوقت غربا .

وقد أرسل لهذا الغرض اثنين من أفاضل ضباط الانكليز وهما المستر وطسون وشيندال وكلفهما أن يصعدا مع النيل لحسم هذا الاشكال . فسافر وطسون وبعد أن سار بضع مراحل غير مجددة رجع الى دوفيليه التي سافر منها . أما شيندال فتابع السير وأخذ يرتاد النواحي الى أن بلغ وادلاى . وهنا علم ان مرض الجدري منتشر في أعلى النهر الذى كان يرتاده . ولما لم يكن مزودا بأية آلة من آلات التلقيح وكان يخشى على حرسه من الهلاك آب هو ايضا الى دوفيليه بدون أن يتمكن من انجاز مأموريته .

وعندئذ فكر غوردون في استدعاء جيسى الذى قبل القيام بهذا المشروع العسير . وكان جيسى في هذه الآونة في الخرطوم فاستقدمه غوردون الى غندوكورو في شهر اكتوبر سنة ١٨٧٥ .

اعداد حملة لهذا الغرض

حضر جيسى وأخذ يشتغل فى اعداد وترتيب الحملة . وتزود لهذا الغرض بباخرة ومركبين مصنوعتين من الحديد احدهما اسمها « دوفيليه » والاخرى « ماجونجو » حملتهما معا زهاء أربعة اطنان ونصف طن . وهاتان المركبتان كانتا فى غندوكورو من نحو سنة واستقدمهما سير صمويل بيكر ثم أمر بفكهما . وكان نقلهما الى دوفيليه وهى النقطة المزمع الاقلاع منها لا يخلو من الصعوبة . واضطر جيسى لاتمام عملية النقل ان يجمع ٧٠٠ رجل من مكراكا واستحضرهم خصيصا من بلدهم لهذا الغرض وجمع من غندوكورو ٣٠٠ من الجمالين . وكان الطريق بأسره مخفوقا بالمصاعب . وكان على الحملة ان تجتاز جبالا شائخة وغابات ليس بها مسالك مطروقة ومخاضات وتقتحم عقبات شتى .

ووصلت الحملة أخيرا الى دوفيليه وفى الحال شرع جيسى فى تركيب الباخرة والمركبين بهمة كبيرة حتى ان غوردون لما قدم بعد شهر ليعاين الاعمال وجد ان المركبين قد تم تركيبهما وان العمل فى تركيب الباخرة سائر شوطا بعيدا .

وهذه ترجمة مذكرات جيسى التى كتبها بالقلم الرصاص يوما يوما فى خلال رحلته المخوفة بالأخطار :—

سفره من دوفيليه

فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦ أقلع من دوفيليه ومعه سفينتان من الحديد

وهما « دوفيليه » و « ماجونجو » وكانتا مساحتين وبهما ١٨ ملاحا من الدناقلة و ١٢ جنديا . وانضم الى جيسى حينما شرع فى القيام بهذه الرحلة « كارلو پياجيا » Carlo Piaggia وكان كلف هذا بمرافقة الحملة لغاية « ماجونجو » على أن يحاول بمفرده القيام بارتداد نواحي بحيرة كاييكي Kapeki .

وقضى جيسى الليل فى زريبة بنجيت ومنها اكترى مترجما . وفى الغد هدأت الريح فخرت بهم السفن النهر بسرعة أعظم منها فى اليوم السالف غير أنه عند ما أشرفت الشمس على الأفول هب إعصار اضطر الحملة الى الرسو عند زريبة . وصاد جيسى وعلا وفرقه على رجاله .

وفى ٩ مارس أتت الرياح بغير ما تشتهى سفن الحملة إذ اخذت تهب من الغرب والجنوب الغربى . واقلعت المراكب عند الساعة الثانية والنصف صباحا وداومت السير الى الساعة ٦ مساء فقطعت ١٨ ميلا .

وفى الغد عاود جيسى الابحار عند الساعة ٥ صباحا . وفى الساعة العاشرة صباحا لاح للحملة بعض جزر مغطاة بأشجار الموز ولكن الحشائش العالية حالت دون الاقتراب منها . وفى الساعة الثانية والنصف مساء عصفت رياح عاتية من الغرب مصحوبة بالامطار واستمر هذا الحال الى الساعة الرابعة والنصف مساء . وفى الساعة ٧ اخذ ثانية فى المسير إلا أن زوبعة أخرى مالبثت ان تارت فعاقت سير المراكب فى الحال .

وفى ١١ منه بينما كانت المراكب تتمخر عباب الماء عند الساعة ٥ صباحا اصطاد جيسى حيوانا يقال له « بيرينجى » Piringi غير انه لم يستطع ان ينتشله لكثرة الحشائش السابحة . وعند الساعة العاشرة مرت المراكب أمام

زريية « بارو » Baro . وتشبه الأرض المرتفعة في هذه الناحية جزيرة بارزة في وسط المستنقعات تكسوها غابة على حافتها تقوم القرية . فحال في خاطر جيسى أن هذا المكان يصلح كثيرا لبناء محطة وللحصول على الوقود اللازم للملاحة . وقد تعلق اهالى تلك الجهة بأذيال الفرار .

ويوجد في هذه المنطقة عدة مسطحات من الأرض صالحة كثيرا للزراعة وأشجار جمّة من شجر الموز والنهر فيها عميق تستطيع فيه المراكب ان تدنو بعضها من بعض بسهولة . ومن « بارو » الى دوفيليه أى مسافة ٧٣ ميلا يوجد دواما بالنيل العمق الكافى رغما عن ازدحامه بالجزر السابحة ازدحاما خارقا للعادة ولا يوجد بهذه الجزر كثبان من الرمل بل كلها مكوّنة من الاعشاب ونباتات البردى ذات الجذور المشبّكة اشتباكا عظيما ويبلغ عرض الجزيرة الواحدة منها على وجه العموم ٤ أو ٦ ياردات ولكنها غير صالحة للسكنى والبعض منها يمتد في الطول ٣ أو ٤ أميال بدون أن تعوق مع ذلك الملاحة . وكثيرا ما كانت تنتقل هذه الجزر من مواضعها . فاذا ثارت عاصفة عاتية اكتسح الهواء الجزر امامه وسيرها بسرعة ٤ أو ٥ أميال في الساعة ثم يلقيها على جزر أخرى من نوعها أو على حافات النهر فيقلبها في الماء .

فهذه الاسباب كان منظر النهر يتغير دائما ويتعذر رسمه على الخريطة رسما محكما . وعلى ذلك كانت الخريطة التى شفّعها جيسى برحلته لا يمكن أن تكون مضبوطة من حيث دلالتها على مجرى القنوات . وكان كذلك من المتعسر ذكر سرعة جريان الماء فقد كانت تبلغ في بعض المواضع ميلا واحدا في الساعة وفي مواضع أخرى كانت تتراوح بين المليون والثلاثة اميال . ويمكن تقدير متوسطها بنحو ميلين في الساعة .

وكانت ضفتا النهر وبخاصة الضفة اليمنى مأهولة بكثير من السكان . وبشرة الأهالي سمراء كلون البرنز والجميع بدون استثناء يكسون جانبا من اجسامهم بجلد الماعز أو جلد الوعل . وهم من مهرة الزراع . سلاحهم المزاريق والقسي . ومساكنهم في القرى لم تك متفرقة ومشتتة على مسافات بعيدة كما هو الحال في الجانب الاكبر من الاقطار الافريقية بل مجتمعة مع بعضها ومحاطة بسياج من الاخشاب .

وفي الساعة ٣ مساء وصلت الحملة الى ممر كثير الاخطار ليس له منفذ نحو الجنوب . وكانت المراكب التي يجرها الرجال تلاقى صعوبة كبرى في اجتيازها هذا الممر وبعد معاناة الأهوال مدة ٥ ساعات دخلت في المجرى الاصلى غير أن جيسى عندئذ أدرك أنه ضل الطريق وأنه لابد أن توجد قناة أخرى فكان عليه ان يدرس الموضع درسا أوفى ما دامت الطريق التي سلكها لا تصلح لاتجاه الباخرة صوب البحيرة .

وفي صبيحة ١٢ مارس حصر همه في البحث عن القناة التي يجب عليه ان يمر منها فاهتدى الى ترعة صالحة للملاحة رغما عن كون مدخلها تكاد النباتات المائية تحجبه عن الأبصار .

وزايل هذا المكان في الساعة الثامنة والرابع صباحا واتجه شمالا مغربا وسار بمحاذاة الضفة المأهولة بقبيلة « مادي » Madi . ووقع نظره على مكان مرتفع به غابات يصلح كثيرا لاقامة محطة فيه . ويلوح أن الأهالي على جانب عظيم من الجبن إذ أنهم ما وقعت أبصارهم على أفراد الحملة حتى لاذوا بأذيال الفرار الى داخلية البلاد خوفا وجزعا تاركين ضياعهم وقطعانهم . وإن هي إلا أن انسحبت الحملة بعد ذلك حتى رجعوا الى مساكنهم .

ولم يكن الهواء موافقا وكانت المراكب تسير ببطء وألقت مراسيها في الساعة ٦ مساء . وفي ١٣ مارس أقلعت عند الساعة ٥ صباحا . وكان الهواء يهب على غير المرام جنوبا مغربا فأخذت البحارة في التجديف . وانكشفت أمامهم قرية جهة اليسار على مد البصر وعلى مسيرة ساعة . وأهالى هذه القرية يختلفون اختلافا كبيرا عن قبائل « الاردرى » Ardus لأن مئات منهم لا حقت مراكب جيسى ولما رأوا انه لا ينوى الوقوف أخذوا في الصباح . ويقول جيسى انه مع شدة رغبته فى التفاهم معهم لم يتوصل الى ادراك شئ مما كانوا يقولون . وركب ثلاثة منهم قارباً ونجحوا فى الوصول اليه فاستقى منهم الاستعلامات التى كان يريد الحصول عليها بصدد بلاد وادلاى .

وفى الساعة العاشرة من اليوم المذكور وقفت الحملة عند قرية واقعة على الضفة اليسرى بين القرية السالفة الذكر وجدول ماء صغير . فبادل أهلها بأن أعطاهم أشياء وأخذ فى نظيرها دجاجا وبعض المأكولات وانطلق بمراكبه يبحر عباب الماء . وبعد مسير نصف ساعة وجد الطريق مسدودا . وكانت سرعة التيار فى هذا المكان ميلين فى الساعة والريح فيه تهب من الجنوب فتحول دون تقدم المراكب . وبعد بضع ساعات عاودت الحملة الابحار ثم ألقت عصا التسيار عند قرية « اديلاي » Adilai الكبيرة التى شيخها شقيق وادلاى . وهذه القرية واقعة على ضفة النهر اليسرى . وحضر اكثر من ٤٠٠ نسمة من الاهالى وهم عزل من السلاح لاستقبال الحملة وصاحفوها ووجوههم طافحة بالبشر دلاله على الارتياح . وأزال عدم حملهم الاسلحة كل ريب من النفوس لدى الحملة . وكان جيسى قد علم عند ما بارح دوفيليه أن مدير هذه الناحية غاب عن ذهنه أن يزود جنوده

بكمية من الذرة تكفى مدة شهر وسافر الجنود بدون أن ينبسوا
ببنت شفة .

وقد حدث به الحفاوة التى قابله بها الأهالى أن يأمل منهم الحصول على
شئ من الزاد . وبالفعل أمدوه بكمية وافرة من الدقيق وجانب من البطاطة
وعدد من الدجاج وعندئذ أقام سراقه ليقضى ليلته متمتعا براحة هنية .
وفى ١٤ مارس حضر عدد آخر من الأهالى فى الصباح وقدم ميرة غير التى
أحضرت بالأمس . وبعد ان اختار جيسى منها ما رآه لازما وضروريا أصدر
أمره بالرحيل . وفى هذا الوقت علم ان التراجمة الذين استحضرهم الشيخ بخيت
اختفوا عن الابصار . واستطاع جيسى بعد كثير من الترغيب بالوعود والهدايا
أن يحصل على رجل هرم من الجهة يقتادهم الى وادلاى .

وأقلعت المراكب فى الساعة ٨ صباحا وكان النهر فى أدىلاى عميقا وماءه
يجرى بسرعة ميلين فى الساعة بين ضفتين مرتفعتين اليسرى منها تكسوها
نباتات . وارتفاع الضفتين مائة قدم تقريبا . وكانت اراضى هاتيك البقاع عامرة
بالسكان والأدغال وقراها ليست عديدة إلا انها تفوق فى الاتساع كل القرى
التي وقعت عينه عليها فى أواسط افريقية .

وفى نهاية الأمر وصلت الحملة عند الساعة ٤ مساء الى مسكن شيخ وادلاى
وكان غرض جيسى من هذه الزيارة الحصول على ترجمان .

وفى الساعة ٦ مساء أرسل الشيخ يقول انه سوف يأتى غدا واشترط
لحصول ذلك أن يرسل له جيسى جنديين إذ أنه كان يخشى أن يقلع هذا قبل
قدومه . وعلى هذا جاوبه جيسى أنه باق فى انتظار مجيئه .

وأرسل جيسى جميع الملاحين فى بـكـور صباح الغـد الى الشاطئ حتى يتمكنوا من نـرح ماء المطر المدرار الذى هطل فى جوف المراكب . وبعد ان أتموا ذلك أرجعوا السوارى الى مواضعها . وقيل الساعة ٦ مساء كان كل شىء فى مكانه والبـجـارة انتظموا فى أماكنهم . وكان جيسى يريد بعمله هذا الاستفادة من الوقت الذى اضطر الى ضياعه فى انتظار هذا الشيخ الذى يرغب كثيرا فى لقياءه ومن المتعذر جدا مرآه .

وبعد ساعتين من اتمام جميع ما ذكر حضر شقيق وادلای ومعه عز وببيض وموز واشياء أخرى وأخبر بأن الزيارة الموعودة ستم بعد الظهر . وكان الوقت قصيرا غير انه كان لابد حتما من الصبر والاحتمال لأهواء ذلك الرجل . غير ان عدد الأهالى الآخذ فى الازدياد كان يلوح مدهشا إذ أنه ارتفع من ٣٠ الى بضع مئات وأخذ السهل يموج بهم . وعرف جيسى بسهولة بين هذه الجموع عدة وجوه سبق له رؤيتها فى بعض الزرائب التى زارها فى سياحة سالفة . وهنا تساءل جيسى : ماذا يعمل هؤلاء هنا ؟ وقال فى نفسه لعلمهم قدموا للدفاع عن وادلای . ومما لا مرأى فيه انهم لم يأتوا لمطلق المشاهدة إذ أنهم فيما سبق رأوا الحملة اكثر من مرة .

وطلب شقيق وادلای من جيسى هدايا . فخر هذا خاطره ومنحه عطايا مؤلفة من أشياء متنوعة مثل بلطة وادوات نحاسية وخيط وجواعير^(١) وغير ذلك وعلم منه ان وادلای وان كان رئيسا ذا قوة وبطش فهو لم

(١) — الجاعور لعبة للأولاد من الخشب أو غيره وهى أشبه بالخزوف ولها يد رأسية يقبض عليها باليد وتز قـتـدور ويصدر من دورانها صوت أجش .

يخرج عن كونه واليا من اتباع كباريجا ملك « أونورو » وان وادلای يتنزل عن جميع ما يجمعه من العاج الى الملك ويرسله اليه على ٥ أو ٦ دفعات في العام ويحتاج في نقله كل مرة الى ٢٠٠ أو ٣٠٠ حمال . وأن كباريجا يقطن في جزيرة ومنها يدير شؤون مملكته . وكل هذه التفاصيل نقلت الى جيسى بواسطة الترجمان ومع هذا لم يستطع أن يفهم اسم الجزيرة . وكان جيسى شديد الشغف والشوق لحادثة وادلای وكانت تساوره الآمال بأن يأخذ عنه معلومات أوفى واخبارا أصح .

ولاح في نهاية الأمر رجل وطنى هرم مرتد ثوبا قطنيا قرمزيا تتبعه حاشية مؤلفة من ٣٠٠ رجل . وخطر فى بال جيسى فى بادئ الأمر ان هذا هو الشيخ ولكنه ما علم ان تذكر ان الاوصاف التى تلقاها بصدد وادلای تنبئ بأنه رجل بادن قوى الجسم فأدرك فى الحال ان هذا الذى حضر لم يكن سوى رسول . وقدم هذا الرسول جرتين من المريسة Merissa وعنزة وقال ان وادلای مريض فلا يستطيع المجيء وانه كلف بأن يصطحب جيسى الى حيث يقيم سيده .

وبينا كان جيسى مرتبكا محتارا فى اختيار المسلك الذى يسلكه مع هؤلاء القوم اذا بذلك الرسول الذى حادثه بالأمن يقترب . وإن هو إلا أن وقعت عين ذى الشوب القرمزى على جيسى حتى تملص من ثوبه وفر فرار الآبق . وعندئذ أيقن جيسى أن أمامه عصابة لصوص وعقد النية على الانتقام .

واستدعى شيخ زريبة تبعد نحو ٦٠٠ قدم عن النهر وأمره أن يخبر وادلای بأنه اذا لم يرد إليه هداياه قبل غروب الشمس ولم يحضر الترجمان

قبل الغد أضرم النار في الزريبة وأحدث من الخسائر جهد ما يستطيع . ولم يلبث جيسى بعد هذا التهديد إلا قليلا حتى قدم الشيخ وادلای . وهو شخص بادن غير أن هيئته لا تنم على شيء من الوحشية . وأحضر وادلای معه الى جيسى على سبيل الهدية جرتين من المريسة وهي ضرب من الجملة يستعملها الاهالى ، وعزتين وجانبا من الموز .

وتحدث في نهاية الأمر مع الجملة وبذا استطاع جيسى أن يأخذ معلومات منه بصدد فرع من النهر يتفرع من النيل وينساب متجها نحو الشمال الغربى . واتساع هذا الفرع على ما يقال ٦٠٠ قدم وعمقه يتراوح بين ال ١٨ و ٢٥ قدما . وقال وادلای لجيسى إن تياره شديد جارف ولكنه لا يستطيع أن يدله على مدخله . وأنه يجرى تحت سفح الجبال فى بلاد « اللورى » Lori وان هؤلاء هم عبارة عن قبائل رحل غارقين فى بحور التوحش والهمجية . وأردف ذلك فقال إنه لم يستطيع قط أن يخاطر بالتوغل فى حدود أراضيهم ثم طفق يشكو من نهب هؤلاء القوم لماشيته واحراق قراه وذبح رعاياه .

وبعد أن قدم جيسى للشيخ وادلای بعض هدايا من الزجاج والأواني النحاسية والحديدية والأنسجة القطنية انقلبا صديقين حميمين لدرجة ان الشيخ عرض عليه أن يتبادلا الدم . ولما كانت هذه الصداقة تفيد كثيرا جيسى قاوم ما كان يجيش بصدرة وتغلب على ما كانت تشعر به نفسه من الاشتزاز من حفلة تبادل الدم وامثل لشعائرها ما دام ان ذلك يعتبر عندهم بمثابة يمين الاخاء .

وهذه كيفية القيام بتبادل الدم حسب اصطلاح أهالى أعالى النيل :

بعد أن توثق ذراعا المتحايين يتبادلان الدم من جرح صغير يحدثانه في القسم الأسفل من الذراع فيمتص كل منهما دم الآخر .

وأعطى وادلای وقتئذ الى جيسى مترجما وعند الساعة الثانية اتخذت المراكب سبيلها في البحر واستمرت في سيرها لغاية الساعة السادسة وكان منظر النهر واتساعه في المكان الذي وصلت اليه الحملة أشبه شئ ببجيرة وكان منقسما الى ترع احداها متجهة الى الجنوب الغربي والاخرى الى الشمال الغربي . وقال الأهالي لجيسى ان هذه الترفة الأخيرة واصله الى مسافات بعيدة وهذا ما جعله يظن انها موصلة الى مكرها كما غير انه لم يجد احدا يستطيع ان يمدّه بمعلومات شافية بهذا الصدد .

وفي ١٦ مارس عاودت الحملة السير في الساعة الرابعة صباحا إلا أنه عند ما وضع ضوء النهار أدرك جيسى أنه أخطأ الطريق وتوغل في رافد من روافد النيل خاله أنه المجري الرئيسى . وأدت الحال الى مسير ساعتين حتى استطاعت الحملة الاهتداء الى الطريق اللازم أن تسلكه غير أنها اضطرت الى الوقوف بسبب ريح صرصر هبت من الجنوب الغربى .

وتقوم في هذه الناحية على الضفة اليسرى سلطة وادلای محل سلطة الشيخ « ياكو » Yako لأن هذا كان في حرب مستعرة دائمة وعلنية مع « اللورين » . وكان هؤلاء نازلين في الجنوب الغربى وقاموا أخيرا بحملة شعواء فاجئوا بها قوم ياكو وأثخنوهم ذبحا وتقتيلا ثم بادلوا بعد ذلك الأسرى بشيران . وكان ياكو هذا مثل وادلای من اتباع كباريجا ويورد له ما يجمعه من ولايته من العاج .

وكانت ضفاف النهر مرتفعة من كل ناحية ولا يمكن الدنو منها إلا في مواضع قليلة إذ كان يوجد بينها وبين مجرى الماء الصالح للملاحة لسان من الأرض مفروش بالنباتات المائية . والجانب المتمد من النهر بين « دوفيليه » و « بيرا » Bira متسع وعميق وهو بحسب رأى جيسى أصلح الاقسام التي مر بها .

ويوجد على ضفاف النهر قرى عديدة عامرة بالسكان فيها يسرح ويمرح الأهالي في سعة من العيش واليسار مما لم تقع عين جيسى على مثله في بقعة أخرى من بقاع اواسط افريقية . وزراعة الذرة في تلك الجهات قليلة نادرة بل تكاد تكون معدومة . اما الموز فيقطع وينشر ويجفف ويقوم مقام القمح . ويزرع مع ذلك كميات وافرة من أنواع الفاصوليا والبطاطة . ويبيع الدجاج والبيض بأثمان بخسة . فبخمس عشرة خروزة من الزجاج يستطيع الملاحون أن يأكلوا اكلة دسمة مشبعة . ولقد توغل العرب أو النحاسون الدناقلة في غاراتهم في العصور الغابرة وواصلوا السير الى هذا المكان ولكن هذه الغارات كانت قليلة .

وفي ١٧ مارس دفع نسيم خفيف الحملة الى اراضي مملكة اللانجو Langos . وفيها يزداد عدد القرى عن الممالك الأخرى . وأحصى جيسى ٢٧ قرية في ميلين . والارض مرتفعة من جانبي النهر ويعم الخصب سائر الارحاء . وكانت الضفاف عارية من الاعشاب . ويبلغ عرض النيل في هذه الجهة ١٥٠٠ قدم وعمقه ثابت على حالة واحدة وهو أحسن مجرى ماء رآته عين جيسى في افريقية وربما في أوروبا .

وفي ١٨ مارس أخذت السفن مجراها عند الساعة ٤ صباحا . وكان

النهر متسعا في بعض الجهات اتساعا كبيرا جدا حتى انه كاد يتعذر على العين تمييز ضفافه .

ورأى جيسي بعض الأهالي من بعد يصطادون فحول ان يقترب منهم إلا أنهم كانوا حذرين فلم يشاءوا ان يترشوا ولاذوا على عجل بالفرار . وبعد ذلك لما رأوا انه لم يطاردهم وقفوا عن كذب ولكنه لم يستطع أن يحصل منهم على المعلومات التي كان يطمح في الحصول عليها .

وترك هذا المكان وعند اجتيازه للنهر صادف زورقا يسيره أربعة من الأهالي فساورته الآمال أن يستقى منهم المعلومات التي يبتغيها . ولكنه لم يستطع ذلك رغم ما بذله من المنح .

واظلمت السماء واكفهر الجو ولاحت بوارد العاصفة فألقى الملاحون المراسي في مكان أمين . وأخذت تهب ريح الاعصار عند الساعة ٨ واشتدت حتى تخيل المرء ان السموات قد فتحت فزوجها . وقضت الحملة طول لييلها تحت مطر كأنه الطوفان مصحوب بريح صرصر عاتية حالت دون نصب المضارب .

وفي ١٩ مارس لاح نور النهار والمطر ما زال ثجاجا ولم يبرز قرن الغزالة إلا عند الساعة ٨ صباحا . وامكن البحارة وقتئذ ان يعرضوا ملابسهم لأشعتها ليجففوها . وكانت المراكب ملأى بالماء فأخذوا في نزحها وعند الساعة ١١ كانت المراكب انسابت تسير في اليم ودخلت في القرع الموصول الى ماجونجو . وكان الهواء يهب من الجنوب باعتدال . وعلى هذا قام بخلد جيسي ان يصل في الليل ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل إذ ان

زوبعة أخرى أتت من ناحية ماجونجو فاضطرب الماء وتلاطمت الامواج في مدخل البحيرة وعلى ذلك رمى الملاحون المراسى عند الساعة الثانية .

وفي ٢٠ مارس كانت اعاصير مناطق خط الاستواء المتواصلة تعوق تقدم الحملة . وانهز جيسى مع ذلك في هذا اليوم وقتا هدأت فيه الرياح وحاول ان يجتاز المسافة الواقعة بين مكان الحملة و « ماجونجو » . وبعد عبور ٤ ساعات كاملة وصل الى الضفة الشرقية . وعلى بعد ٤ أو ٥ أميال من البر لاقت الحملة بضع جزائر وكثبان من الرمل غير أنه لما كان عمق الماء لا يقل عن ٦ أقدام أمكنها المرور من بين هذه العقبات . ولمسح في هذه الجزر سطوح بعض اكواخ لاذ سكانها بأذيل الحرب ومعهم انعامهم ودخلوا في الارض اليابسة حيث الضفة يتكون منها خليج يلتجأ اليه من هبوب رياح الجنوب .

وفي ٢١ منه كانت الحملة على أهبة الرحيل عند الساعة ٤ صباحا . وعلى مقتضى حساب جيسى كان لابد ان يكون نهر « ماجونجو » غير بعيد بعدا كبيرا . ووصلت الحملة الى شبه جزيرة كبيرة . وإن هي إلا أن وقعت عين سكانها عليها حتى هرع منهم ألوف الى الشاطئ يلوحون بإشارات تدل على التهديد والوعيد . ورأى جيسى أنه من الرزانة والحيلة أن يجعل بينه وبينهم مسافة . وسألهم عما اذا كانت الشقة الى « ماجونجو » لم تزل بعيدة . فأجابوا مرارا وتكرارا قائلين : نحن رعايا كباريجا . وهذا ما جعله يظن أن كباريجا يقطن هذه الاصقاع أو في النواحي التي تحيط بها مباشرة .

وعند ما كان جيسى مع شيخ « وادلای » حضر رسول من قبل

السلطان كباريجا وطلب ارسال جميع الرجال الذين تحت يده الى مازندى لنقل العاج المجتمع فيها الى محل أمين لأث العرب أخذت في الاقتراب من ممتلكات السلطان . وكان كباريجا مع سائر رجال الحرب التابعين له يتهيئون في غصون ذلك لمهاجمة محطة انقينا . وكان وادلاي قد وعد بالشيء الكثير من الزاد والمثونة غير انه لم يرسل شيئا .

وعلى هذا سار كباريجا نحو الشمال على رأس قوة كبيرة إذ روت له الانباء ان مراكب العدو الحربية لاحت . ولم تكن تلك المراكب سوى مراكب حملة جيسى . وهذا الخبر الفجائي غير المنتظر انقض على رهوس جميع رجال القبيلة انقضاض الصاعقة فكان كلما اقترب جيسى ورجاله من القرى الواقعة على شاطئ النهر ينادى المنادى بين اهاليها : الفرار !! الفرار !! الهرب !! الهرب !! وفي الحال ترك السكان اكواخهم حاملين متاعهم وسائقين أمامهم أنعامهم واختفوا في الادغال الكثيفة أو فوق قنن الجبال . وكانوا يداومون على النفخ في الابواق ليلا ويستدعون المحاربين بواسطة إشارات مصطلح عليها فيما بينهم ويشبون النار فوق المرتفعات . وفسر ترجمان جيسى هذه العلامات التي كان على علم بها فقال : إن نارا واحدة معناها اقتراب عدو . ونارين إحداهما تبعد قليلا عن الأخرى معناهما الاحتراس والتحصن في أماكن منيعة . وثلاث نيران بمثابة استدعاء للتجمع والاستعداد للقتال . وأربعا تفيد تقدم العدو وهكذا .

وكان كباريجا قد دخل قلبه الرعب فاستنجد بالسلطان متيسا وطلب منه عقد محالفة وامداده بالمعونة غير ان متيسا استصوب معالجة المسألة وتسوية الحالة بارسال مكتوب الى أمير الألاي غوردون . وكان هذا المكتوب مسطرا

بلغة انكليزية رديئة جدا . وقد ظن جيسى أن كاتبه خادِم انكليزى تركه استأنلى فى « رواجا »^(١) عاصمة السلطان متيسا ليحتفظ بجميع الاشياء التى تركت فيها على سبيل الأمانة .

وهذا مغزى الكتاب المذكور :—

« أنا متيسا سلطان سلاطين أوغندة نمت لك هذا الخطاب لاختبركم بأن لا تشبوا نيران الحرب على كباريجا لأن ذلك يكون بمثابة إعلان الحرب ضدى أنا . وكباريجا هو ملك أونورو . ولقد علمت انكم شيدتم مراكب حربية . وسأذهب الى بومباى . وان ملك ملوك أوغندة يهدى اليكم سلامه » .

هذا ، ولربما أراد متيسا باخبار غوردون أنه مزعم السفر الى بومباى لإشعاره بأنه سيضع نفسه تحت حماية الحكومة الانكليزية .

وكان متيسا يشنّ العرب شناً كبيراً ويتمسك بأن سلالاته الملكية هى من عنصر حبشى ولذا فهو يمت فى الدين الى المسيحيين . ولتأييد هذا الرأى يكتفى الحال بالقول ان العنصر الأونيورى كالعنصر الأوغندى تماماً يختلف عن جميع قبائل أواسط افريقية الأخرى سواء أكان من ناحية لون البشرة أم من ناحية العوائد والاخلاق . وكباريجا خليفة أبيه كمرازى الطائر الصيت الذى كان جالسا على العرش فى عهد حكمدارية بيكر باشا . ولدى وفاة كمرازى أقيمت احتفالات شتى تستوى فى غرابتها ووحشتها .

(١) — كانت عاصمة أوغندة وهى كبالا Kampala والآن أورووندوجانى .

فقد وضعت جثة الملك في حفرة على طبقة من الاحياء وما كانت هذه الطبقة إلا نساءه . ومن المدهش ان يرى نساء هذا البلد ونساء أرجاء أخرى جنوب البحيرة يستسلمن للدفن أحياء كما علم جيسى وذلك محبة في بعولتهن . وهذا برهان على الحب والاخلاص أشد هولاً من ذلك البرهان الذى كانت تقدمه في الأزمان الماضية أرامل الهنود لأزواجهن بالقاء أنفسهن في المواعد التى كانت تعد لاحراق جثث أولئك الأزواج .

وقال جيسى لا بد أن يأتى يوم يدخل فيه التمدن هذه البلاد ومتى تأصل في أوغندة فأول الاصلاحات التى يجب القيام بها ابطال هذه التضحية البشرية الوحشية .

ولنرجع الآن الى متابعة الكلام على رحلة جيسى وارتياده لبحيرة البرت فنقول :

كانت الأهالى متجمعة على مدى طول الشاطئ الجنوبي الشرقى والزحام شديداً . وكانوا متسلحين بالحرايب يرمون رجال الحملة بالنبال ويدعونهم الى النزول من المراكب ويلوحون لهم فى الوقت نفسه بالحرايب ليريههم كيف ستكون مقابلتهم . لكن جيسى تركهم وشأنهم فاستمروا فى متابعة الحملة وحالوا دون رسوها فى أى خليج من الخلجان .

وتغيرت حالة الجو وأخذ المطر يهطل والرياح تشور ولاحت بواذر الشر وخرج الموقف . وبينما كانت المراكب على أهبة الدخول فى مأوى يعصمها من الارياح اذا بمئات من الرؤوس تطوف فوق سطح الماء . فكان لا بد من الاسراع الى القيام بعمل حاسم . ولم تدع الحالة لتشتت شمل أولئك

الساحين الى اكثر من طلقتين من فوهة قريينة جيسى .

وفي ٢٢ مارس قضت الحملة ليلتها في هدوء وسكينة تحميها فرصة صغيرة وتقيها شدة ريح الجنوب جبال شاخنة . وكانت سلسلة الجبال الممتدة من لسان الأرض الذي اتخذها كباريجا مقرا له الى مسافة ٤٠ ميلا من الشاطئ جرداء عارية تقريبا من الغابات . وجميع رؤوس الجبال صاعدة صعودا عموديا وضفة النهر ضيقة ومبشوة في أرجائها الحجارة الساقطة من عل . وكانت توجد قطعة من الأرض منفصلة من الشاطئ ومرتفعة ارتفاعا تدريجيا بحيث تتكون منها شبه جزيرة أقيم عليها عدة زرائب . ويؤخذ من المعلومات التي استقناها جيسى من أحد أهالي هذه النواحي ان عدد الوفيات فيها كان كبيرا جدا بين رعايا كباريجا .

وكان أولئك القوم ملزمين أن يقتصروا في تغذيتهم على الاسماك محرومين من الموز ليس لديهم من الانعام إلا القليل التافه متكديسين على بعضهم ألوا فوق لسان ضيق من الارض فلا عجب لاذن ان تتلبهم جميع الأمراض وتفتك بهم .

واستمرت الحملة في سيرها نحو الجنوب وفي الساعة ٣ مساء اظلم الجو وغامت السماء في اتجاه الجنوب فاعتصمت الحامية بسفح تل متوقعة هبوب الزعازع ونزول المطر مدرارا ولحسن الطالع أخذت الرياح وجهة اخرى وكفى الله الحملة شرها هذه المرة .

واعتصم اهالي قرية مجاورة بالجبال واخذ غيرهم وكانوا مسلحين يرمقون الحملة عن بعد ولما رأوا انها لا تعيرهم التفاتوا اقدموا على المجيء لغاية الشاطئ

ولوحوا لها بالابتعاد والانصراف وحلوا في الوقت ذاته الحبل الذي كانت مربوطة به السفينة واخذوا يضاعفون حركاتهم ويهددون جيسى بالهجوم . وحاولوا في آخر الأمر ان يقطعوا بحراهم طرفا من الحبل ولما هددهم جيسى بقربينته عدلوا عن ذلك وانصرفوا وهم يكررون حركاتهم التي يريدون بها أن يحملوا الحملة على مبارحة المكان .

وفي ٢٣ مارس قضت الحملة عدة ساعات في اصلاح أدوات السفينة ثم لما لاح ضوء الفجر عاودت المراكب الابحار بعد أن قضت الحملة ليلة مدلهمة قد أزعجها فيها طائفة كبيرة من افراس الماء فلم تترك لها فرصة للراحة . وكانت الجبال المحدقة بالناحية لا تدع أملا البتة في الحصول على وقود . غير أنه كان في حيز الامكان الحصول على هذا الوقود بعد مشقة وعناء من شاطئ البحيرة الجنوبي .

وقد عارضت تقدم الحملة ربح شديدة هبت من الجنوب فاضطرتها الى الوقوف في الساعة الثانية بعد الظهر . وفي ٢٤ مارس قضت ليلتها قرب قرية لها فرضة صغيرة وقال الأهالى انها تجاه « فوكواش » Foquash وبالقرب من « فيجارو » Faigaro وانها غير بعيدة عن ماجونجو . فالتزمت الحملة أن ترجع أدراجها الى القرية التي قضت الليلة الماضية بالقرب منها نظرا لقيام زوبعة أخرى في البحيرة حين فجأة .

وعاودت الحملة اجتياز البحيرة في الساعة ٦ صباحا . غير أن ريحا صرصرا عاتية هبت من الجنوب الشرقي فاضطرتها الى طي أشرعتها . ولما كانت المراكب تمخر في موج كالجبال وكانت الحالة منذرة بالخطر فقد آبت الى ملجئها المعتاد . واقترح جيسى على ترجمانه أن ينزل من المركب ويذهب ليعقد

استشارة مع رؤساء الناحية فقبل وبارح الحملة .

ولما لم يعد بعد ظن جيسى أنه صار في عداد الغابرين رغمًا عن أنه في ذلك اليوم لم يظهر ديار من الأهالي . وزايل هذه الرسوة في نفس المساء والقى المراسى في محل آخر يبعد عن الاول مسافة ثلاثة أميال شمالا بدون ان يدنو مع ذلك من الشاطئ حيث كان جمع غفير من الأهالي آخذ في الازدياد مسلحا ومهددا الحملة .

وعند الساعة ٣ مساء تغير مهب الريح من الجنوب الى الشرق وصار منظر البحيرة مع عظم سعتها وارتفاع الأمواج فيها وتلاطمها أشبه شيء بمنظر البحر عند ما تتور الزعازع . وكان الوقت قد أمسى ولم يعد هناك وقت كاف للوصول الى محل يعصم الحملة من الماء .

ونقل جيسى كل من كان بالمراكب في مؤخرها لكي يخفف مقدمها على قدر الامكان . ولكن هذه المراكب الواهية كانت تمتلئ بالماء على الدوام ولم تعد فائدة من مجهودات الرجال الذين كانوا يدأبون على العمل في نزعها ولم ينقطع المطر في صبيحة يوم ٢٥ مارس عن الهطل إلا عند الساعة الثالثة فابتلت ثياب جميع رجال الحملة وكان من العبث محاولة تغيير ملابسهم .

ولما كان الموضع الذي فقدت فيه الحملة ترجائها عرضة لمهب الرياح وضيقه مغطاة بالصخور قرر جيسى تركه . وسافرت الحملة عند الساعة الثانية واخذت تبحث عن مكان صالح لرسوها وكان الجو يهدد بالنوء والبرق يشق

أعنان السماء فيسطع نوره على صفحات الماء .

ووجدت الحملة في نهاية الأمر عند الساعة ٨ مساء نقطة سهلة المدخل ووضفتها رملية غير أنه في الساعة ٢ عادت الأنواء وغيّرت الريح التي كانت تعصف من جهة اليابسة اتجاهها فجأة وأخذت تهب من الشمال الغربي ولعبت الأمواج بالمراكب واستحال على الملاحين اقتلاع المراسى والاقلاع من النقطة الراسية بها .

ورفع جيسى شراعا في المقدمة ليحول على قدر الاستطاعة دون دخول الأمواج في المركب واغراقها إلا أن مرساة السفينة « دوفيليه » لم يستطع تثبيتها في موضع مع ان جميع سلاسلها كانت ملقاة بالماء وكانت كلما تمايلت على جانبيها انسأقت صوب الضفة . وعند الساعة الثالثة والنصف شحطت وبمجرد ما هاجتها أول موجة امتلأت بالماء وغابت برمتها في جوف البحيرة ولم يبق ظاهرا منها غير جانب من مؤخرها . فقفز الرجال في الماء إذ كانوا على قيد ٥ أو ٦ أمتار من البر . وطفقوا يجمعون المؤونة التي كانت بالسفينة وسقطت من على حافتها . وقد انتشلوا فيما بعد مؤونة أخرى غير أنها كانت مبتلة بالماء . ولقد فقد كل شخص بعض ملابسه ومتاعه إلا أن أعظم الخسارة حاقت بلا مرء بالمسيو جيسى . والذي أحزنه أكثر حرمانه من بوصلته وساعته ومنظار الرصد « تلسكوب » وتألم كذلك أشد الألم من التلف الذي حصل للآلات العلمية . وشرعت أعضاء الحملة في الحال في تجفيف الملابس والآلات الخاصة بمعرفة ارتفاع الأماكن وعند الظهر أرسلت الشمس عليها أشعتها .

وكان أول شيء وضعه جيسى نصب عينيه في غضون زجبرة العاصفة

انقاذ جميع لوازم السفر . فبعد أن كد وجد ساعتين تماما وفرغ المركب من الرمال التي كانت تجمعت في باطنها رآها وهو يكاد يبكي من شدة الفرح تسبح على سطح الماء وتلاطم الامواج .

وصولها الى ماجونجو

وفي ٣٠ مارس وصلت الحملة الى ماجونجو واستحال عليها أن تعثر على محل للنزول فيه الى البر لأن الترع التي حفرها الأهالي كانت قريبة الغور كثيرا . فاجتهدت ان تذهب في النهر صعدا إلا أنها لاقت من العوائق ما لاقتة أولا . ولدى رجوعها الثلاثة الأميال التي كانت قد قطعها عثرت على المرسى الذي نزل فيه سير صمويل بيكر غير أن شجيرات البردى قد طمرته . وإن هو إلا ان لاحت للأهالي الحملة حتى دقوا الطبول ونفخوا في الأبواق علامة على الاستعداد للحرب وأخذوا يركضون الى الشاطئ وكان عددهم زهاء ال ٢٠٠٠ .

وذهب جيسى على متن المركب الصغيرة وسار حتى اقترب منهم وأخذ يشرح لهم الحالة ويقول انه لم يأت ليلحق بهم أى أذى وان ليس لهم ان يخافوا منه شيئا غير أنهم أعاروا كلماته أذنا صماء ولم يشاءوا أن يصدقوه وأخذوا يرشقون النبال وما كاد يرجع الى السفن حتى استدعوه وطلبوا منه النزول الى الشاطئ . وبينما هو عائد اليهم اذا بالحملة تتوسل اليه أن يرجع قائلين له ان الأهالي مصوبة اليه سهامهم . وكان بالفعل كثير منهم محتفين في آجام المستنقعات وشرعوا يجعلونه هدفا لمقذوفاتهم ولو لم ينسحب في الحال لكانت عاقبته غير محمودة .

ولما لم يكن لديه ما يجب عليه أن يقوم بعمله وكان يرغب في أن يترث الى ان يتمكن من الاتصال بواد الملك صمم على ان يواصل السير الى مساقط مورشيرون مؤملا ان يعثر على طريق مؤدية الى قرية يكون سكانها اكثر ألفة وان يجد ايضا وسيلة تمكنه من ارسال مكتوب الى واد الملك .

وفي أول أبريل توجه الى المساقط . وكانت شواطئ النهر على ارتفاع ٥٠ قدما مفروشة بالنباتات النضرة وبأسفلها اعشاب وشجيرات البردى . ومتوسط عمق الماء ٢٤ قدما وهو مشوب بالوحل وبه الشيء الكثير من حطام النباتات والفروع الناشفة وافراس البحر وهي حيوانات تأكد أنها مصدر خطر في أثناء الليل . أما التيار فليس على حالة واحدة إذ كان يظهر للرأى في بعض النقط انه راكد بينما في البعض الآخر كانت سرعته تبلغ ميلين ونصف ميل في الساعة . ولم تتمكن الحملة من الاقتراب بسبب ما أبداه الأهالى من العداوة والبغضاء وقد تعقبها مئات منهم ولم يدعوها تغيب لحظة عن ابصارهم . وتمكن جيسى بعد اللتيا والتي من التخلص منهم ولكنه عول على ان لا يتحرش بهم اذا وجد الى ذلك سبيلا .

وفي ٢ منه رأت الحملة على مد البصر المساقط . وقد كان منظرها عجيبا وهي من أبهج ما وقعت عليه الأعين . وكانت الجبال النضرة تكتنفها من جميع النواحي والماء يتدهور الى الحضيض من بين صخور بارزة ومنبشة على مرتفعات شائخة ويتصاعد من خلال الماء المزبد ضباب لونه أبيض ناصع كالثلج . كل ذلك ودوى الماء الذى يصم الآذان أذهل جيسى وقتا ما . وكانت توجد تجاه المساقط صخرتان ارتفاعهما ٢٠ قدما وشكلهما هرمي يخالهما

الرأى من صنع يد الانسان .

وفى اثناء ذلك طلب سكان القرى المجاورة ان يؤذن لهم بالدنو من الحملة وان يبيعوا لها ما تحتاج اليه . وبعد حوار طويل ارتدوا الى قراهم ورجعوا بدون سلاح علامة على جنوحهم للسلم ومعهم دقيق ودجاج . وتوصل جيسى الى ان يعلم منهم ان واد الملك كان فى انفيننا وان الجنود زائلت مازندى وان عساكر كباريجا فى ضواحي ماجونجو . وسأل عما اذا كان فى الامكان ان يتحادث الى الشيخ فكان الجواب بالايجاب . وعلى مسافة ٢٧ ميلا تفرق مصب النهر من المساقط ولم يدر جيسى لماذا كانت الخرائط تجعل هذه المسافة اثنى عشر ميلا ونصف ميل فقط .

وفى ٣ أبريل عند الساعة ٧ صباحا قدم الشيخ فطلب منه جيسى رجلا ليوصل خطابا الى انفيننا فى مقابل أجر يتقاضاه . فتقدم شخصان من الأهالى لتأدية هذه المهمة وسافرا فعلا . وقد قال فى هذا الخطاب لواد الملك انه حضر ومعه أدوات للمحطة وعليه أن يبعث بمن يلزم لتسلمها .

وفى عصر ذلك اليوم هطل المطر وكان الموضع الذى تحتله الحملة ضيقا جدا فقرر جيسى ان ينحدر قليلا . وأحضر له الأهالى ميرة فوق الكفاية . وفى ٥ أبريل بلغ جيسى خبر اياب الرجلين اللذين ذهبا الى انفيننا .

وفى الساعة ١١ صباحا أخبره ترجمانان من قبل واد الملك ان رئيسهما على وشك ان يعلن الحرب على اتباع كباريجا فى شبه الجزيرة التى سبق ذكرها . وزادا على ذلك بأن قالوا ان هذا الرئيس سيكون عند مدخل النهر بعد يومين .

وفي الغد استعد جيسى لمقابلة وادى الملك . والآن ترك هذا الاخير سائرا في طريقه الى ماجونجو ونذكر بعض تفصيلات نقلها عن جيسى بشأن بلد واد الملك وسكانه وحاصلاته وها هي :

يؤكد جيسى ان من بربر الى ٢٠ ميلا فوق دوفيليه لا توجد منطقة أحسن من هذه المنطقة لغاية ماجونجو وانه لا يقصد بكلامه هذا المناطق الواقعة في داخلية البلاد لأنه لم يرها بل يريد الاراضى التى يقطعها النهر . ففى هذه الأراضى لا يرى الانسان جبال لادو و دوفيليه الجدباء ذات النبات الضئيل القليل ولا الزرائب الحقيمة المأهولة بالسكان الكسالى الذين يكاد يقتلهم الجوع . وقد رأى جيسى فى هذه المنطقة شعبا لديه استعداد كبير لقبول المدنية . ولما كان الأهالى متعودين احترام سيطرة الرؤساء فقد كانوا يطيعون الأوامر ويؤدون الرسوم المفروضة عليهم سواء أكانت عينا أم عبيدا . وأخذ منظر قراهم بمجامع لب جيسى فاستشف من وراء ذلك أنهم يسرون امورهم فى طرق منظمة . ويعيشون كذلك عيشة داخلية هنيئة . فلهيهم الادوات الخشبية والالوانى للمطابخ . وهم يدبغون الجلود ويصنعون الاحبال ويغزلون الشباك لصيد الاسماك باتقان واحكام ويخيطون الجلود أحسن مما يخيطونها فى روسيا وتركيا . وتتألف ثياب الأهالى من جلد واحد أو جلدين من جلود الوعل أو الماعز .

وأما المحصولات فأنواعها وكمياتها اكثر مما هو فى وادى دوفيليه . وتوجد الذرة البيضاء والبطاطس والفاصوليا بمقادير وافرة . وزراعة الدخان منتشرة ونوعه من أجود ما يزرع فى السودان . وتعادل أحجام الثيران ضعف ما يوجد منها فى « كرى » و « لادو » . وعدد المعز فى تلك المنطقة يجاوز الحد المعتاد فى الجهات الاخرى .

وقد رجع واد الملك من الجزيرة التي احتجب فيها اعداؤه بعد ان قتل منهم ٤٠٠ نسمة في ميدان الحرب وغنم ٧٠٠ رأس من المعز . وركب جيسى الباخرة الصغيرة وذهب لمقابلتهم وأخبره عن ازماعه السفر في ١١ أبريل . وسافر في الواقع للقيام برحلة إلى البرت نيازا يوم الاثنين التالى .

وفي ١٢ أبريل سارت الحملة سيرا بطيئا لهدوء الريح غير ان النسيم اشتد فيما بعد واستقوى حتى انقلب إعصارا هائلا . وعثر جيسى على جزيرة أمل ان يعتصم فيها من العاصفة إلا أنه رأى ان قوم كباريجا الذين فروا من ماجونجو ونجوا من مطاردة واد الملك التجئوا اليها واحتلوها . وبدأت من هؤلاء العداوة والبغضاء نحو الحملة وهددوها بالهجوم اذا لم تبادر بالانسحاب . ولم يبال جيسى بتهديدهم ووعيدهم وعددهم وأطلق عيارين ناريتين وألقى المراسى ونزل هو ومن معه الى البر وهكذا انقضت تلك الليلة بعواصفها وهم في راحة تامة .

وأخذ الأهالى يقتربون تدريجيا فأعلمهم جيسى أن من واجباتهم أن يعودوا بهدوء وسكينة الى مساكنهم ويبعثوا بوفد منهم الى انقينا ليقدم الطاعة والخضوع . فانصرف القوم في اليوم نفسه . وعلم فيما بعد ان ٢٠ منهم ذهبوا فعلا الى انقينا .

وأبى جيسى قبول ثورين كانوا يبتغون تقديمها له على سبيل الهدية فوعده عندئذ أن يعودوا اليه بعد يومين بمقدار من سن الفيل . فأشار عليهم بأن يقدموه الى واد الملك . والجزر الآتية الذكر على مسافة ٧ أميال فقط من ماجونجو .

وفي ١٣ أبريل بارح جيسى هذه الجزر عند الساعة السادسة والنصف صباحا . وكانت الريح هادئة ولكن ماء البحيرة كان مضطربا هائجا عقب الزوبعة التي ثارت بالأمس . ومرت الحملة أمام أرض منخفضة قد فرش جانب منها بالعوسج وكان النزول إليها سهلا . ولاحت لجيسى قرية كبيرة بها عدد هائل من الثيران وغيرها من الانعام . وعلى قيد ٦ أميال داخل اليابسة كشفت الحملة جبال « بيسو » Bisso الواصلة إلى البحيرة ومتوسط ارتفاعها يبلغ زهاء ١٠٠٠ قدم .

وفي الساعة ٢ اعتصمت الحملة من زوبعة هبت بجانب جزيرة سباحة . وكان يوجد على جزيرة صغيرة نحو ٣٠ كوخا تركها أربابها قبل بضع دقائق بمجرد اقترابها منهم . وعثر النوتية على بعض الدجاج وقطع من الاحبال . وبعد ساعتين عاد الأهالي وأخذوا يقتربون شيئا فشيئا ويصيحون : انفينا !! انفينا !! فقدم لهم جيسى هدية من الخرز عوضا عن الدجاجات التي أكلتها الحملة وأرجع اليهم الاحبال وقال لهم انه ليس هنالك من داع للهرب عند اقتراب سفن الحكومة . وعادوا فعلا الى أماكنهم وصرخوا بأنه لم يعد لهم بعد علاقة بكباريجا ويعترفون لانفينا بالسيطرة عليهم . وكان المطر سجلا والحالة الجوية سيئة إلا أن الحملة قطعت ٦ أميال .

وفي ١٤ منه أيقظ جيسى النوتية عند الساعة ٢ وكان ذلك عند بزوغ القمر تماما إذ أنه كان يبتغي أن يمر بالنقطة المعادية التابعة لكباريجا بدون أن يشعر به أحد ويذهب لمعينة المساقط التي رسمت على خريطة سير صمويل بيكر .

وسأت حالة الجو وأخذ قصف الرعد ولمعان البرق يشيعان الحملة أثناء مسيرها الذي استمر طول اليوم وقطعت في غضون ٣٢ ميلا وعبرت

ممتلكات كباريجا إلا ان جيوشه توارت واختفت عند ما اقتربت منها الحملة . وكانت الرياح تهب طول النهار . وكانت الجبال التى يتكون منها الشاطئ شامخة ووعرة المنحدرات تكسوها نباتات ضئيلة والماء عميقا . وشاهد جيسى حول الشواطئ تقريبا سيلا ينحدر من الجبال من ارتفاع ٣٥٠ قدما فكان أشبه شئ بالشلال . وقال له الأهالى ان هذا الماء لا ينضب قط ولم يستطع أن يتسلق المنحدر لوعورته .

وألقت الحملة مساء يوم ١٤ أبريل عصا التسيار قرب هذا الشلال . وهو موضع رأت أنه أكثر صلاحية لذلك من غيره . وفى الواقع كانت الجبال التى تكتنفه تقيه شر رياح الجنوب الشديدة التى هبت طيلة الليل . وفى ١٥ منه بزغت الشمس ووضح ضوء النهار والرياح مستمرة الهبوب بشدة . وحاول جيسى ورجاله جر الباخرة الى الشاطئ لتكون فى مأمن اذا زادت حالة الجو سوءا إلا أنه رغما عما بذلوه من الجهد لم يتوصلوا الى مطلوبهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح .

وسفن الحملة وان كانت فى غاية من الجودة إلا انها لم تكن معدة لمثل هذه الرحلة إذ انه كان يجب ان تكون مسقوفة . نعم ان الامواج فى هذه الجهة لا يبلغ ارتفاعها الارتفاع الذى تبلغه أمواج البحر المتوسط ولكنها تتلاحق بسرعة هائلة فتدخل السفن . وكانت الرجال دواما مبتلة ان لم يكن بسبب الامواج التى تتكسر على المراكب فمن الامطار المنهرة الدائمة . فلو كانت السفن مسقوفة وأحسن تقيادها لتيسر عبور البحيرة والسير فيها فى جميع الاتجاهات . والدناقلة قوم مهرة وحذاق للغاية فى السفر على النيل غير أنهم ليس لهم المام أو أية دراية بالبحيرة

ويتمسون دواما متابعة الابحار بجوار الشاطئ .

وفي عصر هذا اليوم « ١٥ أبريل » احتجب وجه السماء وراء الغيوم وأخذت تهب ريح شمالية غربية واستحال سحب المراكب . فترك جيسى الجنود على اليابسة ونوتيا كان يقول إنه يداخله شيء من الخوف . وألقى مراسى السفن وأخذ يرتقب اعتدال الجو . ولحسن الطالع برزت الغزالة من خدرها بعد زمن يسير فعاد جيسى الى قرب الضفة وأخذ يحاول مرة أخرى سحب المراكب بالأحبال .

ووصلت الحملة الى مسافة ثلاثة أميال ونصف ميل من الشلال السابق ذكره فوجدت شلالا آخر يقل عنه كثيرا في الاهمية . ووجدت بقرب هذا الشلال قرية . وإن هي إلا أن وصلت اليها حتى هبت أهاليها من مساكنهم ليروها . وقد زودوا جيسى بكل المعلومات التي طلبها منهم . فأكدوا له أنه يوجد نهر كبير آت من نواح بعيدة من جهة أوغندة يسمى « التيزا » Eltisa وبه ثلاثة مساقط : الأول وهو الذي مر به جيسى ويسمى « هويوما » Hoyoma والثاني « وانبابيا » Wanbabia والثالث « نانزا » Nanza ، وماء الثلاثة لا ينقص على مدى طول أيام السنة .

وكان الأهالي يعرفون ان هذا النهر يمر من أسفل جبل « انموكا » Anmoka لأنهم سافروا عدة مرات في داخلية أوغندة لينقلوا عاجا برسم كباريجا غير أنهم لم يتابعوا السير لغاية منبع النهر . وكان يود جيسى أن يرى هذا المجرى الذي وصفوه له بأنه يبلغ في عرضه وعمقه مبلغا كبيرا . إلا أن الجبل الذي كانت الحالة تدعو الى تسلقه صخري وواقف وقوفا رأسيا كأنه حائط وكان لا بد من القيام بعمل دورة كبيرة ليجد

له ممرا مطروقا .

وفي ١٦ أبريل انتهز جيسى هـدوء الريح ليعاود السير عند الساعة ٤ صباحا ورأت الحملة المسقط الثالث عند الساعة السادسة وهو يشبه تماما المسقط الثانى . وتصب هذه المساقط الثلاثة فى البحيرة من الماء مقداراً وافراً جداً . وتنحدر هذه المياه من ارتفاع يتراوح بين ال ٥٠٠ و ٦٠٠ قدم . وكان ماء البحيرة كثير الاضطراب . والظاهر ان اعصاراً هب فى ناحية ما أثناء الليل .

وتقدمت الحملة فى ذلك اليوم فى سيرها بواسطة المجاديف ولم تعثر حتى الساعة الثانية صباحاً على موضع تلقى فيه مراسي المراكب . وكانت السماء متلبدة بالغيوم والبرق يشق بين آونة وأخرى عباب الجو فينير وجه البسيطة الى مد البصر . وحاول جيسى ان يدرك رأساً بارزاً فى البحيرة على شكل مقدم سفينة أبصر به وقت الغروب . وكان منظر ضفاف البحيرة كأنه اكمام مستديرة غطيت بالحشائش والآجام وغطست فى الماء عمودياً .

وعلى مقربة من الشاطئ كان الماء كدراً بسبب ما يجلبه التيار من الطين الأصفر . وفى هذا الموضع تكثر الاسماك كثرة ما عليها من مزيد . وكان رجال الحملة يرونها تثب فوق سطح الماء على الدوام فى كل صوب هرباً من مطاردة التماسيح التى يوجد منها عدد وافر من ذوات الاحجام الهائلة فى هذه المنطقة . أما افراس البحر فيندر وجودها فيها .

وعاد الجو ينذر بتدفق الامطار غير ان جيسى عرف كيف يستفيد

من شدة الريح فكانت المراكب تسير بانتظام بسرعة ٦ أميال في الساعة وفي مدة ٤ ساعات وصلت الحملة الى فرضة صغيرة لكنها ملائمة جدا عرضها ٧٥٠ قدما وعمقها ٨٠٠ قدم غير معرضة للرياح فسمّاها جيسى « فرضة شبرا » Port de Shoubra وهذه الدائرة واقعة حسب تقدير جيسى في وسط البحيرة تقريبا وفي الامكان بحسب رأيه استخدامها كمأوى للمراكب ومحطة للوقود .

وكان جيسى قد قطع الى هذه المسافة ٥٢ ميلا . وأحدث ذلك في نفوس النوتية أثرا عظيما إذ أنهم كانوا موقنين ان العاصفة لو باغتت سفنهم وهم على مقربة من الشاطئ لما نجت من الفرق مطلقا . وسر أيضا جيسى لحدوث هذا الأثر . وبلغ الاعصار النهاية العظمى في الشدة وقاوم المراكبان « دوفيليه » و « ماجونجو » هجماته مقاومة جديرة بالاعجاب . وأذن جيسى للملاحين والجند بالاستراحة في اليوم التالي مكافأة لهم على المشاق التي لاقوها في الليلة الماضية .

وفي ١٧ أبريل لما صادفت الحملة في اليوم السابق ضفة موافقة خرج جميع افرادها ليحففوا ملابسهم ونزع الملاحون الماء الذي أغار على السفن ودخل جوفها ورمموا الأشرعة والاحبال وهكذا انقضى ذلك اليوم كله .

وفي ١٨ منه كان الهواء يعصف بشدة من الجهة الجنوبية الشرقية . وانطلقت الحملة في السير عند الساعة ٦ صباحا . غير ان ماء البحيرة كان هائجا لدرجة اضطر جيسى معها ان ينقلب الى النقطة التي سافر منها .

وعاودت الحملة السير عند الساعة ٩ نظرا لهبوط هبوب الرياح وتمشت بمحاذاة

جبال ذات منحدرات وعرة نازلة الى البحيرة وبعد أن جابت زهاء ال ٢٠ ميلا وقع نظر جيسى على جزيرة كبيرة ممتدة في اتجاه الشاطئ فنشر البحارة جميع الاشرعة ابتغاء الوصول اليها في أقرب وقت . ورأى جيسى على حين فجأة ان ماء البحيرة انقلب من رائق شفاف الى لون أبيض فتسلق سارية سفينة ورأى لون الماء مشربا بالحمرة بالقرب من الضفاف المنخفضة التي كان بها اكداس حمة من شجيرات البردى . وهذا مما يدل بلا اريب على ان الحملة كانت بالقرب من نهر . وفعلا عند ما حقق جيسى نظره في الاتجاه الجنوبي الشرق وقعت عينه على مصب اتساعه ٤٠٠٠ قدم تقريبا فأمر بالولوج فيه .

وبعد ان سافرت الحملة في ذلك النهر ٦ اميال صعدا أفضت الى موضع به مسقط كبير مأؤه زاخر . والنهر يقف عند اسفل هذا المسقط . وللتمكن من فحص هذا فحسا أتم بهم جيسى قرية صغيرة قائمة على الضفة اليسرى غير ان السكان امتنعوا عن الاقتراب من الحملة أو التحدث اليها . ولما رأى أن لا فائدة من محاولة ازالة ما علق بأذهانهم من الخوف أمر بالقاء مراسى السفن تجاه القرية إذ أنه ما كان يريد ان ينصرف بدون ان يبذل كل ما في ا ابتغاء الوصول لمحادثة أولئك الاقوام .

وكان يأمل من وراء ربط السفن وعدم ابداء اية حركة لهم وقتا لتبديد مخاوفهم والرجوع عما بدا لهم في برهـ لقريتهم . وتناول جيسى قلمه وشرع يدون رحلته وإذا وأروه فرس بحر كبير الحجم يسبح وهو يتجه الى ا من الماء على قيد ١٠٠ قدم بعد القرية . فصوب اليه

في جهته وجره النوتية والجند الى البر . واقتحم اهالى القرية الخطر ودنوا مسافة تقرب من ١٠٠ خطوة من الحملة وأخذوا يرمقون القريسة بعين الشراهة متمنين الخطوة بمقدار من لحمها . فأمر رجاله أن يعودوا الى ركوب السفن ثم اقترب من الاهالى بمفرده وقدم لهم فرس البحر الذى اصطاده . وان هو إلا أن أتى بهذا العمل حتى انطلقوا يشرحون تلك الجثة الهائلة وفي لحظة عين أضحت قطعاً وتوارت . وفاز جيسى بالحصول منهم في نظير ذلك على المعلومات الآتية :—

ان النهر الذى ينتهى عند المسقط يأتى من جهات قصية وتصطف على طول جوانبه قرى عديدة مهمة . وان هذا النهر ينضب مأؤه والمسقط يقف جريانه في شطر من السنة ولكن في فصل الامطار يكون الماء عميقاً وعكراً وتبلغ سرعته في الساعة ٣ اميال . وان البلد يسمى « كواندا » Quanda وخاضع لسلطان كباريجا .

وهب إعصار بلل أفراد الحملة بللا اخترق الجلد ووصل الى العظم رغم وجودهم داخل مضرب وفي نفس هذه اللحظة بصروا بجزيرة كبيرة ساجحة مقبلة عليهم بشدة ولم تترك لهم من الزمن إلا الوقت الضرورى للتنحى عن طريقها . ولولا الحركة السريعة التى أجراها رجال الحملة لوجدت نفسها فجأة في وسط حقل شاسع من شجيرات البردى عرضة للسحق أو الدفن بين أدغال الجزيرة المتحركة أو أدغال جزيرة اخرى اصطدمت بها الجزيرة الأولى .

وفي ١٩ أبريل تقدمت الحملة بمحاذاة امتداد شبه الجزيرة التى رأتها في اليوم الماضى وهى عبارة عن حطام نباتى . وصرف جيسى مقدارا

كثيرا من الوقت فى البحث عن ممر وفى نهاية الأمر وجد نفسه على ضفة
النهر الأخرى . وكان الانسان أينما سار يجد الماء كدرا وراكدا وعمقه
يزيد على ٣ أقدام . ولونه الترابى ناشئ من إثارة الامواج لقاعه المكون
من الاوحال . وكان رجل من رجال الحملة يتسلق من حين لآخر
سارية احدى السفن ويتطلع فلا يرى شيئا الى مد البصر اللهم إلا أعشابا
وحشائش . وكان يرى على الشاطئ بجانب منه جبل لا يقل ارتفاعه عن
٤٠٠٠ قدم أطلق عليه جيسى اسم « جبل نوبار » . ويوجد فى طرف
البحيرة سلسلة جبال على شكل نصف دائرة فاستنتج جيسى من ذلك ان
البحيرة تنتهى فى هذه الجهة .

وأضاعت الحملة عدة ساعات فى سبيل البحث عن منفذ يوصل الى
الضفة حتى يمكن الاتصال بالاهالى إلا ان الضفاف كان يتعذر الاقتراب
منها فى هذا الموضع بسبب الحشائش وشجيرات البردى والخيزران الممتد
على طولها بعرض ربع ميل . وفى نهاية الأمر بصرت الحملة زورق للصيد
إلا أنه ما لبث أن توارى بسرعة البرق .

وجد جيسى فى أثر هذا الزورق متتبعا نفس الطريق الذى سلكه وبعد
ساعتين نزلت الحملة إلا ان اهالى الناحية ما لبثوا ان أتوا مهطعين مهدين
طالبين رجوع الحملة الى المراكب . وكان واد الملك زود جيسى برجل يفهم
لغة هؤلاء القوم ليرافق الحملة غير أنهم كانوا يجاوبون على كل سؤال أو طلب
يوجه اليهم بقولهم : اليكم عنا !! انصرفوا !! نحن لا نقبلكم !! ولا يريدون
ان يتحولوا قيد شعرة عن هذه الكلمات .

وفى اثناء ذلك أقبل الجنود الوطنيون يهرعون من كل الزرائب المحيطة

بالناحية غير ان ذلك كان فى وقت متأخر وصار من الضرورى للحملة البحث عن مأوى تعتصم فيه ليلا بعيدا عن متناول يد أولئك الفتاكين .

وفى ٢٠ أبريل بذل جيسى مجهودا آخر فركب مركبا واقترب منهم وهرع اليه عدد كبير من الأهالى فوعدهم بواسطة الترجمان بهدايا إذا هم دلوه على الطريق التى يجب عليه ان يسلكها . فأجابوه ان هذه الجهة هى نهاية البحيرة وأن التقدم الى ما وراء ذلك أمر محال .

ووجه اليهم هذا السؤال : وما هو غاية العمق فى هذا المكان ؟ فأجابوا بالاشارة : لغاية الركبة .

وكان من المستحيل الحصول منهم على معلومات اكثر من التى صار الحصول عليها فعقد جيسى النية على أن يستقى معلومات اخرى ليتأكد من صحة ما روهه .

ووصلوا بعد ذلك بساعتين الى قرية غير القرية التى سبق ذكرها . ولدى اقتراب الحملة فر أهلوها واختفوا ولم يعودوا للظهور إلا بعد أن وضعوا أدوات مساكنهم وأنعامهم فى أماكن منيعة .

وعقب أن أتموا عملهم هذا أخذوا يقتربون شيئا فشيئا الى ان وصلوا بجانب السفينة التى بها جيسى ففتحهم بعض التحف فهذا ذلك روعهم وأصلح مزاجهم . وانتبهز جيسى هذه الفرصة ليوجه الى شيخهم نفس الأسئلة التى وجهها الى القرية الاولى . وكان هذا الشيخ قدم بعد قدوم رجاله بساعة وهو رجل طاعن وفى العقيد السابع من عمره . واعطاه جيسى بعض اللعب التى تهذى

للأطفال وقضايا من النحاس وأشياء أخرى تافهة القيمة . وكانت أجوبته منطبقة على تلك التي استقاها من القرية التي سبق ذكرها . ولما لم يعد لدى جيسى شيء آخر يجب عليه تأديته عاود السفر .

وساعده في السير ريح خفيفة فمر في الثلاثة المساقط الواحد تلو الآخر . ويوجد في هذه البقعة جبل لا يقل ارتفاعه عن ٤٠٠٠ قدم فأطلق عليه جيسى اسم « جبل مدرج » Mont Modrog وجوانبه من كل ناحية تكاد تبلغ ١٥٠٠ قدم تكسوها الحشائش وسفوحها غاطسة عموديا في البحيرة .

ولما لم يجد جيسى موزعا يلجأ اليه في الليل وكان يسمع من مسافات دوى الرعد قرر الاستمرار في السفر وظلت الريح هادئة والجو صحوا الى الساعة ٨ مساء . واشتدت الرياح عند الساعة ٩ تدريجيا الى أن بلغت غاية الشدة حتى أنه حار في أمره ولم يدر كيف يوجه الأشرعة . وفي منتصف الليل انقلبت الى زوبعة قل أن يهب نظيرها في البحيرة . وقد قال جيسى انه لم ير نفسه طول حياته واقعا في خطر كهذا وهو على صفحات الماء .

وعند الساعة الثانية عشرة والنصف صباحا تغير اتجاه الهواء فبعد ما كان يهب من الغرب صار يعصف من الشمال الغربي واهتاجت البحيرة وثارَت أمواجه واضطربت اضطرابا ينذر بالويل والثبور فولت الحملة الادبار أمام العاصفة مدة ١٢ ساعة متوالية . وعند الساعة الخامسة والنصف اشتد الهواء اشتدادا ليس بعده من مزيد وابتدأ يهب من الجنوب الشرقي . وفي وقت ما اشتد الذعر وتمكن الهلع من نفس الحملة حتى كانت تتخيل أن امواج اليم ستبتلعها . وطوى النوتيّة بعض الأشرعة وحاولوا الاقتراب من الشاطئ

فلم يفلحوا في ذلك لأن حافة الجبل كانت نازلة في الماء نزولا رأسيا والامواج تتكسر على الصخور بعنف وشدة .

وفي صباح اليوم التالى عند الساعة ٧ دار الهواء وأخذ يهب من الجنوب وصار في حيز الاستطاعة توجيه مقدم السفن الى جهة الشمال . وفي الساعة ٥ مساء وصلت الحملة ازاء ماجونجو وفي الساعة ٨ دخلت النهر .

وصولها الى دوفيليه

وفي ٢١ أبريل كان جيسى قد قطع بحيرة البرت نيازرا . ولكي يتصور المرء السرعة التي قطع بها هذه البحيرة من اقصاها الى اقصاها يجب أن نذكر انه أقلع في يوم ٢٠ صباحا وظل مسافرا حتى عشية اليوم التالى الى الساعة ٨ فقطع ١٣٥ ميلا وبإضافة ٥٠ ميلا قطعها عبثا وبدون فائدة و ٢٠ أخرى قطعها في النهر يكون المجموع ٢٠٥ أميال طواها في ظرف ٣٥ ساعة .

ويبلغ مقياس أكبر عرض للبحيرة حسب تقدير جيسى ٦٠ ميلا . ويقول جيسى علاوة على ما ذكر انه ابتداء من فرضة شبرا الواقعة شرقا الى نهاية حدها الشمالى تتكون ضفافها من سلسلة جبال متصلة ببعضها وجروفها نازلة في مياهها نزولا رأسيا . أما في الضفة المقابلة فالجبال تمتد الى البقعة التي يصب فيها النهر الآتى من الجنوب في وسط المضيق الذى في البحيرة .

ويقول جيسى ايضا إنه لا يستطيع أن يصرح بشيء يتعلق بداخل الأرض لانه لم يكن في حالة تمكنه مع الحرس الضئيل الذى كان يرافقه

والمؤلف من ١٢ جنسـديا أن يتوغل في السير بين قبائل يضمرون العداوة والبغضاء ومن شيمهم الغدر ، ولو فعل ذلك لاضطر عندئذ أن يترك السفن بدون حرس ما .

وبذا قد توصل جيسى الى الغرض الرئيسى من ريادته .

وتأتى كمية الماء التى تصبها البرت نيازرا فى النيل من المساقط التى شاهدها جيسى وكذلك من مساقط مورشيزون القائمة على نيل فكتوريا . ويقول فوق ذلك ان كل من يعاين بحيرة البرت فى نفس الفصل الذى سافر هو فيه ويرى الطوفان الذى ينزل من السماء ٢٠ مرة فى النهار ويسقط كذلك أحيانا كثيرة فى الليل لا يعجب قط من غزارة البحيرة .

وحالما دخل جيسى فى البرت نيازرا بين منسوب ارتفاع الماء بعلامات خطها على صخرة ليتثبت من حقيقة الفيضان فى مدة فصل الامطار . واستنتج من بعض العلامات التى نزل عنها الماء فيما بعد ان المنسوب نقص عن المنسوب السابق بضع بوصات . وحين عودته وجد ان الماء لم يرتفع إلا بضعة خطوط .

ولما كانت ضفاف البحيرة كما سبق القول معظمها عموديا لم يصادف جيسى إلا القليل من الضياع ولكن المنطقة الواقعة وراء هذا القسم مأهولة كثيرا بالسكان ويشبه ساكنوها أهل أوغندة مشابة تامة . ويقال ان العاج يوجد فيها بوفرة .

وتبين لجيسى ان المناخ مليح جدا رغما عن الامطار فتى لادو و غندوكورو عانى كثيرا من وطأة الحمى . ولكنه وهو على البحيرة كان يتمتع هو والبحارة بصحة تامة رغما عن بقائهم يوميا مدة ١٦ ساعة .

بالماء . وفى ٢٢ أبريل نزل والنيل متجها الى دوفيليه . وليس ثمت اخبار بعد ذلك . وفى ٢٣ منه وصل الى دوفيليه .

ومما تقدم يتبين ان الجنود المصرية كانوا أول من ارتادوا هذه البحيرة وأن المراكب المصرية التى أقلتهم اليها كانت أول المراكب التى مخزتها كما أن العلم المصرى كان أول الاعلام الخافقة فوق هذه الجهة التى اغتصبتها من مصر بريطانية وحكومة الكونغو البلجيكية .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

مأمورية الطبيب أمين افندى فى أوغندة

من ٣ يونيه الى ٧ سبتمبر

سفر الطبيب امين افندى الى دوفيليه

استمر غوردون ممعنا فى سياسته التى ترمى الى تقوية مركز مصر فى أوغندة فكلف الطبيب أمين افندى بالذهاب اليها فى بعثة فأخذ طريقه يضرب فى الأرض ووجهته مملكة متيسا . وبدأ رحلته من لادو فى ٣ يونيه ومعه حرس من الجند وهدايا الى ملك تلك البلاد . وفى ٥ منه وصل الى بيدن .

وفى ١٥ منه وصل الى دوفيليه . ووصف أمين افندى هذه المحطة فقال انها صغيرة يحيط بها متراس من التراب وواقعة فى سهل مبثوثة فى أرجائه أشجار . ويوجد فى النهر على مسافة قليلة فوق المحطة منحدر ظاهر كثيرا ممتد فى الاتجاه الغربى . وكل القبائل التى تحيط بها مصافية للحكومة .

وصوله الى مرولى

وقام أمين افندى باستكشافات شتى حول دوفيليه ثم ولى وجهه شطر

الجنوب واستمر في سياحته فوصل الى مرولى في ٤ يوليه ويوجد بقرب هذه المحطة بقعة يحتلها ٥٠٠ رجل من اتباع متيسا . وطلب أمين افندى من هؤلاء أن يرخصوا له بالدخول في أرضهم وقضى عدة ايام في التفاوض معهم على غير جدوى .

وفي ١٠ يوليه صرحوا في نهاية الأمر بأنه لا يمكنهم بدون أمر متيسا أن يسمحوا لأحد بالدخول في أرضهم ولا بطلب حضور حاملين .

ولم يأبه أمين افندى لمعارضتهم البتة واستمر في مسيره وبعد سفر ١٢ يوما وصل الى « روباچا » عاصمة متيسا سليما معافى رغم ما اعترضه من الموانع الأخرى .

ولدى وصفه لرحلة اليوم الأخير قال ان الجو كان رائقا وكانوا يسبرون في طريق عرضه ٣ أمتار وعلى جانبيه أشجار الموز ثم هبطوا من جبل وعر المنحدرات مخترقين قطعا من الاراضى بها أصناف متنوعة من النخيل والموز البرى وبعد ذلك أفضوا من درب ضيق مار بين الحشائش المرتفعة الى جدول ماء صاف وهذا أول ماء رائع صادفهم في طريقهم من وقت مبارحتهم فويرا .

وبعد ذلك عبروا أرضا بها كثير من المستنقعات ثم صعدوا جبلا ولدى هبوطهم منه مروا بغابة من النخيل ثم في وسط سلسلة من الزرائب وأخيرا بلغوا فضاء مكشوف . وهنا أمر أمين افندى الحملة بالوقوف للاستراحة . وبعد ان استراحوا نصف ساعة افتقدوا « مريما » Mrema فلم يجدوه . ومريما هذا هو الدليل المكلف بإرشادهم . وكان السبب في عدم وجوده انه تأخر في

بعض الزرائب ليحتسى قدرا من « المريسة » . وأبى « كيتاكا » Kitakka دليل أمين افندى المسير مع الحملة محتجا بأن لديه أمرا بانتظار حضور مريما المكلف بالمسير على رأس الحملة . ورفض أمين افندى الانتظار أكثر من ذلك وأمسك بوصلته « بيت الابر » بيده وسار أمام الحملة هو وستة من الجنود .

وتابعت الحملة السفر في الطريق الملكي مارة في أرض متماوجة السطح وبعد ذلك بأوقات تسلفت تلا عاليا قابلا فوقه حرس تشريفى واقفا هنالك يرتقب قدومها وكان يرتدى رجال هذا الحرس ثيابا بيضاء وبعضهم كان متسلحا بالبنادق والبعض الآخر بالسيوف وكان معهم رسولان من قبل متيسرا مكلفان باستقبال الحملة بالترحاب وارشاد أمين افندى الى المحل الذى اعد لاقامته .

وانطلق الجميع يسرون والموسيقا فى مقدمتهم وكلما تقدموا فى السير ضخم الموكب الى أن وصلوا الى أرض مكشوفة قابلهم عليها ال ٢٠٠ جندى المصريون مصطفين لتقديم التحية العسكرية للحملة (١) . وكان هؤلاء الجنود قد قدموا لاحتلال « روباها » عاصمة أوغندة بقيادة نور افندى محمد وكان لدى أمين افندى أمر بسحبهم . وكان قائد هذه الحامية غائبا عند قدوم الحملة ووكيله محمد افندى ابراهيم ذهب ليشتري بعض المرافق . وألقى أمين افندى خطبة وجيزة شكر فيها الحامية ثم استمر فى طريقه

(١) — يلاحظ القارئ هنا أن جنود الجيش المصري النظامية كانت قد احتلت روباها عاصمة أوغندة .

مصحوبا بضابط و ١٥ جنديا ليصل الى سكنه .

وفي الساعة ٤ قدم محمد افندى ابراهيم ووضع نفسه تحت أوامره وأتى بعد ذلك في الحال وفد من قبل متيسا . وهذا الوفد مؤلف من وزيره ومن ثلة كبيرة من الوجهاء . وكان يحمل مكتوبا مخطوطا باللغة الانكليزية وفيه يصف أمين افندى بـ : « صديقي الغالى العزيز » . ويهنئه ويتمنى له طيب الإقامة . وسأل الموفدون عما عساه يطلبه . فطلب منهم أمين افندى منزلا أحسن من الذى أعد له وفي الحال وضع تحت تصرفه مسكن آخر أوسع من الأول وانتقل اليه . وقدم له من قبل متيسا عجلاان وعنزة وكمية من الموز وقصب السكر على سبيل الهدية . وقدم هو الآخر لكل من الرئيسين قيصا أبيض ولثالثها صندوقين بهما صابون ثم عادوا أدراجهم مغتبطين ووعدوا بأن يصلحوا كل الأمور . وفي المساء ورد الى أمين افندى جرتان من الماء وكية من الوقود .

مقابلته لملك أوغندة

وفي ٢٨ اغسطس أعد كل شيء في البكور للمقابلة . وأراد محمد افندى ابراهيم ان يذهب أمين افندى بدون انتظار دعوة فرفض . وفي أثناء ذلك أتى « مريمبا » Mremma مطالبا بهديته ومع انه لا يستحق شيئا من ذلك فقد منحه أمين افندى ثوبا « قفطانا » أبيض ففرح به . وفي هذه البرهة سمع طلقة مدفع فاستدل من هذا ان الملك بارح الحرم . وقدم في الحال بعد ذلك جندي وقال ان متيسا في انتظاره في قاعة الاستقبال ويرغب في حضوره .

وقام أمين افندى لتأدية هذه الزيارة يرافقه محمد افندى ابراهيم و ٢٠ جنديا وقدامهم المحالون يحملون الهدايا . وكان الحرس مؤلفا من عدد كبير من الرجال وبأيديهم سيوف بمقابض جميلة من الفضة . وكان الموكب يزداد عددا كلما تقدم في السير وبعد نصف ساعة وصل الى قصر الملك بعد ان عبر زرائب ومزارع من أشجار المسوز . وقبل أن يصل الى الباب الخارجي بقليل رأى عمارة لم يتم بناؤها وهي عبارة عن جامع من الطوب الأحمر كان إرنست دى بلفون شرع في تشييده بناء على أمر متيسا ثم ترك .

وقوبل الموكب بالتحية العسكرية لدى المرور من الأبواب وكان عددها ستة والساحات الواقعة بين كل باب وآخر طائفة بالجماهير . وعند الوصول الى الباب الأخير وقف الموكب برهة . ثم فتح الباب وظلت الجماهير خارجه وسار أمين افندى بين صفين من الجند يبلغ عددهم ٢٠٠ جندي مرتدين كساوى بيضاء ويرتدى ضباطهم كساوى حمراء أو زرقاء الى منزل له دهليز صغير متصل بقاعة رحبة كان متيسا جالسا بها فوق أريكة مرتفعة مغطاة بالبسط الفارسية .

ونفض متيسا عند دخول أمين افندى وتقدم لمقابلته لغاية منتصف القاعة وصاحبه ثم رجع وجلس مكانه . وجلس أمين افندى امامه وقعد على الأرض كبار الموظفين من الجانيين . وإذ ذاك سلم أمين افندى للسكرتير الأول للملك خطاب غوردون باشا وثنى بشرح مقصده من هذه الزيارة باللغة العربية واهداء تحياته الى متيسا . وكان من بين كبار الموظفين الجالسين رجل لون بشرته أفتح من لون بشرة الآخرين قدم الى أمين

افندى باسم الشيخ احمد من أهالى زنبار . وأدى هذا الشيخ وظيفة مترجم لأن متيسا رغما عن فهمه اللغة العربية كان يؤثر هذه الطريقة على الكلام المباشر . ويظهر أن كلام أمين افندى قد أعجبه بدليل أنه رفع يده مرات كثيرة ووضعها على قلبه وجهته . وقدمت الهدايا وبعد بضع لحظات أمضيها فى تبادل الحديث استأذن أمين افندى وانصرف قائلاً للملك انه دواما تحت أمره متى اقتضت إرادته واستحسن أن يستدعيه . واستعملت لدى انصرافه ذات المراسيم التى عملت عند قدومه ورافقه الوزير والشيخ احمد الى مسكنه وثلة من الجند بصفة حرس . وعند الوصول دعاها لتناول القهوة فلياً الدعوة وبعد ان قضيا معه أوقات قفلاً راجعين .

وبعد رحيلها بزمن يسير أتى صبيان وقدم أحدهما وهو راكع دجاجة ومقدارا من البيض من قبل متيسا والثانى قدم جرة مملوءة مريسة من قبل الوزير فقرح بها رجال أمين افندى .

وعند الساعة ٤ قدم سكرتير الملك يحمل مكتوباً منه باللغة الانكليزية لا يستطيع فهم معناه إلا بمشقة عظيمة وبه يخبر متيسا صديقه العزيز أمين افندى بأنه نصرانى ويود ان يرى قومه على هذا الدين . فكتب له أمين افندى واختصر على ان يقول انه لم يأت ليشغل بمسائل تتعلق بالدين بل ليحمل الهدايا وانه فيما عدا ذلك يضع نفسه تحت تصرف الملك حتى لو رأى ضرورة سفره فى الحال بما انه هو نفسه على الدين الاسلامى . وعلى هذا انقلب السكرتير على عقبه راجعاً بعد أن طلب وحصل على قطعة من الافيون .

وفى ظرف ال ٢٤ ساعة التى وليت ذلك ظلت الحالة فى الشك الذى

أثاره جواب متيسا. الأخير وما استطاع أحد أن يبدى رأيا . على أن متيسا كان يعلم جيد أن أمينا الذي أراد أن يعامله كمسيحي قدم إليه بصفة سفير من قبل أمة اسلامية .

وإثناء الليل هرب جندي بسلاحه وذخيرته لينضم الى متيسا ولما كان هذا رابع جندي اقترب مثل هذا العمل منذ قدمت البعثة إلى اوغندة أتى محمد افندى ابراهيم الى امين افندى وقال انه عول على الذهاب للمطالبة بأولئك الجنود فوافقه على ذلك وقال علاوة على ما ذكر انه سيعاضده في مسعاه بكل ما أوتي من قوة . وكان متيسا لا يرسل أقواتا للعساكر ليشجعهم على الهرب وعند ما يطلب منه إرجاعهم يخلق شتى الأعذار ويبني عليها رفض تسليمهم .

وارتد البكباشي محمد افندى ابراهيم على عقبه بدون أن يرى الملك والظاهر انه كان يصيد الفيران في الحدائق الملكية إلا انه قابل الشيخ احمد فقال له مفسرا جواب متيسا بأنه ظن ان أمينا نصراني وعلى ذلك رأى ان يرضيه بهذا الجواب . ثم زاد على ذلك بان قال وعلى كل فان جميع العرب متأهبة للسفر مع أمين افندى اذا أبى الملك ان يقدم الايضاحات اللازمة . وان هذه الايضاحات يجب أن يبدىها في اليوم التالي .

غير ان البواعة التي حملت أمين افندى على الجزع وانشغال البال تبدلت معالمها في الأيام التالية عقب عدة جلسات مع متيسا انقضت في غاية من الصفاء والود . وفي الحال نال امين افندى ثقة الملك التامة وانعاماته حتى انه عرض ان يكتب الى غوردون باشا ليستبقى امينا بصفة دائمة في

أوغندة . ولاحقاً لأمين أفندي في الوقت نفسه الفرصة لاستخدام مهنته الطبية ليس بين رجال حملته الذين كان كثير منهم يعانون آلام الأمراض فحسب بل أيضاً بين كبار حاشية الملك .

ولما كانت المحادثات التي دارت بين متيسا وأمين أفندي بصدد المسائل الدينية قد أوجدت ريباً في نفس الأول وأراد أن يتحقق مما إذا كان أمين مسلماً حقاً فكتب له ليستعلم منه عما إذا كان هو في الواقع ونفس الأمر تركياً أو الرجل الأبيض الذي كان قد طلب من غوردون أن يبحث به إليه .

فأجابه أمين أفندي بقوله : انك طلبت من غوردون باشا أن يرسل اليك موظفاً سامياً أبيض بدون أن تذكر دينا ما . وإن الباشا أرسلني كما هو ثابت من الخطاب والهدايا التي حملتها اليك . فإذا كنت قد اقترفت زلة في مأموريته أو إذا كنت ارتكبت ما يسيئك في أقوالى أو أفعالى فما عليك إلا أن تشكو للباشا . وإذا كنت ترغب الحصول على موظف مسيحي فما عليك إلا أن تطلبه وأنه من المرجح أن يرسل اليك ذلك الموظف .

وفي ٣١ أغسطس تمكن أمين أفندي في هذا التاريخ فقط من السفر بالرغم من مشيئة متيسا . ووقع اختياره على طريق فاتيكو ثم دوفيليه ثم لادو . غير أنه لما انتهى إلى مرولى في ٧ سبتمبر وجد بها غوردون باشا فبسط له ما تم في مأموريته . وبعد أن سمع أقواله أخبره بأن طبيباً آخر سيصل قريباً من القاهرة وأنه لهذا سيضطر إلى الاستغناء عن خدماته إلا أنه سوف يكلم بصده البكباشى « پراوت » Prout الذي سيخلفه في حكمدارية مديريات خط الاستواء .

وفي اليوم التالي استدعاه غوردون وأخبره بأنه عينه أميناً لعموم مخازن المديرية حتى انه عند قدوم الحَكمدار الجديد يجد ان التعيين قد أضحي في حكم الأمر الواقع وكلفه أن ينتظره في مروي لغاية أوبته التي ستكون بعد زهاء ٨ أيام .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

رحلة الطبيب جوناكر

الى محطة ناصر (١)

من ٢٠ أغسطس الى ٣٠ سبتمبر

سفر جوناكر الى فاشودة

قدم الطبيب جوناكر Junker وهو روسى الجنس الى السودان ليقوم ببعض استكشافات . ووصل الى الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٦ بعد ان جاب السودان الشرقى . وكان ذلك بعد بضعة أيام من قدوم اسماعيل أيوب باشا حاكم السودان العام الى هذه المدينة عائدا من « دارفور » التى كان قد تم فتحها وأقام فيها حواين ليرتب إدارتها وينظم فيها الحاميات التى تلزمها من الوجهة الحربية .

وكانت الخرطوم إذ ذاك قائمة قاعدة فى إقامة الزينات ودق طبول الافراح ابتهاجا بهذا الحادث السعيد واستمر ذلك عدة أيام واشترك جوناكر مع الحاكم العام فى هذه الافراح وكان الحاكم قد وصلت اليه وصايا على جوناكر من مركز السلطة العام فى القاهرة فاستقبله بغاية

(١) — راجع كتاب « رحلات فى افريقية » للدكتور جوناكر المجلد الأول ، الفصل الخامس .



الذکر جو رکھ

البشاشة والايناس .

وفي ١٩ يونيه قام اسماعيل باشا الى القاهرة بناء على دعوة من الخديو ليلسط له شفويا تفصيلات ما حدث في فتح دارفور ويحيطه علما بأحوال هذا البلد . وقام عبد الرازق بك مدير سنار باعباء حكمدار السودان العام في مدة غيابه في عاصمة القطر .

وكان جونكر عاقدا النية في بادئ الأمر على أن يرتاد كردفان و دارفور . وبينما هو يتأهب لذلك اذا به قد تعرف بجيسى وكان هذا قادما من غندوكورو ليقم في الخرطوم بصفة وكيل لأمير الألاى غوردون حكمدار مديريات خط الاستواء العام .

وبعد اقامة بضعة أيام علم جونكر من جيسى ان باخرة آخذة في التأهب للرحيل قريبا بميرة الى محطة سوبات التي أنشأها غوردون والرجوع منها بسن القيل . وعرض عليه جيسى القيام بهذه الريادة فقبل ذلك شاكرا لأن هذه الريادة تمهد له سبيل السياحة في النيل الأبيض والالمام به .

وفي ٢٠ أغسطس أقلع جونكر على ظهر الباخرة « الصافية » التي مخرت في الحال تجر ٣ سفن بها جنود لمحطات الجنوب .

وبما ان ابتداء السفر كان من النيل الأزرق فقد انحدرت فيه السفن لتجتاز الرأس الفاصل بين النيلين وبذا تمكن من ان يتمتع نظره بانشهد العجيب الذى ينبسط أمام عينيه ويرى مياه الفرعين ذات اللون المختلف تناسب

جنباً لجنب الى بضع مئات من الامتار بدون ان تختلط .

وفي اليوم التالى لسفرهم صادفهم اعصار شديد جدا اضطرهم الى أن يلقوا
المراسى ويوقفوا السير .

وفي اليوم الثالث وصلت السفن الى الدويم وهى بقعة كان فيها سوق
ذات شأن تتردد عليها قبيلة البقارة التى كانت تمتد اراضيها من النيل الى
داخلية مديرية « كردفان » وبعد ان أمضت فيها ساعات الليل أبحرت
ثانية ميممة شطر « كوا » Kawa وهى ناحية على جانب من الاهمية ويطلق
عليها كذلك « حلة الدناقلة » ولما لم يكن بعد ذلك نواحى هامة داومت
الحملة المسير ولم تقف إلا فى المحلات التى تزود منها حطباً لتستعمله
وقوداً للباخرة .

ووصلت الحملة فى نهاية الأمر الى فاشودة وهى نقطة وسيطة على جانب
عظيم من الاهمية ومركز لمدير . وكان بها حامية وتعتبر منفذاً لمناطق
النيل العليا ومنها يتزود جميع السياح الصاعدون والنازلون مع مجرى
النيل ما يلزمهم من التجار اليونانيين المقيمين بها . وهى أيضاً محطة اصلاحية
ترسل اليها الحكومة المصرية المجرمين السياسيين والذين اُجرموا ضد
الهيئة الاجتماعية .

وعند ما نزل جونكر من الباخرة ذهب لزيارة المدير يوسف حسن بك
الكردى فقابلته هذا بالبشاشة والترحاب وكانت عمائر الحكومة قريبة من
النهر . أما قرية الشلوك الواقعة فى فضاء شاسع فتبعد عن النيل مسافة كيلومتر
واحداً .

وصوله الى محطة سوباط

أقلعت السفن في عشية نفس اليوم السابق وبعد ان سرت طول الليل أفضت في بكور اليوم التالى الى محطة سوباط وهى الاولى فى مديريات خط الاستواء . وكان غوردون قد أنشأها قبل ذلك بعامين على ربوة حيث ينحدر منها فى الحال ماء الأمطار الى النهر . وقائد هذه المحطة ضابط سودانى يقال له سرور افندى بهجت اشترك فى حرب المكسيك سنة ١٨٦٣ م تحت اشراف المارشال بازين ونال فيها وساما وترقى فيها بعد الى رتبة قائمقام واشترك فى عدة معامع حربية ضد الدراويش وفى نهاية الأمر كان ضمن حاميه الخرطوم وقتل مع من قتل فيها حين سقوط هذه المدينة فى يد المهديين سنة ١٨٨٥ م .

وأكد سرور افندى لجونكر ان الاقليم مناخه صحى ومما يثبت ذلك حالة الحامية المكونة من ٧٠ جنديا فانها فى غاية من الصحة والسلامة . وكان يوجد أيضا فى المنطقة مزارع من الذرة والدخن على جانب عظيم من النمو والجودة .

واتخذت السفن سبيلها فى ال
على قيد ٥ كيلومترات من المح
وقابلت الحملة فى هذا المكان باخرة أذ
من « لادو » ووجد جونكر على
كان قد سافر من بضعة أشهر
غوردون لغاية « ماجونجو »

واتجه غوردون صوب الجنوب قاصدا بلاد أونورو وقفل الآخر راجعا الى لادو عن طريق دوفيليه لكي يعود منها الى الخرطوم على ظهر باخرة وكانت صحته وقتئذ في حالة يرثى لها .

وعند ما أذنت الشمس بالمغيب أقفلت الباخرة « الصافية » وسارت ليلا بين ضفاف مرتفعة واستولى على جونكر شيء من الأسف والحسرة لحرمانه من مشاهدة مناظر تلك الربوع في وضوح النهار وذلك لأنه كان يخيل له انها على جانب كبير من الفخامة والحسن .

وفي الغد تغير وجه الأرض وأخذ البصر يقع على أراض بور شاسعة بها على مد البصر حشائش عالية بدلا من الادغال والغابات . وكانت السفن تصادف من حين الى آخر بعض قرى يسكنها قوم من « النوير » Nouers ومزارع من الذرة .

ووقفت الباخرة في اثناء الطريق لتقطر سفينتين موسوقتين ذرة لتموين محطة ناصر . ثم وقفت بعد ذلك لدى الشيخ « عامول » Sheikh Amol وهو كبير قبيلة « الفلنج » Tribu des Falanjs وكان مرتديا حلة حمراء أهداها اليه غوردون وكان يتيه عجباً وهو لا يسها .

ومع أن ربان الباخرة « الصافية » كان قد ذهب مرة الى ناصر مع أمير الألاي شاليه لونج بك إلا انه كان غير ملم تماما بالمسافات وكان يظن أنه يصل اليها قبل الظهر والحال انه لم يدركها إلا بعد الغروب بساعة . وكانت المحطة ترى على قيد بعض الابعاد حتى في جنح الظلام لوجسود غيضة بها من شجر الدوم وهى واقعة على أحد منحنيات النهر الحادة . ومركزها يقل في

الصلاحية عن موقع محطة سوبات وهي مؤلفة من نحو ال ٣٠ كوخا يحيط بها سياج شائك مشتبك بنباتات متسلقة .

ويوجد في الجهة الشرقية من المحطة جزيرة قائم عليها قرية يسكنها زنوج من قبيلة يقال لها قبيلة « النواق » Tribu des Nouaks . وقد ذهب جونكر الى هذه القرية وزار سكانها واهتم لحالتهم كثيرا لأنه وجد نفسه لأول مرة أمام عالم يختلف اختلافا كبيرا عن العالم الذي وقع نظره عليه الى تلك الساعة . ورد اليه شيخ القبيلة في اليوم ذاته الزيارة وقدم له جملة هدايا ضمنها بقرة بيضاء مليحة الهيئة . وبعد ان قدم لزائريه شيئا من مشروب « الالبسنت » انصرفوا يتحدثون بحاسن هذا المشروب .

وأخبر قائد الموقع جونكر بأنه على مرحلة ٢٥ كيلو مترا فيما فوق ينقسم نهر سوبات الى أربعة افرع . وكان جونكر يود كثيرا أن يرى ذلك بعينه إلا أنه لما كانت مأمورية رئيس الباخرة « الصافية » هي المجيء الى ناصر فقط لم يستطع ان يغريه بالذهاب الى تلك البقعة .

وفي ٤ سبتمبر قفلت المراكب راجعة . وفي ٧ منه وصلت الى فاشودة . وفي ١٣ منه وصلت الى الخرطوم ولم يحدث في اثناء ذلك كله أى حادث يخل بنظام السفر .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٦ م

رحلة الطبيب جونكر الى مديرية خط الاستواء (١)

القسم الاول

من ٢٣ أكتوبر إلى ٣١ ديسمبر

اتضح للطبيب جونكر بعد رجوعه الى الخرطوم ان الرحلة التي عقد
النية على القيام بها في نواحي دارفور لم تزل الى ذلك الوقت غير مستطاعة
إذ أن تصريح الحكومة المصرية لم يصل بعد . واسماعيل باشا أيوب ما زال
أيضا في القاهرة . وفوق ذلك فإنه كان في شك كبير من سماح الحكومة
الحلية له بالذهاب الى تلك الاصقاع حتى لو جاءه ذلك التصريح ~~وذلك~~
لاستحكام حلقات القحط في دارفور حتى ان مكيل الذرة الذي يساوى
ريالا واحدا في الخرطوم كان يباع بثلاثين ريالا هناك . وجال في خاطره
علاوة على هذه الاعتبارات ان الضباط الامريكيين الذين رافقوا الحملة
المصرية التي فتحت دارفور لا بد ان يكونوا ارتادوها في ظروف موفقة
كثيرا وبطريقة أفيد مما لو كان ارتادها هو نفسه نظرا لما لديهم
من الاستعدادات والوسائل الكثيرة التي تريد على ما في حوزته . وعلى

(١) — راجع كتاب « رحلات في افريقية » للدكتور جونكر المجلد الاول ،
الفصل السادس .

ذلك لم يكن في استطاعته ان يجنى من وراء رحلته الثمار التي كان يأمل الحصول عليها .

ومن جهة اخرى قد بعثت رحلته الاخيرة التي قام بها حديثا في اعالي النيل في نفسه حب تلك الاقطار واخذ شوقه يزداد يوما فيوما للقيام برحلة اكثر امتدادا من الرحلة السالفة في الاصقاع التي يسكنها الوثنيون .

وقرر لهذه الاعتبارات المتضاربة أن يعدل عن رحلة دارفور ويسافر الى لادو ابتغاء ارتياد مناطق مديرية خط الاستواء المتباعدة وأعلى النيل . إلا أن مخاوفه من السياحة في اراضى خاضعة لسيطرة غوردون كانت تقف في عضده إذ أنه لو عومل بحسب التعريف الرسمية الحديثة التي سنّها ونشرها لنضبت ماليته بين عشية وضحاها .

وبما ان عددا كبيرا من السياح كان قد شخص الى مديرية خط الاستواء وحدث منهم في الواقع وتقس الأمر ما أوجب استياء غوردون فقد بعث هذا بمذكرة رسمية الى سائر قناصل الدول بالخرطوم قال فيها ان على كل سائح يسافر من هذه المدينة ان يدفع غير أجره السفر على الباخرة الرسوم الآتية عما يأخذه من المتاع حسب هذه التعريف : ٢٠ شلنا عن كل بقرة ، و ١٠ شلنات عن الخروف ، ١٥ شلنا عن اردب الذرة ، و ٥ شلنات أجر الحمال الواحد في اليوم .

وكان من المظهور بتاتا استصحاب رجال مسلحين بدون ترخيص من الخديو ويشترط على السائح ان يكون اثناء اقامته في المديرية خاضعا لسلطة ضباط الحكومة .

وكان جيسى الذى عرض عليه الطيب جونكر هذه الملاحظات ملما تمام
الامام بما انطوت عليه جوائح غوردون فطمأنه طمأنينة تامة ونزع من صدره
جميع المخاوف من ناحية تلك الرسوم واثار عليه أن يأخذ معه بعض الحمير
حتى لا يكون خاضعا لمطالب الحمالين وتحكماتهم .

ولما أتم جونكر فى نهاية الأمر مشترى لوازمه تأهب للاقلاع على ظهر
البخرة التى أعدت للابحار من الخرطوم بعد عيد الفطر وهى الباخرة
« الاسماعيليه » . وكانت من احسن واسرع البواخر المعدة للسفر الى
اعلى النيل .

وتحدد يوم ٢٢ اكتوبر للسفر . وفى اليوم المعين ذهب جونكر وامتنطى
متن الباخرة فوجدها غاصة بمن فيها من الركاب والسلع والانعام الصادرة لمختلف
الجهات . وسافرت الباخرة على بركة الله .

وفى اليوم التالى دهش الركب وأى دهش إذ قابل الباخرة « تلحوين »
آتية من ناحية الجنوب وعليها غوردون . وكان جونكر يأمل أن يراه
فى « لادو » لأنه كان قد طالع فى جواب صدر منه أن فى نيته أن
لا يبارح هذه المحطة إلا بعد ثلاثة أسابيع . وعلى كل حال كان لابد
أن يراه لأنه ليس لديه أية رخصة رسمية اللهم إلا بعض توصيات من
جيسى لقواد محطة « سوبات » و « شمبى » و « بور » .

وانتقل غوردون الى ظهر الباخرة « الاسماعيليه » ليفتشها وعند ما
رأى جونكر سلم عليه وحياه وهش فى وجهه وبش . ودارت المحادثة
طبعاً حول الرحلة التى نوى جونكر القيام بها فى المديرية المعهود اليه

أعمالها . فسلمه خطابات توصية الى ضباطه وأكد له ان التسعيرة الرسمية ستعدل فيما يختص بمعاملته ودعاه للذهاب معه الى الباخرة « تلحوين » وفي اثناء الحديث عرض له جونكر بحالته المالية وعرفه بأنه اطاعة لمشورة جيسى أحضر معه ٢٥٠ ريالاً وأودع في الخراطوم ٥٠٠ جنيهه انكليزى فأجابه غوردون حالما سمع منه هذا القول بأنه ليس هنالك من حاجة الى الدراهم ثم استرد منه الخطابات التى أعطاهها له ومزقها وكلف سكرتيه أن يكتب الأمر الآتى :-

على كافة المديرين والمأمورين ورؤساء المحطات ان يزودوا حامله عند طلبه بالذرة والثيران والحمالين بدون مقابل أو أى أجر . وحرر له هذا للعمل بمقتضاه وعليهم فوق ذلك ان يحتموا على من يلزم تقديم الطاعة والامثال .

حكمدار مديريات خط الاستواء العام
(الامضاء) غوردون

* * *

وتحدثنا بحكم الطبع عن المناطق التى يلزم ارتيادها فأشار عليه غوردون ان يذهب الى « مكرাকা » مع القافلة التى ستشخص اليها عمال قليل . لأن أوغندة والبلاد الواقعة فى الجنوب يعمها الهرج والمرج وصادف ذلك استحسانا من نفس جونكر لأنه رأى ان هذا رأى ينطبق على رأيه . وهكذا قضيا معا الهزيع الأول من الليل ثم انصرف جونكر ولما انبثق نور النهار عاد كل منهما فاتخذ وجهته التى يقصدها .

وفي ٢٩ أكتوبر وصل جونكر الى فاشودة فقابل الباخرة « الصافية » وعلى متنها ابراهيم افندى فوزى الذى تولى فيما بعد حكمةدارية مديرية خط الاستواء ونال رتبة الباشوية وكان إذ ذاك مديرا لبشور فاستدعاه غوردون الى الخرطوم . وكانت هذه هى المرة الأولى التى رأى فيها جونكر ابراهيم افندى فوزى وبعد ذلك كانت له به صلات كثيرة .

وصوله الى محطتى « سوبات » و « بور » .

وفي ٣٠ أكتوبر وصل الى محطة « سوبات » ووقفت فيها الباخرة أويقات لتمتار بالوقود وتبادل جونكر وقائد المحطة سرور افندى بهجت بعض الهدايا .

وبعد هذه المحطة دخلت الباخرة فى منطقة شجيرات البردى والسدود . ودعت الحال فى كثير من المواضع الى الجد والكد ابتغاء شق طريق فى السدود القائمة فى النهر .

وفي ٤ نوفمبر ألت الباخرة مراسيها أمام شمبي وهى عبارة عن محطة أخرى تحت قيادة يوسف الشلالى ^(١) الذى كان يحترف قبلا النخاسة ويملك عددا كبيرا من الزرائب استولت عليه الحكومة فيما بعد .

واذا استثنينا المحطات العسكرية التى شيدها سير صمويل بيكر وغوردون وجدنا ان كل الزرائب التى تملكها الحكومة كانت قبل ذلك للنخاسين على

(١) — نال فيما بعد رتبة الباشوية وتولى قيادة فرقة أرسلت لمحاربة المهدي عند بداية ثورته فأيدت هذه الفرقة عن آخرها وقتل معها .

اختلافهم ثم استولت عليها الحكومة في نظير عوض أخذه هؤلاء .

وفي ١٥ نوفمبر وصلت الباخرة الى محطة « بور » وهي المحطة التي تلي شمبي . وكانت بور فيما مضى زريبة للشيخ احمد العقاد . ونزل جونكر وزار المحطة والديوان وكان هذا مكسبا وفي غاية من النظافة . وكان المدير متغيبا . وسمع على حين فجأة صوت بوق وبعض طلقات من أفواه البنادق . وكان ذلك من باب التحذير وقد ضعف الحرس في هذه الليلة نظرا للعداوة والبغضاء التي يبديها أهالي تلك النواحي .

وانتهز وكيل المديرية فرصة وجود الباخرة وشحن بها ٥٠ جنديا فاجتازت بهم النهر وأنزلتهم بالضفة المقابلة ثم وجههم الى قرية مشاغبة لتأديبها . وكانت هذه القرية قائمة في وسط ادغال من الحشائش العالية . وبعد ذلك سمع بعض طلقات اعقبها رجوع العساكر بعد زمن قليل ومعهم بعض سلال منعمة بحبوب الذرة . اما الاهالي فلادوا بالفرار بمجرد أن وقعت ابصارهم على الجند . وبعد أن افرغت الباخرة ما بها من الجند والغنائم عاودت الابحار وفي اليوم التالي ١٧ نوفمبر وصلت الى لا . وذلك بعد ابحار ١٧ يوما .

وتوجه جونكر في اليوم نفسه
التوصية التي زوده بها غوردون .
رجال الأدب وفطاحل العلم . وكان
سياسية كان كلفه بها غوردون لدى
ترك لأمين افندي تعليمات بأن
الاسماعيلية ليعرض عليه نتيجة مأموريته

إلا أيام قلائل ليمضيها في لادو مع جونكر .

وكانت هذه المحطة إذ ذاك غاصّة بمن فيها من الناس . واضطر جونكو بسبب ازدحام المساكن أن يبقى على ظهر الباخرة لغاية سفر أمين افندى الذى وضع تحت مطلق تصرفه مسكنه مدة غيابه .

وضرب اليوم التالى موعداً لسفر الباخرة . وارسل أمين افندى متاعه اليها فى ساعة مبكرة وفى الوقت نفسه نقل حمالو الباريين الذين بعث بهم كوتاح افندى المدير الى دار أمين افندى لنقل متاع جونكر الى هذه الدار .

وقد أنشأ غوردون لادو سنة ١٨٧٤ لأن النهر انتقل من مجراه فصارت غندوكورو غير صالحة لرسو السفن طول فصول السنة وفضلا عن ذلك فانه نشأ بسبب هذا الانتقال تكوين مستنقعات امام محطة غندوكورو صيرت جوها فاسدا فانتشرت فيها الحميات واضحى من اللازم البحث عن بقعة اخرى لاقامة المحطة عليها .

وفى ٢٦ نوفمبر وصل الى « لادو » القسم الاول من القافلة آتيا من مكراكا وكان مؤلفا من بضع مئات من الرجال وبعد بضعة ايام وصل القسم الآخر أيضا . وتضطر ندورة الماء فى الطريق القسوافل الكبيرة ان تتجزأ وتسير اقساما وتترك فترة من الأيام بين سفر قسم وآخر . ولما كان سياج المحطة ضيقا كثيرا لا يتسع لأيواء عدد كبير كهذا نزل رجال مكراكا على قيد ١٠ دقائق خارج المحطة .

وكان يرافق القافلة حرس من العساكر النوبيين غير النظاميين عدا

موظفى مديرية مكراكا . واقامت الأفراح وسرت روح المسرة الى النفوس لأن كل هؤلاء لهم اصدقاء فى لادو . ويعرف الكثيرون من أهالى مكراكا اللغة العربية ويرجع السبب فى ذلك الى ان تجار الخرطوم أقاموا منذ سنين طويلة زرائب فى بلادهم لتجارة العاج والنخاسة .

ووصل مع القافلة بنحيت افندى بتراكى مدير مديرية مكراكا وهو ضابط سودانى (١) . ودعا بنحيت افندى جونكر الى مشاهدة حفلة رقص وسمع أغانى أهالى مديريته فدهش هذا مما رأى وسمع .

وفى ٣ ديسمبر وصلت الباخرة بردين الى لادو وعليها البريد . وتلقى جونكر به خطابا من قنصل دولته بالاسكندرية ينبئه بقبول الخديو سياحته فى دارفور إلا أنه يلزمه مع ذلك انتظار أوبة اسماعيل باشا أيوب الى الخرطوم . فقدم جونكر الحمد والشكر لله على قيامه من هذه المدينة قبل ورود هذا الخطاب .

وفى ٥ منه قدمت باخرة اخرى تقل شخصا من أتباعه والثلاثة الخ التي كان تركها فى محطة سوبات لعدم وج

وحدث فى هذه المدة مشاغبة بين
معركة سالت فيها الدماء وقتل فى غض

(١) — اشترك فى حرب المكسيك تحت
وترقى فيما بعد الى رتبة أميرالاي وتولى قياد
الدراويش لها وقتل عند ما استولوا عليها - انظر
المكسيك .

مدير لادو ليخمد أنفاس الثورة ويرد الثائرين الى الصواب . وتمرد الأهالى أيضا فى موجى وهذه الناحية هى التى قتل فيها « إرنست دى بلفون » فى السنة الغابرة . وبارح كذلك بنحيت افندى لادو مع قسم كبير من رجاله فى مكراكا ليوطد الأمن فى الجهات التى اختل فيها النظام .

وشرع جونكر يعد معدات حملته فى مكراكا واضعا نصب عينيه وصية غوردون له فاجتهد أن يخفض على قدر الاستطاعة متاعه لدرجة أنه اكتفى بـ ٤٠ حمالا .

وفى ٢٤ ديسمبر فوجيء بمفاجأة سر لها . ذلك أنه جاءته حزمة خطابات من « سان بترسبورغ » وأوراق وردت له مع الباخرة المنصورة من الخرطوم . وقضى جونكر عيد الميلاد مع رفاقه فى هدوء وراحة بال .

وفى غد ٢٦ منه كان أول يوم من أيام عيد الاضحى فتوجه الى الصيدلى حسن افندى وزاره بمناسبة العيد وكان حسن افندى زاره قبل ذلك مرارا . وفى أثناء هذه الزيارة عاد بنحيت افندى من رحلته فقدم له جونكر التهانى .

وفى ٢٨ منه رجع كوتاج افندى من رحلته . وأحضرت الحملتان كثيرا من الغنائم وأغلبها من الذرة والاسلحة وادوات الزينة وآلات من التى يستخدمها الباريون فأخذ القسم الأكبر منها جونكر وفرح به لأنه كان قد بذل جهدا كبيرا فى الحصول على شئ من ذلك فأخفق فى مسعاه ولم ينجح فى الحصول عليها مباشرة من الباريين .

وتتمة هذه الرحلة مدونة فى الملحق الأول للسنة التالية .



امیرالائلی پراوت بان

حكمدارية أميرالائى پراوت

من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٧ م

عند ما سافر غوردون من الخرطوم عهد الى الكولونيل الأمريكى پراوت Colonel Prout من اركان حرب الجيش المصرى العام بحكمدارية مديرية خط الاستواء فذهب اليها فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ وقام بالمهمة التى ولى أمرها بهمة ونشاط عظيمين . فتوجه من « لادو » الى « فاتيكو » ومن هذه الى « مرولى » الواقعة على نيل فكتوريا ثم تقدم لغاية ماجونجو الواقعة على بحيرة البرت نيازرا وعين موقعها بالتدقيق إلا أن المرض اضطره للاياب الى « لادو » .

وفى مايو سنة ١٨٧٧ م تخرجت صحته فالتزم أن يسافر الى انكلترا ثم عاد بعد ذلك غير أن صحته ما كانت لتسمح له بالبقاء فاضطر أن يبارح المديرية نهائيا .

حكمـدارية أميرالـآلـى إبراهيم فوزى بك

من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٧٨ م

سفر إبراهيم فوزى بك الى لادو

عند ما استعفى أميرالـآلـى پراوت لأسباب صحية من حكمـدارية مديرية خط الاستواء عين غوردون بدلا منه فى هذه الوظيفة أميرالـآلـى إبراهيم فوزى بك . وكان فى ذلك الحين فى الخرطوم ولما وصل اليه أمر تعيينه أخذ يعد معدات السفر .

وأقـلـع على الباخـرة « الاسماعيلية » من الخرطوم ووصل الى لادو وهى أهم مراكز تلك المديرية . ولدى وصوله حرر منشورا وبعث به الى كافة المراكز ليخبرها بتعيينه حكمـدارا للمديرية وليبين لها الطرق اللازم اتخاذها لتوطيد دعائم الأمن فى سائر أنحاء البلد واسعاد الأهالى وانجاحهم .

طوافه بالاقاليم وتفتيشه لها

ثم استحسن بعد ذلك أن لا يطيل إقامته فى لادو وأن يطوف لأقاليم ليتحقق من حالة البلد وقاطنيها . وابتدأ يزور الجانب الجنوبي وأخذ يتنقل من بقعة الى أخرى واستغرقت رحلته زهاء ال ٤٠ يوما وبعد ذلك قـمـل راجعا الى لادو . وبعد أن مكث بها نحو ال ٢٥ يوما شخص الى الجانب الشمالى أى قسمى « بور » و « سوباط » على متن الباخرة



ايراهيم و سوزي بات « بائنا »

« الاسماعيلية » .

وهذا ما قاله ابراهيم فوزى بك « فيما بعد باشا » بعد طوافه بتلك البقاع ورجوعه الى لادو واننا نثبتته هنا نقلا عن كتابه « السودان بين يدي غوردون وكنتشر » ج ١ ص ٤٠ وما بعدها ، قال :-

« وبعد عودتي من الرحلة التي لقيت فيها ادريس ابتر جاءني سائح اسمه الدكتور ينكر « جونكر » يطلب مني أن أجمع له مائة شخص من الاهالي يحملون أثقاله مدة تجوله في انحاء خط الاستواء . وكانت العادة المتبعة عندنا إذ ذاك أن نسمح بمثل ذلك لكل سائح على شرط أن يؤدي أجره كل شخص ثلاثة غروش من العملة الصاغ عن كل يوم وأن يدفع لكل شخص أجره ثلاثة شهور سلفا وأن يكون مكثفا بلوازمهم اليومية من الطعام . فعرضت عليه هذه الشروط فأكبرها وادعى ان لديه أوامر من غوردون باحتساب كل نفقات سياحته على جانب الحكومة . فطلبت منه الرقيم الصادر من غوردون فلم أجد عنده شيئا من ذلك . وأخيرا دفع أجره شهر واحد لكل حمال من الذين جمعناهم له وتعهد بدفع الباقي عند عودته . وبعد ثلاثة شهور عاد من سياحته وامتنع عن دفع ما بقي في ذمته من أجره الحمالين . وبعد محاورات كثيرة دفع لهم أجره الشهرين الباقيين ثم أخذ في أهبة السفر ومعه شيء كثير من العاج فأخبرته باحتكار الحكومة هذا الصنف ومنعها الاتجار به وحمله الى الجهات الشمالية وأفهمته ما تقضى به الأوامر من ضبط ما معه وأخذه لجانب الحكومة فامتنع أولا ثم رضى ثانيا . وكان كثير الألفة والتودد الى طبيب الحكومة الدكتور شنيترز (Schnitzer) الذي سمى نفسه بعد باسم « محمد أمين » ثم صار حاكما على أقاليم خط الاستواء

باسم أمين باشا .

وفي غضون إقامة هذا السائح بخط الاستواء نقل الى كثير من تجار الأوربيين هناك أنه مصمم على الوشاية بي عند غوردون وأنه لابد من أن وشايته ستفضي الى فصلى وأنه يرشح أمين افندى طبيب الحكومة لولاية الحكم على أقاليم خط الاستواء بعد فصلى .

على أننى لم أكرث بهذا القول وعدته من قبيل الهوس وخصوصا ما ذكر من أمر أمين افندى الطبيب لاني وسائر من معى من الموظفين نعتقد فيه فقدان الروية وعدم الحذق حتى فى صناعته التى انقطع لها ودرسها فكيف يكون شأنه إذا عين بوظيفة حاكم لأقاليم خط الاستواء ادارتها عسكرية ومدار عملها على الحركات العسكرية والمهارة الحربية ؟ ثم غادر الدكتور « ينكر » خط الاستواء على إحدى البواخر فكتبت الى الكولونيل غوردون اعلمه بكل ما وقع بينى وبين الدكتور المذكور وشرحت له ما علمته من أولئك التجار من نواياه ونوايا أمين افندى الطبيب . ولما وصلت الباخرة الى مكان يدعى « شبشه » يبعد عن الخرطوم بنحو مائة ميل أصابها خلل أوقف متابعة سيرها فخرج السائح منها واستأجر نوفا وصل على ظهورها الى الخرطوم وقابل الكولونيل غوردون والتقى عليه ما شاء من الأكاذيب والوشايات فاحتمد غيظا جريا على عادته حيث كان من طباعه أن يصغى لكل واش سبق غيره بالشكوى اليه من غير أن يتحرى صدقه ويوقف على كنه قصده .

وبعد بضعة أيام أصلح خلل الباخرة فاستأنفت سيرها الى الخرطوم وبعد وصولها ذهب صاحب البريد ليسلمه للكولونيل غوردون فامتنع من

استلامه وأصدر أمرا بفصلي من مديرية خط الاستواء وتعيين أمين افندى الطبيب وكيلا عنى حتى تصدر أوامر أخرى . ثم غادرت خط الاستواء قاصدا الخرطوم حيث أصدر الكولونيل غوردون أمرا بتعيينه حاكما عاما على أقاليم خط الاستواء فوق ذلك موقع الدهشة والاستغراب لدى الموظفين الذين لا يعرفون لهذا الرجل أهلية إدارية أو عسكرية تبوئه هذا المنصب الخطير وأيقن الكل بأن الدكتور ينكر هو الذى مهد له هذا السبيل وبوأه هذا المنصب .

ولا غرابة فى ذلك فان الدكتور شنيتر قدر على اخفاء دينه وتسمى بمحمد أمين فليس ببعيد على منافق كهذا استمالة مثل الدكتور ينكر ما داما عالمين من الكولونيل غوردون الاصغاء لكل مبادر بالوشاية ولو كان ذا قصد سيء » . اه
ولا يخلو هذا الكلام من بعض الحقائق فقد ذكر الدكتور جونكر فى المجلد الأول من كتابه « رحلات فى افريقية » من عام ١٨٧٥ الى ١٨٨٦ م بصدد تعيين خلف لابراهيم فوزى بك ما يأتى :—

« سألتى غوردون عن افكارى فى هذا الشأن ومن الذى يمكننى أن أشير بتعيينه . فعرضت عليه الطبيب أمين افندى فعارض غوردون فى بادئ الأمر إلا أنه انتهى بالقبول وعين فعلا أمين افندى حكاما لمديريات خط الاستواء ومنح لقب بك » . اه

١ — منحق سنة ١٨٧٧ م

رحلة الطبيب جونكر في مديرية خط الاستواء (١)

القسم الثانى

من أول يناير إلى ٣١ ديسمبر

سفر جونكر من « لادو » الى « نيامبارا » .

قدم أمين افندى من الخرطوم ووصل على غير موعد الى لادو في ٢ يناير ففرح جونكر بذلك لأنه كان يأمل انه بوساطته لدى السلطة المصرية تذلل مصاعب كثيرة وتنجز الأمور بسرعة .

وفي ١٢ منه أتى الى جونكر موظف ليتناقش معه في مسألة الحمالين فدعاه ذلك الى الأمل بإقتراب موعد الرحيل الى « مكراكا » . وكان قد طلب ٤٥ حمالا فلم يجب طلبه فحسب بل وعد بخمسين . وتمم معدّات السفر غير أنه رغما عن الأوامر التي أصدرها غوردون صادف بعض صعوبات في مكتب مأمور المؤن والذخائر . وفي نهاية الأمر حصل على مؤونة

(١) — راجع كتاب « رحلات في افريقية » المجلد الاول ، الفصل السابع والثامن والتاسع والثالث عشر .

شهر له ولرفاقه .

وفي ١٩ يناير أخبره أمين افندى ان القافلة ستسافر في الغد ثم حدث بعد ذلك تأجيل آخر فلم تسافر إلا في ٢٢ منه .

وقدم فضل الله افندى وهو رجل نوبي وقائد محطة من محطات « مكراكا » ومعه بعض الجنود والحمالين ليسلم الى هؤلاء الأحمال المكلفين بنقلها بعد أن وضع على كل حمل علامة لأن العادة المتبعة هو أن لا يغير أى حمال الحمل الذى تسلمه طول مدة السياحة . وقضى جونكر آخر ليلة مع أمين افندى ولم يفارقه إلا في ساعة متأخرة :

وبعد إقامة شهرين ونصف شهر في لادو سافر منها جونكر في نهاية الأمر في ٢٢ يناير سنة ١٨٧٧ في الساعة ٧ صباحا ورافقه أمين افندى وأصدقائه الى باب المحطة ثم ودعوه بعد أن تمنوا له سفرا سعيدا .

وكانت القافلة مؤلفة من ١٢٠٠ نفس من مختلف القبائل ومن كل جنس وسن . وكان يوجد فيها عدا هؤلاء الموظفين وأسراتهم و ١٠٠ جندي غير نظامي بصفة حرس ثم عدد كبير من المواشى منها ما هو للركوب ومنها ما هو للذبح والتغذى بلحومها مدة السفر . وكان جميع هذا الخليط تحت قيادة بنحيت بتراكى افندى مدير مكراكا الذى كان مركزه في « واندى » Wandi . وفضل الله افندى مدير « كبايندى » Kabaiendi .

وكان النظام المتبع في تسيير مثل هذه القافلة هو النظام المؤلف منذ أجيال لدى أهالى تلك الاصقاع . فكل قسم يمشى مع رئيسه والعلم المصرى

يخفق في مقدمته . وكان بجيت افندى يسير راكبا هو وأركان حربه في المقدمة وتتكون منهم الطليعة . ويأتى على أثره مباشرة حاملو الحكومة الذين يحملون الأشياء الخاصة بمختلف محطات مديريته من بنادق وذخيرة وأطعمة ومنسوجات وغير ذلك من الأشياء المعدة لمبادلتها بالعاج . أما فضل الله افندى فكان يؤلف المؤخرة ومن واجباته أن لا يدع أحدا يتخلف . وكانت القافلة تتف في الطريق للراحة كل ساعتين .

وبعد مبارحة لادو بزمن يسير غاب النهر عن الابصار بتوغل القافلة في غابة من السنط واللبيخ ومروورها على كثير من قرى الباريين المحاطة بسيجات شائكة ومزارع الذرة والتبغ . ويعتنى اهل هذه البقاع بزراعة التبغ اعتناء خاصا فيغطونه بأوراق العوسج لوقايتهم من شعاع الشمس .

ونزلت القافلة في أول يوم قرب « خور الرملة » الذي كان جافا في تلك الآونة إلا أنه كان في الامكان الحصول منه على ماء بعد حفر بعض أقدام في مجراه . ويصير هذا الخور في فصل الامطار مسيلا عمقه متران ويصب في النيل فيكون صالحا لملاحة المراكب الصغيرة .

وانطلقت القافلة في السير في اليوم التالى عند ما انبلج وجه الصباح ومرت على مجموعة من قرى الباريين في ذلك النهار وكان قاطنوها يولون الأدبار في كل مرة يقترب منها رجال القافلة ومع ان هذه القرى كانت على وجه الاجمال يماثل بعضها بعضا إلا انه كان يوجد بون في الاراضى التى تكتنفها بحسب حالة اصحابها رعاة أو مزارعين .

ووقتما حطت القافلة رحالها في اليوم الثاني للاستراحة اخبر بجيت
سدى جونكر ان الباريين الساكنين غرب هذه البقعة ما زالوا غير
ضعين الخضوع التام وانهم كثيرا ما يصابون بالحكومة العداوة ويتحرشون
وانهم ذبحوا منذ عامين قافلة مؤلفة من ٨٠ رجلا كانت تحمل عاجا
، مكررا كما الى لادو .

وأتى جملة مشايخ خاضعين لسيطرة الحكومة ومرتين ثيابا حمراء طويلة
ان منحهم ايها الحكماء العام لتكون علامة يتميزون بها عن المشايخ الآخرين
دموا واجب الاحترام الى بجيت افندى والموظفين الآخرين وقدموا للقافلة
عن أشياء أخذوا عوضا عنها بعض رؤوس من الماشية .

وكان عندئذ لا بد من الحصول على كمية الذرة اللازمة لثمون
افلة الى ان تصل الى اراضى « النيامبارا » ^(١) Niambaras وكانت
سيالة الوحيدة المؤدية الى ذلك هي الاغارة على اراضى الباريين
شاغبين فأرسلت تجريدة لهذا الغرض وبعد أن أطلقت بعض العيارات
، الهواء لاذ سكان القرى المجاورة بالفرار وهكذا عادت التجريدة
سعيها الذرة اللازمة .

وفي ٢٤ يناير دخلت القافلة فى أرض « النيامباريين » . وهى عبارة عن
هل رحب منظره على منوال واحد وليس به أشجار يتقى فى ظلالها
ماعات الهجير . وفى ذلك اليوم حطت القافلة رحالها بجانب مسيل ليس
، ماء . وصادفت فى اليوم التالى أول قرية من قرى « النيامباريين »

(١) — أسماها أميرالائى شاليه لونيغ بك : « ينبارى » .

وهي تشبه تماما قرى الباريين . وبعد أن نصبت القافلة المضارب للنزول هب إعصار سبب لرجالها كثيرا من المتاعب .

وفي ٢٦ يناير مكثت الحملة مكانها طلبا للراحة وفي الغد شخصت مبكرة في السفر ووصلت في اليوم نفسه الى محطة « نيامبارا » وهي المحطة التي يرأسها عبد الله افندي المرافق للحملة . وكانت هذه المحطة قد انشئت من ١٨ شهرا في منتصف الطريق بين « لادو » و « مكراكا » ، وكانت تستعملها القوافل التي تنقل العاج للاستراحة وتمتار منها الذرة والماشية وتجيد فيها ايضا الأبن والطمانية من شر قبائل النيامبارا المعادين وذلك تحت كنف حاميتها المؤلفة من الجنود النوبيين غير النظاميين . وكان فريق كبير من هذه القبائل يأبى باصرار أن يدخل في علاقة ما مع موظفي الحكومة رغما عما حصلوا عليه من المنح والهدايا الكثيرة .

ولما كانت الحامية قاست كثيرا من الاحوال من تلك القبائل فكان لا بد من القيام بعمل شديد حاسم لابقائها في مركزها إذ بغير ذلك كان لا يمكن مطلقا تأمين طريق القوافل بين « لادو » و « مكراكا » . وعلم جونكر من بخيت افندي ان احمد الأطروش مدير « واندي » قادم على رأس فرقة مؤلفة من ٢٠٠٠ جندي من مكراكا و ١٠٠ عسكري نوبي بقصد توجيه بعض حملات ضد القبائل الأكثر عداء ابتغاء تموين المحطة . ولما كانت الحاجة ماسة للاسراع أرسل فضل الله افندي على جناح السرعة في ٢٩ يناير ومعه فرقة ليقوم بغزوة فذهب وآب في نفس ذلك اليوم ومعه مقدار من الذرة أودعه في مستودعات المحطة .

ووصل احمد الأطروش في اليوم التالي وتقرر أن يقوم بحملة تآديبية ليغزو شيخا من المشايخ الثائرين على الحكومة وكان هذا الشيخ يهدد الطريق الجنوبية الموصلة الى لادو وسبق له أن قاوم ضابطا من معاونى يوسف الشلالى في منطقة « رول » Ròl ونجح في مقاومته .

وقامت الحملة في أول فبراير ورجعت في ٩ منه ومعها كمية كبيرة من الذرة و ١٠٠٠ رأس من الانعام فأخذ الجمالون ما خصهم من الذرة وأودع الباقي في مخازن المحطة لتستقضى منه الحامية والقوافل التي تأتي بالمرور لوازمها ولتوزيعها أيضا على الأهالى الذين يقدمون الطاعة .

وفي ١١ منه بعد أن تقوت القافلة بانضمام فرقة الاطروش اليها شرعت في المسير وكانت مؤلفة من ٣٠٠٠ نسمة . وبعد سفر خمسة ايام أفضت الى محطة « وندى » في ١٦ فبراير . ووندى هذه هي عاصمة مديرية مكراكا .

ولدى وصول جونكر كانت هذه المديرية التي هي احدى مديريات خط الاستواء مقسمة الى ٥ مراكز وهي :-

(١) — وندى وهي مرتفعة ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر وعاصمة المديرية ومحل اقامة المدير بنجيت افندى الذى كان احمد الاطروش افندى تحت إمرته .

(٢) — مكراكا الصغرى وهي مرتفعة ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ورئيسها احمد افندى وهو ذلك الرجل الافغانى الذى ذكره أميرالآلى شاليه لونج بك عند الكلام عن الحملة التي قام بها لضم مكراكا .

(٣) - ميكراكا الكبرى أو « كابايندى » وهى مرتفعة ٢٧٥٠ قدما عن مستوى سطح البحر ورئيسها فضل الله افندى الذى توفى بعد ذلك بزمان يسير وحل محله ريجان افندى . وهذا ضابط سودانى ترقى فيما بعد الى رتبة بكباشى وهو الذى كان يقود ١ جى أورطة فى لادو حينما وصلت حملة استانلى الى خط الاستواء وتوفى قبل حملة الدراويش على المديرية .

(٤) - ريمو Rimo وهى مرتفعة ٢٨٢٠ قدما عن مستوى سطح البحر ورئيسها عبد الله افندى ابو زيد .

(٥) - مديرفى Mdirfi وهى مرتفعة ٣٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر .

وكان فى كل محطة من تلك المحطات ٣٠ جنديا نظاميا مسلحون بينادق « رمنجتون » ومن ٥٠ الى ٧٥ جنديا غير نظامى من الدناقلة كما انه كان يوجد فى كل محطة عدد مماثل لهذا من التراجمة مكلفون بتنفيذ أوامر الحكام والسهر على تحصيل الضرائب المفروضة على المحاصيل .

ولدى وصول جونكر الى واندى نزل على بحيت افندى الذى أكرم وفادته كل الاكرام . وبحيت افندى هذا هو من اهالى « دار النوبة » الواقعة جنوب كردفان وكان فيما سلف مستخدما عند « پثيريك » Petherick قنصل انكلترا فى الخرطوم ثم اندمج فى ألاى سودانى وكان ضمن جند الاورطة السودانية التى حاربت فى بلاد المكسيك بقيادة المارشال بازين ونال من اجل ذلك الوسام العسكرى ثم ترقى فيما بعد الى رتبة أميرألاى وتولى قيادة ١ جى

ألاي سودانى فى الخرطوم عندما حاصر الدراويش. هذه المدينة وقتل
عند وقوعها فى قبضة ايديهم . وغوردون هو الذى عينه مديرا لمديرية
مكراكا .

وكان فضل الله افندى وريحان افندى من بلد بخيت افندى أى من
مواليد « دار النبوة » وكانوا يسمون انفسهم بـ « الاخوان » . أما احمد
الاطروش فكان تركى المحتد .

ويمكن وصف المنزل الذى وضع تحت تصرف جونكر بأنه منزل مزخرف
بالتقاس الى المسكن الذى نزل فيه فى لادو لاتساع ارجائه وطلاء حيطانه
بالجص من الداخل والخارج واحتوائه على شباييك فى سائر الاتجاهات ينفذ
اليه منها النور والهواء بكثرة . وكان يورد له احمد الاطروش ماء فراتا للشرب
وموزا وشماما وييضا ولبنا وخضرا وحماما .

وصوله الى مكراكا الصغرى ومكراكا الكبرى

لم يشأ جونكر ان يطيل الاقامة فى وندى رغم هذا النعيم الذى كان
يتمتع به أثناء وجوده بها وشخص فى ٢٢ فبراير الى مكراكا الصغرى
الواقعة فيها محطة احمد افندى الافغانى فوصل اليها فى اليوم نفسه صحبة المذكور
إذ ان هذا هو أيضا كان عائدا من وندى .

وكانت المحطة مقامة فى بقعة جميلة بالقرب من نهير فاستقبله احمد
افندى بغاية البشاشة والايناس وأسكنه فى منزل حسن ودعاه الى وليمة تناول
فيها أكلة لم يتمتع بمثلا من مدة مديدة .

وكان احمد افندى يعتنى ويهتم كثيراً بالزراع بدلالة شدة اعتنائه بروضته الغناء التى أوجد فيها الليمون والنارنج والبرتقال والبلح والشمام والتفاح والخيار وكل انواع الخضر .

وفى الغد يمم جونكر محطة مكركا الكبرى أو كبايندى وكان يرافقه فضل الله افندى رئيس المحطة الذى كان عائدا معه من لادو . فمروا طول نهارهم بقرى كثيرة ومزارع شاسعة من الذرة وفى المساء أفضوا الى المحطة المذكورة .

ولم تقع هذه المحطة من نفس جونكر لدى وصوله اليها موقع الاستحسان بالقياس الى المحطتين السابقتين وهذه المحطة قائمة على ربوة بجانب خور . ونزل بمنزل رحب يتخلله الهواء .

وعند ما انتشر خبر عودة فضل الله افندى قدم جميع المشايخ للسلام عليه وتقديم احتراماتهم له ولجونكر الذى زاره ايضا كبراء الدناقلة . وبذل فضل الله افندى كل ما فى وسعه لمرضاة جونكر . ولما كان جونكر ينوى القيام بريادة فقد أحضر له دنقلاويا بصفة مرشد اسمه حسن كما أحضر له الجمالين الذين طلبهم .

وفى ٤ مارس شرع فى الرحيل ابتغاء القيام بجولات دائرى حول المحطة وفى غضون هذه الرحلة زار البقعة التى كانت مقامة عليها محطة فضل الله افندى القديمة وهى المحطة التى مر بها أميرالالاي شاليه لونج بك من مدة عامين . وزار أيضا زريبة ابراهيم جورجورو Gourgourou وأقام بها يومين لانحراف صحته ثم بعد ارتياده الضواحي عاد الى محطة فضل الله افندى التى

كان رحل منها بعد أن غاب عنها ١٦ يوما قطع فيها ١٦٠ كيلومترا .
وفي فترة غيابه سافرت قافلة من وندى الى لادو تحمل العاج تحت قيادة
نجيت افندى وكان فضل الله افندى سيذهب في إثرها قريبا على رأس قافلة
أخرى . وانهز جونكر فرصة سفر هذه القافلة وأرسل معها مراسلاته الى
الخرطوم وأوربا .

وكانت مديرية مكراكا قد أرسلت في أول الأمر كميات وافرة من العاج
أما الآن وقد قلت قطعان الفيلة للاكثار من صيدها فمعظم العاج الذي يرسل
الى الخرطوم مصدره أرض نيام نيام .

ومع ان جونكر كان شيقا الى مواصلة السير من جديد إلا أنه
قرر التربص الى حين قدوم الضابط المصرى المبعوث من قبل أمير الألاى
براوت حاكمدار مديرية خط الاستواء للقيام بجولة ابتغاء تفتيش مختلف
المحطات وكان قد أشيع خبر وصول هذا المفتش الى وندى . ولايجاد شئ
من التلهى كان يزور اليوزباشى محمد افندى الدكتور جونكر وكان يعطيه درسا
فى اللغة العربية . وهذا اليوزباشى كان رجلا تركيا مسنا وظيفته قيادة العساكر
النظامية .

ومر محمد ماهر افندى فى هذه الفترة على كبايندى - وهذا الافندى
ترقى فيما بعد الى رتبة باشا وتعين وكيلا لنظارة الجهادية - ثم سافر ليقوم
بتفتيش المحطات الأخرى . وعلى ذلك أعد جونكر معدات السفر ورحل
فى ٨ أبريل . وكانت قافلته مؤلفة من خدمه و ١٠ من الجمالين فارتاد أراضى
« بومبيه » Bombehs ، و « أباباكا » Abakas ثم عاد فى ٢٨ أبريل بعد أن
قطع ٢٥٠ كيلومترا .

وأطال جونكر هذه المرة مدة إقامته في كبايندى . وفي أثناء الايام الأولى من إقامته زاره ريجان افندى واليوزباشى محمد افندى وسائر الموظفين وباقي المقيمين بالمحطة وهنئوه بسلامة الوصول .

وفي ١١ مايو ورد بريد تلقى فيه مكاتبات من برلين والخرطوم ومن أمين افندى من لادو . وكانت مثل هذه المراسلات تبعث في نفسه دواما بهجة وسرورا لانها تجعله في اتصال مع العالم المتمدين .

وفي ٢٧ منه سافر جونكر للقيام برحلة ثالثة دائرية ومر في ٣٠ منه بمكراكا الصغرى ونزل فيها ضيفا على احمد افندى ومع ان هذا كان غائبا في لادو فلم يحل ذلك دون اكرام وفادته وتأدية جميع مطالبه نظرا لالتقان ترتيب منزله . وبعد أن أتم جولته آب الى كبايندى في ١٣ يونيه وهو على غاية ما يرام من الصحة والعافية وقطع في هذه الرحلة ١٥٠ كيلومترا .

ونزل جونكر عند عودته الى كبايندى في منزله مرة أخرى . وبما أنه كان ينوى الذهاب الى وندى أبقي متاعه على حاله ولم يفك منه إلا النزر اليسير . وكان يقصد من ذهابه الى هذه الناحية الأخيرة المداولة مع نجيت افندى في مسألة رحلته الى كاليكا Kalika مع القافلة المزمع سفرها اليها والى كان منتظرا قدومها من لادو بين عشية وضحاها .

وانتشر في اليوم التالى خبر وفاة فضل الله افندى في محطة لادو . وعند ما طرق الخبر مسامع جونكر توجه الى ريجان افندى فعلم منه ان الناقل لهذه الاشاعة هم جماعة الأهالى القادمون من وندى . وقبل ان يتركه أتى عدد كبير من النوبيين وأكد صحة الخبر وعلى ذلك أقيمت الرسوم

الواجبة في مثل هذه الحالة .

وبناء على طلب بنحيت افندى بارح جونكر في ١٨ يونيه كابايندى وسلك طريقا يمر بمكراكا الصغرى وهى محطة احمد افندى الافغانى . ومع أن هذا لم يعد من لادو فان جونكر نزل فى نفس المسكن الذى نزل فيه فى المرة الأولى وبارحه فى الغد ووصل الى وندى فى ١٩ منه فنزل فيها على احمد افندى الأطروش الذى أكرم وفادته .

وكان جونكر شديد الرغبة أن يباحث بنحيت افندى مباحثة جدية فى مسألة سفره الى كاليكا وأن يطلب منه امداده بما يلزم من التسهيلات أثناء الوصول اليها وإلا فانه ينوى الذهاب الى يوسف افندى الشالى فى منطقة « رول » . وفى غضون هذه المقابلة قال له بنحيت افندى انه لم يكن لديه ثم مانع من الاذن له بالقيام بهذه الرحلة وأنه سيمده بالتسهيلات بقدر ما فى طاقته وأنه عدا عبد الله أبى زيد افندى المكلف بقيادة القافلة سيرافقة ايضا احمد افندى الأطروش .

رحلة جونكر الى كاليكا

وصلت القافلة بعد ذلك بزمن يسير من لادو الى وندى وقدم معها عبد الله افندى أبو زيد رئيس محطة نيامبارا وبعض الجنود ولما كان يجمع العودة بعد بضعة أيام سامه جونكر مراسلاته التى كان ينوى إرسالها الى الخرطوم .

وفى نهاية الأمر سافرت القافلة فى ٧ يوليه وكان يرافق جونكر فيها احمد الأطروش حسب الوعد الذى قطعه على نفسه بنحيت افندى .

وبما ان الاطروش كان يود المرور على محطته أولا يمت القافلة ريمو حيث كان في انتظارها الحرس النوبى غير النظامى .

وفي اثناء الطريق لحق بها رسول من وندى يحمل خطابا فيه دعوة للاطروش بأن يتوجه فى الحال الى مكرى كا وبسبب عدم وجود من يعرف القراءة تقرر الذهاب الى مكرى كا الصغرى للاستفهام من احمد افندى الافغانى رئيسها عما اذا كان لديه شئ من الاخبار . وعند الوصول الى مكرى كا الصغرى تبين ان مدير مديرية بحر الغزال استدعى سائر مديرى المناطق المجاورة للحضور ومعهم القوات التى تحت ايديهم لكي يقاوموا ذلك الخليط المغير على مديريته بقيادة سليمان بن الزبير باشا وعلى ذلك دعت الحالة الى العدول عن رحلة كاليكا وعاد الجميع الى كابايندى وهى المقر الذى كان تعيين سفر الحملة منه .

وفي ١٦ يولييه سافرت الحملة من كابايندى بقيادة نخيت افندى ومن ضمنها جونكر . غير انه لما كانت هذه الحوادث وقعت بعيدا عن مديرية خط الاستواء فلا محل لذكرها فى هذا الكتاب ونكتفى بالقول ان الحملة ومعها جونكر عادت فى ٢٧ أكتوبر الى كابايندى بعد ان غابت اكثر من ثلاثة أشهر .

ولما كان مع ذلك مقررا السفر الى كاليكا اتخذت الأهبة لهذه الرحلة وقامت فى ١٢ نوفمبر . وكان تقرر الاجتماع فى محطة ريمو وان يأتى اليها احمد الاطروش ورجاله من وندى وذهب اليها أيضا جونكر فوجد فيها حركة شديدة وكان كل يوم يمر يأتى اليها جموع جديدة من كافة انحاء المديرية . وكان قد استقر رأى على ان تتألف الحملة من ٣٠ جنديا نظاميا

و ٤٠٠ من غير النظاميين و ٦٠٠ حمال . وكانت هذه الجموع تحت قيادة احمد افندى الأطروش وعبد الله افندى ابى زيد رئيس محطة ريمو بصفة قائد ثان . وكان الغرض الحقيقى من هذه الحملة جلب عاج للقيام بنفقات الحكومة ومواشى لتموين المديرية .

وسارت الحملة فى طريقها الى جهة الجنوب فى ٢٠ نوفمبر وكانت تقوم بغارات تارة يسارا وطورا يمينا ولسوء الحظ كان لا بد أن تكون هذه الغارات سببا فى اهراق دماء الأهالى وتخريب البلدان مع أن الافضل من ذلك كان بلا جدال استعمال الطرق التى تتفق مع مبادئ الانسانية . إلا أنه لا يلزم أن نغض النظر عن أن بعض الدول الأوروبية تتخذ فى الأراضى الواقعة تحت نفوذها نفس هذه الاجراءات باسم حملات تأديبية وتقترف فيها من النطائع ما هو أكثر من ذلك .

ووصلت الحملة الى نهاية مرحلتها قبيل أواخر العام بعد أن أسرت ٤٠٠٠ رأس من الماشية .

وتتمة هذا الكلام مسطرة فى الملحق الأول للسنة التالية .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

تقرير (١)

في استكشاف بحيرة البرت نياثرا مقدم من الكولونيل ميسون بك الى
سعادة غوردون باشا حاكمدار عموم السودان بمقتضى الأمر الصادر من سعاده
الى الكولونيل المذكور .

من الخرطوم في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٧

الى سعادة غوردون باشا حاكمدار عموم السودان .

اتشرف بأن اخبر سعادتكم اني رجعت من بحيرة البرت نياثرا وهأنا
أقدم اليكم التقرير المشتمل على نتيجة مأموريتي هذه مصحوبا بالخرط
الاستكشافية والأدلة المختلفة المتعلقة بها فأقول :

قد قمنا من قرية ماجونجو في اليوم الرابع عشر من شهر يونيه سنة ١٨٧٧
ورجعنا اليها ثانيا في اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر بعد ما استكشفنا مع

(١) — ورد هذا التقرير في نشرة الجمعية الجغرافية الخديوية بمصر (رقم ٥ - سنة ١٨٧٨ م)
وفي جريدة أركان حرب الجيش المصرى في سنتها الثالثة بالجزأين الثانى والثالث من المجلد الثانى
سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) ترجمة مصطفى افندى توفيق ملازم ثانى أركان حرب . وقد نقلناه عن
هذه الجريدة الأخيرة .



میسون باک

الدقة شواطئ البحيرة بواسطة ركوبنا في المركب البخارية المسماة نيازرا لأن المركب المذكورة بعد أن تجهزت للسفر سارت مدة ٥٢ ساعة وهذا الزمن كان يبيع لنا أن نمتحن بالكلية جميع مسالك البحيرة مع الحالات الخصوصية لكافة جهاتها .

ولما سرنا بطول الشاطئ الغربى منها وجدنا أنه يشرف عليه جبال شاهقة تكاد أن تكون واقفة بالكلية ومع ذلك فكان يترأى لنا أن ذلك الشاطئ يحتوى على سكان كثيرة العدد وفي جميع جهاته كانت منافذ الجبال ومهابط السيول المكونة لأشكال مثلثة تسوغ للنظر أن يمتد بحيث تشاهد عدة قرى كبيرة وعلى العموم فسكان تلك القرى مقيمون في أودية صغيرة خلف هذه الجبال .

ويستدل على وجود السكان هناك بوجود عدة مراكب صغيرة مربوطة بالشواطئ وبأعمدة الدخان التي ترى صاعدة في الجو فوق تلك الاودية .

وفي اليوم المذكور عند غروب الشمس رمينا مرصاة المركب البخارى بالقرب من ساحل أرض مستوية عليها قرية كثيرة السكان محاطة بأشجار الموز فانشرحت كثيرا لما رأيت شيخ تلك القرية المسمى « حقيقى » الذى كان أتى ليقرئنا السلام ويده خروف سمين اهداه لنا .

فقال لنا ذلك الشيخ ان اسم تلك القرية هو « نورسوار » وظهر لنا في الحال من حقيقة كلامه ان السبب الاصلى من زيارته اينا هو أن يندبنا لمساعدته فيما صمم عليه من حرب سكان بعض القرى التى فى

شمال قريته وعلى مقتضى كلامه ان اهالى تلك البلاد عندهم كثير من الماشية فالتزمنا أن نمنع عنه جميع انواع المساعدة ونصحناه بأن يستمر فى صلح معهم .

وكان ذلك الشيخ لابسا أساور من معدن أصفر وقد أخبرنا انها وصلت إليه من رجال أنفينا وحقق لنا إنه ليس فى قبيلته شئ من انواع سن الفيل .

وفى اليوم الثانى اخذنا فى الاستمرار فى طريقنا الى الجنوب الغربى وشرنا بجانب تلك الجبال مدة ست ساعات وبعد ذلك أخذ خط الجبال فى التباعد كثيرا الى جهة الجنوب ونشأ من ذلك بينه وبين الشاطئ سهل متسع جزء منه مغطى بغابة كبيرة كثيفة جدا ووجدنا شواطئ البحيرة مبسوطة جدا فى ذلك المكان .

وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر دخلنا فى خليج متسع وركبنا فيه المرساة لاجل ان نستكشف تلك الامكنة جيدا ولنحتطب ما يلزم لنا من الخشب ولنأخذ الملحوظات اللازمة لتعيين خطوط العرض فى ذلك المكان .

وفى صباح اليوم التالى له عبرنا الخليج وسلكنا طريق البر واحتطبنا ذخيرة الخشب اللازمة وقد اتى الينا بعض سكان تلك البلاد لاجل زيارتنا وفهمونا ان ذلك المحل يسمى « كفالى » واننا اذ ذاك بالقرب من نهاية البحيرة وقالوا لنا أيضا انه من هناك يمكنهم ان يصلوا الى الجبال التى على الشاطئ المقابل لهم فى ظرف ثلاثة ايام وانه من المستحيل ان يمروا من العنبرج الذى بالقرب من النهاية الجنوبية للبحيرة ومع كون

ذلك الحل مستنقعا كبيرا يوجد خلفه كثير من القرى العديدة السكان
ثم قمنا من « كفالى » بعد الظهر بقليل وشاهدنا اننا لو اتبعنا ذلك
الشاطئ لرجعنا بسرعة الى جهة الشرق وبعد ما سار المركب البخارى
مدة ساعتين وصلنا الى العنيج الذى كنا أخبرنا به من اهالى كفالى
ووجدنا النهاية الجنوبية للبحيرة قليلة العمق ومشحونة بالحشائش ورأينا فى الجنوب
الغربى لجزء هذه البحيرة خليجا آخر كبيرا جدا .

ولما شاهدت الجبال قد انحطت نظرت حينئذ غابة كثيفة جدا فظننت
فى مبدأ الأمر أنه لا بد أن يوجد هناك بعض مجارى مياه ولكن لما لم
أجد ولا مصبا واحدا فى البحيرة هناك تحققت أن أهالى كفالى كانوا
أخبرونى بالحقيقة مع اثباتهم لى أنه ليس فى ذلك الحل نهر تصب مياهه
فى البحيرة .

ثم اتنا أخذنا فى الاستمرار فى طريقنا وعند غروب الشمس رمينا
مرساة المركب البخارى فى وسط أشجار وعمما قليل وجدنا سحابا كثيفا
جدا من الناموس محيطا والذى يظهر انه فى هذا الحل أكثر مما على
نهر النيل منه .

وفى اليوم الذى يليه بعد ما دخلت بالتعاقب فى جملة مصبات صغيرة
كنت أنجبر على الرجوع منها بسرعة نظرا لقلة عمق مائها ودخلت
اخيرا فى نهر واسع مياهه محمرة قليلا ومتجهة جهة الشمال ولكن مع
سرعة بطيئة جدا ولم يكن مغطى بنباتات طافية على سطح مياهه بل كان
يظهر أنه لا يحمل على سطحه إلا جزءا من مواد جافة وبعض آثار من الخشب
والتبن وكلها طافية على سطحه كما لو كانت مملوءة بالماء .

وعرض مجرى الماء هذا هو ٤٠٠ متر تقريبا وشواطئه عالية وظاهرة الوضوح ومغطاة بالاجات ولم يمكنى أن أسير فيه إلا مدة ساعة واحدة فقط لأنه كان قليل العمق جدا بحيث ان المركب كانت تمس سطح الأرض في كل لحظة وظهر لى أن جزءا كبيرا جدا من النباتات كان يمنع المرور الى جهة الجنوب والى أمام السالك وشاهدت أيضا فى الجنوب الشرقى غابة عظيمة من النخيل وفى الجنوب مع الجنوب الغربى بلدة أرضها ذات طيات مغطاة بالأشجار العظيمة . وقبل أن أترك هذا النهر أمكننى أن أتحقق اننا عبرنا البحيرة واننا لو اتبعنا ذلك الشاطئ لأخذنا اتجاه الشمال .

وارتفاع الجبال فى ذلك المحل قليل جدا على الشاطئين وفى الجنوب بين سلسلتى الجبال وخلف نهاية البحيرة يشاهد جبل عظيم منفرد عن الجبال الأخرى . وبرصد الشمس فى وقت الزوال تبين لى عرض درجة واحدة و ١١ ثانية من العروض الشمالية وكنا وقتئذ فى نهاية الجنوب الشرقى حينئذ النهاية الجنوبية للبحيرة لا تتجاوز الدرجة الأولى من العروض الشمالية المذكورة .

ولما تبعنا جانب الشاطئ الشرقى وجدنا أن الجبال التى تشرف عليه أقل ارتفاعا من التى على الشاطئ المقابل له وانما هناك جبل واحد ارتفاعه يقرب من أن يساوى ارتفاع أعلى جبل من الجبال التى على الشاطئ الغربى ووجدنا أيضا فرقا بينا بين نباتات جزأى هذه البحيرة ، والجبال فى جهة الغرب مغطاة كلية بالخضرة والغابات بخلاف جهة الشرق فانها بعكس ذلك وميل الجبال فيها مكشوف وخال بالكلية

من النباتات .

وباتباعى للشاطيء الغربى فى اتجاه الجنوب كنت أميز من غير تأكيد
جبال الشاطيء الشرقى . وأما عند اتجاهى الى الشمال مجانباً فى سبرى للشاطيء
الشرقى فأنى كنت أميز جيداً جبال الشاطيء الغربى .

وخلاف ذلك رأيت جميع أهالى القرى التى على الشاطيء الغربى
مولين الأدبار وراكنين الى الفرار بمجرد ما شاهدوا مركبنا البخارية
وشاهدت بالقرب من النهاية الجنوبية الشرقية للبحيرة دوى ماء ضعيف كان
أخبرنى بعض أهالى « متجولى » ان مياهه واردة اليه من مجرى ماء
يقال له « كاتوكا » .

وفى اليوم التالى له مررنا من أمام عدة قرى كبيرة يقال لأحدها
انها محل إقامة « كباجونزا » أخى كباريجا . وبعيدا عنها بقليل صادفنا قرية
« كبيرو » وأبعد منها أيضا وإلى جهة الشمال وصلنا الى « تيابوته » التى
أقنا فيها ساعة واحدة وأمكنتنى أن أنجح ولم يكن نجاحى فى منع الأهالى
من الفرار فقط بل ألزمتهم أيضا أن يـمـلوا لى خشبا من مراكبهم
الصغيرة وفى شمال تيابوته أرض البلدة مستوية وبعد ذلك يتجه الشاطيء الى
جهة الشمال كما تعلم سعادتكم جيدا هذا الاقليم .

وحقيقة الخط المرسوم على خريطة البحيرة وكذا الطريق الذى تبعته
الآلة البخارية فى سيرها تتعلق بتدقيق رصد السمى الذى اخذته فى خليج
كفالى لأجل تعيين انحراف بـوصلة الآلة البخارية . وأما الأوضاع الأخرى
فقد صار تعيينها بطريقة خصوصية .

وقد عينت أيضا في كفالى فرق الطول بينها وبين ماجونجو والنتائج
الذى تحصل من حسابى تطابق جدا مع النتائج المتحصل من سير الآلة
البخارية وقد استعملت أيضا الفرق بين العروض المتعينة بالرصد مقياسا
لذلك والطريق الذى تبعته المركب في سيرها كان معينا بدقائق زمنية مع
حذف السموت وقد عينت المسافة التى بين كل وضعين بالعامل المتوسط الناتج
من عدد الدقائق وتعين أيضا عدد الأميال المحصورة بين كل رصدين .

وقد عينت أيضا طول ماجونجو بأربع رصدات لكسوف بعض
الكواكب التابعة للمشتري وصار تعيين عرضها بالمتوسط بين عدة ارتفاعات
لعدة كواكب في شمال وجنوب سمت الرأس وتحصلت على عروض النقط
الأخرى برصد ارتفاعات الشمس في وقت الزوال وفي كفالى قد عينته
بواسطة الافق الصناعى وفي بعض نقط أخرى صار استعمال الافق الطبيعى
وهو سطح البحر وبقية عروض النقط الأخرى هى المتوسط الناتج كما في
ماجونجو . وبينت فرق الطول بين ماجونجو وكفالى بواسطة ساعة كانت
تسير بالانتظام وكانت منتظمة على حسب سير كرونومتر مضبوط جدا . وأما
أطوال المحلات الآتية وهى قرية دوفيليه ، ولابوريه ، وكري ، ولادو فقد
تعيّنت بالطريقة عينها .

والنتائج من ذلك وجد متطابقا جدا مع الفرق المتحصل من فروقات
السموت وزيادة على ذلك أضفت الى هذا التقرير مختصر الارصاد الفلكية . اهـ

وقد جاء في جريدة أركان الحرب بعد ذلك ما يأتى :-

ولتم هذا التقرير بما ذكرته جريدة الجمعية الجغرافية الخديوية المرقومة

بنمرة ٥ وهو تقرير مجلس الجمعية المذكورة المنعقدة في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٨ وفيه ان سعادة رئيس عموم اركان حرب الجنرال استون باشا اطلع عليه فنقول .

قد قرأ سعادة الجنرال استون باشا هذا التقرير المتعلق بالملاحظات المضئية المختصة باستكشاف بحيرة البرت نيازا وبين النتائج التي هي الآن متبعة في العلم الجغرافي فأول خبر حكاه سعادته ان قال .

ان بحيرة البرت نيازا الموثانريجة كان اخبر بها سائح مشهور وهو حضرة القبطان « سبيك » ومع ذلك لم يكن رآها قط فضلا عن كونه رسم صورتها في خريطته وذلك بواسطة الاستفهامات التي أخذها المذكور من اهالى تلك البلاد فرسمها بضبط واحكام يوجب التعجب للغاية وفي تلك الحالة قد بين المذكور شواهد جديدة تدل على مهارته العظيمة وان تقريراته على حسب الاستعلامات الصحيحة التي كان يأخذها من هؤلاء المتوحشين الجاهلين .

ولكن الفضل في ذلك يعود على سعادة سير صمويل بيكر باشا فانه اجرى استكشافا حقيقيا عن هذه البحيرة المهمة لأن الموما اليه كان في قرية غندوكورو وقت وصول كل من مسيو « سبيك » و مسيو « جرات » عند عودتهما من سياحتهما الشهيرة في بحيرة فكتوريا وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٦٢ قال سعادة الجنرال استون باشا فحق لي ان أقول ان هذا الاستكشاف هو أول استكشاف لسير صمويل بيكر أعني وجود بحيرة البرت نيازا التي كان هو أول رائد لها حيث قال .

قد كنت فى قرية غندوكورو من منذ اثنى عشر يوما وأنا منتظر قافلة « دبونو » التى ترد من أقاليم الجنوب وكنت اريد أن أصحبها الى تلك الأقاليم فبينما أنا كذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٦٢ إذ سمعت على بعد طلق بنادق مجتمعة وبعض طلقات منفردة فى جهة الجنوب فلأجل أن أبين الأحوال التى اعترتني فى ذلك الوقت شرحت ذلك فى جرنالى المختصر الذى احرره الان فأقول .

الطلقات البعيدة علامة حضور الجلايين لسن الفيلى الذين أنا فى انتظارهم وعندها ما أشعر الا ومن كان برفقتى من الناس قد انقضوا بسرعة نحو مركبى بحالة مدهشة قائلين ان معهم رجالا بيض الحلقة آتين من جهة البحر فقلت أنا فى نفسى هل من الممكن أن يكون مسيو سيبك و مسيو جرانى فعند ذلك أسرع فى السير اليهم ثم قلت بميل رأسى نعم هما هذان وأتبع هذا بقولى « هورا » لأنجلترا قديعة الشرف وها هما قد أتيا من بحيرة فكتوريا نيازا التى يخرج النيل منها وحينئذ مخبئات القرون السائلة استكشفت الآن .

فانشرح كثيرا عند رؤيتهم ولكن كان سرورى مزوجا ببعض الخجل لأننى كنت أردت أن اقابلهم فى محل أبعد من ذلك ومع ذلك فقد اكتفيت بما أجرىته من التجهيزات وكنت متحققا من انقاذهم اذا كانوا فى حالة الضيق والطريق الذى كنت مصمما على سلوكه كان يوصلنى اليهم مباشرة لانهم كانوا آتين من البحيرة بذلك الطريق وجميع من كان بمعيته انشروا جدا وطلقات الرصاص تسبب عنها قتل أحد الحمير التى كانت معى وقتل هذا الحيوان كان قربانا محزنا لتتيم هذا الاستكشاف الجغرافى وعند ما

شاهدتهم اتجهوا نحو مراكي سائرين الى بطول النهر فعلى بعد مائة قصبة تقريبا عرفت صاحبى قديم العهد وهو مسيو سبيك وخفق قلبى من شدة الفرح ثم انى رفعت لاجله برنيطى وصحت قائلا « هورا » وجريت اليه بكل قوتى .

وبمجرد ما قابلت هؤلاء السياحين أول ما طرقت باب فكرى قلت ان سياحتى قد تمت بتلك المقابلة وانهم قد استكشفوا منابع النيل ولكن عندما قدمت اليهم للتهنئة بما حصلوه من الشرف العظيم أعطونى تخطيطا مشتملا على سياحتهم يفهم منه أنه ما أمكنهم أن يتمموا استكشاف النيل وأن جزءا كبير الاهمية من مجراه باق لم يتم استكشافه وظهر لى أنهم قد عبروا النيل من النقطة التى على ٢١٧ درجة من العروض الشمالية بعدما تبعوه من ابتداء بحيرة فكتوريا وهذا النهر بعد خروجه من تلك البحيرة يجرى الى جهة الشمال ثم يأخذ بسرعة اتجاه الغرب بالقرب من شلال « كارومه » وهذا الحل هو الذى قد عبروا النيل منه وما رأوا ذلك النهر ثانى مرة مطلقا إلا عندما وصلوا الى النقطة التى على ٣٣٢ درجة من العروض الشمالية وهى التى عندها يتجه النيل الى الغرب مع الجنوب الغربى .

وقد قالت أهالى تلك البلاد وملاك « أونىورو » المسمى « كرازى » إنه من ابتداء كارومه يتجه مجرى النيل الى الغرب مسيرة عدة أيام ثم يصب اخيرا فى بحيرة كبيرة يقال لها « موتانزيمجه » واتجاه تلك البحيرة يأتى من الجهة الجنوبية ويدخل النيل فى نهايتها ويخرج منها بسرعة من الجهة الاخرى ويمكن ان تستمر المراكب سائرة فيه آخذة اتجاه الشمال الى ان

تصل الى قرية « كوسهى » وقرية « مارى » .

ثم لما كان مسيو سبيك و مسيو جرانت يعتقدان الأهمية الكبرى لهذه البحيرة كانت تظهر عليها حالة الكآبة حيث لم يمكنها استكشافها جيدا .

وقد علم مسيو سبيك أنه لا بد من وجود بعض علماء جغرافيين جالسين على كراسيهم المزخرفة ويسبحون بطريقة في غاية السهولة وهى ان يضعوا اصابعهم على الخريطة ويسألون لماذا لم يسر من هنا الى هناك ولماذا لم يتبع النيل لغاية بحيرة موتازيجه وايضا من تلك البحيرة الى قرية غندوكورو وقد كان من المستحيل ان مسيو سبيك و مسيو جرانت يتبعان نهر النيل من ابتداء كارومه لأن الأهالى كانت مشغلة بغارة الملك المسمى « كرازى » ولم يسمحوا لاجنبى بعبور بلادهم .

وحينئذ فالدوما اليها قد اخذا الاستفهامات بالاعتناء على قدر الامكان وتما خريطتهما ورسم البحيرة فى الوضع التوهي لها باتباع مجرى النيل من بعد خروجه من تلك البحيرة على حسب استعلامها من الأهالى .

وقد وصل مسيو صمويل بيكر الى شواطئ البحيرة فى اليوم الرابع عشر من شهر مارس سنة ١٨٦٧ بالقرب من قرية فاكوفيا وقد وصفها كما سيأتى فقال .

انه عند وصولنا الى تلك البحيرة لم تكن أشرقت شمس اليوم الرابع عشر من شهر مارس وقد حثت الشور الذى أنا راكبه على المسير بان وكزته بهموز الجزمة لان حميتى وغيرتى كانت متوجهة الى الدليل الذى كان

متقدما علينا وكنت وعدته بتضعيف ما شرطت عليه أخذه مني من الخرز عند وصولنا الى البحيرة وكان ذلك اليوم صحوا معتدلا وبعدما عبرنا واديا عميقا محصورا بين التلول تسالنا على ميل الجبل المقابل لنا وقد أدركنا قمته بكل سرعة فعند ذلك انتشرت أمام أعيننا مكافأة المشقات التي كابدناها وهي انه تراءى لنا ان أسفل منا بحر من زيبق وأن طول امتداد البحيرة يحدد الافق من جهة الجنوب والجنوب الغربى وكأن البحيرة تقذح نارا بمصادمة اشعة شمس الظهيرة لسطحها وانه في جهة الغرب من هذه البحيرة على مسافة خمسين أو ستين ميلا يظهر ان عدة جبال لوها ضارب للزرقة خارجة من الماء وتصل الى ارتفاع يقرب من ٧٠٠٠ قدم أو « ٢١٥٠ متر » .

وكان من المستحيل أن أصف علامات الظفر التي حصلت عليها وحصلت أيضا على كافة أشغالي جميعها وجميع السنوات التي كنت في مدتها أتبع أغراضى مع المعاندة الشديدة فى افريقية الوسطى « وقد استكشفت انجلترا منابع النيل »

وقبل أن نصل الى البحيرة كنت اتفقت أنا ومن معى من الناس على أن نصيح ثلاث مرات بلفظة « هورا » كمادة الانجليز بسبب هذا الاستكشاف ولكن الآن لما تأملت من هذا البحر المتسع الداخلى الموضوع فى وسط افريقية تذكرت السعى الذى اجتهدت فيه الناس من مدة قرون من السنين السالفة لأجل أن يصلوا الى هذه النقطة من الكرة الأرضية وافكرت إذن انى الآلة الوحيدة المنتخبة لتبين حقيقة جزء من الكرة الأرضية وذلك عبارة عن سر مخبأ كان لا يمكن القرب منه لكثير ممن

هم أعظم منى قدرا وحسست انه اعترانى عدة أفكار مفرحة للغاية تحنى على الصباح بعدة أصوات عالية تنبئني عن حالة الفرح التي قامت بي في ذلك الوقت وحمدت الله تعالى بكلية قلبي حيث نجانا وحمانا من كافة الاخطار الشاقة حتى توصلنا الى مقصودنا وكنت وقتئذ مرتفعا عن سطح ماء البحيرة بقدر ١٥٠٠ قدم تقريبا لأنى كنت على جزء منحدر بالكلية من حجر الجرانيت وما أمكننى أن احول نظرى عن هذه المياه المباركة وعن هذا الحوض المتسع الذى تتغذى منه أرض مصر ويخصب الصحراء فى سيره وكان هذا المنع الكبير مخبأ من منذ زمن طويل على ملايين من أفراد النوع البشرى مع كونه عبارة عن فاعل خير لهم مبارك وهو من عجائب الكرة الأرضية وأردت أن أسميه باسم شير فلاجل التذكار دائما باسم الشخص الذى توفى أخيرا وحزنت عليه جلالة الملكة هى وجميع والامة الانجليزية قد سميت هذه البحيرة الكبيرة بهذا الاسم « البرت نيازنا » وحينئذ فبحيرة البرت نيازنا وبحيرة فكتوريا هما منبعا النيل .

والمصدق الموعج الذى يقتضى الحال سلوكه لنزولنا الى شاطئ الماء كان واقفا وصعبا جدا حتى انجبرنا على أن نترك أبقارنا خلفنا برفقة دليل وأمرناه أن يذهب بها الى ماجونجو وينتظر فيها حضورنا .

ثم شرعنا فى النزول مشاة وابتدأت فى أن أسير متكئا على عصا قوية وبما ان زوجتى كانت ضعيفة جدا ومنحلة العزم بالكلية كانت تنحنى على أكتافى عند النزول وكانت تقف فى سيرها من عشرين خطوة الى اخرى للاستراحة وبعد ما نزلنا بكل مشقة مدة ساعتين تقريبا ونحن ضعيفون دائما بالحمى التي كانت ملازمة لنا من مدة عدة سنوات تقوينا الآن

بمصولنا على النجاح ودركنا السهل المتصل بقاعدة تلك الصخور وبعدما
مشينا مسافة تقرب من ميل في أرض مستوية مرملة ذات اجزاء هشة جدا
مغروسة بأنواع الأشجار التي يكثر فيها شجر العوسج وصلنا الى شاطئ
الماء فوجدنا ان موج تلك البحيرة يتبدد ثمـله بملاطمة لشاطيء من الحصى
الأيض فعند ذلك أسرع في الدخول في البحيرة حيث
الشديد من كثرة الحر والتعب ثم انى شربت عدة جرء
عظيمة من منابح النيل وعلى مسافة أقل من ربع ميل تو
صيادون تسمى فاكوفيا وفيها أقننا بعض أوقات وفي كل جهاتها ث
السماك وجميع ما ينظر هناك يدل على الصيد .

ولست عملية الصيد صغيرة كالتى تصنع في بلاد الانجليز ؛
رفيع وصنارة صناعية بل كانت جملة من الخطاطيف مع جـ
خيوط يقرب سمكها من سمك الأصبع الصغير موضوعة فوق
لأجل التجفيف ومسلحة جميعها بصنائر من الحديد هيئتها تعطى فكر
خصوص الاسماك المهولة الخلقة الموجودة في بحيرة البرت نيازرا .

ولما دخلت أحد تلك الاخصاص وجدت كمية عظيمة من ادو
وخيوط جيدة الصناعة من الياف شجر الموز قوية جدا وذات مر
أن تقاوم أعظم شدة تحصل من سمكة كبيرة .

والصنائر المذكورة وان لم تكن لطيفة الصناعة لكنها مزينة بعدة
كلاليب يتغير سمكها من أصبعين الى ستة ووجدت أيضا عددا عظيما من
الخطاطيف المعدة لصيد حصان البحر موضوعا في أعظم ترتيب ومجموع ذلك
الخص يفيد أن صاحبه له بغية عظيمة في صيد السمك والخطاطيف المعدة

لصيد حصان البحر هي عين ما هو مستعمل عند العرب الجراوية في التناك على حدود الحبشة لها نصل ضيق يقرب عرضه من ان يكون ثلاثة ارباع اصبع مع كلاب واحد فقط وحبالها مصنوعة جيداً من الياف الموز والعوام عبارة عن قطعة كبيرة من خشب العنبر قطرها نحو خمسة عشر اصبعاً والأهالي يقدفون تلك الخطاطيف على خيول البحر وهم في مراكبهم ثم ان تلك العوامات الكبيرة هي ضرورية لامكان اتباعها بسهولة عندما يكون الماء مضطرباً .

ومنظور البحيرة احدث لاصحابي حيرة عظيمة وكانت السباحة طويلة جداً ومملوءة بالاكدار لما انهم قطعوا العشم من وجود بحيرة وتصوروا اني كنت اقودهم الى جهة البحر وصاروا منتظرين تلك الفرجة الحالية مع غاية الاندهاش ثم ان اثنين من بينهم كانا قد رأيا البحر الأبيض المتوسط في اسكندرية فاظهرا لنا اننا بالقرب من البحر ولكن لم يكن مأؤه مالخا .

ثم ان قرية فاكوفيا هي عبارة عن محل محترق وأرضها مملوءة بالملح بحيث يستحيل زرع أى نوع من المزروعات فيها وذلك الملح هو محصول طبيعي في تلك الأقاليم وجميع الأهالي يشتغلون بتجهيزه ثم يتحصلون بطريق العوض منه على الذخائر اللازمة لهم في بلادهم وتوجهت لأجل مشاهدة الحفر التي يستخرج الملح المذكور منها فوجدت عمقها يقرب من ستة اقدام ويخرجون منها طينة مسودة مرملة ويضعونها في ازيار كبيرة من الفخار موضوعة على كمرات من الخشب وهذه الازيار مثقوبة من قاعها ثقباً صغيرة ثم يملؤها بالماء فيرشح ذلك الماء من تلك الازيار في ازيار اخرى ويكون ممزوجاً أيضاً مع جزء من الطين ويستمررون على اجراء ذلك

الى ان يتحصل ماء مشحون بالملح فعندها يوقدون الحطب اسفله فيتصاعد الماء بخارا ويبقى الملح راسبا ويكون لونه مبيضا إلا انه مر واضن ان الملح المذكور ناتج من تحليل الحشائش التى تنبت فى قاع البحيرة المحتوية على مقدار عظيم من البوتاسا وتقذفها الامواج على الشاطئ فتصير ترابا فيجرون عليها ما تقدم والارض المستوية المرملة التى تمتد الى مسافة ميل بين البحيرة وقاعدة الارتفاع الصخرى الذى ارتفاعه الف وخمسمائة قدم يظهر انها هى التى كانت مكونة سابقا لقاع البحيرة .

وعموما فان الأرض المستوية فى فاكوفيا تشبه خليجا لأن الصخور المكونة حولها للقوس الذى فتحته خمسة أميال تسقط فى البحيرة بميول واقفة من يمين وشمال ذلك المنحنى الذى فى مركزه ساحل كبير أرضه مستوية ثم أنه إذا ارتفع سطح ماء تلك البحيرة عن أصله بمقدار خمسة عشر قدما فان جميع ذلك الساحل يصير كله مغموا بالماء لغاية قاعدة تلك الصخور المرتفعة .

وفى صباح اليوم الثانى عند شروق الشمس أخذت البوصلة وصحبتى شيخ القرية ودليل المسمى « رابونجـو » والمرأة المسماة « بنخيتة » وتوجهت الى شاطئ البحيرة لأجل عمل بعض رسومات والسماء كانت فى غاية الصحو وبواسطة نظارة قوية أمكننى أن أميز على الشاطئ المقابل لنا سقوط مياه غديرين قاطعين باتجاهيهما المبيضين جوانب الجبال .

ولو أن تلك السلسلة المرتفعة كانت محددة بغاية الوضوح على زرقة السماء وفيها عدة انخفاضات عميقة تدل على مجارى سيول عظيمة فما أمكننى أن أميز إلا الشلالين الكبيرين اللذين تسقط منهما مياه الغديرين مشابة

خليوط الفضة .

ولم تشاهد قاعدة أدنى شيء حتى ولا قاعدة الجزء الذي ارتفاعه ١٥٠٠ قدم الذي شاهدت منه أولا ذلك الماء وليست حادثة النظر اللازمة بدون شك للمسافات الكبيرة هي وحدها التي تخفى قاعدة الارتفاعات تحت الافق بل كان هناك عمدة كثيفة من الدخان يرى انها تتصاعد من فوق سطح الماء مع انها يمكن ان تكون ناشئة عن حرق حشائش المراعى الكائنة أسفل الجبل .

وحقق لى ذلك الشيخ ان مراكب كبيرة عبرت من شاطئ الى آخر من البحيرة ولكن تلك السياحة كانت استدعت ثلاثة ايام أو أربعة وكان يلزم في مدتها ان يجذف بالمجازيف بغاية الشدة وكثير منها قد غرق في مدة العبور وان مراكب الاونيورو لم تكن مصنوعة لأجل سياحة خطيرة جدا كهذه .

ثم ان الشاطئ الغربى للبحيرة تابع لحكومة ماليجا الكبيرة التى ملكها المسمى « كاجورو » يمتلك مقدارا وافرا من المراكب وكان هذا الملك يتجرع مع كمرازى فى محل كائن فى مقابلة ماجونجسو التى عندها ينضم شاطئ البحيرة بحيث يمكن عبورها فى يوم واحد وعلى حسب ما أخبرنى به الدليل أن ماليجا هى بلدة ذات شوكة واكثر امتداد من الاونيورو ومن الاوغنده .

وفى جنوب ماليجا بلدة تسمى تورى محكومة بملك يسمى بهذا الاسم أيضا وأما الجهات الأكثر بعد الجهة الشمال الشاطئ الغربى فلا يمكن أحدا أن يعرف عنها أدنى شيء .

ومن المعلوم ان هذه البحيرة تمتد نحو الجنوب لغاية كازاجوه وطالما
تكرر لى التاريخ القديم الذى مضمونه ان رومانىكا ملك تلك البلاد
كان من عادته سابقا ان يرسل الى « اوتمبى » الكائنة فى شمال البحيرة عدة
سريات لاجل التحصل على سن النيل وكيف ان مرا كبه تقدمت سابقا
الى ان وصلت الى ماجونجو وهذا قد أكد لى ما اخبرنى به مسمو سبيك فى
غندوكورو وهو ان رومانىكا ارسل الى اوتمبى صيادين الافيال .

ثم ان الشاطئ الشرقى محدد من الشمال الى الجنوب بالاماكن الآتية
وهى كوبى و الأونيورو و الاوغنده و الاوتمبى و الكازاجوه ومن هذه
النقطة الاخيرة التى لا يمكن ان تكون على أقل من درجتين من العرض
الجنوبى يقال ان البحيرة تنعطف دفعة واحدة الى جهة الغرب وتمتد فى هذا
الاتجاه بدون ان يمكن تحديد نهايتها وفى شمال ماليجا وغرب البحيرة
بلده صغيرة تسمى « مجارولى » ثم تعقبها قرية « كوسهى » فى غرب النقطة
التي يخرج النيل عندها من البحر الداخلى .

واما فى شرق النهر فتوجد صحراء قرية مادي فى مقابلة كوسهى
وقد اخبرنا الدليل وشيخ فاكوفيا ان مراكب ستحملنا الى ماجونجو
عند النقطة التى فيها نهير السميرسه الذى تركناه فى كارومه يصب فى البحيرة
ومع ذلك اخبرنا انه من المستحيل سلوك ذلك النهر لأنه من ابتداء كارومه الى
مسافة صغيرة جدا يتكون فيه عدة شلالات متوالية .

وكان النيل قابلا لان تسير فيه المراكب مسافة عظيمة من
ابتداء خروجه من البحيرة الى كوسهى ويمكن لبعض المراكب ان تنزل فى
النهر المذكور الى قرية مادي .

وقد اتفق رأى الاثنين معا على ان موازنة سطح ماء بحيرة البرت نيباترا لا ينخفض عن مقداره فى ذلك الوقت وانه لا يرتفع مطلقا فوق بعض علامات مصنوعة على شاطئ من الرمل يظهر منها زيادة قدرها أربعة أقدام وساحل البحيرة عبارة عن رمل رفيع جدا تنكسر عليه الامواج عند وصولها اليه كما يحصل ذلك لامواج البحر وترسب فيه نباتات مائية كالنباتات البحرية المطروحة على شواطئ بلاد الانجليز .

وأما عرض فاكوفيا فانه يتدره ١٥ دقيقة عرضا شماليا وطولها ٣٠ درجة و ٥٠ دقيقة طولاً شرقياً . واما النقطة الأكثر قرباً الى الجنوب التى وصلت اليها من ابتداء سفرى من مجارولى فالها تقابل عرضاً قدره درجة و ١٣ دقيقة . واما مسيو صمويل بيكر فلم يتيسر له ان يشاهد فى جنوب بحيرة موتازينجة أبعد من فاكوفيا « التى عرضها الشمالى درجة و ١٥ دقيقة وذلك بناء على ارساده » إلا انه على حسب الادلة التى كانت تعطى له من الأهالى ثبت عنده ان المياه كانت تمتد فى جهة الجنوب بعيداً عن مملكة كاراجوه اعنى الى بلدة رومانيكاً كما ان خريطة مسيو صمويل بيكر تبين البحيرة لغاية عرض درجة و ٣٠ دقيقة من جنوب خط الاستواء ومن ابتدائها ترك صورة الخريطة غير تامة .

وفى شهر يوليوس سنة ١٨٧٦ ساح المسيو جيسى بناء على أمر سعادة غوردون باشا حكمدار عموم مديريات خط الاستواء ودخل فى البحيرة بسلوكه نهر النيل وعلى مقتضى كلامه أنه مر فى جميع امتدادها مستكشفاً شواطئها حسب ما هو موضح فى الخريطة التى قدمها .

وهذه الخريطة تبين ان وضع فاكوفيا على مسافة تقرب من ٢٥ ميلاً من

شمال غابات العنيج الذى يحدد البحيرة من نهايتها الجنوبية .

وفى تلك السنة لما ترك السياح الشهير استانلى تحت حكومة أوغنده ودخل فى تلك البلاد من جهة الغرب وصل الى شواطئ بحيرة كبيرة تسمى عند الاهالى موتانزيج الكائنة على عرض ١١ دقيقة شماليا بالابتداء من خط الاستواء أغنى على درجة واحدة وأربع دقائق من جنوب فاكوفيا . وبالأقل على مسافة خمسين ميلا من جنوب نهاية البحيرة بمقتضى كلام مسيو جيسى .

والآن على مقتضى كلام مسيو استانلى و مسيو جيسى وتقرير الكولونيل ميسون بك الذى فى غاية التفصيل هل يعتبر أن هناك سدا فى جزء ضيق قليل العمق من البحيرة أو يقال أنه يوجد أيضا فى جهة الجنوب بحيرة اخرى ذات امتداد عظيم يمكن أن تكون متصلة ببحيرة البرت .

وهذا سؤال منفصل جدا ومهم فى الجغرافيا وهو باق الى أن يحل بمعرفة المستكشفين المستجدين وليس من المفيد أن نضيع أنفسنا فى الفروضات بل يلزم أن نصبر الى أن يعمل استكشاف حقيقى فى الجزء الذى بين النقطة الأكثر بعدا جهة الجنوب التى وصل اليها الكولونيل ميسون بك والمياه التى نظرها مسيو استانلى بالقرب من خط الاستواء .

فان كانت المسائل الجغرافية الكبيرة المختصة بفريقية الوسطى هى الآن تامة فلم يزل باقيا حل مسائل كثيرة مثل هذه مهمة جدا وبعض أشغال كثيرة جدية بالاعتناء يفعلها المستكشفون أولو الجراءة والصدقة .

ولأجل أن نرجع الى التكلم على استكشاف بحيرة البرت الذى حضر من عمله الكولونيل ميسون بك نقول انه كان معه الآلات اللازمة الجيدة وامكنه عمل الارصاد الدقيقة الشافية التى يلزم اعتمادها وزيادة على ذلك فان تلك الارصاد تثبت بمجموعها الملاحظات الصغيرة التى بينها سابقا ميسو « جيسى » .

وزاد قائلا سعادة الجنرال استون باشا وكيل الجمعية الجغرافية الخديوية ان وسط افريقية صار مستكشفا ومعروفا من منذ سياحة ميسو استالى وان الجغرافية تحصلت على اصول الاستكشاف وحينئذ فالعلم الطبوغرافى منوط بان يبين درجة الضبط والتفصيل اللازمة لها .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

مأمورية الدكتور أمين افندى فى الاونيورو

من ٥ يوليه الى ٢٥ أكتوبر

سفره الى « امبارانيا ماجو » .

استدعى غوردون باشا الذى تعين حكامدارا عاما للسودان أمين افندى الى الخرطوم فوصل اليها فى ٣٠ أبريل وكلفه بمأمورية لدى كباريجا ملك الاونيورو تشابه مأموريته السالفة فى أوغندة ثم يذهب من أونيورو ويؤدى زيارة الى متيسا ملك أوغندة . وكان يقصد بهذه الارساليات حفظ وصون حسن الجوار مع جيرانه وتقوية منزلة مصر فى تلك الاصقاع .

وبعد ان تلقى امين افندى التعليمات من الحكمدار العام بشأن مأموريته زایل الخرطوم موليا وجهه شطر لادو وسافر من هذه على متن باخرة فى ٥ يوليه قاصدا دوفيليه فدخلها فى ٥ من الشهر عينه ولبث بها لغاية ٢٥ منه ثم رحل عنها بطريق النيل متجها الى ماجونجو الواقعة فى طرف بحيرة البرت نيانزا الشمالى . وفى هذه الناحية ترك طريق النيل وسار برا عن طريق « كيروتو » Keroto و مازندى فوصل الى مرولى فى النصف الاول من شهر أغسطس . وهنا التزم ان يتربص بعض أوقات بسبب المخبرات التى دارت بغية حصوله على تصريح من كباريجا بدخوله أونيورو . وحالما

تسلم هذا التصريح شخص في ١٣ سبتمبر قاصدا « كيسوجا » Kisoga التي ترك فيها جميع متاعه خشية أن يطلبه كباريجا حسب عادته .

ومن كيسوجا توجه الى « لوندو » Londu حيث التزم أن يحصل على اناس من رجال كباريجا بصفة حاملين لأن الحمالين الذين كانوا معه أبوا ابتداء من مرولى أن يدخلوا أرض ملك الأونيورو عدوهم الألد . وعاق مسيره مطر هطال غير أنه وصل في نهاية الأمر في ٢١ سبتمبر الى مقر كباريجا في « أمبارا نياماجو » Mpara Nyamagos .

وكانت الأكواخ المعدة لسكنه قائمة على رابية على بعد ربع ساعة من محل اقامة الملك . ولدى قدوم أمين افندى أطلقت البنادق لتحيته . وأتى أحد رجال حاشية كباريجا المسمى عليا متشحا ببذلة التشريفة الكبرى لمقابلته وأبدى انه يعد نفسه سعيدا لرؤيته .

ولم يأت « كاتيكيرو » Katikiro الوزير الاول لكباريجا إلا في ساعة متأخرة من الليل ليرحب بقدومه وليقول له ان الملك كان يتوخى مقابلته في ذلك اليوم غير ان المطر حال دون ذلك وانه لهذا السبب عينه ما امكن اقتياد الثيران التي هيئت له وانه يرجو التجاوز عن هذا التأخير . فأجابه أمين بقوله انه مغتبط وشاكر للمليك وانه لم يأت ليطلب ميرانا وأنه اذا لم يكن لدى كباريجا شيء منها فهذا أمر يمكن الاستغناء عنه تماما .

أما على فكان واثقا بأن يتوصل الى عقد معاهدة مع الملك .

مقابلته لملك أونيه—وورو

وفي ٢٣ سبتمبر في الساعة ١١ صباحا تقريبا قدم دليل أمين أفندي متسربلا ثوبا « قفطانا » وعلى رأسه طربوش وقال له ان كباريجا مستعد لمقابلته . فأتشع في الحال كسوته وركب جوادا وسار الموكب بالنظام التالي وهو : في المقدمة ثلاثة من المتونجوليين والترجمان والرجال الحاملون الهدايا وأمين أفندي وياوره ثم على .

وبعد أن مر الموكب بوضع زرائب ومساكن أفضى الى ميدان مكشوف فيه قاعة رحبة لها بابان كبيران أحدهما من الجهة الامامية والثاني من الخلف . وهذه هي القاعة التي بها عرش كباريجا . وفي وسطها مصطبة مرتفعة من التراب مدكوكة ومحصورة بين عمودين حاملين لسقف القاعة . وفي وسط هذه المصطبة يوجد مقعد كان الملك جالسا عليه ومرتديا ملابس الوطنيه أى أنه مستور لغاية صدره بقطعة من النسيج لونها مشرب بحمرة وما فوق ذلك مع رأسه عار ويحف به نحو الخمسين شخصا جلوسا هذا عدا عدد يتراوح بين الاربعائة والخمائة في الخارج .

ولما كان مقعد أمين أفندي موضوعا بجانب العرش جلس عليه وقدم جواب اعتماده بوصف أنه نائب عن الحكمدار العام . وبعد فتحه بمعرفة اتباع الملك أعيده الى أمين أفندي ليقراه إذ أنه لم يكن هناك من يعرف القراءة . ثم بعد تلاوته أعرب كل منهما عن سروره من هذه المقابلة وأعرب كباريجا عما يمكنه شعوره من المحبة والود نحو حكومته وعن رغبته في قبول كل اقتراح يعرض عليه . وعندئذ قدمت الهدايا ويظهر ان

الشيء الذى نال اكثر اعجابه هو الصابون المعطر والنقود وهذه عبارة عن ٣٠ ريالاً عدت مرتين . وبعد اسئلة شتى فى عدة موضوعات ومحادثة جعلت الجلسة تستمر زهاء ساعتين ونصف ساعة انصرف أمين افندى باحتفال كالذى عمل لدى قدومه .

وفى ٢٣ سبتمبر عند منتصف النهار أتى كاتيكىرو وأخبره ان الملك فى انتظاره فذهب اليه فى الحال . ولما كان القوم قد سهوا عن استحضار كرسى أمين افندى وقف يتحدث مع كباريجا الى ان احضروه وعندئذ جلس هو وجلس الجمع واشترك الكل فى الحديث إذ ان الاصطلاحات الرسمية لم تكن مرعية كما هو الحال فى أوغندا .

وقد أبدى الملك فى حديثه تذمرا من الدناقلة ومن انفيننا و ريونجا وقال ان هؤلاء يتحرشون به ويغيرون عليه بلا انقطاع . فأجابه أمين افندى بأن الآخرين ارتبطوا مع الحكومة برابطة الصداقة ولكنه هو استمر على ابداء العداوة . وقال « كباريجا » ان من ذكروا ما عقدوا تلك المعاهدات إلا لطمأنيتهم . اما فيما يختص بما بدا منه من العداوة فقال انه حقيقة ناوش سير صمويل بيكر ولكن هذا لم يكن إلا دفاعا عن النفس غير أنه يرجوه الآن ان يقول له عما تنويه الحكومة لانه يريد ان يعيش معها فى سلام ووثام .

وأجابه أمين أفندى ان الحكومة تشعر بخود بنفس هذا الشعور . فاذا كان يرغب الحصول على اعانة مالية ترسل اليه سنويا فما عليه إلا أن يصرح بذلك وهو فى امكانه ان يكفل نياله ما يطلب وإذا كان يريد أن ينتدب وفدا ليذهب الى القاهرة فهو يعطيهم جوازا للمرور وإذا كان هو

نفسه يشاق ان يذهب اليها ، وهذا هو الافضل ، فعندئذ يظل امين في عاصمة ملكه رهينة لحين عودته . أما ريونجا و اتينا فقد قال للملك عنهما ان من رأيه انه يجب عليه الرجوع الى جزرهما وانه لا يقطع على نفسه وعدا بأن يأتى اليه بهما ولكنه اذا رجع هنا مرة أخرى فهو يسذل كل ما في وسعه ليصلح فيما بينهم جميعا .

ويظهر ان كل هذه المحادثات أعجبتة فقال ان أميننا هو الرجل الاكثر رشدا بين جميع من وقع بصره عليهم وعرض عليه ان يبقى لديه طلبا للراحة ثم يسافر الى مرولى فالخرطوم ومعه الوفد الذى سيرافقه اليها وطلب منه امين ان يرسل اناسا يفهمون اللغة العربية حتى يستطيعوا ان يتحققوا انه لا يقول شيئا ما للبasha يخالف ما جرى بينهما فى الحديث . وعلى ذلك تناول كباريجا يد امين افندى وقال له : « نحن اخوان » . وبما ان الجلسة استمرت زمنا ليس بالقليل فقد استأذن أمين افندى وانصرف .

وفى ٣٠ سبتمبر أرسل الملك فى طلب أمين افندى ولدى وصوله وجد المجلس حافلا بالناس اكثر مما كان بالعشى ودار الحديث على جغرافية البلد والوان البشر من أبيض وأسود ولكن امينا لم يستطع ان يحصل على معلومات كثيرة عن الموضوع الأول . وبعد ان لبث قليلا انصرف .

ووصل قبل سفره بزمان يسير اوناشى وجندى وترجمان من محطة « ماجونجو » فتمنح كباريجا كلا منهم بصفة هدية زنجيا وثورين وطلب الى أمين افندى أن يأخذهم معه ووضع فى الوقت ذاته تحت أمره سعاة يحملون مراسلاته التى يريد ان يبعث بها الى مرولى ليبين فيها سبب اطالة اقامته عنده وليبدد ما ربما يعلق بالاذهان من المخاوف نظرا لهذه الاطالة . وكان الجند قضاوا

٧ أيام في الحجى ثم رجعوا حاملين مراسلات أمين افندى التى بعث بها الى غوردون باشا ومرجان الدناصورى (١) قومندان محطة ماجونجو وهو ضابط سودانى حضر حرب المكسيك وأنعم عليه بالوسام العسكرى .

وانتهت مأمورية أمين افندى لدى كباريجا على ما يرام . واتضح ان كباريجا لم يتخذ معه طرق الاستبداد والجبروت التى اعتاد اتخاذها مع الآخرين . ومن الجائز ان الهدايا الثمينة التى بعث بها اليه غوردون باشا أثرت في نفسه تأثيرا حسنا وأقنعتة بأن الحكومة التى بعثت له أمين افندى سفيرا هى حكومة ذات بطش وقوة ولم يأذن كباريجا لأمين افندى بمبارحة مملكته إلا بعد إقامة خمسة أسابيع .

(١) — سى مرجان الدناصورى لأنه من بلدة دناصور احدى بلاد مركز شين الكوم من مديرية المتوفية وهو من السودانيين الذين توطنوا بهذه البلدة وقد جند مع من جندوا من بلاد القطر للانحراط فى الأورطة السودانية المصرية التى سافرت لحرب المكسيك .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٧ م

مأمورية الطبيب أمين أفندى فى أوغندة

القسم الأول

من ٢٥ أكتوبر الى ٣١ ديسمبر

سفره الى « روباجا » .

فى ٢٥ أكتوبر بارح أمين أفندى مقر كباريجا ملك الاونيورو ليتمم المأمورية التى كلفه بها غوردون بزيارة متيسا ملك أوغندة مرة ثانية فوصل الى « كيسوجا » فى ٢٩ منه ومنها ذهب الى محطة مرولى حيث التزم ان يتربص ثلاثة اسابيع فى انتظار مجيء الجمالين من قبل متيسا .

وفى ٢٠ نوفمبر سافر الى الجهة المقصودة ونظرا لبطئه فى السير دخل « روباجا » فى ٢٢ ديسمبر . وروباجا هذه مقر متيسا . وفى أثناء مسيره وصل اليه عدة رسل من قبل متيسا ليلغوه تحيات الملك فتعرف من بينهم على كثير من معارفه القدماء .

مقابلته لملك أوغندة .

وفى ٢٣ ديسمبر خرج من مسكنه ليقابل الملك المقابلة الأولى .

وأخذ الموكب في طريقه كالمرّة السالفة ولدى وصوله الى الباب الأول أخبر بأنه يجب عليه التربص . ولما كان لا يريد أن يعامل بمثل هذه المعاملة عاد وأمر في الوقت نفسه رجاله بأن يتبعوه . وما كاد يخطو عشرين خطوة حتى لحق به كل الرؤساء وتوسلوا اليه بأن يعود فيقابلة الملك في الحال . وبما أنه كان لم يزل مترددا أتى شامبارانجو Chambarango الوزير وعيد كاتب الملك ومن معارفه القدماء مسرعين ورجوه أن يرجع معهم لأن الملك أرسلهما خصيصا لذلك .

وقبل أمين افندى وعاد ادراجه ودخل مارا بمختلف الأبواب حسب العادة فرأى بجانب كل منها مدافع صغيرة من البرونز الاخرى تسميتها دمية تلعب بها الصغار لا أداة للتدمير والهلاك . ومن الباب الأول الى أن أفضى الى مقر متيسا مر بين صفين من الجنود مسلحين بينادق بكبسول من الطراز القديم . ويقدر عدد الجنود بألف جندي تقريبا ومرتين بكساو حسنة من نسيج القطن الأبيض . ولدى وصوله الى مدخل دار الملك حितه الموسيقا . ودخل قاعة الاستقبال ، وهي قاعة مقسمة بواسطة جذوع النخل الى ثلاثة أروقة متوازية . وهذه الجذوع موضوعة رأسيا على شكل اعمدة . أما اتساع القاعة فلا بد أن يكون ١٢ مترا في ٦ امتار . وكان الرواق الذى فى الوسط الموصل الى العرش خاليا والرواقان المحاذيان له من اليمين واليسار حافلين بكبار الموظفين والضباط مرتدين بكساوى التشرىفات ذات اللون الأحمر والأسود مذهبة ومنمضضة . وكان واقفا بجانب كل عمود جندي متشحا بكسوة بلغت الوانها الغاية القصوى فى البهجة . وهو يقدم السلاح تعظيما .

واعتذر متيسرا من عدم مقدرته الوقوف لما يعاينه من آلام النقص . ووضع مقعد أمين افندى بجانب العرش جلس عليه وكان الملك عكس المرة السابقة مرتديا سروالا « بنطلونا » أحمر ومعظما أسود وطربوشا أحمر وحذاء من هذا اللون الاخير ومعلقا في عنقه سلسلة من الفضة وقرصا من الفضة أيضا سمكه كسمك الريال « ماري تيريز » Marie-Thérèse .

ووجه أمين افندى عندئذ الكلام الى الملك فقال له : ان غوردون باشا نظرا لما لاقيته منكم في السنة الماضية من حسن الوفادة وكرم الضيافة كلّفني بالجيء الى هنا وأن أقدم لكم الهدايا التي أرسلها الخديو من القاهرة برسومكم بناء على طلب الباشا المومى اليه . وزودني بمعلومات مقتضاها توسيع سائر انواع العلاقات الودية السائدة الآن . هذا ولا ريب في ان الملك يرى أنه من المفيد تنمية وتقوية هذه العلاقات . واستطرد فقال ان لديه تعليمات اخرى سيبيدها باسهاب أكثر في الجلسة القادمة وقدم عقب ذلك جوابات اعتماده مكتوبة باللغتين العربية والانكليزية وهي الجوابات التي تلقاها من الباشا .

وفتحت الجوابات في الحال فالجواب العربي ترجمه مسعود وهو من عرب زنبار وسكرتير الباشا . أما الجواب الانكليزي فترجمه مفتاح وهذا كان خادما لدى استانلى . وهنا قدمت الهدايا وفتحت وعرضت واحدة فواحدة وعلى مسافة إذ أنه كان لا يجب ان لا يقترب شيء من الملك . وبعد عرضها رفعت وحملت داخل القصر .

وبعد مبادلة بعض الحديث العادى الذى لم يلبث سوى مدة قصيرة استأذن أمين افندى وانصرف يصحبه عيد و « شامبارانجو » وبعد زمن يسير لحق بهم « كاتيكىرو » الوزير الأول وساكيلابو Sakilabo ورافقوه

الى باب داره . ووقتئذ أمسك بيدهم مساما وطلب من « كاتيكرو » أن يأتي في الغد لزيارته ولكي يقدم له هديته .

وفي غضون هذه المقابلة التي استمرت ساعة من الزمن سأله متيسا عما إذا كان حقا أنه ذهب عند « كباريجبا » وإذا كان هذا صحيحا فهل استصحب معه عددا كبيرا من الجند لأنه يرى انه من الأمور غير المحتملة التصديق انه ذهب الى هناك .

وفي ٢٧ ديسمبر أرسل في طلب أمين افندى لزيارته فذهب اليه في الحال وقوبل بالطريقة التي قوبل بها في المرة السالفة . وبعد أن جلس وتحدث مع الملك في موضوعات تافهة ليس لها أهمية سأله هذا لمن يتبع الخديو وسلطان زربار . وعما إذا كانت ملكة الانكليز تستقبل سفراءه بحفاوة وهل يوجد في افريقية ملوك أقوياء غير الخديو . وهل ممكن أن يبعث للخديو بسفراء وهل يقبل هو أى أمين افندى أن يرافقتهم اليه .

وأجابه أمين افندى أنه يرى من واجبه أن يفعل ذلك لا سيما والخديو أرسل له سفراء وهدايا في كل الأعوام مع أنه هو لم يرسل أحدا وهذا أمر ليس فيه شيء من الظرف والكياسة .

وأجاب متيسا أنه كان أرسل « تاندى » Tandi . غير أنه رجع من مرولى دون أن يتمم مأموريته . وسلم أمين افندى بصحة هذا القول إلا أنه سأله عما إذا كان من اللياقة أن يرسل ضابطا صغيرا مثل « تاندى » في حين ان الخديو يرسل إليه أمراء أليات . فسكت متيسا برهة ثم سأل عن عدد الايام التي تلزم للذهاب من هنا الى الخرطوم ومن هذه الى القاهرة وكم يوما

يلزم للوصول الى زئبار .

وسأل متيسا بعد ذلك عما اذا كان لدى أمين افندى شىء آخر ليبلغه إياه فكان جواب هذا ايجاييا وقال له فى الوقت نفسه انه يود ان يراه يوميا ولكن يحول دون ذلك بعد المسافة بين بيته وقصر الملك فوعده متيسا انه سوف يعمل فى هذا الصدد ما يرضيه .

ودقت الطبول علامة على انفضاض الجلسة فنهض متيسا ليدخل فى منزله وانصرف أيضا أمين . ودامت المقابلة ساعة زمانية أى من الساعة ١٠ الى الساعة ١١ صباحا . ولدى وصول أمين افندى الى سكنه وجد فيه كيزا Kisa وكياله قديما وكان قد قدم من مرولى وصادفته مصاعب فى الطريق وسبق رفيقه فى السفر وهو رجل من رؤساء بحارة ريونجا . ويحمل هذا البحار بريد أمين افندى . ويتنظر قدومه غدا .

وبقية هذه الرحلة مذكورة فى الملحق الأول للسنة التالية .

حكمدارية أمين باشا

من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٩ م

سنة ١٨٧٨ م

كان أمين طيبا المانى المحدث ترك دينه واعتنق الدين الاسلامى فى تركيا ثم بعد ان خدم حكومة هذه الدولة زمنا اتى الى السودان فألحقه غوردون الذى كان عندئذ حكمدارا عاما لمديريات خط الاستواء بخدمة هذه المديريات بصفة طبيب . والظاهر ان أمينا لم يقم بأعباء هذه الوظيفة قياما فعليا لأن غوردون كان كما سبق الايضاح كلفه بتأدية عدة مأموريات سياسية فى البلاد المجاورة مثل مأمورية الأونيورو والأوغندة . ويظهر أنه قام بهذه المأموريات قياما أرضى رئيسه حتى أنه فكر فى تعيينه حكمدارا عاما لمديرية من مديرتى خط الاستواء . أما المديرية الأخرى وهى مديرية بحر الغزال فكان غوردون باشا قد فصلها وقت تعيينه حكمدارا عاما للسودان وصارت فيما بعد مديرية مستقلة بذاتها .

وكان تعيين أمين لهذه الوظيفة قبيل منتصف عام ١٨٧٨ م . وبما انه قضى جميع ادوار خدمته فى الحكومة المصرية فى المديرية التى عين فيها حكمدارا فلم تكن هذه مستجدة عليه أو هو غريبا عنها . ويلوح ان أمين كان عالما من العلماء واداريا إلا ان اخلال الحميدة التى كان يتحلى بها من الوجهة الادارية قلل كثيرا من ثمارها ضعف عزيمته



آمین باشا

ضعف عزمته لأن من النتائج الطبيعية لهذا الخور التردد في الامور وزاد الطين بلة اشتغاله بالمسائل العامة أكثر كثيرا من اشتغاله بإدارة مديريته . وأدى هذا وذلك الى سوء المنقلب ووخامة العاقبة وما ذلك إلا لأن إدارة المديرية وقعت في يد أوهن الحكمداريين الذين تقلبوا عليها وهذا في الوقت الذي كانت فيه أحوج لمن يكون أمضاهم عزيمة واكثرهم هممة وذلك بسبب الحقة الحرجة التي كانت مشرفة عليها وهي أخرج الحقب التي مرت بها .

تقسيمه المديرية الى اقسام إدارية

ابتدأ هذا الحكمدة بتقسيم الأرض من جديد تقسيما إداريا وعين ثلاثة وكلاء حكمداريين وعين لكل منهم مقرا فجعل مقرا الأول « مكراكا » في الشرق ، ومقرا الثاني « كرى » في القلب ، والثالث « ماجونجو » في الجنوب وقسم المحطات أيضا بطريقة متساوية بين الثلاثة الاقسام على قدر الامكان . وعين لكل قسم قائدا عسكريا ووكيلا فوض اليه الفصل في القضايا المدنية وأعطى لكل منهما كاتباً .

ورتب بريدا اسبوعيا لاتصال المحطات ببعضها . وقال المبشر فيلكن Felkin ان المراسلات كانت تسافر وهي في غاية من الأمن .

وحاول ان يوسع حدود مديريته بقدر ما يستطيع . وكان سير صمويل بيكر ضم بلد اللوريين و اللاتوكسين اللذين في شرق النيل وذلك بدون ان يحتله فقام هو بهذا الاحتلال في الحال وقوى صلات المودة مع الأهالي واجتهد في التوسع في الزراعة بقدر الامكان .

وأصدر غوردون أمرا باخلاء المواضع الواقعة جنوب نيل فكتوريا

وهو القسم الموصل بحيرة فكتوريا بالبرت نيانزا واعتبار هذا النهر الحد الجنوبي لمديريته وذلك على أثر قيام مشاكل في الجزء الجنوبي من هذه المديرية . فرفض الحكمдар أمين ان يمثل وينفذ هذا الأمر الذى كان يعتـبره ضارا بأمن مديريته . غير ان غوردون ألح وبعث بجيسى الذى كان فى بحر الغزال فى ذاك الوقت لينفذ الأمر ولكن ان هو إلا أن استقال غوردون من وظيفة حكمدار السودان العام فى السنة التالية حتى عاد فاحتلها .

ذهابه الى فالورو و فابو

وظل الحكمدار أمين وقتا فى لادو وزاره فى غضون هذا العام « بيرسون » Pearson و « ليتشفيلد » Litchfield و « فيلكن » Felkin . وقبيل آخر السنة شخص الى بلد الشولين Shoulis حيث توجد محطة فاتيكو وذلك ان بعد مر فى طريقه بدوفيليه . وبعد ان زایل المحطة المذكورة انتقل الى فالورو وكانت المنطقة بين هاتين النقطتين عبارة عن سهل به مزروعات غاية فى الجودة . وقدم اليه شيخا الناحية وهما اخوان لزيارته وقدا اليه نايبين بصفة هدية وقدم لهما هو أيضا بعض هدايا وقدم كذلك بعض الهدايا لأمهـا وأحضرا له بناء على طلبه حمالين . والمنطقة التى يقطنها الماديون Madis كانت حافلة بالطماطم والموز .

ومن فالورو انتقل الى فابو فـقبول فيها مقابلة لاتقل فى المودة عن المقابلة فى الجهة الأولى . وأعرب الأهالى له فى الناحيتين عن رغبتهم فى ان تأذن الحكومة للدناقلة بالعودة الى المديرية . وكان هؤلاء الاشخاص تجارا يأتون شرازم صغيرة بمنسوجات وبارود يستبدلونـها بالرقيق . وبما ان الحكومة المصرية كانت تستنكر هذا النوع من المبادلة فقد تقام هذا الحكمدار من مديريته .

ذهابه الى فاتيكو وعودته الى لادو

وكانت المحطة التالية لفابو فاتيكو ، وهى آخر مرحلة لريادته هذه . وقد قام اليها فدخلها قبيل آخر ديسمبر . وكان الطريق بين الناحيتين ذاهبا صعدا وكانت فاتيكو هذه قاعدة مركز كثير الخصب وكانت معتبرة فى ذلك الوقت كمستودع لحبوب جميع المنطقة فيما بين دوفيليه و مرولى ويسكن هذا المركز قبائل الشولى . ويسمى شيخهم « روشاما » Rochama وبواسطة نفوذ هذا الشيخ وسيطرته تحالفت قبيلته مع الحكومة المصرية غير ان احد قواد المحطة السابقين عامله معاملة مهينة فانسحب الى داره وقطع علاقته بالحكومة .

ولدى قدومه أرسل هذا الشيخ له ولده ليدعوه الى الحجىء إليه لأنه كان لا يأمن هو نفسه الحجىء . ولما كان الحكمدار يعلم أن الخطأ وقع من جانب الحكومة انتقل اليه عن طيب خاطر ليسوى مسأله .

وعند وصوله الى قرية روشاما القائمة على مرحلة يوم من المحطة استقبله حرس شرف مؤلف من رجاله متشجين بملابس ذات الوان بهيجة جدا ومسلحين ببنادق عتيقة وكان الشيخ واقفا على ناحية فى وسط فريق من الزوج متسربلين بجلود مصبوغة حديثا باللون الأحمر . والتمسوا من الحكمدار أن ينتظر قليلا ريثما يذبحون عزتين فى طريقه ويكون الدم قد سال ثم اجتاز روشاما على الدم وأتى وصاحفه وذهب به الى قريته وهناك كان يوجد عنقريب « سرير » تحت شجرة فجلس عليه الشيخ . أما الحكمدار فجلس على مقعده . وكان واقفا على جانبي الشيخ حرس مسلح ويحيط به من كل ناحية جمع من العبيد الغوغاء مؤلف من ٣٠٠ زنجى ذكورا واناثا لابسين كساوى

متنوعة كثيرا سواء أكان من جهة الألوان أو الزى وبها جميع أنواع الزخارف .

وكان يبدو على محيا « روشاما » Roshama سياء المسرة من زيارته ومن الهدايا التي جباه بها وعوضا عنها منحه ناين فاخرين وقدم له زوجه خباها ايضا بنصيبها من الهدايا . ثم آب الحكمدار بعد ذلك الى فاتيـكو فلبث بها يوما وانتقل راجعا الى لادو عن طريق دوفيليه .

١ — مدقق سنة ١٨٧٨ م

مأمورية الطبيب أمين أفندى فى أوغندة

القسم الثانى

من أول يناير الى ٢١ مايو

تبادل الهدايا مع ملك أوغندة ونفاد مئونة أمين افندى

فى أول يناير من سنة ١٨٧٨ م أرسل كاتيكيرو الى أمين افندى من قبل الملك هدايا متنوعة بمناسبة رأس السنة . وهذه الهدايا هى عنزتان ومزراقات وترس مصنوع من القش وحوضان من الفخار وحذاء وقطعة من قشور الشجر مشغولة ومديتان من صنع أوغندة . وعوضا عن ذلك بعث له أمين افندى ايضا بعض الهدايا . وأعطى لأمين افندى ايضا منزل غير المنزل القاطن به وهو المنزل الذى كان يسكنه فى الرحلة الأولى وهو أقرب أكثر من نصف ساعة من المسكن الذى كان نازلا به .

ومتيسا الذى كان أمين افندى قد رأى ان صحته اعتلت كثيرا سقط فى مخالب مرض شديد ولم يتمكن أمين افندى من مشاهدته فى الايام التالية واضطر أن يطيل مدة اقامته أكثر مما كان يبتغى .

وفى ١٢ منه طلب من كاتيكيرو ان يمدّه بجانب من الموز لأنه هو ورجاله

لم يكن لديهم طعام سوى اللحم .

وكان متيسا لا يرسل شيئا وبدون أمره وإذنه لا يجرؤ أحد أن يرسل شيئا وكانت الأهالي تخاف أن تبيع لأمين افندى شيئا حتى بعض لوازمه .

اضطراره الى السفر والعودة الى لادو

وفي ٢٦ يناير كتب أمين افندى الى متيسا يطلب أن يؤذن له بالسفر الى مرولى لأن زاده آخذ في النفاق وليس في امكانه أن يدع رجاله يموتون جوعا . وبعد اقامة ثلاثة أشهر لدى متيسا أخذ أمين افندى في نهاية الأمر أجازة تخول له السفر .

وفي ١٩ مارس عند الساعة ٨ صباحا حضر لأمين افندى من أخذه بالاحتفال المعتاد ليودع الملك . ودار الحديث بحكم الطبع حول سفره وطلبات متيسا . وتقرر ان يأخذ ٣٠ ثورا وان يرافقه الى الخرطوم كاناجوربا Kanagurba واثان آخران ومنها يشخصون الى القاهرة لطلب الهدايا . وان يعين أمين افندى لدى متيسا شخصا بصفة وكيل ويحضر له بنادق وبارودا وطرايدش وفانيلات ومنسوجات حمراء وجوارب واحذية وجوادا . وان يرسل متيسا الى مرولى فيما بعد عاجا برسم البيع ولكن كل طلباته يجب ان تقدم له على سبيل الهدية أو يدفعها أمين افندى من جيبه الخاص . واستغرق الحديث وقتا طويلا وكان حادا وألح فيه متيسا مرارا على أمين افندى بالاياب وسلمه رسالة الى غوردون باشا واخرى للخدويو بطلب بنادق « رمنجتون » Remington لجنوده . وبعد جلسة استمرت ساعتين استأذن أمين افندى في نهاية الامر وانصرف .

وفي ٢٢ مارس جهزت جميع معدات السفر . وكان المتاع يستلزم ٥٠ حمالا غير انه ما كان يوجد منهم سوى ١٢ . وبعد كثير من الالحاح أمكن تكملتهم الى ٣٥ ودعت الحالة لترك ١٥ حملا وعد التوتنجولى موكاسا Mtongoli Moukassa أن يلحق أمينا بها في الحال . وفي الساعة التاسعة والنصف انطلقت القافلة في المسير ورافقها جميع العرب الى مسافة ثم أفرغوا بنادقهم اشارة للتحية وقللوا راجعين خيتمهم الجنود بتحية مثل تحيتهم .

وكان الطريق وهو نفس الطريق الذى سلكه أمين افندى في العام المنصرم مع نور محمد افندى يمر بين مساكن ومزارع وبعد أن سارت القافلة لغاية الساعة الواحدة نزلت في الخلاء طلبا للراحة لأن الجنود كان ادركها التعب لتركها المشى من مدة طويلة . وقبيل المساء قدم رئيس وعشرة رجال مسلحين يحملون السلام من قبل متيسا وطلبوا بعض صواريخ فوعدهم أمين افندى بارسالها لهم عند بلوغه مرولى وسألهم أن يعجلوا بارسال متاعه . ووصل كاناجوربا في ساعة متأخرة من العشى ومعه أمتعته ولم يحضر أمتعة أمين افندى .

وبعد رحلة شاقة ومقاساة الصعائب مع الحمالين وصل أمين افندى الى مرولى وقضى بها خمسة أيام وبعد ذلك تابع السير على متن الزوارق الى أن أدرك فويرا ثم اضطر أن يلبث فيها زمنا ليسترد جنوده الذين كان المرض انهمك قواهم ، عافيتهم .

ومن فويرا سلك أمين افندى طريق البر ميمما شطر كيروتو Keroto وفي اليوم الاول عبر بلدا غير مأهول مؤلفا من تلال مصفوفة وبه غابات من اشجار الموز وجميع ما في منطقة افريقية الحارة من نبات ذى رونق وبهاء . وتغير المنظر في اليوم الثانى فمرت القافلة بحيط واسع من الحشائش

لتنزل في زريبة من زرائب ريونجا حيث قوبلت بالبشاشة والترحاب من أتباعه ، وكانت المرحلة شاقة لعدم استواء سطح الارض ولوجود كثير من المرضى بين صفوف الفرقة الأمر الذي حمل أمين افندى على ان يمشى الهوينا .

وفي ٢٨ أبريل بلغ ماجونجو وداوم السير متجها نحو دوفيليه و لادو فدخل هذه في ٢١ مايو وقوبل فيها بالاحتفال المعتاد ان يقابل به كبار الموظفين فكانت الحامية مصموفة على صفة النيل على هيئة عرض لتقدم له واجب التعظيم . وعرض أمين افندى الجند برفقة القومندان نور محمد بك والضباط وانتقل معها الى الديوان الذي كانت اقامته قد تمت حديثا وهناك قدم له جميع الموجودين عبارات التهانى .

ووجد امين افندى أيضا في لادو الوفد المرسل من متيسا ملك أوغندا فأرسله الى غوردون باشا بالخرطوم .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٨ م

رحلة الطبيب جونكر في مديرية خط الاستواء (١)

القسم الثالث

من أول يناير الى ٢٩ يونيه

عودته الى « ريمو »

وفي أول يناير سنة ١٨٧٨ بدأ جونكر عودته مسافرا من نفس الطريق التي أتى منها . وقد تفشى مرض الجدرى بين رجاله فسبب أضرارا جمة وأودى بحياة الكثيرين في الطريق وانتشر هذا الوباء في كل البلد حتى بلغ لادو فاستحكمت حلقات الضيق وساد العسر . وترك هذا المرض أشأم أثر في مكررا كما التي كانت اجمل منطقة في مديرية خط الاستواء المصرية .

وكانت القافلة تسير متجمعة مع بعضها عندما تكون على أرض للاعداد وحالما تخرج منها تتفرق وكل قائد محطة يسلك الطريق الذي يراه أقصر

(١) — راجع كتاب « رحلات في افريقية » للدكتور جونكر المجلد الأول الفصل

للوصول الى محطته .

وعاد جونكر الى ريمو مع احمد الاطروش اما عبد الله أبو زيد افندى رئيس تلك المحطة فسبقهما اليها لاعداد معدات الاستقبال . وفعلا أنزلهما على الرحب والسعة واکرم وفادتهما احسن اکرام . وبعد ان أقام الاطروش زمنا يسيرا شخص الى محطته فى وندى .

زيارته لمحطة مديرفى وعودته الى أوربا

وبما أن حملة كاليكا كانت انتهت من ارتيادها منطقة مكرى كا فقد خطر ببال جونكر ان يقفل راجعا الى اوربا . ولما كانت « مديرفى » هى المحطة الوحيدة التى لم تطأها قدمه قرر ان يراها قبلما يبارح هذه البلاد نهائيا . وعلى هذا قام بدورة ليزور هذه المحطة عوضا عن ان يذهب الى كابايندى التى هى فى طريقه الى مديرفى . وفى ظرف يوم واحد دخلها واستقبله فيها توميه Tomé رئيس التراجمة نظرا لغياب قائدها . وتوميه هذا كان من ضمن رجال حملة كاليكا وكان جونكر قد اخبره بما كان ينويه من أمر ارتياد مديرفى . وقد تطوع توميه لخدمة جونكر وقدم له جميع مطالبه . أما سكان مديرفى فهم خليط مؤلف من عدة قبائل . وبعد ان أقام فيها جونكر زمنا يسيرا بارحها قاصدا كابايندى التى اتخذها محطاه . ومع انه كان غير ملم بالناحية التى مر بها فانه لم يستفد منها امرا جديدا إذ انها كانت تشابه تماما الناحية التى اجتازها من قبل .

وفى ٣٠ يناير بلغ كابايندى . ولما كان يتوقع ان يقيم فيها مدة طويلة اتخذ لنفسه الوسائل اللازمة لراحته على قدر الامكان مدة

اقامته وقضى اوقاته في ترتيب وتنظيم مجموعاته واعداد جريدته اليومية وتنسيق نتائج رياداته .

وقبيل منتصف شهر فبراير جاءه اخطار علم منه ان القافلة التي تقرر سفرها من وندى الى لادو ستبارح الجهة الأولى نحو آخر الشهر وانها ستكون مؤلفة من اناس عديدين .

وكان من أمره أن أعد معدات السفر ورحل الى كبايندى في ٢٠ فبراير مارا بمكراكا الصغيرة لينزور احمد افندى الافغانى قائد المحطة لآخر مرة قبل ان يبارح المديرية فاستقبله هذا ككل مرة في منزل منظم احسن تنظيم . ويقول جونسون انه يستحق اتم المدح والثناء لعنايته العناية البالغة ببساتينه ومزارعه وكان هو واحد الاطروش من اقدم الجالية في مكراكا .

وفي ٢٢ فبراير وصل الى وندى فوجد المحطة نقلت من مكانها بعد مبارحته لها الى مسافة ربع ساعة من محلها القديم ولكن احمد الاطروش الذى كان ترقى الى رتبة بك ظل في زريته القديمة مفضلا ان يبقى في وسط بساتينه مؤثرا عدم البعد عنها .

اما نجيت افندى بتراكى الذى كان هو ايضا نال رتبة القائمة امام فقد نعى اليه خبر قدوم جونسون فأعد ما يلزم من المعدات لاستقباله . ولدى وصوله تبين له ان القافلة لن تسافر في القريب العاجل وعلى ذلك أعد العدة للإقامة في وندى مدة لأنه نظرا لما كانت تبديه قبائل النيامبارا والبارى المقيمون على طريق لادو والذين لم يخضعوا للآن لسيطرة الحكومة من ضروب العداوة كانت هذه تأني ، ولها الحق في ذلك ، أن تسمح

له بالسفر مخفورا بحرس قليل العدد .

وانقضى النصف الاول من شهر مارس وتقرر السفر في ٢٠ منه وحصل فعلا في هذا التاريخ . وكانت القافلة مؤلفة من جمع كبير واتبعت في سيرها النظام الذى سارت عليه في الذهاب حتى مييت رجال القافلة في المعسكرات القديمة . ومرت القافلة بنيامبارا وهذه المحطة دواما مفتقرة الى الزاد واحتياجاتها منه كانت ترسل اليها باستمرار من مكراكا وفي نهاية الأمر وصلت الى لادو في ٢٩ مارس ونزل معظم رجال القافلة خارج المحطة كالمرءة السالفة .

ولدى وصول جونكر الى لادو علم بخبر مكدر وهو خبر سفر الباخرة الى الخرطوم من أيام قلائل وفي هذه المرة ايضا اضطر أن يخضع لأحكام القضاء والقدر . نعم إنه كان من النظام المقرر سفر باخرة في كل شهر الى هذه المدينة ولكن المواصلات لم تكن منتظمة مطلقا نظرا للعوائق القائمة في النهر غير انه رغمما عن ذلك لم يطرأ على فكر جونكر انه سيضطر أن يبقى في لادو لغاية شهر يونيه لأنه لو كان يتوقع حدوث ذلك لكان سافر في الحال ليرتاد محطات الجنوب التى كانت على طول النيل وهى الرجاف وكري و موجى وغيرها وهى الرحلة التى كان يريد القيام بها فى الأيام الأولى من اقامته فى لادو . وعلى ذلك امثل لأن ينتظر والآمال تخامره بأن لا يتأخر مجيء وقت سفره زمنا طويلا .

وفى وقت غيابه فى مكراكا حدثت تغيرات جمة فى ادارة مديرية خط الاستواء فغوردون الذى تولى أمر حكمها من سنة ١٨٧٤ سافر منها وعين حكمدارا

عاما للسودان وتقرر إقامته في الخرطوم وخلفه في تولى حكمدارية مديرية خط الاستواء أميرالألاى يراوت بك غير انه لم يستمر في هذه الوظيفة إلا أمدا قصيرا وأتى بعده أميرالألاى ميسون بك ودار حول شواطىء بحيرة البرت نيازرا وعمل لها خريطة وعاد بعدها الى الديار المصرية . وفي وقت وصول جونكر كان ابراهيم فوزى بك حكمدارا لمديرية خط الاستواء . وكان هذا لا بد ألا يطول أمد تمتعه بهذه الوظيفة .

وكوتاح افندى Koutah Effendi مدير لادو الذى تعرف به الطبيب أمين افندى فى ابان رحلته الأولى كان قد نقل الى إحدى محطات أعالى النيل فقتل فيها هو ورجال حامية هذه المحطة فى أثناء هجوم قام به أهالى تلك الناحية .

وفى ٥ أبريل سافر كل رجل من رجال مكراكا القادرين على حمل السلاح الى الجنوب بقيادة بنحيت بك للأخذ بثأر كوتاح افندى وجنوده وكان قد تقرر أن يتبعهم أيضا آخرون من المحطات الجنوبية .

وانقضى شهر أبريل بدون أن تصل أية باخرة . وفى ٢٢ مايو داخل جونكر الفرع لقدم أمين افندى من رحلته فى أوغندة التى أرسله اليها غوردون . ولدى وصوله خرجت الحامية الى المرسى لتقدم له مراسم التعظيم حيث استقبله الموظفون وعلى رأسهم المدير نور بك محمد و جونكر . فبعد أن سلم أمين افندى على الجميع واستعرض الجند ذهب الى الديوان وفيه قدم له واجبات التهانى كل الحاضرين .

وسر جونكر سرورا لا مزيد عليه لوصول أمين افندى وأخذوا يتبادلان يوميا المقابلات فكان كل منهما يبدى للآخر فى غضونهما ما صادفه

من المؤثرات وما جمعه من المشاهدات أثناء القيام برحلته .

وفي ٣ يونيه طرق الآذان دوى صغير مؤذن بقدوم الباخرة فكان لذلك رنة فرح في القلوب وبعد هذا بقليل أتت وألقت مراسيمها أمام المحطة وكان قدومها مباغتة تامة إذ أنه لم يعلن ذلك القدوم كالمعتاد بواسطة الدخان الذي يمكن رؤيته من مسافات شاسعة لانبطاح الاراضى المحاذية للنيل انبطاحا تاما .

ويحدث دوما وصول اية باخرة الى لادو انتعاشا وفائدة مادية في المحطة لأنه عدا البضائع التي ترسلها الحكومة لموظفيها يجلب بحارتها ايضا معهم الاشياء فيبيعونها ويجرون من وراء ذلك مغنم .

وكانت البضائع التي ترسلها الحكومة توزع على مستخدميها بواسطة مديري المديرية كل بحسب درجته ومركزه ويحجز ثمن ما اخذوه مما يكون استحق لهم من المرتب .

وكان يوزع يوميا للعساكر علوفة من الذرة المخزونة في مستودعات المحطة وهذه الذرة كانت تؤخذ من الاهالى نظير الجزية المفروضة عليهم أو مما يجلب من الغنائم على أثر القيام بشن الغارات . ويوزع على المستخدمين نصيب من اللحم يوميا متى كان ذلك في حيز الامكان . اما الجنود فيوزع عليهم أنصبة في كل يومين أو مرة واحدة في الاسبوع وذلك حسب عدد المواشى التي في المحطة .

ولقد استغل من هذه الوجهة مع كر الايام عدد كبير من الموظفين بأنشاء بساتين ومزارع . وهذا العمل هو خير الوسائل لتنمية الروح

الادوية بين الاهالى واقربها لمتناول افهامهم . ويقول جونكر نعم ان المصريين على وجه العموم أساءوا معاملة الاهالى اسآآت شديدة إلا أنهم أوجدوا فى مكر كما أحوالا من شأنها أن تجعل تقدم المدنية فى حين الامكان وتكسب البلد شكل حكومة جامعا لعناصر من مختلف الشعوب تسودهم حكومة وحيدة موطدة الاركان .

وذكر جونكر فى المجلد الأول من كتابه الآف الذكر بالصفحة ٥٠٠ مامعربه .

« ان الفضل فى الزام الزوج بضرورة الاحتفاظ بالسلم مع القبائل المجاورة لهم ، ومكثهم على قدر الامكان فى مواعظهم وحرارة اراضيهم يرجع الى ضغط المسلمين عليهم . وهذا أمر لا يلزمنا ان نبخس فوائده . فبحسن مساعى الحكومة المصرية وضعت بلاد الزوج تحت سيطرة المسلمين ففتحت بذلك الطريق لاحسن المدينيات ومهما اشتد ضغط حكومة اجنبية فان هذا الضغط يكون دوما افضل وأفيد كثيرا للزوج من استبداد رؤسائهم الوطنيين ذلك الاستبداد الذى ينتج منه على وجه العموم حروب ابادة وفناء بين العبيد » . اهـ

وقضى جونكر أيام اقامته الاخيرة فى لادو مغتبطا مسرورا وهو يتأهب للرحيل . وكان ابراهيم فوزى بك الحكمدار العام فى هذه المدة يطوف فى أنحاء المراكز ووصل الى لادو قبل سفر الباخرة بزمن يسير . وقد كان تأخر اقلاع هذه الباخرة أياما قلائل لدواعى مصلحة . وفى النهاية أبحرت تهل كمية كبيرة من العاج الى الخرطوم . ودفع جونكر أجرة سفره هو وخادمية ومتاعه مبلغا قدره ١٦٢ ريالاً ثم

ذهب ليودع أمين افندى وهذا رافقه الى أن استقل ظهر الباخرة . وكان ذلك يوم ١١ يونيه . ورسـت الباخرة فى محطات بور و شـمـبـى و السـوباط و فاشودة و جهات أخرى لأخذ وقود ووصلت فى نهاية الأمر الى الخرطوم بتاريخ ٢٩ يونيه بدون حدوث أى طارئ فى طريقها وذلك بعد أن قضت فى رحلتها هذه ١٨ يوما .

وحالما وصل جونكر بادر بتقديم تشكراته الى غوردون للتسييلات التى صادفها بناء على أمره . ثم بعد أن أقام شهرا فى الخرطوم بارحها فى ٢٨ يوليه ميمـا القاهرة عن طريق وادى حلفا ثم رحل من القاهرة الى أوربا .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٨ م
رحلة المبشر فلكن
من لادو الى أوغندة^(١)
القسم الأول

من ١٨ نوفمبر الى ٣١ ديسمبر

في فصل الربيع من سنة ١٨٧٨ م وردت الانباء الى جمعية مبشرى الكنيسة الانجيلية الانكليزية بأن الأهالى قتلوا عضوين من أعضاء بعثتها التي في أوغندة عند شواطئ بحيرة فكتوريا نياترا وعلى ذلك لم يبق من تلك البعثة في أوغندة سوى المبشر ولسن Wilson . وعلى أثر هذه الانباء قررت الجمعية المذكورة أن ترسل إليه امدادا مؤلفا من المبشرين « ليتشفيلد » Lichfield و « بيرسون » Pearson و « هول » Hall و « فلكن » Felkin ووقع الاختيار على اب تسير هذه البعثة عن طريق النيل لأن غوردون باشا الذى كان وقتئذ حاكما عاما للسودان كان عرض ان يدفع نفقات جماعة من المبشرين ويدعهم يمرون من حكاميته الفسيحة المترامية الاطراف بدون ان يدفعوا شيئا ما .

(١) — راجع الجزء الذى وضعه فلكن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » الفصل

ونس من اغراض هذا الكتاب التعرض لوصف القسم الخاص برحلتهم خارجا عن حدود مديرية خط الاستواء فنكتفى بالقول إنهم سافروا من انكيترا في ٨ مايو سنة ١٨٧٨ وبلغوا لادو عاصمة المديرية في ٩ أكتوبر من نفس ذات لسنة فستقبلهم امين بك الحكمدار وبذل لهم جميع ما في استطاعته من تسهيلات .

وكان لبشر هول قد افترق من هذه الجماعة في سواكن ومن هذه نفس راجع الى بلاد الانكيز وذلك بسبب مرضه . وحال وصولهم الى انخرطوم صدر غوردون باشا أمرا بتزويدهم بالمالين بدون أن يدفعوا شيئا وأن يعطى لهم عند الاقتضاء حرس من الجند وأن تقدم لهم مساكن في كل محطة مصرية في جميع دائرة حكمادريته .

وفي ١٨ نوفمبر تابعوا مسيرهم من لادو ميممين الرجاف ومن هذه أنحروا على متن سفينتين يصعدوا شلالات بيدن ولم يتم لهم ذلك إلا بعد أن اقتحموا أخطارا شديدة وبعد أن جر التيار رجلين من أولئك الذين كانوا يجرون السفن بالأحبال . وكان المر رائعا جميلا وأفراس البحر يتوج بكثرة ماء النهر .

واستغرقت رحلتهم الى دوفيبه ستة أيام ودخلوها في ٢٤ نوفمبر فأعجبهم متانة بناء محطتها وهي واقعة على ضفة النيل وذات أهمية عظيمة وشوارع هذه القرية نظيفة ومتسعة ومساكنها مصنوعة من عواد الخيزران بينما مكتب الحكومة وهو فسيح الأرجاء مبني من اللبن وكان يوجد مخازن كبرى مبنية بالآجر والعمرة الأكثر أهمية فيها هي الترسانة النهرية لأنهم رأس خط الملاحة الى الجنوب ومحل مرسى الباخرتين

« الخديوى » و « نيانزا » ، والاولى منهما ذات قوة كبيرة ولها رفسان وحولتها ١٠٨ أطنان وطولها ١٠٠ قدم وحالة الاثنتين فى غاية من الجودة وللسفينة الأولى أيضا مخادع يجد فيها المسافرون الراحة التامة . ويكتنف المحطة سياج من الخشب وبها ثلاثة مدافع ميدان وللمستخدمين بساتين حسنة فيها سائر أنواع الخضر المحلية . ويوجد على الضفة الشرقية مساحات واسعة مزروعة ذرة . وهذا النوع يتوسعون فى زرعها فى هذه المنطقة كثيرا جدا .

وكان النهر صالحا للملاحة لغاية ماجونجو وبحيرة البرت نيانزا ويستغرق السفر ٣ أيام وكانت الباخرة « الخديوى » لنكد حظهم داخلية فى العمرة فالتزموا الابحار على متن الباخرة « نيانزا » التى أقفلت من « دوفيليه » فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ .

وكانت كل المسافة تموج بالقرى والمزارع لكثرتها على الضفتين .

وفى ٢٣ منه وصلت الباخرة الى مصب بحيرة البرت نيانزا وأخذت تتمايل بسبب تماوج مياه البحيرة ولكن بعد ملاحه ساعة دخلت ثانية فى النيل وعندئذ عادت الى الهدوء وبعد قليل افضت الى ماجونجو .

وكانت محطة هذه الناحية قد أقيمت فى الأصل على الرأس الفاصل بين مصب النيل والبحيرة . ولما كانت التيارات أخذت تعدو على هذا الرأس فتجرفه دعت الحالة لنقل المحطة الى داخل الأرض .

وكانت هذه المحطة مبنية بناء جيدا والنظافة مرعية فيها ويحيط بها متراس قوى من التراب وخندق عمقه ١٠ أقدام ويوجد بها مدفع ميدان

وأنبوبتان للصواريخ وعدا الحرس كان يوجد فيها أيضا نقط أمامية لأن كباريجا ملك أونيورو كان يرنو اليها بعين الجشع .

وكان المرسى على شكل حدوة الفرس وكان الواور يرسو فيه لعمقه . ولدى وصول المبشرين اصطفت فرقة من الجند أمام المرسى وعلمها يخفق على رؤوسها وحال نزولهم من الباخرة حياهم أولئك الجنود وعزفت الابواق السلام الوطنى المصرى .

ونظرا لغياب القومندان مرجان افندى الدناصورى استقبلهم وكيهه محمد افندى وهو ضابط باسل لم يزل فى ريعان الشباب بحفاوة كبرى . وكان منظر العساكر بكساويها البيضاء بهجة للناظرين .

وأُنزلوا أولئك المبشرين فى اكواخ قائمة فى بقعة جميلة جدا تحت شجرة بسقة وخارج المتراس بالضبط .

وكانوا قد قرروا أن يقوموا فى الغد ٢٤ ديسمبر بجولان عند مساقط مورشيزون ولذا استيقظوا مبكرين ولدى وصولهم الى المرسى وجدوا الباخرة نيازنا متأهبة للسفر وكان محمد افندى قد أعد لهم غداء فاخرا ليأخذوه معهم فى جولانهم وسافروا فى الحال .

وبعد أن تركوا وراء ظهورهم ماجونجـو أخذ النهر يضيق تدريجيا وابتدأت الضفاف فى الارتفاع . وطفقت الأعين تقع فى الجانيين على أشجار بلغت مبلغا عظيما فى الجسامة ونبت بهيج وطيور ريشها جامع لمختلف الألوان وقردة . أما النهر فهاؤه كان يموج بكثرة ما فيه من تماسيح وافراس بحر . وبالأجمال تحتوى هذه البقعة على جميع ما احتوى عليه منظر المنطقة الحارة

من بهاء وجلال . وكلما اقتربوا من المساقط زاد اضطراب الماء وازداد دوى سقوطه . وفي نهاية الامر صارت المساقط بمرأى منهم غير أنهم لم يتمكنوا من الاقتراب منها الى مسافة تقل عن نصف ميل وظلوا برهة طويلة منذهلين أمام جمال سقوط الماء سقوطاً رأسياً من علو ١٢٠ قدماً . ثم حاولوا النزول من الباخرة ليقربوا من المساقط سعياً على الاقدام ولكنهم باءوا بالفشل بسبب تراكم الاشجار وكثافتها . ثم بعد ان متعوا ابصارهم مرة أخرى بهذا المنظر القتان وهم في الباخرة قفلوا راجعين الى ماجونجو .

ووقع عيد الميلاد في اليوم التالى فأتى اليهم موظفو المحطة وقدموا لهم أحسن التمنيات ودعاهم قائد المحطة للغداء عنده وكان هذا الغداء على حسب اعترافهم من ألد ما تناولوه من الطعام في افريقية .

وأقاموا أيضاً يومين في ماجونجو ليظفروا بحالين غير ان هذا الأمر لم يكن سهلاً المنال لأن كباريجما سمع بقدمومهم فأمر بأن لا ينقل أحد متاعهم ولاكن محمد افندى أخذ على عاتقه ان يقدم لهم مطالبهم وفعلاً أحضر لهم الجمالين .

وفي ٢٨ ديسمبر انطلقوا في السير بعد ان حيتهم الجنود التحية العسكرية كما حدث عند قدومهم وبعد ان ودعوا الضباط ذاكرين لهم كرم ضيافتهم وعظيم فعالهم وحسن مقاصدهم .

وتركوا الباخرة في ماجونجو لأنها لا تستطيع ان تبعد أكثر من ذلك وساروا برا على ظهور الحمير وتجمشوا كثيراً من الصعاب مع الجمالين الذين

كانوا من طبقة الاوغاد غير أنه كان يرافقهم لحسن الحظ حرس قوى من الجنود
فعاونهم معاونة كبرى . وهجم عليهم وهم فى الطريق رجال ككباريجا فى اليوم
الأول لأن هؤلاء الرجال ما كانوا يتوقعون ان يروهم مخفونين بحرس . وارتد
المهاجمون تاركين على الثرى رجلا منهم . وأقيم فى الليل حرس قوى وحدث فى
غضونه عدة هجمات فردتها نيران الجنود . ومما زاد الطين بلة تهطل الامطار
وهبوب الزوابع وعصف الرياح وبالاجمال كانت الرحلة غير سارة أبدا .

وبقية هذه الرحلة مسطورة فى الملحق الثانى للسنة القادمة .

٤ — منحق سنة ١٨٧٨ م

رحلة المبشر ولسن من أوغندة الى كسوننا^(١)

ذهابا وإيابا

القسم الأول

من ٢١ نوفمبر الى ٣١ ديسمبر

كتب استانلى فى مارس سنة ١٨٧٥ وكان عندئذ فى أوغندة رسالة نشرتها الجرائد الانكليزية يقول فيها ان هذا البلد صالح جدا لأعمال المبشرين . وفى بحر عدة أيام عرضت عدة هبات على جمعية مبشرى الكنيسة اذا هى تعهدت بإرسال بعثة الى بلد متيسر . وقبلت الجمعية ووجهت الدعوة الى المتطوعين فلبوا دعوتها . وفى ربيع سنة ١٨٧٦ سافرت من انكلترا الى زنبار بعثة منظمة تنظيما تاما برئاسة الملازم « سميث » Smith . ووصلت الى شاطئ بحيرة فكتوريا نيائرا الجنوبى فى مايو سنة ١٨٧٧ .

وكانت هذه البعثة مؤلفة من أربعة أعضاء مات منها الدكتور سميث لدى وصوله الى البحيرة وقتل الملازم سميث والمستر « أونيل » O'Neill

(١) — راجع الجزء الذى وضعه ولسن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » ، الفصل العاشر .

بيد الاهالى فى جزيرة من جزر البحيرة وبقى منها المبشر ولسن وظل وحده فى
أوغنده لغاية خريف سنة ١٨٧٨ م

وعندما علمت الجمعية بهذا المصاب بادرت بإرسال بعثة أخرى . وفى ٦
نوفمبر وصل الى ولسن من الحكمدار أمين بك فى روباجا خطاب يقول له فيه
انه سيأتى قريبا ثلاثة مبشرين عن طريق النيل الى مرولى وهى آخر محطة
عسكرية مصرية فى الحد الجنوبى واقعة على بعد ٣٠٠ كيلومتر من روباجا .

وفى ٢١ نوفمبر سافر ولسن من روباجا الى مرولى وفى ٦ ديسمبر
شاهد العلم المصرى على مسافة يختمق على هذه الناحية . ولدى وصوله اليها
أطلقت المحطة مدفعين لإيداناً بقدمومه ووجد فرقة من الجنود مصفوفة
خارج المحطة فقدمت له الاسلحة تعظيماً وعزفت الأبنواق السلام المصرى .
واستعلم عما اذا كان رجال من البيض قد قدموا فأجيب سلباً . غير انه
قدم اليه خطاب من بيرسون وهو مبشر آخر يدعوه فيه أن يأتى
الى فويرا وهى محطة عسكرية مصرية أخرى واقعة على بعد زهاء مائة كيلومتر
من مرولى .

واستقبل ولسن احسن استقبال وقدم له الضباط واجبات الضيافة فى
محطة مرولى ووضعوا تحت تصرفه ديوان الحكومة وقدموا له الطعام بالزبد
لأن الحكمدار كان أصدر الأوامر بأن يعامل اذا أتى الى مرولى أو أية محطة
أخرى من محطات مديريته معاملة ضيف عزيز نازل عنده .

وفى ٩ ديسمبر شخص من مرولى الى فويرا فوصل اليها فى ١١ منه وكان
يأمل أن يجد فيها اصدقاءه إلا أنهم ما كانوا وصلوا اليها لغاية هذا التاريخ .

ووضع تحت تصرفه محمد افندى قومندان المحطة الذى كان عقد معه عروة الصداقة كوخا حسنا جدا خارج المحطة مطلا على النيل ومشرفا على منظر جميل وعلى النواحي المجاورة .

وفى النهاية ورد له فى ٢٦ ديسمبر خطاب من بيرسون وفلكن يقولان فيه ان المرض عاقهما وانهما سيأتيان بطريق البرت نيازا وماجونجو .
وبقية هذه الرحلة مذكورة فى الملحق الأول للسنة التالية .

سنة ١٨٧٩ م

حكمدارية أمين باشا

إنجازه للأعمال الادارية في ماجونجو

لم يتصل بنا شيء من أخبار تنقلات هذا الحكمدار لغاية شهر نوفمبر من هذه السنة وقد يجوز أنه ظل مقيما في لادو . وقد سافر في هذا التاريخ الى دوفيليه ومن هذه الجهة شخص نحو الجنوب .

وفي ١٧ نوفمبر وصل الى وادلای فلم يحضر اليه شيخها المسمى أيضا بهذا الاسم غير أنه أرسل اليه أخاه مصحوبا بثلاثة زنجي ومعه نابات من أنياب الفيلة بصفة هدية . وسبب عدم قدوم الشيخ على ما يظهر أنه رجل بادن بدرجة لا يقدر معها على المشي .

وقدم له الحكمدار هدايا وحادثه بصدد إقامة محطة في ناحيته وطال بينهما الأخذ والرد إلا أن الخاتمة كانت مرضية ووعد الحكمدار بأن يشدد الرقابة على جنوده وعلى ذلك وافق على إقامتها ثم طلب منه أن يحضر له وعودا للباخرة فأجيب الى طلبه في الحال . وعلم من الأهالي أنهم يتبادلون متاجر واسعة النطاق مع الشوليين Shoulis في الضفة الشرقية وأنه في حيز الاستطاعة الذهاب الى فاتيكو عن طريق فابو في ظرف ثلاثة أيام .

وتحركت الباخرة بعد شحن الوقود وكان التيار شديدا جدا وبعد

ابحار ست ساعات ألت مراسيها عند سفح سلسلة تلاع بقصد مقابلة شيخ آخر غير أنه لسوء الحظ بمجرد إدراك القرية الواقعة خلف التلال لوحظ أن جميع الأهالي تعلقوا بأذيال الفرار وقضت الحال أن يرسل اليهم ترجمانا ليدخل في روعهم الطمأنينة . وفي نهاية الأمر أقنع واحدا منهم بالرجوع وهذا وعد بأن يذهب فيستحضر الشيخ ولكنه عاد في اليوم التالي وقال إن الشيخ يأبى اجابة دعوة الحضور لأنه استقبح عدم المجيء اليه مباشرة .

وانطلقت الباخرة تشق عباب الماء فوصلت في العشى الى ماجونجو الواقعة عند مدخل بحيرة البرت نيازا حيث عقد هذا الحكمдар النية على الإقامة وقتا يسيرا .

وقضى مدة إقامته في إنجاز الأعمال الادارية ودرس العلاقات المتبادلة مع الأهالي وكان شأن هذه المحطة شأن المحطات الأخرى من جهة تفاد الذخيرة ومختلف الواردات بسبب انسداد النهر في مناطق السدود الأمر الذي نشأ منه قطع المواصلات مع الخرطوم زهاء حولين .

وفي ٦ ديسمبر قدم من أوغندة وفد يحمل هدايا من متيسا ووزيره الاول كاتيكيرو برسم الحكمдар ومكاتيب منها ومن عرب أوغندة والمبشرين الانكليز والفرنساويين .

سفره الى محطة ماهاجي وزيارته الضواحي التي حولها

وأبحر الحكمдар بعد أن أنهى ما لديه من الأعمال في ماجونجو الى محطة « ماهاجي » Mahagi الواقعة على شط بحيرة البرت نيازا الغربي

ومشت الباخرة مع امتداد الشط المذكور وكان عمق الماء لا يتجاوز ثمانى عشرة قدما . وصادف صعوبة فى النزول لدى وصوله أمام المحطة بسبب قلة غور الماء .

وهذه المحطة قائمة فى وسط حقول نضرة منظرها يأخذ بالالباب وخلفها سلسلة طويلة من الجبال المرتفعة وأمامها ماء البحيرة ممتدا الى مسافات شاسعة .

وذهب أمين بك لزيارة سوندا Sonda وهو رئيس قرية كبيرة تسمى « توا » Toa واقعة قرب المحطة . واكواخ هذه القرية مبنية على نمط اكواخ الأونيورو . فوجد نساءها منهمكة فى القيام بالاشغال المنزلية والرجال يشتغلون بالفلاحة وبصيد الأسماك والقنص وحلب البقر والعنز . أما مزروعاتهم فهى الذرة البيضاء والصفراء والتبغ والسمسم والقناء والباية .

والطريق البرية بين محطتى ماهاجى و وادلاى تمر بمنطقة جبلية وقائهم عليها قرى كبيرة . أما أمر النظافة والنظام فيها فحدث عنها ولا حرج . وهذه القرى حافلة بكثرة سكانها وبها من الأنعام القطعان الكثيرة . وقدم الى أمين بك بعض رؤساء الزنوج المقيمين فى الضواحي لزيارته فأثروا فى نفسه تأثيرا حسنا سواء أكان من جهة الهيئة أم من جهة أساليبهم . وعلم منهم أنهم يقرون إكبارينجا بالسيطرة عليهم وأنه يوجد بينهم وبين منطقة الأونيورو صلات متينة وأنه يوجد كذلك تجارة واسعة النطاق تقوم بنقلها مراكب تسير بمحاذاة ضفة النهر الغربية الى ان تصل الى مصب النهر فتجتازه وتذهب الى ماجونجو أو « كيبىرو » Kibiro وتبادل على

ما فيها من الحاصلات . وسكان هذه الناحية يَحْتَسِنون .

وكان الحكمـدار يود لو أُتيحت له إطالة إقامته في هذه المنطقة
الكثيرة الأهمية غير أن أعماله كانت تتطلب قيامه الى جهات أخرى فولى
وجهه شطر الشمال . وجاء آخر الحول وهو في دوفيليه .

١ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر ولسن من أوغندة الى كسونا^(١)

ذهابا وإيابا

القسم الثانى

من أول يناير الى ١٤ فبراير

وفي أول يناير تلقى ولسن رسالة من بيرسون يقول له فيها إنهم
أمسكوا مرة أخرى في كيروتو عن متابعة السفر بسبب ما لحقهم من
التعب والنصب . وكيروتو هذه محطة مصرية أخرى على مرحلة ثلاثة
أيام من فويرا . وعلى ذلك قرر ولسن أن يذهب لمقابلتهم إذ أنه لم يعد في
استطاعته أن ينتظر أكثر من الوقت الذى قضاه فى الانتظار فسافر فى اليوم
التالى بصحبة ثلاثة من الجنود وثلاثة حمالين وخدمه .

ولدى بلوغه « كسونا » الواقعة على بعد بضع ساعات من كيروتو وجد
فيها أنفينا رئيس الناحية فعلم منه أن أصدقاءه بارحوا كيروتو وأنهم
سيكونون فى كسونا فى عشية نفس اليوم . وفى الساعة الثالثة وصلت القافلة

(١) — راجع الجزء الذى وضعه ولسن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى »

فكان ضمنها بيرسون و ليتشفيلد فقط إذ كان فلكن بقى فى كيروتو مع الترجمان الذى كان يعالج سكرات الموت . وقضوا الليل معا يتسامرون فى مختلف الشؤون الى الهزيع الأخير منه .

وفى الغد لحق بهم فلكن وكان الترجمان قد أدركته منيته فى الليل . وتابع الجميع السير الى فويرا من جديد فدخلوها فى ٧ يناير وأقاموا بها أسبوعين ثم شخصوا الى مرولى لأنهم علموا أن الحمالين الذين طلبوهم من متيسا قد وصلوا الى هذه الجهة .

وفى ٢٧ يناير أفضوا الى مرولى فوجدوا فيها الحمالين الذين بعث بهم متيسا وسافروا منها فى ٣ فبراير . وفى ٨ من هذا الشهر اجتازوا الحدود المصرية . وفى ١٤ منه حطوا رحالهم فى روباها .

٢ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر فلكن من لادو الى أوغندة^(١)

من أول يناير الى ١٤ فبراير

في أول يناير من سنة ١٨٧٩ وصلت جماعة المبشرين الى كيروتو وهي محطة عسكرية مصرية . وداخلهم شيء كثير من المسرة عندما وجدوا أنفسهم في كنف سياجها إذ أنهم في غضون جولاتهم في المسافة الواقعة بين ماجونجو والمحطة المذكورة كانوا عرضة لتغير حالة الجو وعدم اعتداله ومجاهرة الاهالى بالعدوان . وحق بهم شيء من الاحزان بسبب موت ترجمانهم نقولا السورى الذى لبث بعض وقت مريضاً ثم عاجلته المنية عند وصولهم ودفن في موضع مناسب .

وموقع المحطة بديع للغاية . ويوجد هذا الموقع في وسط أرض مكشوفة لا شجر فيها تحيط بها غابة شاسعة مترامية الاطراف . وأنشئ حولها فضاء مساحته ٢٠٠ متر حتى لا يجد العدو ملجأ يأوى اليه . ولما لم تكن الحامية ذات قوة كافية لتقوم بالحراسة وتشتغل في وقت واحد كانت لا تمتاز إلا بصعوبة لا سيما أن القرى التى تكتنفها ليس فيها مصاف ولا صديق وكباريجا لم يأل

(١) — راجع الجزء الذى وضعه فلكن من كتاب « أوغندة والسودان المصرى » الفصل

جهدا ان يخلق لها المتاعب دواما .

وقد قال المبشر فلكن فى المجلد الأول من كتاب « أوغندة والسودان
المصرى » ص ٣٢٤ :-

« انه لما يؤسف له عدم القضاء على حكم هذا الملك المستبد الغشوم - يعنى
كباريجا - ذلك الأمر الذى كان قد تم من زمن لولا المعارضة الشديدة
التي كان يبدىها بعض اشخاص فى بلاد الانكاييز . وهؤلاء الاشخاص هم أولئك
الذين يرون بعين الحسد كل امتداد يحدث فى الاراضى المصرية نحو الجنوب .
وزاد على ذلك بأن قال : ان فى استطاعته ان يقرر وهو مستريح الضمير
ان اجزاء البلد الواقعة تحت السيطرة المصرية والمحكومة بنفس ذات
الطريقة التي يسير عليها فى حكمه حكمدار مديرية خط الاستواء الحالى
لهى فى حالة احسن كثيرا مما كانت عليه تحت سيطرة ملوكها
الغشم المستبدين » . اهـ

ويظهر من هذا الكلام ان الانكاييز منذ ذلك الوقت كانوا واقفين لنا
بالمرصاد فى السودان ولا يرغبون أن نتوغل فيه ونمتلك من اراضيه شيئا .

وأتى انقينا ليزورهم فى كيروتو وفى ٤ يناير ولوا وجوهم شطر
« پانياتول » Panyatole وهى مقر انقينا . وهبت عليهم فى الطريق عاصفة
مصحوبة بمطر فبلتهم . ولدى وصولهم اليها وجدوا المبشر ولسن الذى كان قد
قدم اليها من أوغندة بقصد مقابلتهم .

وكانت كل قرى هذه الناحية تحيط بها زرائب ذات أوتاد لوقايتها من كباريجا ومن عادية النمور . وهذه الزرائب ليس لها سوى مدخل واحد يقفل ليلا .

وقابلهم انقينا مقابلة ودية للغاية وأحسن مشواهم وكان ديوانه غاية في النظافة وأرضيته مفروشة بالابسطة التركية .

وانطلقوا في اليوم التالى فى الطريق ميممين فويرا . وكان الطريق وعرا ويمر فى جوف ارض فسيحة واسعة مغطاة بالاشجار والحشائش العالية وبها جذوع اشجار تحول دون المرور . وكان يرافقهم حرس من الجنود .

وبلغوا فويرا فى اليوم التالى لسفرهم . وكانت المحطة قائمة على مرتفع عند منعرج النهر وذلك ما جعلها حصينة من جانبيين . أما اتساع النهر فى هذا المكان فيبلغ ٨٠٠ ياردة وماؤه عميق جدا فتستطيع البواخر الكبيرة أن تمر فيه لغاية أورووندوجانى . ويوجد بعد هذه الناحية الاخيرة مساقط تحول دون الدخول فى بحيرة فكتوريا نياترا . ولا بد من ايجاد ميناء بين فويرا و ماجونجو لأن انحدار النيل بين هاتين الجهتين يبلغ ٧٠٠ قدم .

وفى الغد أبحروا فى زوارق من فويرا وبعد ستة أيام أفضوا الى مرولى وهى أقصى محطة مصرية فى الجنوب وكان وصولهم اليها فى ٢٧ يناير سنة ١٨٧٩ م .

وفى ٣ فبراير بارحوا مرولى وتركوا فيها حرسهم المؤلف من

الجنود المصرية آسفين أشد الأسف لفراق رفاق غاية في المودة والاخلاص .

وكان متيسا قد أرسل لمقابلتهم ١٥٠٠ رجل و ٤٠٠ جمال . وفي ١٤ فبراير دخلوا روباجا عاصمة بلاده .

وعند سفرهم من بلاد الانكليز كانوا قد سخروا من فكرة امكن الوصول

الى أوغندة بطريق النيل . حتى ان استأنلى أكد لهم بأنهم لن يصلوا ومعهم نصف أمتعتهم . ومع ذلك قد وصلوا من سواكن الى روباجا ولم يفقد لهم طرد واحد .

٣ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة المبشر فلكن من أوغندة الى لادو^(١)

من ١٧ مايو الى ١٨ سبتمبر

سفره الى مروي

كان قد تقرر أن يسبق فلكن المبشر ولسن فيعد أن أقام
فلكن في أوغندة ثلاثة أشهر بارجها في ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ وسافر الى
مروي فوصل اليها في أول يونيه من هذه السنة . وبما أنه لم يخبر أحدا
بقدومه فلم يقدم له التحية سوى بوق واحد وطبل واحد وخمسة من
الجنود . وبادر صديقه القديم « فرج افندى اجوك » Ajok قومندان الموقع
بالاتيان للسلام عليه وليعبر له عما خالج قلبه من عظيم السرور لمشاهدته مرة
أخرى . وكان هذا الضابط وهو في ريعان الشباب من جنود الحرس
الخاص لسير صمويل بيكر وقد حدث في يوم من الأيام أن أمر بإعدامه
رميا بالرصاص لهربه من الجنديّة ثم عفا عنه وبعد ذلك ترقى الى أن صار ضابطا
من خيرة الضباط .

(١) — راجع الجزء الذي وضعه فلكن من كتاب « أوغندة والسودان المصري » ، الفصل
١ و ٢ و ٤ و ٥ و ٦ .

وكانت جميع الجنود مشغولة بتقوية المتاريس وكان سلاحهم مصفوها على شكل باقة بجانبهم استعدادا للدفاع في حالة ما اذا طرأ هجوم لأن كباريجا كان قد هدد المحطة وقتل الأهلى بعض الجنود ولكنهم عوقبوا عقابا زاجرا واستولت الجنود منهم على ٨٠٠ رأس من الأنعام غنيمة .

وفرح الضباط لا ياب فلكن لانهم ما كانوا يتوقعون أن يروه مرة ثانية بعد الاشاعات التي تواترت عنه بسبب ملاقاه من الصعاب في أوغندة .

ولم يطب فلكن نفسا بالاقامة في مرولى لأن ماحولها كان مغمورا بالماء وفيها اسراب كثيرة من البعوض وكان أكثر الضباط وجميع رجال المدفعية وهم مصريون ، مصابين بالحمى .

وكان ريونجا يسكن بالقرب من مرولى وكان يتيه عجبا بالعلم الذى أعطيه وكان من وقت ما تبادل الدم مع سير صمويل بيكر الحليف الأمين للحكومة .

سفره الى محطتى كودج و فويرا

وفي ١٠ يونيه غادر فلكن مرولى ووصل في اليوم ذاته الى « كودج » Kodj . وكودج هذه هى المعسكر العام لريونجا ويوجد فيها حصن مصرى وقومندانة سليم افندى مطر الذى ترقى فيما بعد ونال رتبة بك ولعب دورا هاما في فترة حملة استانلى واخلاء مديريةية خط الاستواء . وقطع فلكن هذه المسافة في زورق بالنيل . وكان اتساعه ٨٠٠ ياردة وكانت ضفتاه جديرتين بريشة المصور وبها نباتات وافرة منظرها يأخذ بمجامع القلوب .

وكانت محطة كودج هذه واقعة في موضع ذى منظر فتان على شاطئ
النهر . فأقام فيها فلكن في لذة وحبور يومين كاملين وأبحر ثانية منها في
زورق قاصدا فويرا . وكانت المسافة بين كودج وفويرا ثلاث ساعات لا أكثر
وقوبل من قومندانها احمد افندى محمد وأقام بها لغاية ٢ يوليه إلا أنه كان
منحرف الصحة طول مدة اقامته .

وفي ١٨ يونيه عندما كان مقيما في فويرا سمع اطلاق مدفع مؤذنا بأن
البريد أصبح بمراى من المحطة فسر لذلك ولكنه ما علم أن حاق به شيء من
الأسف إذ لم يرد له سوى مكتوب من أميين بك يدعو فيه الى الحضور
في فاتيكو حيث نوى الذهاب لمقابلته . ولما لم يكن قد وصله أى خبر عن
ولسن وكان يريد أن يقابل أميين بك ليعرض عليه مشروعاته قرر أن يسافر
حائا يوجد الحرس وعقد النية على أن يرجع لمقابلة ولسن ولكن الظروف
حالت دون تحقيق غرضه .

سفره الى فاتيكو واستقباله بها

وعلى ذلك بارح فويرا في ٢ يوليه وبعد ستة أيام وصل الى فاتيكو .
وعلى حسب العادة المتبعة أطلق عيسار نارى عند اقترابهم من المحطة فأجابه
الحصن بطلق آخر ورفع العلم المصرى وفى الحال ظهرت الجنود بكساويهم
البيضاء واصطفوا صفين ليحيوا القادمين بتقديم أسلحتهم وانتظم ايضا الحرس .
ولدى وصوله أمام الحامية وقف بمواجهتها وحيا الفريقان بعضهما . وفى هذه
البرهة رددت الابواق السلام الوطنى المصرى ونزل العلم .

وبعد تأدية هذه التسميات سلم فلكن على قائد المحطة عبد الله افندى

نمير وعلى صاحبه القديم مرجان افندى الدناصورى قائد محطة ماجونجو الذى كان فى فاتيكو فى ذلك الوقت وعلى الضباط ووجد خطابا جاءه من ولسن من مرولى وكان الساعى قد نسى أن يسامه اياه غير انه تكدر غاية الكدر إذ رأى ان أمينا لم يأت الى فاتيكو لأنه استدعى الى لادو لأعمال هامة وهو فى منتصف الطريق .

وقضى فلكن فى فاتيكو أسبوعا وهو مغتبط غاية الاغتباط . وكانت المحطة موضوعة وضعها جميلا وكان الهواء عذبا بليلا ولا أثر للبعوض . وكانت قبائل الشوليين الواقعة المحطة فى بلدهم مخلصين للحكومة فلا يكبدونها شيئا من التعب . وكان فى استطاعة الجنود ان يسيروا بغير سلاح واذا وقع أحدهم فى مخالب المرض بعيدا عن الحصن حملوه على نقالة وأتوا به الى المحطة .

وكان السهل الذى يحيط بالمحطة خصبا للغاية ويلمح المرء على مد البصر حقولا مزروعة حبوبا وهذه الناحية هى فى الواقع مستودع حبوب المديرية فنهارا ترسل الذرة الى مرولى و كيروتو بل فى بعض الاوقات الى لادو أيضا .

سفره من فاتيكو الى محطة كرى

وفى ١٤ يولييه غادر فلكن فاتيكو بعد ان ودع القائد والضباط الذين أظهروا له الشئ الكثير من التودد والمجاملة مدة اقامته بينهم وذهب الى دوفيليه فدخلها فى ١٦ منه ووجد المحطة حدث فيها تحسين كبير فأقيمت اكواخ جديدة ودهنت البواخر حديثا وكانت كل الاشياء مرتبة

ومنظمة تنظيما متقنا .

ولما كان الحمالون متأهبين للرحيل عقد العزم على السفر في اليوم التالي لوصوله وكانت المناطق التي اجتازها غاية في البهاء فالجبال من ناحية والنيل من ناحية أخرى لاسيا عندما ينحصر النيل في المضيق الواقع شمال دوفيليه ويتدهور مأؤه بسرعة فوق الصخور مرغيا مزبدا .

ومر فلكن ورفاقه بلابوريه وهي محطة واقعة على الضفة النهر في موضع بلغ نهاية الحسن بجانب جبل يشرف على النهر ويبلغ ارتفاعه ٢٦٠٠ قدم . وكانت المحطة محصنة تحصينا عظيما وكان يوجد بها عدا الجنود الذين خرجوا ليحيوه اربعة من الفيلة الاليفة .

وبعد لابوريه أفضى فلكن ومن معه الى مونجي وهي المحطة التي فككت فيها البواخر لاعادة تركيبها في دوفيليه لأنه كان يستحيل جرها في المساقط بالاحبال . وبأشر جميع هذا العمل مهندس مصري يقال له ابراهيم افندي خليفة فقام به خير قيام واستحق جزيل الحمد ومزيد الثناء .

وعند زيارة فلكن الأخيرة كان تشييد المحطة قد أعيد في موضع آخر جميل بسبب غمرها بماء الفيضان وأقيم المعسكر على الضفة النهر تحت شجرة ضخمة بأسفة اتجاه جبل علوه ١٥٠٠ قدم على الضفة المقابلة . ويتألف من كل هذا منظر يسحر الالباب ويسبي العقول .

وفي اليوم التالي شرعوا ثانية في الترحال واستمروا في مسيرهم حتى بلغوا محطة كري . ويشغل حصن هذه المحطة بقعة في غاية المناعة وهو واقع على منحرج النهر الذي يقى ذلك الحصن من ناحيتين والناحيتان الاخريان

يحميها سور متين مشيد بالاحجار ولما كان يكتنفه أرض مكشوفة صار أمتع من عقاب الجو .

وقبل أن يصل إليها رأى على الضفة الاخرى تحت شجرة كبيرة قبر إرنست دى بلقون الذى قتل فى هذه الناحية . وقضى فلكن فى كرى يوما هنيئاً مع انه التزم أن يعالج عددا ليس بالقليل من المرضى عرضوا أنفسهم عليه .

سفره من كرى الى لادو

وفى ٢٢ يولييه أبحر من كرى فى زورق ميمما « بيدن » Bedden . وكان اتساع النهر فى تلك الناحية لا يزيد عن ٤٠٠ يارده وضفتاه مرتفعتان كثيرا فوصلوا إليها فى زمن يسير إذ قطعوا المسافة بين المحطتين وقدرها ٥٠ كيلومترا فى ظرف أربع ساعات . وهاجم مركبهم فى اثناء الطريق فرس ماء فقتله فلكن والجاوئش الذى كان يرافقه بطلقين ناريتين .

ومحطة بيدن قائمة على جزيرة فى كل جانب من جوانبها مساقط ماء . والنيل فيما وراء هذه المساقط صالح للملاحة لغاية الخرطوم . ولذلك كان يوجد هناك باخرة صغيرة واقفة . وأنشأ غوردون باشا فى هذه المحطة « طوفا » معدية يعبر النهر بواسطة جبل من الصلب وكان يستحيل اجتيازه النهر بغير واسطة هذا الجبل بسبب قوة التيار . أما منظر ما حول الجزيرة فيسحر الالباب ويأخذ بجامع القلوب وكان فلكن ينجح الى ان يطيل مدة اقامته فى بقعة بلغت نفاستها هذا المقدار العظيم غير ان وقته لم يكن

يسمح له بذلك فأبحر ثانية في مركب آخر الى الرجاف بعد وقوف ساعة وهنا اختلف شكل الاراضى إذ أنها بعد ان كانت جبلية من الناحيتين انقلبت سهولا تتواتر فيها مزارع الذرة الواسعة .

ووصل الى الرجاف في نفس اليوم فاستقبله فيها صديقه قديما قائد محطتها اسماعيل افندى خطاب الذى يصفه فلكن بأنه ألطف مصرى وقعت عينه عليه . وسر سرورا لا مزيد عليه إذ حباه ذلك القائد بصفة هدية بقدر من البن والسكر والشمع والصابون تلك الاشياء التى حرم منها زمنا طويلا .

وسافر من الرجاف وحط رحاله فى غندوكورو الواقعة فى منتصف الطريق بين محطتى الرجاف و لادو . فوجد حالتها تغيرت تغيرا كبيرا عما كانت عليه فى عهد سير صمويل بيكر إذ أمست نقطة صغيرة قائمة على ضفة النهر من وقت ما نقلت عاصمة المديرية الى لادو . وزار فلكن المعسكر القديم فلم يجد منه قائما غير متاريسه وزار أيضا قبر « هجنـبوثام » Higginbotham مهندس سير صمويل بيكر الذى توفى فى زمن الحملة كما زار قبور المبشرين الرومانيين الكاثوليك الذين كانوا أنشئوا بيعة فى غندوكورو ولم يتركوها إلا بعد أن توفى منهم ستة وعشرون مبشرا فى حـول واحد . ولم يبق الآن من تلك البيعة إلا أطلالها وأشجار الليمون التى كانوا زرعوها .

واستمر فلكن نازلا مع النهر وبعد خمس ساعات وصل الى لادو وفيها استقبله الحـكمـدار أمين بك استقبالا وديا للغاية . وشعر فلكن بسرور لا مزيد عليه لهذه المقابلة الجديدة ونزل فى ضيافته من ٢٣

يوليه لغاية ١٨ سبتمبر ولحق به المستر ولسن ورسل متيسا في ١٩ أغسطس .

وكان أمين بك يدير حكمداريته بمهارة كبرى وعدالة ومع أنه ظل عامين لا يصل اليه شيء من الخروطوم استطاع بما كان يجنيه من المديرية من الايرادات أن يقوم بسداد المصروفات بدون أن يدع سبيلا لاحد من جنوده أن يتذمر أو يتململ . وكانت علاقة الاهالى مع الحكومة فى غاية من الصفاء والمودة . أما « اللورون » Laron رئيس « البارين » Baris الذى اقتتل مرارا مع سير صمويل بيكر فكان يعيش هو والمصريون عيشة صداقة واخاء . وفى مدة اقامة فلكن فى لادو قتل جندى يوما تمساحا كان من عادته أن يتربق النساء اللواتى يذهبن لاغتراف الماء فيختطفهن . وبشق جوفه وجد فيه سبع فتحات من نحاس « دبل » .

ولما كان فلكن قد أقام زمنا فى ضيافة الحكمدار فقد استطاع أن يعرف نظام مديرية خط الاستواء وهالك ما قاله فى هذا الصدد :—

« ان لادو عاصمة المديرية هى مدينة حسنة البناء فديوانها ومكتبها ومسجدها وجميع مباني الحكومة فيها مشيد بالآجر ومسقوف بالحديد المصفح المتماوج . وكافة المساكن الأخرى مقامة من الخشب والحشائش وترمم كل سنتين أو ثلاث سنوات بسبب ما يحدثه بها من التلف السوس ونوع من النمل لونه أبيض . وسائر الشوارع فسيحة ومستقيمة فى الامتداد وبواسطة تنظيم وتنسيق فضاء طلق تبلغ مساحته ٣٠ ياردة بين الدور والحصون أضحت المخططة محاطة بمحل رحب للنزهة . ويوجد خارج الاسوار بسايتين وحدائق مترامية الاطراف بها عدا الموز كمية كبيرة من الزهور الأوربية

واغراس شبه جزيرة بلاد العرب يعمل الحكمدار وهو الطيب أمين بك بهمة كبيرة في سبيل تليدها أى تعويدها على مناخ المنطقة . وتوجد شجرة من أشجار الكافور بلغ ارتفاعها للآن ٢٥ قدما . وستستفيد أواسط افريقية من هذا النوع من الاشجار عندما تنتشر زراعته لأنه خلا تأثيره العظيم فى الاحوال الصحية فى البلد فان خشبه يسد فراغا يشعر بوجوده منذ زمن بعيد .

وللمحطة ثلاثة أبواب يقيم عليها حراس ليلا ونهارا . وتفتح هذه الابواب من الساعة السادسة صباحا الى الساعة الثامنة مساء . ومن غير المصرح به مطلقا اطلاق أعيرة نارية بجوار المحطة ابتداء من غروب الشمس الى حين شروقها اللهم إلا اذا كان الطلق اشعارا بحدوث هجوم . وفى الساعة الخامسة والنصف صباحا ينفخ فى البوق إيذانا بالاستيقاظ . وبعد هذا توقد النيران فى الحال . وفى الساعة السادسة يقومون بالمناداة بالاسماء ثم تفتح الابواب وعندئذ يقوم الجند بعملية التمرين وتأخذ النساء فى كنس الشوارع . وفى الساعة الثامنة والنصف يذهب الجميع ما عدا الحراس للشغل فى المزارع وجلب الماء أو لجمع الحطب وترسل القطعان للمراعى حالما يرتفع النداء . وتستمر الاشغال لغاية الساعة الحادية عشرة والنصف وتظل معطلة للراحة للساعة الثانية والنصف وتعود بعد ذلك لغاية الساعة الخامسة مساء وعندئذ يرجع الجميع الى الحصن . وفى الساعة الثامنة ينادون الاسماء وتقفل الابواب . وفى الساعة التاسعة تطفأ الأنوار ويطوف ضابط ليتحقق مما اذا كان هذا النظام مرعيا ومعمولا به .

والأوامر التى بصدد النار فى غاية الشدة . فاذا هب إعصار فى النهار نفخ فى البوق حالا ايذانا باطفائها ويعاقب كل من لم يبادر بالعمل بهذا الأمر عقابا صارما . وهذه الحيلة ضرورية جدا لأنه إذا اشتعل كوخ من الاكواخ

يصعب كثيرا انقاذ المحطة بل تدمر تدميرا . وفي ربيع سنة ١٨٧٨ م راحت لادو نفسها طعمة للنار التي التهمت المئونة والميرة الكثيرة التي كان سير صمويل بيكر باشا قد أتى بها لتموين المديرية .

ويوجد على مقربة من كل محطة عدد من القرى يسكنها الاهالى وتقسم المديرية الى محطات يقام فى وسط كل منها حصن . ومن المفروض على الاهالى توريد رسوم الجيوب والماشية فى هذا الحصن . وسائر الجنود تقريبا من سكان مكرىكا . ويتكون منهم جيش يتعسر وجود مثيله من حيث شكل الجسم ولياقته وهم جنود بواسل . ولقد يستطيع الثراء ان يجترى فينعتهم بالبطولة والنشاط التام . فهم يطيعون قوادهم اطاعة عمياء ويؤدون فى الوقت نفسه واجباتهم بنفطة وذكاء . وكلهم مسلحون ببنادق من طراز رمنجتون وهم يجلون هذا النوع من السلاح ويفخرون بحمله لامعا لمعانا تاما . أما كساويهم عندما يقومون بالخدمة فى المحطة فهى بذلة بيضاء وحذاء وطربوش وجعبة للظروف « الخرطوش » من جلد النمرور يتمنطقون بها فى خواصرهم ويلقون بها سنكهم ومدام . ولدى المسير يلبسون سترة قائمة وسروالا « بنطلونا » قصيرا وقلمبا ينتعلون احذية . ورجال المدفعية هم وحدهم من المصريين وحالتهم الصحية على غير ما يرام حتى الضباط فاغلبهم الآن من الاهالى .

وعلىنا ان نذكر كلمة بشأن التراجمة فنقول : ان هؤلاء اصلهم أرقاء لأولئك الرجال الذين كانوا يشتغلون فيما سلف بالانخاسة وكافتهم يتكلمون اللغة العربية ودربوا فى بادئ الأمر على حمل الاسلحة . اما الآن فيتألف منهم نوع من الشرطة الاهلية . وكل قرية من قرى الاهالى مكلفة بتموين

رجل أو أكثر من هؤلاء الرجال الذين تقع عليهم مسؤولية الأمن ومراقبة جباية الرسوم المضروبة على الجبوب ويقطن منهم نحو العشرين أو الثلاثين بجوار الحصن ومتى احتاج الأمر الى حمالين أو كان بعض الأهالى مطلوباً للشغل فى المحطة يكلف أولئك الرجال بجمع العدد اللازم . وبما أن الافريقيين يعسر عليهم المدفهم ما زالوا للآن يستعملون الطريقة التى نسخت وهى تقديم حزم من القش عددها مساو للعدد المطلوب .

وقلما تقع جناية . والصعوبة الوحيدة التى تواجهها الحكومة هى العمل فى سبيل حفظ ورعاية نظام دقيق إذ بدون ذلك يتعذر إيجاد حكومة حسنة . والواقع أن الافريقيين هم أولاد كبار فلا بد من الاستمرار على مراقبتهم مراقبة دقيقة مقرونة بالحكمة . ولا يمكن ممارسة الحرية بالكيفية التى يفهمها الانكليز من هذه الكلمة . ولا بد من الامتثال واطاعة أوامر الحكومة الخاصة بدفع الضرائب فى أوقاتها وتقديم الحمالين ونقل البريد بانتظام ومراعاة اللوائح والقوانين الأخرى . ويلزم لبلوغ هذه الغاية أن يخضع الأهالى لمراقبة الموظفين وتدخلهم تدخلاً بارزاً أكثر مما ينبغى أن يعمل فى بلاد أخرى أعظم تقدماً فى المدنية .

ويجب القيام للآن بعملية النقل بواسطة الحمالين لأنه لم يتم الى هذه الساعة ادخال طريقة العجلات التى تجرها الثيران . ومما يؤسف له ان محاولة غوردون باشا ادخال النقل على ظهور الفيلة مشل « الهند » لم تنجح . وقد قيل لى انه من المستطاع اقتناص وتدريب اثنى عشر فيلا فى عام واحد بواسطة أربعة أفيال مدربة تدريباً حسناً واثنى

عشر فيـالـا . غير أن بعض مقامات اعترضت على هذا القول بأن فيـالـة افريقية لا تصلح لهذا الغرض ومع ذلك فقد روى أنها كانت تستعمل في الأزمان الغارة بطريقة عامة .

وبصرف النظر عن المصاعب الأخرى فإن الجمالين مع كل هذا اناس ذوو عناية كبرى فلم يحدث قط مرة أنى تكدرت لكسر صندوق . نعم ضاع لى مرة طرد واحد إلا أنه جاءنى سليما بعد بضعة أيام .

ويقود كل ثلثة من الجمالين مـكـونة من ١٠ أو ٢٠ حمالا جندى حسب أهمية القافلة . وهذا الجندى مسئول عن الأحمال فيقوم بحراستها وحراسة المشاة معا . وهذه طريقة مفيدة للأوربيين لأنها تعفيهم كلية من الاهتمام بمسألة متاعهم وتمكنهم من توجيه كل أنظارهم الى التمتع بمشاهدة محاسن الطبيعة والابحاث العلمية .

أما نظام السير فهو بالطريقة الآتية وهى : تبتدىء المقدمة فى السير حاملة العلم يتقدمها ترجمان يؤدي فى الوقت نفسه وظيفة دليل ويسير خلفها الجمالون على بعد ٢٠ أو ٣٠ ياردة ويسير جندى خلف كل ١٠ أو ٢٠ رجلا . وتنقل طرود الزاد والذخيرة فى وسط القافلة بحراسة أربعة من الجنود بقيادة چاويش يحمل بندقيته شاب صغير . ثم تأتى النساء عقب جميع الجمالين يحملن الزاد والحجارة التى يسوين بها الخبز . ثم يأتى خلف الجميع المؤخرة ناشرة علمها . ويكابد الضابط المناوب فى الخدمة عناء جما فعليه أن يلقى بنفسه بين آونة وأخرى فى الحشائش العالية ويمشى من المؤخرة الى المقدمة ويستعلم من كل جندى يمر أمامه عما إذا كانت كل الأمور جارية فى مجراها الحسن وعما إذا كان كل شيء تاما فلا ينقص طـرد ولا رجل . وإذا سمع

صوت بالاستغاثة تركض المقدمة الى الذخيرة وأولئك الذين خلقها يعدون الى الامام وتفتح الصناديق وتوزع كميات اضافية من الذخيرة . أما المحالون والنسوة فينضمون داخل حلقة مكونة من الاحمال التي تكسب بشكل متراس منيع على قدر الاستطاعة . وأولئك الذين حضروا هذا المنظر لأول مرة وشاهدوا السرعة التي يتم بها أخذ هذه الاحتياطات يحكمون ان ذلك عمل مدهش . ولدى السير فى المناطق التي الأمن فيها موطد قليلا ترسل كشافة الى الامام ويمشى فى الوقت نفسه عدد من الرجال بجانبى الحملة على بعض مسافة منها .

ومن المستحيل اقناع الأهالى بالسير ليلا ومن ضمن الاسباب التي تحملهم على عدم السرى تشاؤمهم من القمر .

ومن الأمور العجيبة انى ما من مرة سرى والبدر تام إلا وأصبت بعد ذلك بحمى .

وتشتمز الأهالى كثيرا أيضا من السفر فى البكور بسبب الندى واذا اكرهوا على ذلك يعلقون على صدورهم جلودا أو غصونا من غصون الشجر حتى لا يبتلوا . والقاعدة العامة عندهم هى أنهم يأتون هذا العمل فى ساعة السفر الأولى حتى ولو كانوا لابسين ملابس لا يخرقها الماء مفضلين وهج الشمس على القر والندى .

وعند الوصول الى المكان المعين لاقامة المعسكر يجتمع المحالون وتعد الأحمال وتكسب وتوقد النساء النيران ويسرعن فى طهى الطعام ويذهب الرجال للأدغال ليحتطبوا وليجمعوا حشائش لاقامة أكواخ . ولا يستغرق

هذا العمل وقتا طويلا ففى ساعة تقريبا يتم تشييد اكواخ حسنة هذا اذا لم يكن قد ران على الرجال الكسل المفرط أو لحقهم شئ كثير من التعب والنصب .

وعندما تتوارى الشمس بالحجاب يقدم لجميع من بالقافلة طعام العشاء وتوقد النيران ليلا حول المعسكر ويرتب الحرس ولا يؤذن لأحد ان يبارح المعسكر مهما كانت الاسباب اللهم إلا اذا أخذ معه مشعلا . والغرض من هذا الاحتياط منع اللصوص أو العدو من مهاجمة المعسكر بغتة . وكل انسان يجول حول الخطوط بدون ان يكون حاملا مشعلا لعدم رميا بالرصاص فى الحال .

فلهذا هذا المنظر الغريب الذى تتبع عليه عين من يتنزه حول المعسكر ويرى الرجال متكئين على جميع الاوضاع يأكلون ويغنون ويدخنون والنساء يسهرن على النيران وطحن الحبوب وصنع الخبز !! هذا المنظر الذى يضيئه لهب النيران !!

وعندما ينفضون من الطهى والطعام يسارعون احيانا الى الرقص وبهذه الطريقة يزيجون عن قلوبهم لوعة الساعات الدامسة المدهمة ولا ينامون الا ساعتين أو ثلاث ساعات قبل الرحيل القادم . فكيف يستطيعون مقاومة مشاق السفر مع انهم لم يمنحوا انفسهم راحة إلا تلك المدة القصيرة . هذا ما حار فيه فهمى وضل فيه صوابى .

وكل حارس له نمرة خاصة فيصيحون ذا كرين نمرهم الواحد تلو الآخر بين آونة وأخرى فى مدة لا تتجاوز بضع دقائق ويصيح الصف ضابط لدى سماعه النمرة الاخيرة : « تمام » . ثم تعيد الدورية عملها واذا فات أحد الحراس دوره تمقف الدورية . والويل كل الويل للحارس الذى لا يصيح ذا كرا نمرة

عندما يأتى دوره فإنه يجلد من ١٥ الى ٢٠ جلدة فلا يعود بعد تغمض له عين أثناء الليل . اهـ

وانهدم صرح الآمال الذى بنهاه المبشران ولسن وفلكن حينما علما أن النيل خلافا لما كانا يأملان عاد فانسد فى منطقة السدود وأمسى غير مفتوح للملاحة فصار فى غير استطاعتها الرجوع بطريقه الى الخرطوم فقررا أن يسلكا فى عودتهما الطريق المار من بحر الغزال و دارفور . وعلى ذلك ودعا أمين بك فى ١٨ سبتمبر عام ١٨٧٩ آسفين جد الاسف بعد أن قدما له الشكر الجزيل لحفاوته بهما واکرام مشاوهما . وقد نالا من كرم الضيافة وعظيم الحفاوة فى جميع محطات الحكومة مثل ما لقياه فى مديرية خط الاستواء ووصلا الى الخرطوم فى ١٦ فبراير عام ١٨٨٠ .

٤ — ملحق سنة ١٨٧٩ م .
رحلة المبشر ولسن
من أوغندة الى لادو^(١)

من ١٦ يونيه الى ١٩ سبتمبر

أقنع المبشرون متيسا في مايو عام ١٨٧٩ م بأن يرسل مندوبين الى انكلترا وقد اختيرت لذلك طريق النيل وفضلت عن طريق زنبار لأنها أكثر منها أمنا . ولما كان من اللازم اخطار أمين بك فقد سافر فلكن الى مروي ليتحدث معه في هذا الصدد . وعلى ذلك شخص من رواجا الى مروي في ١٧ مايو عام ١٨٧٩ م .

وسافر ولسن هو الآخر في ١٦ يونيه ووصل الى مروي في ٥ يولييه ونزل كالمرة الأخيرة في ديوان الحكومة فوجد خطابا من فلكن يقول له فيه انه ذهب الى فويرا وأوصاه أن يخطره بوقت وصوله الى مروي وينتظر فيها الرد لأنه يأمل أن تأتيه أخبار من أمين بك . وكانت هذه المحطة قد تحسنت تحسنا كبيرا عما كانت عليه في زيارته لها قبل هذه المرة الأخيرة وأقيم فيها متراس حفر حوله خندق . وكان الضابط المعين لقيادتها فرج افندي اجوك

(١) — راجع الجزء الذي وضعه ولسن من كتاب « أوغندة والسودان المصري » الفصل العاشر .

وهو جندى من جنود سير صمويل بيكر .

وورد بعد ذلك بقليل الى ولسن خطاب آخر من فلكن يقول له فيه انه بارح فويرا ميمما فاتيكو فقرر ان يسافر هو الآخر ورحل من مرولى فى ١٦ يوليه موليا وجهه شطر فويرا بطريق النيل فدخلها فى ١٧ منه واستقبله فيها صديقه قديما احمد محمد افندى قائد هذه المحطة . وأقام فيها يومين ثم شخص منها الى فاتيكو بعد أن ودعه الضباط وداعا شيقا .

وقابل فى اليوم التالى لسفره من فويرا ثلة من الجند آتية من فاتيكو فسلمته خطابا من فلكن يقول له فيه انه سافر الى لادو بناء عن طلب أمين بك .

وفى ٢٤ يوليه بلغ فاتيكو فوصفها بأنها نقطة عسكرية تشغل مكانا حصينا فى وسط حقول مزروعة حنطة . واستقبله فيها القائد عبد الله افندى نمير وهو ضابط سودانى احسن استقبال وأكرم مشواه . وهنا زاد على ذلك بأن قال : انى فى جميع رحلاتى فى أرجاء السودان وهى رحلات يبلغ مداها عدة الالف من الأميال قوبلت بغاية التودد واللف من الموظفين المصريين من أكبرهم الى أصغرهم .

وأقام ولسن فى فاتيكو زهاء ١٥ يوما على أتم ما يكون من الغبطة والسرور وزايلها فى ٨ أغسطس ووصل فى ١٥ منه الى دوفيليه وهى محطة عسكرية كبيرة ومنها عاود السير فمر بلبوريه و موجى و كرى ومن هذه المحطة الاخيرة أبحر فى مركب ونزل والنيل فمر ببندن

وفيه انتقل بسبب الشلالات الى مركب اخرى واستمر مقلعا في النهر الى ان افضى الى الرجاف ثم الى غندوكورو ولبت فيها ساعة وبعد ذلك بلغ لادو وهي عاصمة مديرية خط الاستواء في ١٩ أغسطس فاستقبله فيها أمين بك و فلكن الذي كان سبقه اليها .

٥ — ملحق سنة ١٨٧٩ م

رحلة الطبيب جونكر الثانية في مديرية خط الاستواء

القسم الأول

من ١٦ أكتوبر الى ٣١ ديسمبر

بارح جونكر الخرطوم في ٢٨ يولييه كما ذكرنا في الملحق الثاني لعام ١٨٧٨ م قاصدا القاهرة واوربا عن طريق وادى حلفا . وأقام في أوربا لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٩ وسافر منها ثانية ووجهته مصر فالسودان ووصل الى الاسكندرية في ١٦ من الشهر المذكور .

وبعد ذلك شخص الى القاهرة حيث فرح بلقاء صديقه « شوينفورث » Schweinfurth الذى كان قد بلغها قبله بأسبوع . ولما كان يريد أن يسافر فى أقرب وقت ، كان عليه ان يقوم بأعمال كثيرة ليتمم معدات سفره وان يحصل قبل كل شئ على ترخيص من الحكومة المصرية .

وحصل بواسطة قنصله العام وهو قنصل الروس المسيو « م. فون ليكس » M. Von Lex على اذن بمقابلة الخديو توفيق وكان وقتئذ قد تولى عرش الخديوية بعد والده اسماعيل فقابله فى ٢ نوفمبر ووعد الخديو فى غضون هذه المقابلة بأن ستصدر الأوامر اللازمة لحكومة السودان إلا أنه أوعز اليه بالتريث لآخر الشهر ريثما يكون غوردون قد وصل الى القاهرة . وكان غوردون

ذلك الوقت فى مأمورية بيلاد الاحباش . وبما ان هذا كان جل مراد ونكر ايضا فقد قبل هذا الايعاز باغتباط إذ أنه كان يتمنى مقابلة هذا الموظف ل أن يرحل .

ولم يأت مع ذلك هذا الانتظار بثمرة لأن النجاشى « يوحنا » Johannès اد فطلب ثمانية غوردون باشا بعد ان وصل الى القلايات لتسوية بعض المسائل . نظرا لهذه الظروف قابل جونكر الخديو مرة أخرى فى ٢٢ نوفمبر وعرفه غيبته فى السفر فوافق الخديو على ذلك .

وبعد ان استوفى اجراءاته مع الحكومة سافر الى السويس ومنها أبحر فى ديسمبر الى سواكن فدخلها فى ٨ منه . وشخص منها فى ١٤ من الشهر لمذكور وبلغ بربر فى ٢٧ منه وأبحر من هذه فى اليوم التالى لتقدمه اليها باصدا الخرطوم فوصل اليها فى بداية العام الجديد .

وبقية هذه الرحلة مسطورة فى الملحق الأول للسنة القادمة .

